الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد العاشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فی تفسیر القرآن

کاتب:

محمد حسین طباطبایی

نشرت فی الطباعهٔ:

علامه طباطبایی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

تفسیر المیزان المجلد ۱۰

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

(۱۰)سوره یونس و هی مائه و تسع آیات(۱۰۹)

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۱ الی ۱۰]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ

الر تِلْکَ آیٰاتُ اَلْکِتٰابِ اَلْحَکِیمِ (۱) أَ کٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنٰا إِلیٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ اَلنّٰاسَ وَ بَشِّرِ اَلَّذِینَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ
صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قٰالَ اَلْکٰافِرُونَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ مُبِینٌ (۲) إِنَّ رَبَّکُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی
اَلْعَرْشِ یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِیعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (۳) إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اَللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ
یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذٰابٌ أَلِیمٌ بِمٰا کٰانُوا
یَکْفُرُونَ (۴) هُوَ اَلَّذِی جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِیٰاءً وَ اَلْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اَلسِّنِینَ وَ اَلْحِسٰابَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ ذٰلِکَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ
یُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِی اِخْتِلاٰفِ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ (۶) إِنَّ
اَلَّذِینَ لاٰ یَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا وَ رَضُوا بِالْحَیٰاةِ اَلدُّنْیٰا وَ اِطْمَأَنُّوا بِهٰا وَ اَلَّذِینَ هُمْ عَنْ آیٰاتِنٰا غٰافِلُونَ (۷) أُولٰئِکَ مَأْوٰاهُمُ اَلنّٰارُ بِمٰا کٰانُوا
یَکْسِبُونَ (۸) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُمْ بِإِیمٰانِهِمْ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهٰارُ فِی جَنّٰاتِ اَلنَّعِیمِ (۹) دَعْوٰاهُمْ
فِیهٰا سُبْحٰانَکَ اَللّٰهُمَّ وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیهٰا سَلاٰمٌ وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۱۰)

ص: ۵

(بیان)

السوره-کما یلوح من آیاتها-مکیه من السور النازله فی أوائل البعثه و قد نزلت دفعه للاتصال الظاهر بین کرائم آیاتها،و قد استثنی بعضهم قوله تعالی: «فَإِنْ کُنْتَ فِی شَکٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ فَسْئَلِ الَّذِینَ یَقْرَؤُنَ الْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکَ» إلی تمام ثلاث آیات فذکر أنها مدنیه،و بعضهم قوله تعالی:« وَ مِنْهُمْ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ یُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّکَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِینَ »فذکر أنها نزلت فی الیهود بالمدینه،و لا دلیل من جهه اللفظ علی شیء من القولین.

و غرض السوره و هو الذی أنزلت لأجل بیانه هو تأکید القول فی التوحید من طریق الإنذار و التبشیر کأنها أنزلت عقیب إنکار المشرکین الوحی النازل علی النبی ص و تسمیتهم القرآن بالسحر فرد الله سبحانه ذلک علیهم ببیان أن القرآن کتاب سماوی نازل بعلمه تعالی،و أن الذی یتضمنه من معارف التوحید کوحدانیته تعالی و علمه و قدرته و انتهاء الخلقه إلیه و عجائب سننه فی خلقه و رجوعهم جمیعا إلیه بأعمالهم التی سیجزون بها خیرا أو شرا کل ذلک مما تدل علیه آیات السماء و الأرض و یهتدی إلیه العقل السلیم فهی معان حقه و لا یدل علی مثلها إلا کلام حکیم لا سحر مزوق باطل.

ص :۶

و الدليل على ما ذكرنا افتتاح السوره بالكلام على تكذيبهم القرآن:« أَ كانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا -إلى قوله- قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هٰذا لَساحِرٌ مُبِينٌ » و اختتامها بمثل قوله:« وَ اتَّبِعْ ما يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ »الآيه ثم عوده تعالى إلى مسأله الإيحاء بالقرآن و تكذيبهم له فى تضاعيف الآيات مره بعد مره كقوله:« وَ إِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا الآيه و قوله:« وَ ما كانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّهِ» الآيه،و قوله:« يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ» الآيه،و قوله:« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ» الآيه.

فتكرر هذه الآيات و الافتتاح و الاختتام بها يدل على أن الكلام مبنى على تعقيب إنكارهم لكلام الله و تكذيبهم الوحى و لذلك كان من عمده الكلام فى هذه السوره الوعيد على مكذبى آيات الله من هذه الأمه بعذاب يقضى بين النبى ص و بينهم و أن ذلك من سنه الله فى خلقه،و على تعقيبه تختتم السوره حتى كاد يكون بيان هذه الحقيقه من مختصات هذه السوره فمن الحرى أن تعرف السوره بأنها سوره الإنذار بالقضاء العدل بين النبى و بين أمته و قد اختتمت بقوله:« وَ اصْبِرْ حَتّىٰ يَحْكُمَ اللّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ ».

قوله تعالى:« الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ »الإشاره باللفظ الدال على البعد للدلاله على ارتفاع مكانه القرآن و علو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

و الآيه-و معناها العلامه-و إن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعانى أو الأعيان الخارجيه كما فى قوله :«أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ:» الشعراء-١٩٧ و فى قوله :«وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ» :الأنبياء-٩١ و كذا ما هو من قبيل القول كما فى قوله ظاهرا: «وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ» :النحل:- ١٠١ و نحو ذلك لكن المراد بالآيات هاهنا هى أجزاء الكلام الإلهى قطعا فإن الكلام فى الوحى النازل على النبى ص و هو كلام متلو مقرو بأى معنى من المعانى صورنا نزول الوحى.

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهى و تتعين فى الجمله من جهه المقاطع التى

تفصـل الآيـات بعضـها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم و لـذلک ربما وقع الخلاف فی عـدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء کالکوفيين و البصريين و غيرهم.

و المراد بالکتاب الحکيم هو الکتاب الذی استقرت فيه الحکمه،و ربما قيل:

إن الحکيم من الفعيـل بمعنی المفعول و المراد به المحکم غير القابل للانثلام و الفساد، و الکتاب الـذی هـذا شأنه-و قـد وصـفه تعالی فی الآيه التاليه بأنه من الوحی-هو القرآن المنزل علی النبی ص.

و ربمـا قيـل:إن الکتاب الحکيم هو اللوح المحفوظ،و کون الآيات آياته هو أنها نزلت منه و هی محفوظه فيه،و هو و إن لم يخل عن وجه بـالنظر إلی أمثـال قوله تعـالی: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ:» البروج:-۲۲ و قـوله :«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِيمٌ فِی کِتٰابٍ مَکْنُونٍ:» الواقعه-۷۸ لکن الأظهر من الآيه التی نحن فيها و سائر ما فی سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتتحه بالحروف« الر »و سائر الآيات المشابهه لها أو الناظره إلی وصف القرآن أن المراد بالکتاب و بآياته هو هـذا القرآن المتلو المقرو و آياته المتلوه المقروه بمـا أنه من اللوح المحفوظ من التغيير و البطلاـن کالکتـاب المـأخوذ بوجه من الکتـاب کمـا يسـتفاد من مثل قوله تعالی :«تِلْکَ آيٰاتُ الْکِتٰابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ:» الحجر-۱،و قوله :«کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِيمٍ خَبِيرٍ:» هود:-۱،و غير ذلک.

قوله تعالی:« أَ کٰانَ لِلنّٰاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنٰا إِلیٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ »إلی آخر الآيه الاستفهام للإنکار فهو إنکار لتعجبهم من إيحاء الله إلی رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوه القرآنيه.

و قوله:« أَنْ أَنْذِرِ النّٰاسَ »إلـخ تفسير لما أوحاه إليه،و يتبين به أن الـذی ألقاه إليه من الوحی هو بالنسبه إلی عامه الناس إنـذار و بالنسـبه إلی الـذين آمنوا منهم خاصه تبشير فهو لا محاله يضـر الناس علی بعض التقادير و هو تقـدير الکفر و العصيان و ينفعهم علی تقدير الإيمان و الطاعه.

و قد فسر البشری الذی أمره أن يبشر به المؤمنين بقوله:« أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه کما يشير إليه قوله: «فِی

مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ :القمر-۵۵ فإن الإيمان لما استتبع الزلفى و المنزله عند الله كان الصدق فى الإيمان يستتبع الصدق فى المنزله التى يستتبعها فلهم منزله الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم على المنزله و المكانه من الكنايه و لما كان إشغال المكان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم فى المكان إن كان فى الماديات،و فى المكانه و المنزله إن كان فى المعنويات ثم أضيفت القدم إلى الصدق،و هو صدق صاحب القدم فى شأنه أى قدم منسوبه إلى صدق صاحبها أو قدم هى صادقه لصدق صاحبها فى شأنه.

و هناك معنى آخر و هو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما و للكذب قدما و قدم الصدق هى التى تثبت و لا تزول.

و قوله:« قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ »أى النبى ص،و قرئ:

« إن هذا لسحر مبين »أى القرآن و مآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه (ص)بالسحر من جهه القرآن الكريم.

و الجمله كالتعليل لقوله:« كَانَ لِلنّاسِ عَجَباً »يمثل به معنى تعجبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعاده المألوفه فى سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتوله إليه النفوس فقالوا:إنه لسحر مبين،و إن الجائى به لساحر مبين.

قوله تعالى:« إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّهِ أَيّٰامٍ »لما ذكر فى الآيه السابقه عجبهم من نزول الوحى و هو القرآن على النبى ص و تكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى فى بيان ما كذبوا به من الجهتين أعنى من جهه أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه و من جهه أن القرآن الذى رموه بالسحر كتاب إلهى حق و ليس من السحر الباطل فى شىء.

فقوله:« إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ »إلخ،شروع فى بيان الجهه الأولى و هى أن ما يدعوكم إليه النبى ص مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبعوه.

و المعنى:أن ربكم معاشر الناس هو الله الذى خلق هذا العالم المشهود كله

سماواته و أرضه فی سته أیام ثم استوی علی عرش قدرته و قام مقام التدبیر الذی إلیه ینتهی کل تدبیر و إداره فشرع یدبر أمر العالم،و إذا انتهی إلیه کل تدبیر من دون الاستعانه بمعین أو الاعتضاد بأعضاد لم یکن لشیء من الأشیاء أن یتوسط فی تدبیر أمر من الأمور-و هو الشفاعه-إلا من بعد إذنه تعالی فهو سبحانه هو السبب الأصلی الذی لا سبب بالأصاله دونه،و من دونه من الأسباب أسباب بتسبیبه و شفعاء من بعد إذنه.

و إذا کان کذلک کان الله تعالی هو ربکم الذی یدبر أمرکم لا غیره مما اتخذتموها أربابا من دون الله و شفعاء عنده و هو المراد بقوله:« ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ »أی هلا انتقلتم انتقالا فکریا إلی ما یستنیر به أن الله هو ربکم لا رب غیره بالتأمل فی معنی الألوهیه و الخلقه و التدبیر.

و قد تقدم الکلام فی معنی العرش و الشفاعه و الإذن و غیر ذلک فی ذیل قوله:

« إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ:» الأعراف:-۵۴ فی الجزء الثامن من الکتاب.

قوله تعالی:« إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا »تذکیر بالمعاد بعد التذکیر بالمبدإ،و قوله:« وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا »من قیام المفعول المطلق مقام فعله و المعنی:

وعده الله وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذی له أصل فی الواقع یطابق الخبر فکون وعده تعالی بالمعاد حقا معناه کون الخلقه الإلهیه بنحو لا تتم خلقه إلا برجوع الأشیاء-و من جملتها الإنسان-إلیه تعالی و ذلک کالحجر الهابط من السماء فإنه یعد بحرکته السقوط علی الأرض فإن حرکته سنخ أمر لا یتم إلا بالاقتراب التدریجی من الأرض و السقوط و الاستقرار علیها،و الأشیاء علی حال کدح إلی ربها حتی تلاقیه،قال تعالی :«یٰا أَیُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّکَ کٰادِحٌ إِلیٰ رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاٰقِیهِ:» الانشقاق:-۶ فافهم ذلک.

قوله تعالی:« إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ »إلخ تأکید لقوله:« إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً »و تفصیل لإجمال ما یتضمنه من معنی الرجوع و المعاد.

و یمکن أن یکون فی مقام التعلیل لما تقدمه من قوله:« إِلَیْهِ مَرْجِعُکُمْ إلخ

أشير به إلى حجتين من الحجج المستعمله فى القرآن لإثبات المعاد:أما قوله:« إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ »فلأن الجارى من سنه الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمده من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى إلى أجل معدود.

و ليس انتهاؤه إلى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمه الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمه فإن ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها إلى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودا منها إلى عنده و قد كانت نزلت من عنده،و ما عند الله باق فلم يكن إلا بسطا ثم قبضا فالله سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمه و يعيدها إليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله:« لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ »إلخ فإن الحجه فيه أن العدل و القسط الإلهى-و هو من صفات فعله-يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته،و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر بإذن الله.

فلا يبقى إلا أن يفرق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به أو يتألمون.

فالحجه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

« بِالْقِسْطِ هذا،و قوله:« لِيَجْزِيَ »متعلق بقوله:« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً »على ظاهر التقرير.

و يمكن أن يكون قوله:« لِيَجْزِيَ »إلخ متعلقا بقوله:« ثُمَّ يُعِيدُهُ » و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره إلى حجه واحده و هى الحجه الثانيه المذكوره، و الأقرب من جهه اللفظ هو الأخير.

قوله تعالی:« هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیٰاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً »إلی آخر الآیه، الضیاء -علی ما قیل-مصدر ضاء یضوء ضوء و ضیاء کعاذ یعوذ عوذا و عواذا، و ربما کان جمع ضوء کسیاط جمع سوط،و اللفظ-علی ما قیل-علی تقدیر مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضیاء و القمر ذا نور.

و کذلک قوله:« وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ »أی و قدر القمر ذا منازل فی مسیره ینزل کل لیله منزلا من تلک المنازل غیر ما نزله فی اللیله السابقه فلا یزال یتباعد من الشمس حتی یوافیها من الجانب الآخر،و ذلک فی شهر قمری کامل فترتسم بذلک الشهور و ترتسم بالشهور السنون،و لذلک قال:« لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسٰابَ ».

و الآیه تنبئ عن حجه من الحجج الداله علی توحده تعالی فی ربوبیته للناس و تنزهه عن الشرکاء،و المعنی أنه هو الذی جعل الشمس ضیاء تستفیدون منه فی جمیع شئون حیاتکم کما یستفید منه ما فی عالمکم الأرضی من موجود مخلوق،و کذا جعل القمر نورا یستفاد منه،و قدره ذا منازل یؤدی اختلاف منازله إلی تکون الشهور و السنین فتستفیدون من ذلک فی العلم بعدد السنین و الحساب و لم یخلق ما خلق من ذلک بما یترتب علیه من الغایات و الفوائد إلا بالحق فإنها غایات حقیقیه منتظمه تترتب علی خلقه ما خلق فلیست بلغو باطل و لا صدفه اتفاقیه.

فهو تعالی إنما خلق ذلک و رتبه علی هذا الترتیب لتدبیر شئون حیاتکم و إصلاح أمور معاشکم و معادکم فهو ربکم الذی یملک أمرکم و یدبر شأنکم لا رب سواه.

و قوله:« یُفَصِّلُ الْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ »من المحتمل أن یراد به التفصیل بحسب التکوین الخارجی أو بحسب البیان اللفظی،و لعل الأول أقرب إلی سیاق الآیه.

قوله تعالی:« إِنَّ فِی اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ وَ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ »قال فی المجمع، الاختلاف ذهاب کل واحد من الشیئین فی جهه غیر جهه الآخر فاختلاف اللیل و النهار ذهاب أحدهما فی جهه الضیاء و الآخر فی جهه الظلام،انتهی.و الظاهر أنه مأخوذ من الخلف، و الأصل فی معناه أخذ أحد الشیئین الآخر فی جهه خلفه ثم اتسع فاستعمل فی کل تغایر کائن بین شیئین.

يقال اختلفه أى جعله خلفه،و اختلف الناس فى كذا ضد اتفقوا فيه،و اختلف الناس إليه أى ترددوا بالدخول عليه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف الليل و النهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر و هو توالى الليل و النهار الراسم للأسابيع و الشهور و السنين،و إما اختلاف كل من الليل و النهار فى أغلب بقاع الأرض المسكونه فالليل و النهار يتساويان فى الاعتدال الربيعى ثم يأخذ النهار فى الزياده فى المناطق الشماليه فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ أول الصيف فيأخذ فى النقيصه حتى يبلغ الاعتدال الخريفى و هو أول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل فى الزياده على النهار إلى أول الشتاء و هو منتهى طول الليالى ثم يعود راجعا إلى التساوى حتى ينتهى إلى الاعتدال الربيعى و هو أول الربيع هذا فى المناطق الشماليه و الأمر فى المناطق الجنوبيه بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولا فى أحد الجانبين زاد الليل طولا فى الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول بالليل و النهار هو الذى يدبر أمر أهل الأرض بتسليط حراره الأشعه ثم بسط برد الظلمه و نشر الرياح و بعث الناس للحركه المعاشيه ثم جمعهم للسكن و الراحه،قال تعالى :«وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً:» النبأ:-١١.

و الاختلاف الثانى هو الذى يرسم الفصول الأربعه السنويه التى يدبر بها أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى :«وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَهِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»:

حم السجده:-١٠.

و النهار و اليوم مترادفان إلا أن فى النهار-على ما قيل-فائده اتساع الضياء و لعله لذلك لا يستعمل النهار إلا بعنايه مقابلته الليل بخلاف اليوم فإنه يستعمل فيما لا عنايه فيه بذلك كما فى مورد الإحصاء يقال:عشره أيام و عشرين يوما و هكذا، و لا يقال:عشره نهارات و عشرين نهارا و هكذا.

و الآيه تشتمل على حجه تامه على توحده تعالى فى ربوبيته فإن اختلاف الليل

و النهار و ما خلق الله فی السماوات و الأرض يحمل نظاما واحدا عاما متقنا يدبر به أمر الموجودات الأرضيه و السماويه و خاصه العالم الإنسانی تدبيرا واحدا يتصل بعض أجزائه ببعض علی أحسن ما يتصور.

و هو يكشف عن ربوبيه واحده ترب كل شیء و منه الإنسان فلا رب إلا الله سبحانه لا شريک له فی ربوبيته.

و من المحتمل أن يكون قوله:« إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ »إلخ،فی مقام التعليل لقوله فی الآيه السابقه:« يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »لمكان إن،و الأنسب علی هذا أن يكون المراد باختلاف الليل و النهار تواليهما علی الأرض دون الاختلاف بالمعنی الآخر فإن هذا المعنی من الاختلاف هو الذی يسبق إلی الذهن من قوله فی الآيه السابقه:« جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ »و هو ظاهر.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياهِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها » إلی آخر الآيتين.شروع فی بيان ما يتفرع علی الدعوه السابقه المذكوره بقوله:

« ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ »من حيث عاقبه الأمر فی استجابته و رده و طاعته و معصيته.

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال:« إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياهِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ »فوصفهم أولا بعدم رجائهم لقاءه و هو الرجوع إلی الله بالبعث يوم القيامه و قد تقدم الكلام فی وجه تسميته بلقاء الله فی مواضع من هذا الكتاب و منها ما فی تفسير آيه الرؤيه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء و بإنكاره يسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهی،و بسقوطها يبطل الوحی و النبوه و ما يتفرع عليه من الدين السماوی.

و بإنكار البعث و المعاد ينعطف هم الإنسان علی الحياه الدنيا فإن الإنسان و كذا كل موجود ذی حياه له هم فطری ضروری فی بقائه و طلب لسعاده تلك الحياه فإن كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الأخرويه معا فهو،و إن لم يذعن إلا بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقت همته الفطريه بها،و رضی بها

و سكن بسببها عن طلب الآخره،و هو المراد بقوله:« وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا ».

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله:« وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا »من لوازم الوصف الأول أعنى قوله:« لا يَرْجُونَ لِقاءَنا »و هو بمنزله المفسر بالنسبه إليه،و أن الباء فى قوله:« اِطْمَأَنُّوا بِهَا »للسببيه أى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخره.

و قوله:« وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ »فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فإن نسيان الآخره و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات الله.

و الآيه قريبه المضمون من قوله تعالى :«فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِكْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ XالآيهX:النجم-۳۰ حيث دل على أن الإعراض عن ذكر الله و هو الغفله عن آياته يوجب قصر علم الإنسان فى الحياه الدنيا و شئونها فلا يريد إلا الحياه الدنيا و هو الضلال عن سبيل الله،و قد عرف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب فى قوله :«إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ الْحِسٰابِ:» ص-۲۶.

فقد تبين أن إنكار اللقاء و نسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياه الدنيا و الاطمئنان إليها من الآخره و قصر العلم عليه و انحصار الطلب فيه،و إذ كان المدار على حقيقه الذكر و الطلب لم يكن فرق بين إنكاره و الرضى بالحياه الدنيا قولا و فعلا أو فعلا مع القول الخالى به.

و تبين أيضا أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التى يتقوم بها الدين إذ بسقوطه يسقط الأمر و النهى و الوعد و الوعيد و النبوه و الوحى و هو بطلان الدين الإلهى من رأس.

و قوله:« أُولٰئِكَ مَأْوٰاهُمُ النّٰارُ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ »بيان لجزائهم بالنار الخالده قبال أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالی:« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »إلی آخر الآیه،هذا بیان لعاقبه أمر المؤمنین و ما یثیبهم الله علی استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذکر سبحانه أنه یهدیهم بإیمانهم،و إنما یهدیهم إلی ربهم لأن الکلام فی عاقبه أمر من یرجو لقاء الله،و قد قال تعالی :«وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ:» الرعد:-۲۷.

فإنما یهدی الإیمان بإذن الله إلی الله سبحانه و کلما اهتدی المؤمنون إلی الحق أو إلی الصراط المستقیم أو غیر ذلک مما یشتمل علیه کلامه فإنما هی وسائل و مدارج تنتهی بالآخره إلیه تعالی قال تعالی :«وَ أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ:» النجم:-۴۲.

و قد وصف المؤمنین بالإیمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدایتهم إلیه إلی الإیمان وحده فإن الإیمان هو الذی یصعد بالعبد إلی مقام القرب،و لیس للعمل الصالح إلا إعانه الإیمان و إسعاده فی عمله کما قال تعالی :«يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ:» المجادله:-۱۱ حیث ذکر للرفع الإیمان و العلم و سکت عن العمل الصالح،و أوضحه منه فی الدلاله قوله تعالی :«إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ:» فاطر:-۱۰.

هذا فی الهدایه التی هی شأن الإیمان،و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فیها کما أن للعمل الطالح دخلا فی أنواع العذاب و قد ذکر تعالی فی المؤمنین قوله:

« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ »کما ذکر فی الکافرین قوله:« أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ».

و لیتنبه الباحث المتدبر أنه تعالی ذکر لهؤلاء المهتدین بإیمانهم من مسکن القرب جنات النعیم،و من نعیمها الأنهار التی تجری من تحتهم فیها،و قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی :«صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ:» الحمد:-۷ و قوله :«فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» XالآیهX:النساء:-۶۹ أن النعیم بحقیقه معناه فی القرآن الکریم هو الولایه الإلهیه،و قد خص الله أولیاءه المقربین بنوع من شراب الجنه اعتنی به فی حقهم کما قال :«إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً:» الإنسان-۶،و قال أیضا« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

نَعِيم X-إلى أن قال-X يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُوم -Xإلى أن قالX- عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ:» المطففين:-٢٨،و عليك بالتدبر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لک بعض ما أودعه الله سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفه.

قوله تعالى:« دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه-و هم الذين ليس فى قلوبهم إلا الله و لا مدبر لأمرهم غيره-أنه يطهر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشىء إلا الله و فى الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريک يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شريک فى الاسم أو فى المعنى أو نقص أو عدم،و تسبيح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولا و فعلا و لسانا و جنانا،و ما دون ذلک فإن له شوبا من الشرک،و قد قال تعالى:

« وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ:» يوسف-١٠۶.

و هؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه و هو سبحانه الخير الذى لا شر معه قال :«وَ اللَّهُ خَيْرٌ:» طه:-٧٣.

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السلام أحدا إلا بخير و سلام اللهم إلا أن يكون الذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدل الخير و السلام شرا و ضرا كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

ثم إن هذه القلوب الطاهره لا تواجه شيئا من الأشياء إلا و هى تجده و تشاهده نعمه لله سبحانه حاكيه لصفات جماله و معانى كماله واصفه لعظمته و جلاله فكلما وصفوا شيئا من الأشياء و هم يرونه نعمه من نعم الله و يشاهدون فيه جماله تعالى فى أسمائه و صفاته و لا يغفلون و لا يسهون عن ربهم فى شىء كان وصفهم لذلک الشىء وصفا منهم لربهم بالجميل من أفعاله و صفاته فيكون ثناء منهم عليه و حمدا منهم له

فليس الحمد إلا الثناء على الجميل من الفعل الاختيارى.

فهذا شأن أوليائه تعالى و هم قاطنون فى دار العمل يجتهدون فى يومهم لغد فإذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده و أدخلهم فى رحمته و أسكنهم دار كرامته أتم لهم نورهم الذى كان خصهم به فى الدنيا كما قال تعالى :«نُورُهُمْ يَسْعىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا:» التحريم-٨.

فسقاهم شرابا طهورا يطهر به سرائرهم من كل شرك جلى و خفى،و غشيهم بنور العلم و اليقين،و أجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزهوا الله و سبحوه أولا و سلموا على رفقائهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ثم حمدوا الله سبحانه و أثنوا عليه بأبلغ الحمد و أحسن الثناء.

و هذا هو الذى يقبل الانطباق عليه-و الله أعلم-قوله فى الآيتين:« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ »و فيه ذكر جنه الولايه و تطهير قلوبهم:« دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللّٰهُمَّ »و فيه تنزيهه تعالى و تسبيحه عن كل نقص و حاجه و شريك تنزيها على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم« وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلاٰمٌ »و هو توسيم اللقاء بالأمن المطلق،و لا يوجد فى غيرها من الأمن إلا اليسير النسبى« وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ »و فيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسبيحهم له و تنزيههم،و هذا آخر ما ينتهى إليه أهل الجنه فى كمال العلم.

و قد قدمنا فى تفسير قوله تعالى :«الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ:» الحمد:-٢ أن الحمد توصيف،و لا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه و خصهم بكرامه من القرب لا واسطه فيها بينهم و بينه قال تعالى:

« سُبْحانَ اللّٰهِ عَمّا يَصِفُونَ إِلاّٰ عِبٰادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ:» الصافات:-١٦٠.

و لذلك لم يحك فى كلامه حمده إلا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح و إبراهيم و محمد و داود و سليمان(ع)كقوله فيما أمر به نوحا :«فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجّٰانٰا مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ:» المؤمنون:-٢٨،و قوله حكايه عن إبراهيم :«الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ:» إبراهيم-٣٩،و قوله فيما أمر به محمدا ص

فی عده مواضع :«قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ:» النمل-۹۳،و قوله حکایه عن داود و سلیمان:

« وَ قٰالاَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ:» النمل:-۱۵.

و قد حکی سبحانه حمده عن أهل الجنه فی عده مواضع من کلامه کقوله:

« وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی هَدٰانٰا لِهٰذٰا:» الأعراف-۴۳،و قوله أیضا:« وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ:» فاطر:-۳۴،و قوله أیضا :«وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی صَدَقَنٰا وَعْدَهُ:» الزمر:-۷۴،و قوله فی هذه الآیه:« وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ ».

و الآیه تدل علی أن الله سبحانه یلحق أهل الجنه من المؤمنین بالآخره بعباده المخلصین ففیها وعد جمیل و بشاره عظیمه للمؤمنین.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن یونس بن عبد الرحمن عمن ذکره عن أبی عبد الله(ع):

فی قوله تعالی:« وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا-أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »-الآیه قال الولایه

و فی الکافی،بإسناده عن إبراهیم بن عمر الیمانی عمن ذکره عن أبی عبد الله(ع):

فی قول الله:« وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا-أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »-قال:هو رسول الله ص:

أقول:و رواه القمی فی تفسیره،مسندا و العیاشی،فی تفسیره مرسلا عن إبراهیم بن عمر عمن ذکره عنه(ع) . و الظاهر أن المراد به شفاعته(ص).

و یدل علی ذلک

ما رواه الطبرسی فی المجمع،حیث قال: قیل:قدم صدق شفاعه محمد ص: قال:و هو المروی عن أبی عبد الله(ع) .

و ما رواه فی الدر المنثور،عن ابن مردویه عن علی بن أبی طالب: فی قوله:

« قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »قال-:محمد ص شفیع لهم یوم القیامه.

و فی تفسیر العیاشی،عن زید الشحام عن أبی عبد الله(ع)قال: سألته عن التسبیح قال-:هو اسم من أسماء الله و دعوی أهل الجنه.

أقول:و مراده بالتسبيح قولنا سبحان الله و معنى اسميته دلالته على تنزيهه تعالى.

و فى الإختصاص،بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن على بن أبى طالب(ع)عن النبى ص: فى حديث طويل مع يهودى و قد سأله عن مسائل-:

قال(ص):إذا قال العبد:سبحان الله-سبح كل شىء معه ما دون العرش- فيعطى قائلها عشر أمثالها-،و إذا قال:الحمد لله-أنعم الله عليه بنعيم الدنيا-حتى يلقاه بنعيم الآخره-،و هى الكلمه التى يقولها أهل الجنه إذا دخلوها-،و الكلام ينقطع فى الدنيا ما خلا الحمد لله-،و ذلک قوله تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ .

أقول:و قوله:«و الكلام ينقطع فى الدنيا ما خلا الحمد لله»أى جميع الكلام المستعمل فى الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانيه و الكلام المستعمل فى العبادات لغرض الثواب و نحو ذلک ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلک عن هذه المقاصد الدنيويه،و لا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله و الثناء عليه بالجميل و هو كلام أهل الجنه فيها.

و قوله:و ذلک قوله:« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ »معناه أن كون التحيه يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناک إلا موافقه كل شىء و ملائمته لما يريده الإنسان فكل ما يريده فهو له فلا يستعمل هناک كلام لتحصيل غايه من الغايات على حد الكلام الدنيوى إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى فافهم ذلک.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١۴]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ اَلشَّرَّ اِسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ اَلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنٰا فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذٰا مَسَّ اَلْإِنْسٰانَ اَلضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنٰا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ مٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلاٰئِفَ فِي اَلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١۴)

(بيان)

لما ذكر سبحانه الأصلين من أصول الدعوه الحقه و هما التوحيد و المعاد و احتج عليهما من طريق العقل الفطرى ثم أخبر عن عاقبه الإيمان و الكفر بهما بحث عن سبب إمهال الناس و عدم تعجيل نزول العذاب بساحتهم مع تماديهم فى غيهم و ضلالتهم و عمههم فى طغيانهم و ما هو السبب الذى يوجب لهم ذلك فبين أن الأمر بين لا ستر عليه،و قد بينه لهم رسل الله بالبينات لكن الشيطان زين لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا و نسوا بعد ما ذكروا ثم لم يعجل الله لهم العذاب بل أمهلهم فى الدنيا إلى حين ليبتليهم و يمتحنهم فإنما الدار دار ابتلاء و امتحان.

قوله تعالى:« وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجٰالَهُمْ بِالْخَيْرِ »إلخ، تعجيل الشىء الإتيان به بسرعه و عجله و الاستعجال بالشىء طلب حصوله بسرعه و عجله، و العمه شده الحيره.

و معنى الآيه:و لو يعجل الله للناس الشر و هو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقه الدين يتحيرون فى طغيانهم أشد التحير.

ص :۲۱

و توضيحه أن الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره و نفعه أى أنه يطلب من الأسباب أن تسرع فى إنتاج ما يبتغيه و يريده فهو فى الحقيقه يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنه السبب فى ذلك بالحقيقه فهذه سنه الإنسان و هى مبنيه على الأهواء النفسانيه فإن الأسباب الواقعه ليست فى نظامها تابعه لهوى الإنسان بل العالم الإنسانى هو التابع الجارى على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطرارا أحب ذلك أو كرهه.

و لو أن السنه الإلهيه فى خلق الأشياء و الإتيان بالمسببات عقيب أسبابها اتبعت أو شابهت هذه السنه الإنسانيه المبنيه على الجهل فعجلت المسببات و الآثار عقيب أسبابها لأسرع الشر و هو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإن سببه قائم معه،و هو الكفر بعدم رجاء لقاء الله و الطغيان فى الحياه الدنيا لكنه تعالى لا يعجل الشر لهم كاستعجالهم بالخير لأن سنته مبنيه على الحكمه بخلاف سنتهم المبنيه على الجهاله فيذرهم فى طغيانهم يعمهون.

و قد بان بذلك أولا:أن فى قوله« لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ »نوعا من التضمين فقد ضمن فيه« لَقُضِيَ »معنى مثل الإنزال أو الإبلاغ و لذا عدى بإلى.

و المعنى قضى منزلا أو مبلغا إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم أجلهم مقضيا و هو كنايه عن نزول العذاب فالكلمه من الكنايه المركبه.

و ثانيا:أن فى قوله:« فَنَذَرُ الَّذِينَ »التفاتا من الغيبه إلى التكلم مع الغير، و لعل النكته فيه الإشاره إلى توسيط الأسباب فى ذلك فإن المذكور من أفعاله تعالى فى الآيه و ما بعدها كتركهم فى عمههم و كشف الضر و التزيين و الإهلاك أمور يتوسل إليها بتوسيط الأسباب،و العظماء إذا أرادوا أن يشيروا إلى دخل أعوانهم و خدمهم فى بعض أمورهم أتوا بصيغه المتكلم مع الغير.

قوله تعالى:« وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً »إلى آخر الآيه. الضر بالضم ما يمس الإنسان من الضرر فى نفسه،و قوله:« دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً »أى دعانا منبطحا لجنبه إلخ، و الظاهر أن الترديد للتعميم أى دعانا على أى حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرا على دعائه لا

ينسانا فی حال و یمکن أن یکون« لِجَنْبِهِ »إلخ،أحوالا ـ ثلاثه من الإنسان لا من فاعل دعانا و العامل فیه« مَسَّ »و المعنی إذا مس الإنسان الضر و هو منبطح أو قاعد أو قائم دعانا فی تلک الحال و هذا معنی ما ورد فی بعض المرسلات:« دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ » العلیل الذی لا یقدر أن یجلس« أَوْ قٰاعِداً »الذی لا یقدر أن یقوم« أَوْ قٰائِماً » الصحیح.

و قوله:« مَرَّ کَأَنْ لَمْ یَدْعُنٰا إِلیٰ ضُرٍّ مَسَّهُ »کنایه عن النسیان و الغفله عما کان لا یکاد ینساه.

و المعنی:و إذا مس الإنسان الضر لم یزل یدعونا لکشف ضره و أصر علی الدعاء فإذا کشفنا عنه ضره الذی مسه نسینا و ترک ذکرنا و انجذبت نفسه إلی ما کان یتمتع به من أعماله کذلک زین للمسرفین المفرطین فی التمتع بالزخارف الدنیویه أعمالهم فأورثهم نسیان جانب الربوبیه و الإعراض عن ذکر الله تعالی.

و فی الآیه بیان السبب فی تمادی منکری المعاد فی غیهم و ضلالتهم و خصوصیه سببه و هو أن هؤلاء مثلهم کمثل الإنسان یمسه الضر فیذکر ربه و یلح علیه بالدعاء لکشف ضره حتی إذا کشف عنه الضر-و لذلک کان یدعوه-مر لوجهه متوغلا فی شهواته و قد نسی ما کان یدعوه و یذکره فلم یکن ترکه لدعاء ربه بعد ذکره إلا معلولا لما زین له من عمله فأورثه النسیان بعد الذکر.

فکذلک هؤلاء المسرفون زین لهم أعمالهم فجذبتهم إلی نفسها فنسوا ربهم بعد ذکره،و قد ذکرهم الله مقامه بإرسال الرسل إلی من قبلهم بالبینات و ما کانوا لیؤمنوا و إهلاک القرون من قبلهم بظلمهم و هذه هی السنه الإلهیه یجزی القوم المجرمین.

و من هنا یظهر أن الآیه التالیه:« وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ »إلخ،متمم للبیان فی هذه الآیه:« وَ إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا إلی آخر الآیه.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِکُمْ »إلی آخر الآیه،قد ظهر معناه مما تقدم،و فی الآیه التفات فی قوله:« مِنْ قَبْلِکُمْ »من الغیبه إلی الخطاب،

و كان النكته فيه التشديد فى الإنذار لأن الإنذار و التخويف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غيره.

ثم فى قوله:« كَذٰلِكَ نَجْزِی الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ التفات آخر بتوجيه الخطاب إلى النبى ص،و النكته فيه أنه إخبار عن السنه الإلهيه فى أخذ المجرمين، و النبى ص هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم يكفروا،و هذا بخلاف قوله:« وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ »فإنه خبر تاريخى لا ضير فى تصديقهم به.

قوله تعالى:« ثُمَّ جَعَلْنٰاكُمْ خَلاٰئِفَ فِی الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »معناه ظاهر،و فيه بيان أن سنه الامتحان و الابتلاء عامه جاريه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١۵ الى ٢۵]

اشاره

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مٰا يَكُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَیَّ إِنِّی أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١۵) قُلْ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (١۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ يُفْلِحُ اَلْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اَللّٰهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اَللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مٰا كٰانَ اَلنّٰاسُ إِلاّٰ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِیَ بَيْنَهُمْ فِيمٰا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا اَلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذٰا أَذَقْنَا اَلنّٰاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِی آيٰاتِنٰا قُلِ اَللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ اَلَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِی اَلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهٰا جٰاءَتْهٰا رِيحٌ عٰاصِفٌ وَ جٰاءَهُمُ اَلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاكِرِينَ (٢٢) فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ يَبْغُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتٰاعَ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمٰا مَثَلُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا كَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ اَلْأَرْضِ مِمّٰا يَأْكُلُ اَلنّٰاسُ وَ اَلْأَنْعٰامُ حَتّٰى إِذٰا أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهٰا أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَيْهٰا أَتٰاهٰا أَمْرُنٰا لَيْلاً أَوْ نَهٰاراً فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢۴) وَ اَللّٰهُ يَدْعُوا إِلىٰ دٰارِ اَلسَّلاٰمِ وَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢۵)

ص: ٢۴

(بیان)

احتجاجات یلقنها الله سبحانه نبیه ص لیرد بها ما قالوه فی کتاب الله أو فی آلهتهم أو اقترحوه فی نزول الآیه.

قوله تعالی:« وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هٰذا أَوْ بَدِّلْهُ »هؤلاء المذکورون فی الآیه کانوا قوما وثنیین یقدسون الأصنام و یعبدونها،و من سننهم التوغل فی المظالم و الآثام و اقتراف المعاصی،و القرآن ینهی عن ذلک کله،و یدعو إلی توحید الله تعالی و رفض الشرکاء،و عباده الله مع التنزه عن الظلم و الفسق و اتباع الشهوات.

و من المعلوم أن کتابا هذا شأنه إذا تلیت آیاته علی قوم ذلک شأنهم لم یکن لیوافق ما تهواه أنفسهم بما یشتمل علیه من الدعوه المخالفه فلو قالوا:ائت بقرآن غیر هذا دل علی أنهم یقترحون قرآنا لا یشتمل علی ما یشتمل علیه هذا القرآن من الدعوه إلی رفض الشرکاء و اتقاء الفحشاء و المنکر،و إن قالوا:بدل القرآن کان مرادهم تبدیل ما یخالف آراءهم من آیاته إلی ما یوافقها حتی یقع منهم موقع القبول، و ذلک کالشاعر ینشد من شعره أو القاص یقص القصه فلا تستحسنه طباع السامعین فیقولون:ائت بغیره أو بدله،و فی ذلک تنزیل القرآن أنزل مراتب الکلام و هو لهو الحدیث الذی إنما یلقی لتلهو به نفس سامعه و تنشط به عواطفه ثم لا یستطیبه السامع فیقول:ائت بغیر هذا أو بدله.

فبذلک یظهر أن قولهم إذا تلیت علیهم آیات القرآن:« اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هٰذا » یریدون به قرآنا لا یشتمل من المعارف علی ما یتضمنه هذا القرآن بأن یترک هذا و یؤتی بذاک،و قولهم:« أَوْ بَدِّلْهُ »أن یغیر ما فیه من المعارف المخالفه لأهوائهم إلی معان یوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بین الإتیان بغیره و بین تبدیله.

فما قیل:إن الفرق بینهما أن الإتیان بغیره قد یکون معه و تبدیله لا یکون

إلا برفعه،غير سديد فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبى ص بهذا القرآن و غيره معا قطعا.

و كـذا ما ذكره بعضـهم أن قولهم:« اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ »إنما أرادوا به أن يمتحنوه بـذلك فيغروه حتى إذا أجابهم إلى ذلك كان ذلك نقضا منه لدعوى نفسه أنه كلام الله،و ذلك أنهم لما سمعوا ما بلغهم النبى ص من آيات القرآن و تلاه عليهم و تحـداهم بالإتيـان بمثله و عجزوا عن الإتيـان بمثله،و كـانوا فى ريب من كونه كلام الله،و فى ريب من كونه من النبى ص نفسه و لم يكن يفوقهم فى الفصـاحه و البلاـغه و العلم،بـل كـانوا يرونه دون كبار فصـحائهم و مصاقع خطبائهم أرادوا أن يمتحنوه بهـذا القول حتى إذا أتاهم بما سألوه كان ذلك ناقضا لأصل دعواه أنه كلام الله.

و كان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوه نفسيه فيه كانت خفيه عليهم كأسباب السحر لا بوحى.هذا.

و فيه مضافا إلى مناقضه آخره أوله أنه مـدفوع بما يلقنه الله سـبحانه من الحجه فإن السؤال الـذى لم يصـدر إلا بداعى الامتحان و الاختبار من غير داع جدى لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدى بحجه جديه و هو ظاهر.

و فى قوله:« وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا »التفـات من الخطـاب إلى الغيبه،و الظـاهر أن النكته فيه أن يكون توطئه إلى إلقـاء الأمر إلى النبى ص بقوله:« قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ »إلخ،فإن ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم و توجيهه إليه(ص).

قوله تعالى:« قُلْ مٰا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقٰاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ »إلى آخر الآيه التلقاء بكسـر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان و البيان و يستعمل ظرفا.

و الله سـبحانه على مـا أجـاب عن مقترحهم بقولهم:« اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ »فى أثنـاء كلاـمه بقوله« بَيِّنٰاتٍ »فإن الآيات إذا كانت بينات ظاهره الاستناد إلى الله سبحانه كشفت كشفا قطعيا عما يريده الله سبحانه منهم من رفض الأصنام و الاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ص من تفصيل دينه رد

سؤالهم إليهم تفصيلا بتلقين نبيه ص الحجه فى ذلك بقوله:« قُلْ مٰا يَكَونُ لِى » إلى آخر الآيات الثلاث.

فقوله:« قُلْ مٰا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ »إلخ،جواب عن قولهم:« أَوْ بَدِّلْهُ »و معناه:قل لا أملك-و ليس لى بحق-أن أبدله من عند نفسى لأنه ليس بكلامى و إنما هو وحى إلهى أمرنى ربى أن أتبعه و لا أتبع غيره،و إنما لا أخالف أمر ربى لأنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم و هو يوم لقائه.

فقوله:« مٰا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ »نفى الحق و سلب الخيره،و قوله:« إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ »فى مقام التعليل بالنسبه إلى قوله:« مٰا يَكُونُ لِى » و قوله:« إِنِّى أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى »إلخ، فى مقام التعليل بالنسبه إلى قوله:« إِنْ أَتَّبِعُ »إلخ،بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهى.

و فى قوله:« إِنِّى أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »نوع محاذاه لما فى صدر الكلام من قوله:« قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ »إلخ فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد و عدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبى ص بأمر من ربه بقوله:« إِنِّى أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »فيئول المعنى إلى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء الله لكننى لا أشك فيه فلا يمكننى إجابتكم إليه لأنى أخاف عذاب يوم اللقاء، و هو يوم عظيم.

و فى تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائده الإنذار مضافا إلى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسبه.

قوله تعالى:« قُلْ لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لاٰ أَدْرٰاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ » أدراكم به أى أعلمكم الله به،و العمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء،و إذا استعمل فى القسم كقولهم:لعمرى و لعمرك تعين الفتح.

و هذه الآيه تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم و هو قولهم:« اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا »و معناها على ما يساعد عليه السياق:أن الأمر فيه إلى مشيه الله لا إلى

مشیتی فإنما أنا رسول و لو شاء الله أن ینزل قرآنا غیر هـذا و لم یشأ هذا القرآن ما تلوته علیکم و لا أدراکم به فإنی مکثت فیکم عمرا من قبـل نزول القرآن و عشت بینکم و عاشـرتکم و عاشـرتمونی و خـالطتکم و خالطتمونی فوجـدتمونی لا خبر عنـدی من وحی القرآن،و لو کـان ذلـک إلی و بیـدی لبـادرت إلیه قبـل ذلـک،و بـدت من ذلک آثار و لاحت لوائحه،فلیس إلی من الأمر شیء،و إنما الأمر فی ذلک إلی مشیه الله و قد تعلقت مشیته بهذا القرآن لا غیره أ فلا تعقلون؟.

قوله تعالی:« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیٰاتِهِ إِنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ »استفهام إنکاری أی لا أحد أظلم و أشد إجراما من هذین الفریقین:

المفتری علی الله کذبا،و المکذب بآیاته فإن الظلم یعظم بعظمه من یتعلق به و إذا اختص بجنب الله کان أشد الظلم.

و ظاهر سیاق الاحتجاج فی الآیتین أن هذه الآیه من تمامها و المعنی:لا أجیبکم إلی ما اقترحتم علی من الإتیان بقرآن غیر هذا أو تبـدیله فـإن ذلـک لیس إلی و لا لی حق فیه،و لو أجبتکم إلیه لکنت أظلم الناس و أشـدهم إجراما و لا یفلـح المجرمون فإنی لو بـدلت القرآن و غیرت بعض مواضـعه مما لا ترتضونه لکنت مفتریا علی الله کذبا و لا أظلم منه،و لو ترکت هذا القرآن و جئتکم بغیره مما ترتضونه لکنت مکذبا لآیات الله،و لا أظلم منه.

و ربما احتمل کون الاستفهام الإنکاری بشقیه تعریضا للمشرکین أی أنتم أظلم الناس بإثباتکم لله شرکاء و هو افتراء الکذب علی الله و بتکذیبکم بنبوتی و الآیات النازله علی و هو تکذیب بآیات الله و لا یفلح المجرمون.

و ذکر بعضـهم أن الأـول من شـقی التردیـد للنبی علی تقـدیر إجـابتهم و الثانی للمشـرکین،أی لا أحـد أظلم عنـد الله من هـذین الفریقین:المفترین علی الله و المکـذبین بآیـاته،و أنـا أنعی علیکم الثانی منهما فکیف أرضـی لنفسـی بالأول و هو شـر منه؟ و أی فائده لی من هذا الاجرام العظیم و أنا أرید الإصلاح؟.

و الذی ذکره من المعنی لا بأس به فی نفسه لکن الشأن فی استفادته من الآیه

و دلاله لفظها عليه،و كذا الوجه السابق عليه بالنظر إلى السياق.

قوله تعالى:« وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللَّهِ »إلى آخر الآيه الكلام:موجه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه،و ذلك لمكان« مٰا » و كون السوره مكيه من أوائل ما نزل على النبى ص من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها إلى أربابها و بأربابها إلى رب الأرباب و هو الله سبحانه،و يقولون:«إننا على ما بنا من ألواث البشريه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا إلى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحب خلائقه إليه و هم أرباب الأصنام الذين فوض الله إليهم أمر تدبير خلقه،و نتقرب إليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه،و الشفاعه لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع فى الكلام قوله:« مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ »موضع الأصنام للتلويح إلى موضع خطئهم فى مزعمتهم،و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضاره نافعه فى الأمور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع أو يشفع أربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضى شفاعتهم و هؤلاء أجسام ميته لا تشعر بشىء و لا تضر و لا تنفع شيئا.

و قد أمر الله سبحانه نبيه ص أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعه-مضافا إلى ما يلوح إليه قوله:« لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ »-بقوله:« قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ »و محصله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء فى شىء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم،و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره،و كيف يكون فى الوجود شىء لا يعلم به الله و هو يعلم ما فى السماوات و الأرض؟.

فالاستفهام إنکاری،و نفی العلم بوجود الشفعاء کنایه عن نفی وجودها، و لعل اختیار هذا التعبیر لکون الشفاعه مما یتقوم بالعلم لذاته فإن الشفاعه إنما تتحقق إذا کان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا یعلم بالشفعاء فکیف تتحقق الشفاعه عنده و هو لا یعلم.

و قوله:« سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمّا یُشْرِکُونَ »کلمه تنزیه،و هی من کلام الله و لیست مقوله قول النبی ص فإن ظرف المشرکین بالنسبه إلیه هو الخطاب دون الغیبه فلو کان من کلام النبی ص لقیل:عما تشرکون بالخطاب.

قوله تعالی:« وَ ما کانَ النّاسُ إِلاّ أُمَّهً واحِدَهً فَاخْتَلَفُوا »قد تقدم فی تفسیر قوله تعالی :«کانَ النّاسُ أُمَّهً واحِدَهً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِیهِ إِلاَّ الَّذِینَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَیِّناتُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ:» البقره:-۲۱۳ أن الآیه تکشف عن نوعین من الاختلاف بین الناس.

أحدهما:الاختلاف من حیث المعاش و هو الذی یرجع إلی الدعاوی و ینقسم به الناس إلی مدع و مدعی علیه و ظالم و مظلوم و متعد و متعدی علیه و آخذ بحقه و ضائع حقه،و هذا هو الذی رفعه الله سبحانه بوضع الدین و بعث النبیین و إنزال الکتاب معهم لیحکم بین الناس فیما اختلفوا فیه،و یعلمهم معارف الدین و یواجههم بالإنذار و التبشیر.

و ثانیهما:الاختلاف فی نفس الدین و ما تضمنه الکتاب الإلهی من المعارف الحقه من الأصول و الفروع،و قد صرح القرآن فی مواضع من آیاته أن هذا النوع من الاختلاف ینتهی إلی علماء الکتاب بغیا بینهم،و لیس مما یقتضیه طباع الإنسان کالقسم الأول،و بذلک ینقسم الطریق إلی طریقی الهدایه و الضلال فهدی الله الذین آمنوا لما اختلفوا فیه من الحق،و قد ذکر سبحانه فی مواضع من کلامه بعد ذکر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من الله سبق لحکم بینهم فیما اختلفوا فیه و لکن یؤخرهم إلی أجل،قال تعالی :«وَ ما تَفَرَّقُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً

بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ:» الشورى:-۱۴ إلى غير ذلک من الآيات.

و سياق الآيه السابقه أعنى قوله تعالى:« وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ »إلخ،لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثانى و هو الاختلاف فى نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم و لا ينفعهم و اتخاذهم شفعاء عند الله و مقتضى ذلک أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمه واحده كونهم على دين واحد و هو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد و مشرک.

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضى أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل و فيه هلاک المبطلين و إنجاء المحقين لكن السابق من الكلمه الإلهيه منعت من القضاء بينهم،و الكلمه هى قوله تعالى لما أهبط الإنسان إلى الدنيا :«وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ:» البقره:-۳۶.

و للمفسرين فى الآيه أقوال عجيبه منها:أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حق و هو دين إبراهيم(ع)إلى زمن عمرو بن لحى الذى زوج بينهم الوثنيه فانقسموا إلى حنفاء مسلمين،و عبده أصنام مشركين و أنت خبير أنه لا دليل عليه من جهه اللفظ البته.

و منها:أن المراد بالناس جميعهم،و المراد من كونهم أمه واحده كونهم على فطره الإسلام و إن كانوا مختلفين دائما،فلفظه« كٰانَ »منسلخ الزمان،و الآيه تحكى عما عليه الناس بحسب الطبع و هو التوحيد،و ما هم عليه بحسب الفعليه و هو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطرى إلا أمه واحده موحدين لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم.

و فيه أنه خلاف ظاهر الآيه و الآيه التى فى سوره البقره،و كذا ظاهر سائر الآيات كقوله :«وَ مٰا تَفَرَّقُوا إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ:» الشورى:-۱۴ و قوله :«وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ:» آل عمران:-۱۹.

على أن القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه إلى الفطره مما لا يجتمعان.

و منها:أن المراد أن الناس جميعا كانوا على مله واحده هى الكفر و الشرك ثم اختلفوا فكان مسلم و كافر.

و هذا أسخف الأقوال فى الآيه فإنه مضافا إلى كونه قولا بغير دليل يأباه ظاهر الآيات فإن ظاهرها أن ظهور الاختلاف لانتهائه إلى بغى الناس من بعد ما جاءهم العلم أى ظهور الكفر و الشرك عن بغى كان هو المقتضى للحكم بينهم و القضاء عليهم بنزول العذاب و الهلاك فإذا كانوا جميعا على الكفر و الشرك من غير سابقه هدى و إيمان فما معنى استناد الاقتضاء إلى البغى عن علم؟و ما معنى خلق الجميع و وجود المقتضى لإهلاكهم جميعا إلا انتقاض الغرض الإلهى؟.

و هذا القول أشبه بما قالته النصارى فى مسأله التفديه إن الله خلق الإنسان ليطعمه فيسكنه الجنه دائما لكنه عصاه و نقض بذلك غرض الخلقه فتداركه الله بتفديه المسيح.

و منها:قول بعضهم:إن المراد بالكلمه فى قوله:« وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ »إلخ قوله تعالى فهذه السوره :«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ:» الآيه-٩٣.

و فيه:أن المراد بالسبق إن كان هو السبق بحسب البيان فالآيه متأخره عن هذه الآيه لوقوعها فى أواخر السوره،و الآيات متصله جاريه.على أن الآيه فى بنى إسرائيل خاصه و الضمير فى قوله:« بَيْنَهُمْ »راجع إليهم و هى قوله :«وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ:» يونس-٩٣.

على أن قوله فى بعض الآيات :«وَ لَوْ لاٰ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ:» الشورى:-١۴ لا يلائم هذا المعنى من السبق.

ص :٣٣

و إن كـان المراد بالسـبق السـبق بحسب القضاء فينبغى أن يتبع فى ذلك أول كلمه قالها الله تعالى فى ضـلال الناس و شـركهم و معصيتهم،و ليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الإنسان الأرض و هو ما قدمناه من الآيه.

قوله تعـالى:« وَ يَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »الآـيه كقوله قبلها:« وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »و قوله قبله:

« وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا »تعـد أمورا من مظـالم المشـركين فى أقوالهم و أعمـالهم ثم ترد عليهـا بحجـج تلقنها النبى ص ليقيمها عليهم كما مر فى أول الآيات فقوله:« وَ يَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ »إلخ،عطف على قوله فى أول الآيات:« وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا ».

و فيها مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم:

« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ »و إن كـان طلب آيه أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء و تحقيرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عده آيه إلهيه و الدليل عليه قوله تعالى:« فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّٰهِ »و لم يقل:«قل»كما قال فى سائر الآيات كأنه يقول:

و يطلبون منـك آيه أخرى غير مكتفين بـالقرآن و لا راضـين به فإذا لم يكتفوا به آيه فقل:إنما الآيات من الغيب المختص بالله و ليست بيدى فانتظروا إنى معكم من المنتظرين.

فهـذا هو المسـتفاد من الآـيه و فيها دلاله على أن النبى ص كان ينتظر آيه فاصـله بين الحق و الباطل غير القرآن قاضـيه بينه و بين أمته،و سـيجىء الوعـد الصـريح منه بهـذه الآيه-التى يأمر بانتظارها هاهنا-فى قوله :«وَ إِمّٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ:» يونس:-۴۶ إلى تمام عده آيات.

قوله تعـالى:« وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ إِذٰا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيٰاتِنٰا »إلى آخر الآيه مضـمون الآيه و إن كان من المعانى العامه الجاريه فى أغلب الناس فى أكثر الأوقات فإن الفرد من الإنسان لا يخلو عن أن يمسه سـراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر فى حقه ذلك لكن الآيه من جهه السـياق المتقدم كأنها مسوقه للتعريض للمشركين و مكرهم فى آيات الله،و الدليل عليه قوله:« قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً »فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات

حیث کانوا یمکرون بآیات السراء و الضراء بعد ظهورها،و من مکرهم مکرهم فی القرآن الذی هو آیه إلهیه و رحمه أذاقهم الله إیاها بعد ضراء الجهاله العالقه بهم و شمول ضنک العیش و الذله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم یمکرون به فتاره یقولون« اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَیْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ »و تاره یقولون:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ مِنْ رَبِّهِ ».

فالآیه تبین لهم أن هذا کله مکر یمکرونه فی آیات الله،و تبین لهم أن المکر بآیات الله لا یعقب إلا السوء من غیر أن ینفعهم شیئا فإن الله أسرع مکرا یأخذهم مکره قبل أن یأخذ مکرهم آیاته فإن مکرهم بآیات الله عین مکر الله بهم.

فمعنی الآیه:« وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ »عبر عن الإصابه بالإذاقه للإیماء إلی التذاذهم بالرحمه و عنایه بالقله فإن الذوق یستعمل فی القلیل من التغذی« رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ »و التعبیر بالرحمه فی موضع السراء للإشاره إلی أنها من الرحمه الإلهیه من غیر أن یستوجبوا ذلک فکان من الواجب علیهم أن یقوموا بحقه،و یخضعوا لما تدعو إلیه الآیه و هو توحید ربهم و شکر نعمته لکنهم یفاجئون بغیر ذلک« إِذٰا لَهُمْ مَکْرٌ فِی آیٰاتِنٰا »کتوجیه الحوادث بما تبطل به دلاله الآیات کقولهم قد مس آباءنا السراء و الضراء،و الاعتذار بما لا یرتضیه الله کقولهم:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَهٌ »و قولهم:

« إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا ».

فأمر الله نبیه ص أن یجیبهم بقوله:« قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَکْراً »ثم علله بقوله:« إِنَّ رُسُلَنٰا یَکْتُبُونَ مٰا تَمْکُرُونَ »فلنا علیکم شهداء رقباء أرسلناهم إلیکم یکتبون أعمالکم و یحفظونها و بمجرد،ما عملتم عملا حفظ علیکم و تعین جزاؤه لکم قبل أن یؤثر مکرکم أثره أو لا یؤثر کما فسروه.

و هنا شیء و هو أن الظاهر من قوله تعالی :«هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ:» الجاثیه:-۲۹ علی ما سیجیء من البیان فی تفسیر الآیه إن شاء الله تعالی أن معنی کتابه الملائکه أعمال العباد هو إخراجهم الأعمال من کمون الاستعدادات إلی مرحله الفعلیه الخارجیه و رسم نفس الأعمال فی صحیفه الکون و بذلک تنجلی علیه کتابه الرسل لأعمالهم لکونه تعالی أسرع مکرا تمام الانجلاء فإن حقیقه المعنی علی هذا:أنا نحن نخرج أعمالکم التی تمکرون بها من

داخل ذواتكم و نضعها فی الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك؟و هل المكر إلا صرف الغير عما يقصده بحيله و ستر عليه بـل ذاك الـذى تزعمونه مكرا بنـا مكر منـا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرا و تقـدمون على المكر بنا،و هـذه المزعمه و الإقدام ضـلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته أيديكم، و سيأتی نظير هذا المعنى فی قوله :«يا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ» الآيه :-٢٣ من السوره.

و فی الآـيه التفات من الغيبه إلى الخطاب فی قوله :«إِنَّ رُسُـلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ »على قراءه تمكرون بتاء الخطاب و هی القراءه المشـهوره و هـو من عجيب الالتفـات الواقع فی القرآن و لعـل النكته فيه تمثيـل معنى قوله:« قُـلِ اللّهُ أَسْـرَعُ مَكْراً »فی العين كـأنه تعالى لما قال لنبيه(ص):« قُلِ اللّهُ أَسْـرَعُ مَكْراً »أراد أن يوضـحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلمهم و أوضح لهم السـبب فی كونه أسرع مكرا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا إلى غيبتهم و عاد الكلام إلى حاله،و خوطب النبی ص ببقيه الخطاب:« هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ »إلخ،و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى:« هُوَ الَّذِی يُسَـيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتّى إِذا كُنْتُمْ فِی الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ »إلى آخر الآيه، الفلك السـفينه و تسـتعمل مفردا و جمعا،و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله:« وَ جَرَيْنَ بِهِمْ »و الريح العاصف :الشديده الهبوب،و قوله:

« أُحِيـطَ بِهِمْ »كنايه عن الإشـراف على الهلاک و تقـديره أحاط بهم البلاء أو الأمواج، و الإشاره بقوله:« مِنْ هـٰذِهِ »إلى الشـده. و معنى الآيه ظاهر.

و فيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب إلى الغيبه فی قوله:« وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَهٍ- إلى قوله- بِغَيْرِ الْحَقِّ »و لعل النكته فيه إرجـاعهم إلى الغيبه و تـوجيه الخطـاب إلى النـبی ص و وصـف أعجب جزء من هـذه القصه الموصوفه له ليسـمعه و يتعجب منه،و يكون فيه مع ذلک إعراض عن الأمر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول.

قوله تعالى:« فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »أصل البغی

هو الطلب و يكثر استعماله فی مورد الظلم لكونه طلبا لحق الغير بالتعدی عليه و يقيد حينئذ بغير الحق،و لو كان بمعنى الظلم محضا لكان القيد زائدا.

و الجمله من تتمه الآيه السابقه،و المجموع أعنی قوله:« هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ -إلى قوله- بِغَيْرِ الْحَقِّ »بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه إلى عموم قوله قبله:

« وَ إِذٰا أَذَقْنَا النّٰاسَ رَحْمَهً مِنْ بَعْدِ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُمْ »إلى آخر الآيه،أو لخصوص قوله:

« قُلِ اللّٰهُ أَسْرَعُ مَكْراً »و على أی حال فقوله:« يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ » إلخ،مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام فی الآيه السابقه و إن لم يكن من كلام النبی ص فافهم ذلك.

قوله تعالى:« يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْيُكُمْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتٰاعَ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُكُمْ »إلى آخر الآيه،فی الكلام التفات من الغيبه إلى الخطاب فقوله:« يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ »إلخ،خطاب منه تعالى للناس بلا واسطه،و ليس من كلام النبی(ع)مما أمره الله سبحانه أن يخاطب به الناس.

و الدليل على ذلك قوله تعالى« ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُكُمْ »إلى آخر الآيه، فإنه لا يصلح أن يكون من خطاب النبی ص.

و النكته فی هذا الالتفات هی نظير النكته التی قدمنا ذكرها فی قوله تعالى فی أول الكلام:« إِنَّ رُسُلَنٰا يَكْتُبُونَ مٰا تَمْكُرُونَ »فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النبی ص و هم يحسبون أن ربهم غائب عنهم غافل عن نياتهم و مقاصدهم فی أعمالهم فيشرف عليهم و يمثل بذلك كونه معهم فی جميع أحوالهم و إحاطته بهم و يقول لهم:أنا أقرب إليكم و إلى أعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبتغوا علينا و تمكروا بنا إنما توجد بتقديرنا و تجری بأيدينا فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا؟بل هی بغی منكم على أنفسكم فإنها تبعدكم منا و تكتب آثامها فی صحائف أعمالكم فبغيكم على أنفسكم و هو متاع الحياه الدنيا تتمتعون به أياما قلائل ثم إلينا مرجعكم فنخبركم و نوضح لكم هناك حقائق أعمالكم.

و قوله:« مَتٰاعَ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا »بالنصب فی قراءه حفص عن عاصم و التقدير:

تتمتعون متاع الحياه الدنيا،و بالرفع فی قراءه غیره و هو خبر لمبتدإ محذوف،و التقدیر هو أی بغیکم و عملکم متاع الحیاه الدنیا.

و علی کلتا القراءتین فقوله:« مَتاعَ الْحَیاهِ الدُّنْیا »إلی آخر الآیه،تفصیل لإجمال قوله:« إِنَّما بَغْیُکُمْ عَلی أَنْفُسِکُمْ »فقوله« مَتاعَ »إلخ،فی مقام التعلیل بالنسبه إلی کون بغیهم علی أنفسهم من قبیل تعلیل الإجمال بالتفصیل و بیانه به.

قوله تعالی:« إِنَّما مَثَلُ الْحَیاهِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ »إلی آخر الآیه،لما ذکر سبحانه فی الآیه السابقه متاع الحیاه الدنیا مثل له بهذا المثل یصف فیه من حقیقه أمره ما یعتبر به المعتبرون، و هو من الاستعاره التمثیلیه و لیس من تشبیه المفرد بالمفرد من شیء و إن أوهم ذلک قوله:« کَماءٍ أَنْزَلْناهُ » ابتداء،و نظائره شائعه فی أمثال القرآن،و الزخرف الزینه و البهجه،و قوله:

« لَمْ تَغْنَ »من غنی فی المکان إذا أقام فیه فأطال المقام،و الباقی ظاهر.

قوله تعالی:« وَ اللّهُ یَدْعُوا إِلی دارِ السَّلامِ وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ » الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو إلی ما یدعی إلیه و جلب توجهه و هو أعم من النداء فإن النداء یختص بباب اللفظ و الصوت،و الدعاء یکون باللفظ و الإشاره و غیرهما، و النداء إنما یکون بالجهر و لا یقید به الدعاء.

و الدعاء فی الله سبحانه تکوینی و هو إیجاد ما یریده لشیء کأنه یدعوه إلی ما یریده،قال تعالی :«یَوْمَ یَدْعُوکُمْ فَتَسْتَجِیبُونَ بِحَمْدِهِ» :إسراء:-۵۲ أی یدعوکم إلی الحیاه الأخرویه فتستجیبون إلی قبولها،و تشریعی و هو تکلیف الناس بما یریده من دین بلسان آیاته،و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنایته إلی نفسه بنصب نفسه فی مقام العبودیه و المملوکیه،و لذا کانت العباده فی الحقیقه دعاء لأن العبد ینصب فیها نفسه فی مقام المملوکیه و الاتصال بمولاه بالتبعیه و الذله لیعطفه بمولویته و ربوبیته إلی نفسه و هو الدعاء.

و إلی ذلک یشیر قوله تعالی :«وَ قالَ رَبُّکُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ :المؤمن-۶۰ حيث عبر أولا بالدعاء ثم بدله ثانيا العباده.

و قد التبس الأمر على صاحب المنار فقال فى تفسيره:إن قول بعض المفسرين و غيرهم:إن من معانى الدعاء العباده لا يصح على إطلاقه فى العباده الشرعيه التكليفيه فإن الصيام لا يسمى دعاء لغه و لا شرعا و إنما الدعاء هو مخ العباده الفطريه و أعظم أركان التكليفيه منها كما ورد فى الحديث فكل دعاء شرعى عباده و ما كل عباده شرعيه دعاء.انتهى و منشأ خطئه زعمه أن معنى الدعاء هو النداء للطلب و غفلته عما تقدم من تحليل معناه.

و الأصل فى معنى السلام على ما ذكره الراغب فى المفردات،هو التعرى عن الآفات الظاهره و الباطنه،و إليه يرجع معناه فى جميع مشتقاته،و السلام و السلامه واحد كالرضاع و الرضاعه،و الظاهر أن السلام و الأمن متقاربان معنى،و إنما الفارق أن السلام هو الأمن مأخوذا فى نفسه،و الأمن هو السلام مضافا إلى ما يسلم منه يقال:هو فى سلام،و هو فى أمن من كذا و كذا.

و السلام من أسمائه تعالى لأن ذاته المتعاليه نفس الخير الذى لا شر فيه، و تسمى الجنه دار السلام حيث لا شر فيها و لا ضر على ساكنها،و قيل:إنما سميت دار السلام لأنها دار الله الذى هو السلام،و المال واحد فى الحقيقه لأنه تعالى إنما سمى سلاما لبراءته من كل شر و سوء،و فى سياق الآيه ما يشعر بكون معنى السلام الوصفى مقصودا فى الكلام.

و قد أطلق سبحانه السلام و لم يقيده بشىء و لا ورد فى كلامه ما يقيده ببعض الحيثيات فهو دار السلام على الإطلاق و ليست إلا الجنه فإن ما يوجد عندنا فى الدنيا من السلام إنما هو الإضافى دون المطلق فما من شىء إلا و هو مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه و يهواه،و ما من حال إلا و فيه مقارنات من الأضداد و الأنداد.

فإذا أخذت معنى السلام مطلقا غير نسبى تحصل عندك ما عليه الجنه من الوصف،و انكشف أن توصيفها بهذه الصفه نظير توصيفها فى قوله :«لَهُمْ ما يَشاؤُنَ

فِيهٰا :ق-٣۵،فإن سلامه الإنسان من كل ما يكرهه و لا يحبه تلازم سلطانه على كل ما يشاؤه و يحبه.

و فى تقييد دار السلام بكونها عند ربهم دلاله على قرب الحضور و عدم غفلتهم عنه سبحانه هناك أصلا،و قد تقدم الكلام فى معنى الهدايه و معنى الصراط المستقيم فى مواضع من الأبحاث السابقه كتفسير سوره الحمد و غيره.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى، ": فى قوله تعالى:« قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنَا-اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا -الآيه،قال فإن قريشا قالت-:يا رسول الله ائتنا بقرآن غير هذا-فإن هذا شىء تعلمته من اليهود و النصارى-،قال الله:قل لهم-:لو شاء الله ما تلوته عليكم- و لا أدراكم به فقد لبثت فيكم أربعين سنه-قبل أن يوحى إلى،و لم أتكلم بشىء منه- حتى أوحى إلى.

أقول:و فى انطباق مضمونه على الآيه خفاء،على ما فيه من مخاطبتهم النبى ص بالرساله.

و فى تفسير العياشى،عن منصور بن حازم عن أبى عبد الله(ص)قال *لم يزل رسول الله ص يقول:إنى أخاف-إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم حتى نزلت سوره الفتح-فلم يعد إلى ذلك الكلام.

أقول:و الروايه لا تخلو عن شىء.

و فى الدر المنثور،أخرج البيهقى فى الدلائل عن عروه قال": فر عكرمه بن أبى جهل يوم الفتح-فركب البحر فأخذته الريح فنادى باللات و العزى-،فقال أصحاب السفينه:-لا يجوز هاهنا أحد يدعو شيئا إلا الله وحده مخلصا،-فقال عكرمه:

و الله لئن كان فى البحر وحده-إنه لفى البر وحده،فأسلم.

أقول:و الروایه مرویه بطرق کثیره مختلفه.

و فی تفسیر العیاشی،عن منصور بن یونس عن أبی عبد الله(ع): *ثلاث یرجعن علی صاحبهن-:النکث و البغی و المکر،قال الله-: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ .

أقول:

و هو مروی عن أنس عن النبی ص قال: ثلاث هن رواجع علی أهلها-:النکث و المکر و البغی.ثم تلا رسول الله ص-:« یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنَّمٰا بَغْیُکُمْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ »-« وَ لاٰ یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ »-« فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّمٰا یَنْکُثُ عَلیٰ نَفْسِهِ »:أورده فی الدر المنثور،

و فی الدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی الحلیه عن أبی جعفر محمد بن علی قال:

ما من عباده أفضل من أن تسأل-،و ما یدفع القضاء إلا الدعاء-،و إن أسرع الخیر ثوابا البر-،و أسرع الشر عقوبه البغی-و کفی بالمرء عیبا-أن یبصر من الناس ما یعمی علیه من نفسه-،و أن یأمر الناس بما لا یستطیع التحول عنه-،و أن یؤذی جلیسه بما لا یعنیه.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن ابن عباس قال:قال رسول الله ص: لو بغی جبل علی جبل لدک الباغی منهما.

و فی تفسیر البرهان،عن ابن بابویه بإسناده عن العلاء بن عبد الکریم قال:

سمعت أبا جعفر(ع)یقول: فی قول الله عز و جل:« وَ اللّٰهُ یَدْعُوا إِلیٰ دٰارِ السَّلاٰمِ »- فقال إن السلام هو الله عز و جل-و داره التی خلقها لأولیائه الجنه.

و فیه،عن ابن شهرآشوب عن علی بن عبد الله بن عباس عن أبیه و زید بن علی بن الحسین(ع): فی قوله تعالی:« وَ اللّٰهُ یَدْعُوا إِلیٰ دٰارِ السَّلاٰمِ »-یعنی به الجنه « وَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ »-یعنی ولایه علی بن أبی طالب.

أقول:إن کانت الروایه موقوفه فهی من الجری أو من الباطن من معنی القرآن،و فی معناها روایات أخر.

ص :۴۱

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢۶ الى ٣٠]

اشاره

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا اَلْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٢۶) وَ اَلَّذِينَ كَسَبُوا اَلسَّيِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَيِّئَهٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مٰا لَهُمْ مِنَ اَللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ كَأَنَّمٰا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اَللَّيْلِ مُظْلِماً أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ (٢٩) هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اَللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ اَلْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

(بيان)

استئناف يعود فيه إلى ذكر جزاء الأعمال و عود الجميع إلى الله الحق،و قد تقدم إيماء إلى ذلك،و فيه إثبات توحيد الربوبيه.

قوله تعالى:« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ وَ زِيٰادَةٌ وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ »إلخ،الحسنى مؤنث أحسن و المراد المثوبه الحسنى،و المراد بالزياده الزياده على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا للعامل فى مثل قوله :«لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ :آل عمران-١٩٩ ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما فى قوله:« مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ

ص: ۴٢

أَمْثالِها» :الأنعام-١۶٠ و عند ذلک کان مفاد قوله:« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ »استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنی،و تکون الزیاده هی الزیاده علی مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظیر ما یفیده قوله :«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» :النساء:-١٧٣.

و لو کان المراد بالحسنی فی قوله:« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ »العاقبه الحسنی، و لیس فیما یعقل فوق الحسنی شیء کان معنی قوله:« وَ زِيٰادَةٌ »الزیاده علی ما یعقله الإنسان من الفضل الإلهی کما یشیر إلیه قوله :«فَلاٰ تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» :الم السجده-١٧ و ما فی قوله :«لَهُمْ مٰا يَشٰاؤُنَ فِيهٰا وَ لَدَيْنٰا مَزِيدٌ» :ق-٣۵ فإن من المعلوم أن کل أمر حسن یشاؤه الإنسان فالمزید علی ما یشاؤه أمر فوق ما یدرکه فافهم ذلک.

و الرهق بفتحتین اللحوق و الغشیان یقال:رهقه الدین أی لحق به و غشیه، و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود،و فی توصیفهم بقوله:« وَ لاٰ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لاٰ ذِلَّةٌ »محاذاه لما فی الآیه التالیه من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر و هو سواد صوری و الذله و هی سواد معنوی.

و المعنی:للذین أحسنوا فی الدنیا المثوبه الحسنی و زیاده من فضل الله-أو العاقبه الحسنی و زیاده لا تخطر ببالهم-و لا یغشی وجوههم سواد من قتر و لا ذله، و أولئک أصحاب الجنه هم فیها خالدون.

قوله تعالی:« وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئٰاتِ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهٰا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ »إلی آخر الآیه،جمله« جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهٰا »مبتدأ لخبر محذوف و التقدیر:لهم جزاء سیئه بمثلها من العذاب،و الجمله خبر للمبتدإ الذی هو قوله:« اَلَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئٰاتِ » و المراد أن الذین کسبوا السیئات لا یجزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السیئه فجزاء فعله سیئه عقوبه سیئه.

و قوله:« مٰا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ »أی ما لهم عاصم یعصمهم من الله أی من عذابه و فیه نفی لشرکائهم الذین یظنونهم شفعاء علی وجه ینفی کل عاصم مانع سواء کان شریکا شفیعا أو ضدا قویا ممانعا أو أی عاصم غیرهما.

ص :۴٣

و قوله:« كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً »القطع جمع قطعه و مظلما حال من الليل،و المراد كان الليل المظلم قسم إلى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام،و المتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعه من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض.فليس فى الكلام ما يدل على ذلك.

و قوله:« أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »يدل على دوام بقائهم فى النار للدلاله الصحابه و الخلود عليه كما أن نظيره فى أصحاب الجنه يدل على نظيره.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ » إلى آخر الآيه.المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين و المشركين و شركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين و شركاءهم فى هذه الآيه و ما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله فى الآيه التاليه:« هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ ».

و قوله:« ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ »أى الزموا مكانكم أنتم و ليلزم شركاؤكم مكانهم و تفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم،و قطعنا الرابطه التى كانت تربطهم بشركائهم و هى رابطه الوهم و الحسبان التى يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم و انقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء و هم ليسوا بشركاء.

و الدليل على هذا الذى ذكرناه قوله تعالى بعده:« وَ قٰالَ شُرَكٰاؤُهُمْ مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ »فالكلام على ظاهره من النفى الجدى الصادق لعبادتهم إياهم، و ليسوا يكذبون فى كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهاده الله سبحانه،و لا أنهم يريدون أنا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإن الكلام لا يلائم هذا المعنى،و لا أن مرادهم التعريض لهم بأنكم كنتم تعبدون أهواءكم و شياطينكم المغوين لكم فى الحقيقه فإن ذلك لا يلائم دعواهم الغفله،و كذا لا يلائمه قوله بعده:« هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ »إلخ،على ما سيجىء من معناه بل مرادهم نفى العباده حقيقه بنفى حقيقه الشركه،و الاستشهاد على ذلك بشهاده الله و علمه بغفلتهم عن عبادتهم.

و العباده التی هی اتصال ما بالمملوکیه و التذلل من العابد بالمعبود إنما تکون عباده إذا اتصلت و ارتبطت بالمعبود-حتی یتم به معنی اللام فی قولنا:العباده له- و لا یکون ذلک إلا بشعور من المعبود و علم منه بذلک فإذا لم یتحقق هناک علم لم تتحقق عباده حقیقه،و إنما هی صوره عباده.

فقد تبین أن المراد بقوله:« ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ »إظهاره و إبرازه تعالی یومئذ حقیقه الأمر الذی سترت علیه الأوهام و حجبته الأهواء فی الدنیا و هو أن حقیقه المولویه و مالکیه زمان التدبیر لله سبحانه و لیس لغیره من المولویه و الربوبیه شیء حتی یصح الالتجاء إلیه و تصدق عبادته.

فإذا کشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقیقه یومئذ بأن للمشرکین أن شرکاءهم لم یکونوا شرکاء و لا معبودین لهم فی الحقیقه-لغفلتهم عن عبادتهم،و إنما کانوا یأتون لهم بصوره العباده التی کان الوهم و الهوی یصور أنها عباده و لیست بها.

و إلیه یشیر أیضا قوله تعالی :«وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هٰؤُلاٰءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ:» النحل:-۸۶.

و قد تبین بذلک أیضا أن قوله:« وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ » قول من شرکائهم لهم علی الجد و الحقیقه،و یظهر به فساد قول بعضهم:المراد أنکم لم تعبدونا بأمرنا و دعائنا لا أنکم لم تعبدونا أصلا لأن ذلک کذب لا یجوز أن یقع فی الآخره لکونهم ملجئین فیها إلی ترک القبیح.

فإن نفی أصل العباده بما عرفت من معناه هو حق الصدق و إثبات العباده و إن لم یکن کذبا إلا أنه لا یخلو عن مجاز فی الجمله بالنظر إلی حقیقه الأمر علی أن ما ذکره أن المراد نفی العباده بأمرهم و دعوتهم معنی لا دلیل علیه من جهه اللفظ.

علی أن الکذب إنما لا یقع فی الآخره إذا کان عملا و کسبا و إما بمعنی نتیجه الملکات الدنیویه فلا مانع من إمکانه بل هو واقع کما یحکیه تعالی فی قوله :«ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّٰ أَنْ قَالُوا وَ اللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنّٰا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ»:

الأنعام:-۲۴ و غیره من الآیات.

و كذا قول بعضهم:إن المراد ما كنتم تخصوننا بالعباده،و إنما كنتم تعبدون أهواءكم و شهواتكم و شياطينكم المغويه لكم-فإن صدق عباده الأهواء و الشيطان على عملهم من جهه أنه اتباع للهوى و الشيطان لا ينفي عنه صدق كونه عباده للأصنام كما أنه تعالى يصدق فى كلامه الجهات الثلاث جميعا قال تعالى :«وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ:» يونس:-١٨ و قال :«أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ»:

الجاثيه:-٢٣،و قال :«أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ:» يس:-٦٠.

و من المعلوم أن الشركاء يحتجون لنفى كونهم معبودين لهم لا لإثبات كون الهوى و الشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا ينفعهم فى الحجه البته،و يستلزم لغويه إثباتهم الغفله لأنفسهم فى قولهم:« إِنْ كُنّٰا عَنْ عِبٰادَتِكُمْ لَغٰافِلِينَ »لأن الأهواء أيضا ما كانت شاعره بعبادتهم كما أن الأصنام و هى أجسام ميته كذلك.

و لعل القائل اعتمد فى قوله على الحصر المفهوم من قوله:« مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ »بتقديم المفعول على فعله،و ظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفى المعبوديه عن أنفسهم و إثباته لغيرهم،ليس نفيا لأصل العباده فإنهم يثبتونها فى قولهم:« عَنْ عِبٰادَتِكُمْ »فإن إضافه المصدر إلى معموله يفيد الثبوت.

لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم:« مٰا كُنْتُمْ إِيّٰانٰا تَعْبُدُونَ »تجاه ما قاله المشركون على ما حكاه الله :«رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ شُرَكٰاؤُنَا الَّذِينَ كُنّٰا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ»:

النحل:-٨٦ فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه و أثبتوها للشركاء و الشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفى عباده المشركين عن أنفسهم،و أما أنها ثابته لمن؟فلا غرض لهم يتعلق بذلك و إنما همهم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشركه،و قد احتجوا على ذلك بإثبات الغفله عن ذلك لأنفسهم،و لو كانوا شاعرين بعبادتهم و عبدوهم كان لزمهم أعنى الشركاء دعوى الشركه.

قوله تعالى:« فَكَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ »إلى آخر الآيه،ظهر معناه بما مر من التقرير و الفاء فى قوله:« فَكَفىٰ بِاللّٰهِ يفيد التعليل كقولنا:اعبد الله فهو ربك،و هو شائع فى الكلام.

قوله تعالى:« هُنٰالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مٰا أَسْلَفَتْ »إلى آخر الآيه، البلاء

الاختبار،و الإشاره بقوله:« هُنٰالِكَ »إلى الموقف الذى ذكره بقوله:« ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكٰانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكٰاؤُكُمْ فَزَيَّلْنٰا بَيْنَهُمْ ».

فذلك الموقف موقف تختبر و تمتحن كل نفس ما أسلفت و قدمت من الأعمال فتنكشف لها حقيقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عيان لا مجرد الذكر أو البيان، و بمشاهده الحق من كل شىء عيانا ينكشف أن المولى الحق هو الله سبحانه،و تسقط و تنهدم جميع الأوهام،و تضل جميع الدعاوى التى يفتريها الإنسان بأوهامه و أهوائه على الحق.

فهذه الافتراءات و الدعاوى جميعا إنما نشأت من حيث الروابط التى نضعها فى هذه الدنيا بين الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولويه التى نعطيها الأسباب و لا إله إلا الله و لا مولى حقا إلا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقه الأمر،و انكشف غيم الوهم و انهتك حجاب الدعاوى ظهر أن لا مولى حقا إلا هو سبحانه،و بطل جميع الآلهه التى إنما أثبتها الافتراء من الإنسان،و سقطت و حبطت جميع الأعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عباده حق.

فالفقرات الثلاث من الآيه أعنى قوله:« تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ »إلخ،و قوله:

« رُدُّوا إِلَى اللّٰهِ »إلخ،و قوله:« وَ ضَلَّ عَنْهُمْ »إلخ،كل منها تعين الأخريين على إفاده حقيقه معناها،و محصل مفاد المجموع ظهور حقيقه الولايه الإلهيه يومئذ ظهور عيان و أن ليس لغيره تعالى إلا الفقر و المملوكيه المحصنه فيبطل عند ذلك كل دعوى باطله و ينهدم بنيان الأوهام.

كما يشير إلى ذلك قوله :«هُنٰالِكَ الْوَلاٰيَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ :الكهف:-۴۴،و قوله:

« يَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ:

غافر-۱۶:»و قوله وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ :الانفطار:-۱۹،إلى غير ذلك.

(بحث روائی)

فی أمالی المفید،بإسناده إلی أبی إسحاق الهمدانی عن أمیر المؤمنین(ع): فیما کتب إلی محمد بن أبی بکر حین ولاه مصر-و أمره أن یقرأه علی الناس،و فیما کتب:

قال الله تعالی-:« لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنیٰ وَ زِیٰادَةٌ »-و الحسنی هی الجنه-و الزیاده هی الدنیا.

و فی تفسیر القمی،فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع) فی الآیه:فأما الحسنی فهی الجنه،و أما الزیاده فالدنیا-ما أعطاهم الله فی الدنیا یحاسبهم الله فی الآخره،و یجمع الله لهم ثواب الدنیا و الآخره. الحدیث.

أقول:و الروایتان ناظرتان إلی المعنی الأول الذی قدمناه فی البیان المتقدم و روی ما فی معنی الثانی الطبرسی فی المجمع،عن الباقر(ع).

و فی تفسیر البرهان،روی فی نهج البیان عن علی بن إبراهیم قال": قال الزیاده هبه الله عز و جل.

و فی الدر المنثور،أخرج الدارقطنی و ابن مردویه عن صهیب فی الآیه قال:قال رسول الله ص: الزیاده النظر إلی وجه الله:

أقول:و روی هذا المعنی بعده طرق من طرق أهل السنه عن النبی ص

و قد تقدم توضیح معناها فی تفسیر قوله تعالی .«رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ» :الأعراف:- ۱۴۳ فی الجزء الثامن من الکتاب.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله(ع): فی قوله:« کَأَنَّمٰا أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً »-قال:أ ما تری البیت إذا کان اللیل-کان أشد سوادا من خارج-فکذلک وجوههم یزدادون سوادا:

أقول:و رواه العیاشی عن أبی بصیر عنه(ع)

و کأنه(ع)یرید تفسیر القطع من اللیل الواقعه فی الآیه.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو الشیخ عن السدی": فی قوله:« وَ رُدُّوا إِلَی اللّهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ »قال-:نسختها قوله:« مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا- وَ أَنَّ الْکٰافِرِینَ لاٰ مَوْلیٰ لَهُمْ ».

أقول:و هو من أسخف القول بل الآیتان ناظرتان إلی جهتین مختلفتین من المعنی و هما الظاهر و الباطن.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۳۱ الی ۳۶]

اشاره

قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَمَّنْ یَمْلِکُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ مَنْ یُخْرِجُ اَلْحَیَّ مِنَ اَلْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ اَلْمَیِّتَ مِنَ اَلْحَیِّ وَ مَنْ یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ فَسَیَقُولُونَ اَللّٰهُ فَقُلْ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۳۱) فَذٰلِکُمُ اَللّٰهُ رَبُّکُمُ اَلْحَقُّ فَمٰا ذٰا بَعْدَ اَلْحَقِّ إِلاَّ اَلضَّلاٰلُ فَأَنّٰی تُصْرَفُونَ (۳۲) کَذٰلِکَ حَقَّتْ کَلِمَهُ رَبِّکَ عَلَی اَلَّذِینَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ یُؤْمِنُونَ (۳۳) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکٰائِکُمْ مَنْ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ قُلِ اَللّٰهُ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ فَأَنّٰی تُؤْفَکُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَکٰائِکُمْ مَنْ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ قُلِ اَللّٰهُ یَهْدِی لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ یُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ یَهِدِّی إِلاّٰ أَنْ یُهْدیٰ فَمٰا لَکُمْ کَیْفَ تَحْکُمُونَ (۳۵) وَ مٰا یَتَّبِعُ أَکْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ اَلظَّنَّ لاٰ یُغْنِی مِنَ اَلْحَقِّ شَیْئاً إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِمٰا یَفْعَلُونَ (۳۶)

(بيان)

حجج ساطعه على توحيده تعالى فى الربوبيه يأمر نبيه ص بإقامتها على المشركين،و هى ثلاث حجج مرتبه بحسب الدقه و المتانه فالحجه الأولى تسلك من الطريق الذى يعتبره الوثنيون و عبده الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهه تدبيرهم للكون فيعبدون كلا منهم لأجل ما يخص به من الشأن، و ما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمن يعبده فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا يرسل إليه سخطه و عقابه كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر،و أهل الجبال و أهل البر و أهل العلوم و الصنائع و أهل الحروب و الغارات و غيرهم كل يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذى يهمه ليرضى عنه ربه فيبارك عليه برضاه أو يكف عنه غضبه.

و محصل الحجه أن تدبير العالم الإنسانى و سائر الموجودات جميعا يقوم به الله سبحانه لا غير على ما يعترفون به فمن الواجب أن يوحدوه بالربوبيه و لا يعبدوا إلا إياه.

و الحجه الثانيه ما يعتبره عامه المؤمنين و ذلك أنهم لا يلتفتون كثيرا إلى زخارف هذه النشأه من لذائذ الماده،و إنما جل اعتنائهم بالحياه الدائمه الأخرويه التى تتعين سعادتها و شقاوتها بالجزاء الإلهى بأعمالهم فإذا قامت البينه العقليه على الإعاده كالبدء كان من الواجب أن لا يعبد إلا الله سبحانه،و لا يتخذ أرباب من دونه طمعا فى ثوابه و خوفا من عقابه.

و الحجه الثالثه و هى التى تحن إليها قلوب الخاصه من المؤمنين و هى أن المتبع عند العقل هو الحق،و لما كان الحق سبحانه هو الهادى إلى الحق دون ما يدعونه من الأرباب من دون الله فليكن هو المتبع دون ما يدعونه من الأرباب،و سيأتى فى تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلى به مزيد انجلاء إن شاء الله.

و لو لا اعتبار هذه النكته كان الظاهر أن تذكر أولا الحجه الثانيه ثم الثالثه ثم الأولى أو تذكر الثانيه ثم يجمع بين الأولى و الثالثه فيذكر بعدها.

ص :۵۰

قوله تعـالى:« قُـلْ مَنْ يَرْزُقُكَمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكَ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ » إلى آخر الآيه. الرزق هو العطاء الجارى،و رزقه تعـالى للعـالم الإنسـانى من السـماء هو نزول الأمطـار و الثلوج و نحوه،و من الأـرض هو بإنباتهـا نباتهـا و تربيتهـا الحيوان و منهما يرتزق الإنسـان،و ببركه هـذه النعم الإلهيه يبقى النوع الإنسانى و المراد بملك السـمع و الأبصار كونه تعالى متصـرفا فى الحواس الإنسـانيه التى بهـا ينتظم له أنواع التمتع من الأـرزاق المختلفه التى أذن الله تعالى أن يتمتع بها فإنما هو يشـخص و يميز ما يريـده مما لا يريده بإعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فيتحرك نحو ما يريده،و يتوقف أو يفر مما يكرهه بها.

فـالحواس هى التى تتم بها فائـده الرزق الإلهى،و إنما خص السـمع و البصـر من بينها بالـذكر لظهور آثارهما فى الأعمال الحيويه أكثر من غيرهما،و الله سبحانه هو الذى يملكهما و يتصرف فيهما بالإعطاء و المنع و الزياده و النقيصه.

و قوله:« وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » الحياه بحسب النظر البادئ فى الإنسان هى المبـدأ الذى يظهر به العلم و القدره فى الشىء فيصدر أعماله عن العلم و القدره ما دامت الحياه،و إذا بطلت بطل الصدور كذلك.

ثم اكتشف من طريق النظر العلمى أن ذلـك لاـ يختص بأقسـام الحيوان كمـا كان يعطيه النظر الابتـدائى فإن الملاـك الـذى كان يوجب للحيوان كونه ذا حيـاه-و هو كونه ذا نفس يصـدر عنهـا أعمـال مختلفه لاـ على وتيره واحـده طبيعيه كحركته إلى جهات مختلفه بحركات مختلفه و سكونه من غير حركه-موجود فى النبات.

و كـذلك الأبحـاث الجـاريه على الطرق الحـديثه تعطى ذلـك فـإن جراثيم الحياه الموجوده فى الحيوان التى إليها تنتهى أعماله الحيويه توجـد فى النبـات نظيرهـا فهو ذو حيـاه كمثـل الحيوان فالنظر العلمى على أى حال يهـدى إلى عموم الحياه لجميع أنواع الحيوان و النبات.

ثم الحيـاه و هى تقابـل الموت الـذى هو بطلاـن مبـدإ الأعمـال الحيويه تعود بحسب التحليل إلى كون الشـىء بحيث تترتب عليه آثاره المطلوبه منه كما أن الموت عدم كونه كذلك فحياه الأرض هى كونها نابته مخضره و موتها خلافه،و حياه العمل

كونه بحيث ينتهى إلى الغرض الـذى أتى به لأـجله و موته خلافه،و حياه الكلمه كونها بحيث تؤثر فى السامع أثرا مطلوبا و موتها خلافه،و حياه الإنسان كونه جاريا على ما تهدى إليه الفطره الإنسانيه ككونه ذا عقل سليم و نفس زاكيه،و لذا عد القرآن الشريف الدين حياه للإنسان لأنه يرى أن الدين الحق و هو الإسلام هو الفطره الإلهيه.

إذا تبين هذا اتضح أن خروج الحى من الميت و خروج الميت من الحى يختلف.

معناه بحسب اختلاف المراد بالحياه و الموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان أو الحيوان و النبات بالكينونه من غيرها كالمنى و البيضه و البذر فإن الحى كما لا تدوم له هذه الحياه بقاء إلى غير النهايه لا تذهب أيضا بحسب البدء فى حياه غير متناهيه و لا طريق إلى إثباته،و خروج أجزاء غير ذات حياه من الحيوان أو الحيوان و النبات بالانفصال.

و على النظره الأـخيره أعنى نظره تعميم الحياه لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبه منها هو أن يخرج من الأمور غير المفيده فى باب أمور مفيده فى ذلك الباب بالكينونه و التولد كخلق الإنسان الحى و الحيوان الحى و النبات الحى من التراب الميت و بالعكس،و كخروج الإنسان العاقل الصالح من الإنسان الذى لا عقل له و لا صلاح و بالعكس،و خروج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن.

و ظاهر الآـيه الكريمه بالنظر إلى سياقها و مقام المخاطبه فيها أن يكون المراد بإخراج الحى من الميت و بالعكس فيها هو هذا المعنى الأـخير،و ذلك أن الآيه تقيم الحجه على المشركين من المسلك الذى كانوا يسلكونه فى الاحتجاج على اتخاذ الآلهه المختلفه و هو أن العالم المشهود مجموعه من موجودات مختلفه متشتته علويه و سفليه و السفليه من إنسان و حيوان و نبات و بحر و بر و أمور وراء ذلك كثيره، و كل منها تحت تدبير مدبر شفيع عند الله نعبده بعباده صنمه ليقربنا إلى الله زلفى و بالجمله انتهاء التدبيرات على اختلافها إلى مدبرات مختلفه يوجب وجود أرباب من دون الله كثيره.

و الآيه ترد عليهم حجتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفه إليه تعالى و أن ذلك

یدل علی أن الله سبحانه رب کل شیء وحده،فهی تخاطبهم بأنکم تعترفون بأن ما یخصکم من التدبیر کرزقکم و ما یعمکم و غیرکم منه ینتهی إلی الله سبحانه فهو المدبر لأمرکم و أمر غیرکم فهو الرب لا رب سواه.

و قد بدأت فی التعداد بما یخص الإنسان أعنی قوله:« قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ »و ختمت بما یعمه و غیره أعنی قوله:« وَ مَنْ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ »و ظاهر السیاق أن یکون المراد بقوله:« أَمَّنْ یَمْلِکُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ »هو التدبیر الخاص بالإنسان فیکون المراد ملک السمع و الأبصار التی لأفراد الإنسان،و کذا إخراج الحی من الإنسان من میته و بالعکس،و قد تبین أن الحیاه المخصوصه بالإنسان هو کونه ذا نعمه العقل و الدین.

فالمراد بإخراج الحی من المیت و بالعکس-و الله أعلم-إخراج الإنسان الحی بالسعاده الإنسانیه من الإنسان المیت الذی لا سعاده له و بالعکس.

فالله سبحانه یلقن نبیه ص الحجه علی توحیده بالربوبیه فأمره بقوله:

« قُلْ »إن یقول لهم فی سیاق الاستفهام« مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ » بالأمطار و الإنبات و التکوین« أَمَّنْ یَمْلِکُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ »منکم فتتم بهما فائده رزقکم حیث ترتزقون بتشخیصهما من طیبات الرزق،و لولاهما لم توفقوا لذلک و فنیتم عن آخرکم « وَ مَنْ یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ »أی کل أمر مفید فی بابه من غیره« وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ »فیتولد الإنسان السعید من الشقی و الشقی من السعید« وَ مَنْ یُدَبِّرُ الْأَمْرَ » فی جمیع الخلیقه.

« فَسَیَقُولُونَ اللّهُ »اعترافا بأنه الذی ینتهی إلیه جمیع هذه التدبیرات فی الإنسان و غیره لأن الوثنیین یعتقدون ذلک فأمر النبی ص أن یوبخهم أولا علی ترک تقوی الله بعباده غیره مع ظهور الحجه ثم یستنتج لهم من الحجه وجوب توحیده تعالی فقال:« فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ »ثم قال:« فَذلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمْ ».

قوله تعالی:« فَذلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنّی تُصْرَفُونَ »الجمله الأولی نتیجه الحجه السابقه،و قد وصف الرب بالحق لیکون توضیحا لمفاد الحجه،و توطئه و تمهیدا لقوله بعده:« فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ».

و قوله:« فَمٰا ذٰا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاٰلُ »أخذ بلازم الحجه السابقه لاستنتاج أنهم ضالون فی عباده الأصنام فإنه إذا كانت ربوبيته تعالی حقه فإن الهدی فی اتباعه و عبادته فإن الهدی مع الحق لا غير فلا يبقی عند غيره الذی هو الباطل إلا الضلال.

فتقدير الكلام:فما ذا بعد الحق الذی معه الهدی إلا الباطل الذی معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شیء و أقيم الباقی مقامه إيجازا،و قيل:فما ذا بعد الحق إلا الضلال،و لذا قال بعضهم:إن فی الآيه احتباكا-و هو من المحسنات البديعيه-و هو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شیء يدل عليه الآخر فإن تقدير الكلام:فما ذا بعد الحق إلا الباطل؟و ما ذا بعد الهدی إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول و الهدی من الثانی و بقی قوله:فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ و الوجه هو الذی قدمناه.

ثم تمم الآيه بقوله:« فَأَنّٰی تُصْرَفُونَ »أی إلی متی تصرفون عن الحق الذی معه الهدی إلی الضلال الذی مع الباطل.

قوله تعالی:« كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَی الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ » ظاهر السياق أن الكلمه التی تكلم الله سبحانه بها علی الفاسقين هی أنهم لا يؤمنون أی أنه سبحانه قضی عليهم قضاء حتما و هو أن الفاسقين و هم علی فسقهم-لا يؤمنون و لا تنالهم الهدايه الإلهيه إلی الإيمان،و قد قال تعالی :«وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِی الْقَوْمَ الْفٰاسِقِينَ:» المائده:-١٠٨.

و علی هذا فالإشاره بقوله:« كَذٰلِكَ »إلی ما تحصل من الآيه السابقه:أن المشركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فی الضلال إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

فمعنی قوله:« كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ »إلخ،أن الكلمه الإلهيه و القضاء الحتمی الذی قضی به فی الفاسقين-و هو أنهم لا يؤمنون-هكذا حقت و ثبتت فی الخارج و أخذت مصداقها و هو أنهم خرجوا عن الحق فوقعوا فی الضلال أی أنا لم نقض عدم هدی الفاسقين و عدم إيمانهم ظلما و لا جزافا و إنما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فی الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلك.

ص :۵۴

و فى الآيه دلاله على أن الأمور الضروريه و الأحكام و القوانين البينه التى تجرى فى النظام المشهود كقولنا:لا واسطه بين الحق و الباطل و لا بين الهدى و الضلال لها نوع استناد إلى القضاء الإلهى،و ليست ثابته فى ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

و ربما ذكر بعض المفسرين:أن المراد بالكلمه فى الآيه كلمه العذاب و قوله:

« أَنَّهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ »فى موضع التعليل بتقدير لامه،و التقدير كثبوت هذه الحجه عليهم حقت كلمه ربك على الذين فسقوا و هى وعيدهم بالعذاب و إنما حقت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون.

و لا يخلو عن سقم فإن وجه الشبه غير ظاهر و لا متفق فيهما فالحجه ثابته عليهم بذاتها و أما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر و هو أنهم لا يؤمنون.

و الحجه-كما سمعت فى البيان المتقدم-حجه ساذجه يعترف بحقيتها الوثنيه، و قد صرفوها عن وجهها و أقاموا على ما يدعونها من ربوبيه أربابهم و استحقاقها للعباده من دون الله حيث قالوا:إن تدبير كل شأن من شئون العالم العامه إلى واحد من هذه الأرباب فهو رب ذلك الشأن،و إنما نعبد أصنامها و تماثيلها لنرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده.

فأخذت الآيه اعترافهم بأن هذه التدابير لله سبحانه-و كيف لا تكون له و هو خالق الكل و مبقيها؟-فله سبحانه وحده حقيقه الربوبيه و هو المستحق للعباده لا غيره.

قوله تعالى:« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ »إلى آخر الآيه.تلقين للاحتجاج من جهه المبدإ و المعاد فإن الذى يبدأ كل شىء ثم يعيده يستحق أن يعبده الإنسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه و ينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

و لما كان المشركون-و هم المخاطبون بالحجه-غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ص أن يتصدى جواب سؤاله بنفسه و قال:« قُلِ اللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ »و إلى متى تصرفون عن الحق.

و ليس اعتماد الآيه على مسأله الإبـداء و الإعاده فى احتجاجها اعتمادا على مقـدمه غير بينه و لا مبينه فقـد احتـج عليها فى كلامه تعالى من طرق مختلفه كالاحتجاج من طريق لزوم الغايه فى فعله،و من طريق وجوب الجزاء على الأعمال فى العـدل و غير ذلـك و قد نفى سبحانه الريب عن البعث و القيامه فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه.

و الحجه-كما تقدم الإيماء إليه-حجه عامه المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفا من العقاب أو رغبه فى الثواب الذى أعد لهم يوم القيامه.

قوله تعالى:« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّٰهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ » إلى آخر الآيه،يهدى للحق و إلى الحق بمعنى واحد فالهـدايه تتعـدى بكلتـا الحرفيـن، و قـد ورد تعـديتها باللام فى مواضـع كـثيره مـن كلامه تعـالى كقـوله :«أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ:» الم السجده:-۲۶،و قوله :«يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ:» إسـراء:-۹ إلى غير ذلـك فمـا ذكره بعضـهم من كون اللام فى قوله:« يَهْدِي لِلْحَقِّ للتعليل ليس بشىء.

لقن سـبحانه نـبيه ص هـذه الحجه و هى ثـالثه الحجـج،و هى حجه عقليه يعتمـد عليهـا الخـاصه من المؤمنين،و توضـيحها أن من المرتكز فى الفطره الإنسانيه و به يحكم عقله أن من الواجب على الإنسان أن يتبع الحق حتى إنه إن انحرف فى شـىء من أعماله عن الحق و اتبع غيره لغلـط أو شـبهه أو هوى فإنمـا اتبعه لحسـبانه إيـاه حقا و التباس الأمر عليه،و لـذا يعتـذر عنه بما يحسـبه حقا فالحق واجب الاتباع على الإطلاق و من غير قيد أو شرط.

و الهـادى إلى الحق واجب اتبـاعه لما عنـده من الحق،و من الواجب ترجيحه على من لا يهـدى إليه أو يهـدى إلى غيره لأن اتباع الهادى إلى الحق اتباع لنفس الحق الذى معه وجوب اتباعه ضرورى.

و قد اعتمد فى الحجه على هذه المقدمه الضـروريه فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدى إلى الحق؟و من البين أن لاـ جواب للمشـركين فى ذلـك مثبتـا إذ شـركاؤهم سواء أ كـانوا جمـادا غير ذى حياه كالأوثان و الأصـنام أم كانوا من الإحياء كالملائكه و أرباب الأنواع و الجن و الطواغيت من فرعون و نمرود و غيرهما لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا.

و إذ لم يكن لهم فى ذلك جواب مثبت فإنهم لا يجيبون،و لذلك أمر النبى ص أن يخلفهم فى الجواب فيجيب فى ذلك-أعنى الهدايه إلى الحق-بإثباتها لله سبحانه فقيل:« قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ »فإن الله سبحانه هو الذى يهدى كل شىء إلى مقاصده التكوينيه و الأمور التى يحتاج إليها فى بقائه كما فى قوله :«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ :طه-٥٠ و قوله اَلَّذِي خَلَقَ فَسَوّىٰ وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدىٰ:» الأعلى:-٣ و هو الذى يهدى الإنسان إلى سعاده الحياه و يدعوه إلى الجنه و المغفره بإذنه بإرسال الرسل و إنزال الكتب و تشريع الشرائع،و أمرهم ببث الدعوه الحقه الدينيه بين الناس.

و قد مر فى تفسير قوله تعالى :«الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ:» آل عمران:-٦٠ إن الحق من الاعتقاد و القول و الفعل إنما يكون حقا بمطابقه السنه الجاريه فى الكون للذى هو فعله فالحق بالحقيقه إنما يكون حقا بمشيته و إرادته.

و إذ تحقق أنه ليس من شركائهم من يهدى إلى الحق،و أن الله سبحانه يهدى إلى الحق سألهم بقوله:« أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ »؟أن يقضوا فى الترجيح بين اتباعه تعالى و اتباع شركائهم و هو تعالى يهدى إلى الحق و هم لا يهدون و لا يهتدون إلا بغيرهم، و من المعلوم أن الرجحان لمن يهدى على من لا يهدى أى لاتباعه تعالى على اتباعهم،و المشركون يحكمون بالعكس، و لذلك لامهم و وبخهم بقوله:« فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ »؟.

و التعبير فى الترجيح فى قوله:« أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ بأفعل التفضيل الدال على مطلق الرجحان دون التعين و الانحصار مع أن اتباعه تعالى حق لا غير و اتباعهم لا نصيب له من الحق إنما هو بالنظر إلى مقام الترجيح و ليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثاره لعصبيتهم و تهييج لجهالتهم.

و قد أبدع تعالى فى قوله« أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ »و القراءه الدائره:« لاٰ يَهِدِّي »بكسر الهاء و تشديد الدال و أصله يهتدى،و ظاهر قوله:« لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ »و قد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدى بغيره لا بنفسه.

و الكلام قد قوبل فيه قوله:« يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ »بقوله:« أَمَّنْ لاّ يَهِدِّي » مع أن الهدايه إلى الحق يقابلها عدم الهدايه إلى الحق،و عدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق فلازم هذه المقابله الملازمه بين الاهتداء بالغير و عدم الهدايه إلى الحق،و كذا الملازمه بين الهدايه إلى الحق و الاهتداء بالذات فالذى يهدى إلى الحق يجب أن يكون مهتديا بنفسه لا بهدايه غيره و الذى يهتدى بغيره ليس يهدى إلى الحق أبدا.

هذا ما تدل عليه الآيه بحسب ظاهرها الذى لا ريب فيه و هو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقه دون التجوزات المبنيه على المساهله التى نبنى عليها و نداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف فننسب الهدايه إلى الحق إلى كل من تكلم بكلمه حق و دعا إليها و إن لم يعتقد بها أو اعتقد و لم يعمل بها أو عمل و لم يتحقق بمعناها، و سواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره.

بل الهدايه إلى الحق أعنى الإيصال إلى صريح الحق و متن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أى هداه الله سبحانه من غير واسطه تتخلل بينه و بينه فاهتدى بالله و هدى غيره بأمر الله سبحانه،و قد تقدمت نبذه من الكلام فى هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى :«وَ إِذِ ابْتَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمٰاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ:» الآيه البقره:-۱۲۴.

و قد تبين بما قدمناه فى معنى الآيه أمور:

أحدها:أن المراد بالهدايه إلى الحق ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون ما هو بمعنى إراءه الطريق المنتهى إلى الحق فإن من الضرورى أن وصف طريق الحق يتأتى من كل أحد سواء اهتدى إلى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد.

و ثانيها:أن المراد بقوله:« أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ »من لا يهتدى بنفسه، و هذا أعم من أن يكون ممن يهتدى بغيره أو يكون ممن لا يهتدى أصلا،لا بنفسه و لا بغيره كالأوثان و الأصنام التى هى جماد لا يقبل هدايه من غيره،و ذلك أن قوله:

« إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ »استثناء من قوله:« أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي »الأعم من أن لا يهتدى أصلا أو يهتدى بغيره و المأخوذ فى قوله:« أَنْ يُهْدىٰ »فعل دخلت عليه أن المصدريه

المأوله إلى المصدر،و الجمله الفعليه المأوله إلى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف إلى معموله ففرق بين قوله :«أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ:» البقره:- ۱۸۴ فلا يدل على الوقوع و بين نحو قوله :«إِنْ كُنّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ:» يونس:- ۲۹ فيدل على الوقوع،و يقال:ضربك زيدا عجيب إذا ضربته،و أن تضرب زيدا عجيب إذا هممت أن تضربه.

فقوله:« أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدى »معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهدايه من ناحيه الغير،و من المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير إذا كان فى طبعه أن يقبل ذلك،و أما إذا لم يقبل فإنما يبقى له من الوصف أنه لا يهتدى فافهم ذلك.

و للمفسرين فى معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبه:

منها:أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال لأن من نفى عنهم الهدايه ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم و عزيرا و الملائكه(ع)، و هؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهدايه الله و وحيه كما قال تعالى فى الأنبياء من سورتهم :

«وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا:» الأنبياء:-۷۳.

و فيه:أن محصله أن المعنى لا يهدى إلا أن يهديه الله تعالى فيهدى غيره بعد اهتدائه بهدايته تعالى،و قد اختل عليه معنى الآيه من أصله فإن من لا يهتدى إلى الحق بنفسه لا يتأتى له أن يهدى إلى الحق فإنه إنما يماس الحق من وراء حجاب فكيف يوصل إليه؟.

على أن ما ذكره لا ينطبق على الأصنام التى هى مورد الاحتجاج فى الآيه فإنها لا تقبل الهدايه من أصلها،و قد ذكر المسيح و عزيرا و هما ممن قدسته النصارى و اليهود و ليس وجه الكلام فى الآيه إليهم و إن شملتهما و غيرهما الآيه بحسب عموم الملاك.

و منها:أن الاستثناء منقطع و المراد بمن لا يهدى الأصنام التى لا تقبل الهدايه أصلا فحسب،و المعنى:أم من لا يهتدى أصلا كالأصنام إلا أن يهديه الله فيهتدى حينئذ.

و فيه:أنه لا يفى بتوجيه المقابله التى بين قوله:« مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ » و قوله:« أَمَّنْ لاٰ يَهِدِّي »فإن الهدايه إلى الحق و الاهتداء إليه لا يتقابلان إلا أن يئول المعنى إلى مثل قولنا:أ فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهتدى أصلا إلا أن يهديه الله فيهتدى فيهدى غيره،و يرد عليه أنه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهتدى أصلا حتى يصير الاستثناء منقطعا بل يعم ما لا يهتدى أصلا لا بنفسه و لا بغيره،و من لا يهتدى بنفسه و يهتدى بغيره كالملائكه مثلا،و يرد عليه ما ورد على الوجه السابق.

و منها:أن المراد بمن لا يهدى الأصنام التى لا تقبل الهدايه و« إِلاّٰ »بمعنى حتى و المعنى لا يهتدى و لا يقبل الهدايه حتى يهدى.

و فيه:أن الترديد يرجع حينئذ إلى مثل قولنا:أ فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهتدى أصلا حتى يهدى إلى الحق،و يعود الاستثناء مستدركا لا يتعلق به غرض فى الكلام.مضافا إلى أن مجىء إلا بمعنى حتى غير ثابت و على تقدير ثبوته قليل فى الكلام لا يحمل على مثله أفصح الكلام.

و منها:أن المراد بمن لا يهدى إلا أن يهدى الملائكه و الجن ممن يعبدون من دون الله و هم يقبلون الهدايه من الله و إن لم يهتدوا من عند أنفسهم أو المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فإنهم و إن لم يهتدوا لكنهم يقبلون الهدايه و لو هدوا إلى الحق لهدوا إليه.

و فيه:أن الآيات واقعه فى سياق الاحتجاج على عبده الأصنام،و القول بأن المراد بمن لا يهدى إلا أن يهدى الملائكه و الجن أو الرؤساء المضلون يخرجها عن صلاحيه الانطباق على المورد.

و ثالثها:أن الهدايه إلى الحق بمعنى الإيصال إليه إنما هى شأن من يهتدى بنفسه أى لا واسطه بينه و بين الله سبحانه فى أمر الهدايه إما من بادئ أمره أو بعنايه خاصه من الله سبحانه كالأنبياء و الأوصياء من الأئمه،و أما الهدايه بمعنى إراءه

الطريق و وصف السبيل فلا يختص به تعالى و لا بالأئمه من الأنبياء و الأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول :«وَ قٰالَ الَّذِی آمَنَ یٰا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشٰادِ:» المؤمن:-۳۸ و قال :«إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ السَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِراً وَ إِمّٰا كَفُوراً:» الإنسان:-۳.

و أما قوله تعالى خطابا للنبى ص و هو إمام :«إِنَّكَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ:» القصص:-۵۶ و غيره من الآيات فهى مسوقه لبيان الأصاله و التبع كما فى آيات التوفى و علم الغيب و نحو ذلك مما سيقت لبيان أن الله سبحانه هو المالك لها بالذات و الحقيقه،و غيره يملكها بتمليك الله ملكا تبعيا أو عرضيا،و يكون سببا لها بإذن الله،قال تعالى :«وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا:» الأنبياء:-۷۳ و فى الأحاديث إشاره إلى ذلك و أن الهدايه إلى الحق شأن النبى و أهل بيته(ص)و قد مر بعض الكلام فى الهدايه فيما تقدم.

و قوله فى ذيل الآيه:« فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ »استفهام للتعجيب استغرابا لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدى و لا يهدى إلى الحق.

قوله تعالى:« وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِی مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً » أغنى يغنى يتعدى بمن و عن كلتيهما و قد جاء فى الكلام الإلهى بكل من الوجهين فعدى بمن كما فى الآيه،و بعن كما فى قوله :«مٰا أَغْنىٰ عَنِّی مٰالِيَهْ:» الحاقه:-۲۹.

و إنما نسب اتباع الظن إلى أكثرهم لأن الأقل منهم و هم أئمه الضلاله على يقين من الحق،و لم يؤثروا عليه الباطل و يدعوا إليه إلا بغيا كما قال تعالى :«وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ:» البقره:-۲۱۳.

و أما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليدا لهم لحسن ظنهم بهم.

و قوله:« إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ »تعليل لقوله:« وَ مٰا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّٰ ظَنًّا »و المعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ۴۵]

اشاره

وَ مَا كَانَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ اَلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ اَلْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمٰا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلظّٰالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴٠) وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ (۴١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ (۴٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي اَلْعُمْيَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يُبْصِرُونَ (۴٣) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ اَلنّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ اَلنّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنَ اَلنَّهٰارِ يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقٰاءِ اَللّٰهِ وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵)

ص: ۶٢

(بيان)

رجوع إلى أمر القرآن و أنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه و تلقين الحجه فى ذلك،و للآيات اتصال بما تقدمها من قوله:« قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّٰهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ »الآيه،فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى الحق هدايته الناس إلى دينه الذى يرتضيه من طريق الوحى إلى أنبيائه و الكتب التى أنزلها إليهم ككتب نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد(ع)،و هذه الآيات تذكرها و تقيم الحجه على أن القرآن منها هاد إلى الحق،و لذلك أشير إليها معه حيث قيل:

« وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتٰابِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ».

و فى آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر و هو من مقاصد السوره كما تقدم.

قوله تعالى:« وَ مٰا كٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »إلى آخر الآيه، قد تقدمت الإشاره إلى أن نفى صفه أو معنى بنفى الكون يفيد نفى الشأن و الاستعداد، و هو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا ما كان زيد ليقوم،و قولنا:لم يقم أو ما قام زيد إذ الأول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد و لا استعد له استعدادا،و الثانى ينفى القيام عنه فحسب،و فى القرآن منه شيء كثير كقوله:

«فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ:» يونس:-٧۴ و قوله :«مٰا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتٰابُ وَ لاَ الْإِيمٰانُ» الشورى:-۵٣:«و قوله وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ» .العنكبوت:-۴٠ فقوله:« وَ مٰا كٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل و هو أبلغ من نفى فعليته،و المعنى ليس من شأن هذا القرآن و لا-فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتريه على الله سبحانه.

و قوله:« وَ لٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ »أى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب و هو التوراه و الإنجيل كما حكى عن المسيح قوله :«يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰاةِ:» الصف:-۶،و إنما وصفهما بما بين

یـدیه مع تقـدمهما لأن هناک کتابا غیر الکتابین ککتاب نوح و کتاب إبراهیم(ع) فإذا لوحظ تقدم جمیعها علیه کان الأقرب منها زمانا إلیه و هو التوراه و الإنجیل موصوفا بأنه بین یدیه.

و ربما قیل:إن المراد بما بین یدیه هو ما یستقبل نزوله من الأمور کالبعث و النشور و الحساب و الجزاء،و لیس بشیء.

و قوله:« وَ تَفْصِیلَ الْکِتابِ »عطف علی« تَصْدِیقَ »و المراد بالکتاب بدلاله من السیاق جنس الکتاب السماوی النازل من عند الله سبحانه علی أنبیائه و التفصیل إیجاد الفصل بین أجزائها المندمجه بعضها فی بعض المنطویه جانب منها فی آخر بالإیضاح و الشرح.

و فیه دلاله علی أن الدین الإلهی المنزل علی أنبیائه(ع)واحد لا اختلاف فیه إلا بالإجمال و التفصیل،و القرآن یفصل ما أجمله غیره کما قال تعالی :«إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ:» آل عمران:-۱۹.

و إن القرآن الکریم مفصل لما أجمله الکتب السماویه السابقه مهیمن علیها جمیعا کما قال تعالی :«وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ مِنَ الْکِتابِ وَ مُهَیْمِناً عَلَیْهِ:» المائده:-۴۸ و قوله:« لا رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ »أی لا ریب فیه هو من رب العالمین،و الجمله الثانیه کالتعلیل للأولی.

قوله تعالی:« أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ »إلی آخر الآیه، أم منقطعه و المعنی بل یقولون افتراه،و الضمیر للقرآن،و اتصاف السوره بکونها مثل القرآن شاهد علی أن القرآن یصدق علی الکثیر منه و القلیل.

و المعنی قل للذین یقولون افتراه:إن کنتم صادقین فی دعواکم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفتری و ادعوا کل من استطعتم من دون الله مستمدین مستظهرین فإنه لو کان کلاما مفتری کان کلاما بشریا و جاز أن یؤتی بمثله و فی ذلک تحد ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طویله کانت أو قصیره.

و من هنا یظهر أولا:أن التحدی لیس بسوره معینه فإنهم لم یرموا بالافتراء

ص :۶۴

بعض القرآن دون بعض بل جميعه،و هو يكلفهم أن يأتوا بسوره مثل ما يدعون أنه افتراه،و إنما ادعوه لجميع القرآن دون بعضه.

و لا يصغى إلى قول من يقول:إن التنكير فى« بِسُورَةٍ »للتعظيم أو للتنويع و المراد سوره من السور يذكر فيها قصص الأنبياء و أخبار وعيد الدنيا و الآخره لأن الافتراء إنما يتهم به الإخبار دون الإنشاء. أو يقول:المراد سوره طويله مثل هذه السوره سوره يونس-فى اشتمالها على أصول الدين و الوعد و الوعيد.

و ذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب إلى الله سبحانه،و لا يختلف فى ذلك ما يتضمن الإخبار و ما يتضمن الإنشاء،و ما كانت سوره طويله أو قصيره حتى الآيه الواحده،و الرمى بالافتراء يصح أن يتعلق بالجميع لأنه تكذيب للنسبه المتعلقه بالجميع.

و ثانيا:أن الآيه لا تتحدى ببلاغه القرآن و فصاحته فحسب بل السياق فى هذه الآيه و فى سائر الآيات التى وردت مورد التحدى يشهد على أن التحدى إنما هو بما عليه القرآن من صفه الكمال و نعت الفضيله من اشتماله على مخ المعارف الإلهيه، و جوامع الشرائع من الأحكام العباديه و القوانين المدنيه السياسيه و الاقتصاديه و القضائيه، و الأخلاق الكريمه و الآداب الحسنه،و قصص الأنبياء و الأمم الماضيه،و الملاحم و الأخبار الغيبيه،و وصف الملائكه و الجن و السماء و الأرض و الحكمه و الموعظه و الوعد و الوعيد،و أخبار البدء و العود،و قوه الحجه و جذاله البيان و النور و الهدايه من غير أن يختلف جزء منه عن جزء،أضف إلى ذلك وقوعه فى بلاغته و فصاحته موقعا يقصر عن البلوغ إليه أيدى البشر.

و لقد قصر الباحثون من علماء الصدر الأول و من يتلونهم إذ قصروا إعجازه على بلاغته و فصاحته و كتبوا فى ذلك كتبا و ألفوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر فى حقائقه و التعمق فى معارفه و أنهاهم إلى أن عدوا المعانى أمورا مطروحه فى الطريق يستوى فيه البدوى و الحضرى و العامى و الخاصى و الجاهل و العالم،و أن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى و لا قيمه لما وراء ذلك.

و قد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخيل فى التحدى كوصفه بأنه نور و رحمه و هدى و حكمه و موعظه و برهان و تبيان لكل شىء و تفصيل الكتاب و شفاء للمؤمنين و قول فصل و ما هو بالهزل،و أنه مواقع للنجوم،و أنه لا اختلاف فيه و لم يصرح ببلاغته بعينها.

و أطلق القول بأنهم لا يأتون بمثله و لو دعوا من استطاعوا من دون الله،و لو اجتمع على ذلك الجن و الإنس و كان بعضهم لبعض ظهيرا و لم يقيد الكلام بالبلاغه و الفصاحه.

و قد فصلنا القول فى إعجاز القرآن فى تفسير قوله :«وَ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمّٰا نَزَّلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِنْ مِثْلِهِ:» البقره:-٢٣ فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى:« بَلْ كَذَّبُوا بِمٰا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ »إلى آخر الآيه.

الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقيه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم،و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذبوا به حتى يضطرهم إلى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله:« وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ »يشير إلى يوم القيامه كما يؤيده قوله تعالى :«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰاءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنّٰا نَعْمَلُ:» الأعراف-٥٣.

و هذا يؤيد ما قدمناه فى تفسير قوله :«ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ:» آل عمران-٧ فى الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل فى عرف القرآن هو الحقيقه التى يعتمد عليها معنى من المعانى من حكم أو معرفه أو قصه أو غير ذلك من الحقائق الواقعيه من غير أن يكون من قبيل المعنى،و أن لجميع القرآن و ما يتضمنه من معرفه أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويلا.

و يؤيد ذلك أيضا قوله بعد:« كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »فإن التشبيه

يعطى أن المراد أن الـذين من قبلهم من المشـركين أيضـا كـذبوا بمـا دعـاهم إليه أنبيـاؤهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه و لما يأتهم تأويله،فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الـدعوه الدينيه من معارف و أحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن و أحكامه تأويلا من غير أن يكون من قبيل المفاهيم و معانى الألفاظ كما توهموه.

فمحصـل المعنى أن هؤلاء المشـركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشـركين و الكفار من الأمم السابقه اسـتقبلتهم من الـدعوه الـدينيه بمعارفهـا و أحكامهـا أمور لم يحيطوا بهـا علمـا حتى يوقنوا بها و يصـدقوا،فحملهم الجهل على التكـذيب بها و لما يأتهم اليوم الـذى يظهر لهم فيه تأويلها و حقيقه أمرها ظهورا يضـطرهم على الإيقان و التصـديق بها و هو يوم القيامه الذى يكشف لهم فيه الغطـاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كـذبوا و ظلموا كما كـذب الـذين من قبلهم و ظلموا فانظر كيف كان عاقبه أولئك الظالمين حتى تحدس بما سيصيب هؤلاء.

هـذا ما يعطيه دقيق البحث فى معنى الآيه،و للمفسـرين فيها أقوال شتى مختلفه مبنيه على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لا جدوى فى التعرض لها و قد استقصينا أقوالهم سابقا.

قـوله تعـالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لاـ يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » قسـمهم قسـمين من يؤمن بـالقرآن و من لا يـؤمن به ثم كنى عمن لاـ يـؤمن به أنهم مفسـدون فتحصـل من ذلـك أن الـذين يكـذبون بمـا فى القرآن إنمـا كـذبوا به لأـنهم مفسدون.

فالآيه لبيان حالهم الذى هم عليه من إيمان البعض و كفر البعض و أن الكفر ناش من رذيله الإفساد.

و أما ما ذكره بعضـهم فى تفسـير الآيه:أن المراد أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسـلهم إلا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين قسم سيؤمن بهذا القرآن و قسم لا يؤمن به أبدا فهو معنى خارج عن مدلول الآيه البته.

قوله تعالى:« وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ »إلى آخر الآيه،تلقين للتبرى على تقدير تكذيبهم له،و هو من مراتب الانتصار للحق ممن انتهض لإحيائه فالطريق هو حمل الناس عليه إن حملوا و إلا فالتبرى منهم لئلا يحملوه على باطلهم.

و قوله:« أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّٰا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّٰا تَعْمَلُونَ »تفسير لقوله:« لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ ».

قوله تعالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ »الاستفهام للإنكار،و قوله:« وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ »قرينه على أن المراد بنفى السمع نفى ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع و هو المسمى بسمع القلب.

و المعنى:و منهم الذين يستمعون إليك و هم صم لا سمع لقلوبهم،و لست أنت قادرا على إسماعهم و لا سمع لهم.

قوله تعالى:« وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ »إلى آخر الآيه.الكلام فيها نظير الكلام فى سابقتها.

قوله تعالى:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النّٰاسَ شَيْئاً وَ لٰكِنَّ النّٰاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » مسوق للإشاره إلى أن ما ابتلى به هؤلاء المحرومون من السمع و البصر من جهه الصمم و العمى من آثار ظلمهم أنفسهم من غير أن يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فإنهم إنما أوتوا ما أوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى:« وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنَ النَّهٰارِ يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ » «إلخ»ظاهر الآيه أن يكون« يَوْمَ »ظرفا متعلقا بقوله:« قَدْ خَسِرَ »إلخ،و قوله:

« كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً »إلخ،حالا من ضمير الجمع فى« يَحْشُرُهُمْ »و قوله:« يَتَعٰارَفُونَ بَيْنَهُمْ »حالا ثانيا مبينا للحال الأول.

و المعنى قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله فى يوم يحشرهم إليه حال كونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير أن

ینکر بعضهم بعضا أو ینساه.

و قد ذکر بعضهم أن قوله:« کَأَنْ لَمْ یَلْبَثُوا »صفه لیوم أو صفه للمصدر المحذوف المدلول علیه بقوله:« یَحْشُرُهُمْ »،و ذکر بعض آخر أن قوله:« یَتَعٰارَفُونَ بَیْنَهُمْ »صفه لساعه،و هما من الاحتمالات البعیده التی لا یساعد علیها اللفظ.

و کیف کان ففی الآیه رجوع إلی حدیث اللقاء المذکور فی أول السوره و انعطاف علی ما ذکره آنفا أن من المتوقع أن یأتیهم تأویل الدین.

فکأنها تقول:إنهم و إن لم یأتهم تأویل القرآن بعد لا ینبغی لهم أن یغتروا بالجمود علی مظاهر هذه الحیاه الدنیا و یستکثروا الأمد و یستبطئوا الأجل فإنهم سوف یحشرون إلی الله فیشاهدون أن لیست الحیاه الدنیا إلا متاعا قلیلا،و لا اللبث فیها إلا لبثا یسیرا کأن لم یلبثوا إلا ساعه من النهار یتعارفون بینهم.

فیومئذ یظهر لهم خسرانهم فی تکذیبهم بلقاء الله ظهور عیان و ذلک بإتیان تأویل الدین و انکشاف حقیقه الأمر و ظهور نور التوحید علی ما کان،و وضوح أن الملک یومئذ لله الواحد القهار جل شأنه.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۴۶ الی ۵۶]

اشاره

وَ إِمّٰا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ اَلَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اَللّٰهُ شَهِیدٌ عَلیٰ مٰا یَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِکُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۴۷) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۴۸) قُلْ لاٰ أَمْلِکُ لِنَفْسِی ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ لِکُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ یَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ یَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَتٰاکُمْ عَذٰابُهُ بَیٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا یَسْتَعْجِلُ مِنْهُ اَلْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ کُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِیلَ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ (۵۲) وَ یَسْتَنْبِئُونَکَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِی وَ رَبِّی إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِکُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِی اَلْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا اَلنَّدٰامَهَ لَمّٰا رَأَوُا اَلْعَذٰابَ وَ قُضِیَ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۵۴) أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶)

(بیان)

الآیات تنبئ عن سنه إلهیه جاریه،و هی أن الله سبحانه قضی قضاء حق لا یرد و لا یبدل أن یرسل إلی کل أمه رسولا یبلغهم رسالته ثم یحکم بینه و بینهم حکما فصلا بإنزال العذاب علیهم و إنجاء المؤمنین و إهلاک المکذبین.

ثم تأمر النبی ص أن یخبرهم أن هذه الأمه یجری فیهم ما جری فی الأمم الماضیه من السنه الإلهیه من غیر أن یستثنوا من کلیتها غیر أنه(ص)لم یذکر لهم فیما لقنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلا أن القضاء حتم و للأمه عمرا و أجلا کالفرد ینتهی إلیه أمد حیاتها،و أما وقت النزول فقد أبهم إبهاما.

و قد قدمنا فی قوله تعالی :«وَ مَا کَانَ اللّٰهُ لِیُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِیهِمْ وَ مَا کَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ:» الأنفال:-۳۳ أن الآیه لا تخلو عن إشعار بأن الأمه ستنتزع منهم نعمه الاستغفار بعد زمن النبی ص فینزل علیهم العذاب،و قد تقدم أن

الشواهد قائمه على كون الآيه مدنيه فهى بعد هذه الآيات المكيه من قبيل الإيضاح فى الجمله بعد الإبهام و من ملاحم القرآن.

و قد حمل بعض المفسرين ما وقع من حديث العذاب فى هذه الآيات على عذاب الآخره،و سياق الآيات يأبى ذلک.

قوله تعالى:« وَ إِمّٰا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ مٰا يَفْعَلُونَ »إما نرينک أصله:إن نرک،زيد عليه ما و النون الثقيله للتأكيد،و الترديد بين الإراده و التوفى للتسويه و استيعاب التقادير،و المعنى إلينا مرجعهم على أى تقدير،و لفظه ثم للتراخى بحسب ترتيب الكلام دون الزمان و الآيه مسوقه لتطييب نفس النبى ص و لتكون كالتوطئه لحديث قضاء العذاب الذى ستفصله الآيات التاليه لهذه الآيه.

و المعنى طب نفسا فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناک بعض ذاک أو توفيناک قبل أن نريک ذاک فإن أمرهم إلينا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجبه للعذاب لا تغيب عنا و لا ننساها.

و الالتفات من قوله:« نُرِيَنَّکَ إلى قوله:« ثُمَّ اللّٰهُ شَهِيدٌ »للدلاله على عله الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى:« وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »قضاء إلهى منحل إلى قضاءين أحدهما:أن لكل أمه من الأمم رسولا يحمل رساله الله إليهم و يبلغها إياهم،و ثانيهما:أنه إذا جاءهم و بلغهم رسالته فاختلفوا من مصدق له و مكذب فإن الله يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم.

هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله:« فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ »فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير:فإذا جاء رسولهم إليهم و بلغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق، و يدل على ذلک قوله:« قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ »فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه،و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب

و الضرار أسبق إلى الذهن.

و قد تقدم الفرق بين الرسول و النبى فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب،و هذا القضاء المذكور فى الآيه من خواص الرساله دون النبوه.

قوله تعالى:« وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود،و هو القضاء بينهم فى الدنيا،و السائلون هم بعض المشركين من معاصرى النبى ص،و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله:« قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ »إلخ، فقول بعضهم:إن السؤال عن عذاب يوم القيامه أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقه لا يلتفت إليه.

قوله تعالى:« قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ »إلى آخر الآيه،لما كان قولهم:« مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »فى معنى قولنا:أى وقت يفى ربك بما وعدك أو يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرنا؟فهلا عجل لكم ذلك و ذلك-أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التاليه و هذا نظير قولهم :«لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ:» الحجر:-٧.

لقن سبحانه النبى ص أن يبدأهم فى الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرا حتى يدفعه عنها و لا نفعا حتى يجلبه إليها و يستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من ضر و نفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعا،و اقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء و العذاب من الجهل.

ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جوابا إجماليا بالإعراض عن تعيين الوقت و الإقبال على ذكر ضروره الوقوع،أما الأول فإنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، و أمره الذى لا يتسلط عليه إلا هو،و قد تقدم قوله فى آيات السوره :

«وَ يَقُولُونَ لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ:» الآيه-٢٠ من السوره.

و أما الثانى أعنى ذكر ضروره الوقوع فقد بين ذلك بالإشاره إلى حقيقه هى من النواميس العامه الجاريه فى الكون تنحل بها العقده و تندفع بها الشبهه،و هى أن لكل أمه أجلا لا يتخطاهم و لا يتخطونه فهو آتيهم لا محاله،و إذا أتاهم لم يخبط فى وقوعه موقعه و لا ساعه،و هو قوله تعالى:« لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ إِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ فَلاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ »أى و أنتم أمه من الأمم فلا محاله لكم أيضا أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعه و لا تستقدمون.

فإذا فقهوا هذا الكلام و تدبروه بأن لهم أن لكل أمه حياه اجتماعيه وراء الحياه الفرديه التى لكل واحد من أفرادها و لحياتها من البقاء و العمر ما قضى به الله سبحانه لها و لها،من السعاده و الشقاوه و التكليف و الرشد و الغى و الثواب و العقاب نصيبها،و هى مما اعتنى بها التدبير الإلهى نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل.

و يدلهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ و يفصح عنه الآثار من ديارهم الخربه و مساكنهم الخاليه،و قد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح،و عاد قوم هود،و ثمود قوم صالح،و كلده قوم إبراهيم و أهل سدوم و سائر المؤتفكات قوم لوط و القبط قوم فرعون و غيرهم.

فهؤلاء أمم منقرضه سكنت أجراسهم و خمدت أنفاسهم و لم ينقرضوا إلا بعذاب و هلاك،و لم يعذبوا إلا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات و لم يأت قوما منهم رسوله إلا و اختلفوا فى الحق الذى جاءهم فمنهم من آمن به و منهم من كذب به و هم الأكثرون.

فهذا يدلهم على أن هذه الأمه-و قد اختلفوا فى الحق لما جاءهم-سيقضى الله بين رسوله و بينهم فيأخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الأمم و إن الله لبالمرصاد.

و على الباحث المتدبر أن يتنبه لأن الله سبحانه و إن بدأ فى وعيده بالمشركين غير أنه هدد فى أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم،و من أهل القبله مجرمون كغيرهم فلينتظروا عذابا واصبا يفصل به الله بينهم و بين نبيه ص،و لينسوا ما يلقيه الشيطان فى روعهم أن أمتهم هذه أمه مرحومه رفع الله عنهم عذاب الدنيا

ص :٧٣

إكراما منه لنبيهم نبى الرحمه فهم فى أمن من عـذاب الله و إن انهمكوا فى كل إثم و خطيئه و هتكوا كل حجاب مع أنه لا كرامه عنـد الله إلاـ بالتقوى و قـد خاطب المؤمنين من هـذه الأمه بمثل قوله :«لَيْسَ بِأَمٰانِيِّكُمْ وَ لاٰ أَمٰانِيِّ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ:» النساء:-١٢٣.

و ربما تعـدى المتعـدى فعطف عـذاب الآخره على عـذاب الدنيا فذكر أن الأمه مغفور لهم محسـنهم و مسيئهم فلا يبقى لهم فى الدنيا إلا كرامه أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن و لا فى الآخره إلا المغفره و الجنه.

و لاـ يبقى على هـذا للمله و الشريعه إلاـ أنهـا تكـاليف و أحكام جزافيه لعب بها رب العالمين و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله و هجر كتابه ،وَ قٰالَ الرَّسُولُ يٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً .

قوله تعالى:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً أَوْ نَهٰاراً مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »إلى آخر الآيتين، البيات و التبييت الإتيان ليلا و يغلب فى الشر كقصد العدو عدوه ليلا.

و لمـا كـان قولهم:« مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ »فى معنى اسـتعجال آيه العـذاب التى يلجئهم إلى الإيمان رجع بعـد بيان تحقق الوقوع إلى توبيخهم و ذمهم من الجهتين فوبخهم أولاـ على اسـتعجالهم بالعـذاب،و هو عـذاب فجائى من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقنا لنبيه(ص):

« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ »و أخبرونى« إِنْ أَتٰاكُمْ عَذٰابُهُ بَيٰاتاً »ليلا« أَوْ نَهٰاراً »فإنه عـذاب لا يأتيكم إلا بغته إذ لسـتم تعلمون وقت نزوله« مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ »من العذاب« اَلْمُجْرِمُونَ » أى ما ذا تستعجلون منه و أنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا أتاكم.

ففى قوله:« مٰا ذٰا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »التفات من الخطاب إلى الغيبه و كان النكته فيه رعايه حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر و ليكون تعرضا لملاك نزول العذاب عليهم و هو إجرامهم.

و وبخهم ثانيا على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الإيمان فيه و هو حين نزول العذاب فإن آيه العذاب يلجئهم إلى الإيمان قطعا على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكه،و من جهه أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى:« أَ ثُمَّ إِذٰا مٰا وَقَعَ »العذاب« آمَنْتُمْ بِهِ »أى بالقرآن أو بالدين أو بالله« آلْآنَ »أى أ تؤمنون به فى هذا الآن و الوقت« وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى:« ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ »الأشبه أن تكون الآيه متصله بقوله تعالى:« لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ »إلخ، فتكون الآيه الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم و إهلاكه إياهم،و الآيه الثانيه تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك:ذوقوا عذاب الخلد و هو عذاب الآخره و لا تجزون إلا أعمالكم التى كنتم تكسبونها و ذنوبكم التى تحملونها و الخطاب تكوينى كنى به عن شمول العذاب لهم و نيله إياهم،و على هذا المعنى فالآيتان:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ -Xإلى قولهX- تَسْتَعْجِلُونَ »واردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى:« وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » إلى آخر الآيه- يستنبئونك -أى يستخبرونك و قوله:« أَ حَقٌّ هُوَ »بيان له، و الضمير على ما يفيده السياق راجع إلى القضاء أو العذاب،و المآل واحد،و قد أمر سبحانه نبيه ص أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته،و بعباره أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله:« قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ »إثبات لتحققه و قد أكد الكلام بالقسم و الجمله الاسميه و إن و اللام،و قوله:« وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى:« وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مٰا فِي الْأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ »إلى آخر الآيه،إشاره إلى شده العذاب و أهميه التخلص منه عندهم،و إسرار الندامه إخفاؤها

و كتمانها خشيه الشماته و نحوها،و الظاهر أن المراد بالقضاء و العذاب فى الآيه هو القضاء و العذاب الدنيويان لا غير.

قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ »الآيه و ما بعدها بيان برهانى على حقيه ما ذكره من كونه حقا واقعا لا يمنع عنه مانع فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض إذا كان مملوكا لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها إليه تعالى،و لم يكن لغيره شىء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف فى شىء كان مستندا إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرف فى ذاته المقدسه فيحمله على الفعل،أو يتقيد بعدم مانع خارجى إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل،فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئا فعله من غير ممد أو عائق،و إذا وعد وعدا كان حقا لا مرد له من غير أن يتغير عن وعده بصارف.

فإمعان النظر فى ملكه تعالى المطلق الحقيقى يهدى إلى العلم بأن وعده حق لا يمازجه باطل و لكن أكثرهم و هم العامه من الناس لا يعلمون لعجزهم عن الإمعان فى هذه الأبحاث الحقيقيه أو إعجابهم بسذاجه الفهم و انسلاكهم فى سلك العامه.

فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستعلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم و قد أوتى ملكا و سلطانا و من كل ما يتنافس فيه فيرون له القدره المطلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ثم يجدونه ربما يهم و يسعى و لا يقع ما اهتم به أو وعد وعدا ثم لم يف به رعايه لمصلحه شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره،و وعده إلى وعده.على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج و أن لا ينطبق.

مع أن حقيقه معنى ملكه و سلطانه و سعه قدرته و نفوذ إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك و يتصورونه عظيما فيهم و لو طحنته نازلات الدهر يوما فأهلكته

أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبته ما عنده من ملك و قدره، و معنى وقوع ما أراده أو أحبه أن الأسباب الكونيه ساعدته على ذلك و وافقته على ما أحبه،و لو لم تساعده و لم توافقه كليه الأسباب لم يكن له أن يضطرها إلى الخضوع لما يتوهم لنفسه من القدره كما لا توافقه على مثل الموت و الحياه و الشباب و الشيب و الصحه و المرض و أمور أخرى كثيره فليس له من الأمر شيء.

لكنه سبحانه مالك لخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكون متحول بأمره منوط بإذنه،و ما تصرف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا-عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا إليه تعالى نفسه أو إلى غيره بإذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيته شيء فيرجع إلى غيره و لا غير هناك يرجع نحوه و ينتسب إليه؟.

و قوله تعالى فعله بما يدل بنفسه على مراده فكيف يتسرب إليه الكذب و هو متن الخارج،و العين الخارجي لا كذب فيه؟و إنما الكذب و الخطأ شأن المفاهيم الذهنيه من حيث انطباقها على الخارج، و كيف يكون وعده باطلا و وعده لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا،و قد وجه كليه الأسباب إليه و لا مرد له؟.

فإمعان النظر فى هذه الحقائق ينور للباحث المتدبر معنى ملكه تعالى لما فى السماوات و الأرض،و أن لازم ذلك أن وعد الله حق،و أن الارتياب فيه إنما هو من الجهل بمقامه تعالى.

و لذلك قال تعالى أولا:« أَلاَ إِنَّ لِلّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ »ثم عقبه بقوله كالاستنتاج منه:« أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ »ثم استدرك فقال:« وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »ثم بين ملكه بقوله:« هُوَ يُحيِى وَ يُمِيتُ »إلخ فى الآيه التاليه.

قوله تعالى:« هُوَ يُحيِى وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »احتجاج على ما تقدم فى الآيه السابقه من ملكه تعالى بالنسبه إلى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول:إن أمركم جميعا من حياه و موت و رجوع إليه تعالى فكيف لا تكونون ملكا له.

ص :۷۷

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،و فی روایه أبی الجارود عن أبی جعفر(ع): فی قوله:« قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَتاکُمْ عَذابُهُ بَیاتاً »یعنی لیلا «أَوْ نَهاراً ما ذا یَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »فهذا عذاب ینزل فی آخر الزمان علی فسقه أهل القبله-و هم یجحدون نزول العذاب علیهم.

أقول:و الروایه تتأید بالآیات و تؤید ما أسلفناه من البیان.

و فیه،بإسناده عن الحسن بن موسی الخشاب،عن رجل،عن حماد بن عیسی عمن رواه،عن أبی عبد الله(ع)قال: سئل عن قوله تبارک و تعالی:« وَ أَسَرُّوا النَّدامَهَ-لَمّا رَأَوُا الْعَذابَ »قال:قیل له ما ینفعهم أسرار الندامه و هم فی العذاب؟ قال:کرهوا شماته الأعداء.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۵۷ الی ۷۰]

اشاره

یا أَیُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَتْکُمْ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِی الصُّدُورِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا هُوَ خَیْرٌ مِمّا یَجْمَعُونَ (۵۸) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ ما ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیامَهِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَشْکُرُونَ (۶۰) وَ ما تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ کُنّا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ ما یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّهٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرَ إِلاّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (۶۱) أَلا إِنَّ أَوْلِیاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۶۲) اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْری فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَهِ لا تَبْدِیلَ لِکَلِماتِ اللّهِ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۶۴) وَ لا یَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۶۵ أَلا إِنَّ لِلّهِ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَتَّبِعُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ شُرَکاءَ إِنْ یَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاّ یَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۶۷) قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَکُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَی اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ لا یُفْلِحُونَ (۶۹) مَتاعٌ فِی الدُّنْیا ثُمَّ إِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِیقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِیدَ بِما کانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

(بیان)

عـاد الكلاـم فی الآیـات إلی وصف القرآن الكریم بمـا له من كرائم الأوصـاف و یتلوه متفرقـات ترتبـط بسـابق القول فی غرض السوره،و فیها موعظه و حكمه و حجه علی مقاصد شتی،و فیها وصف أولیاء الله و بشارتهم.

ص :79

قوله تعالی:«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكَمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ »إلی آخر الآیه.

قال الراغب فی المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخویف،و قال الخلیل:هو التذکیر بالخیر فیما یرق له،القلب و العظه و الموعظه الاسم،انتهی.و الصدر معروف و الناس لما وجدوا القلب فی الصدر و هم یرون أن الإنسان إنما یدرک ما یدرک بقلبه و به یعقل الأمور و یحب و یبغض و یرید و یکره و یشتاق و یرجو و یتمنی،عدوا الصدر خزانه لما فی القلب من أسراره و الصفات الروحیه التی فی باطن الإنسان من فضائل و رذائل،و فی الفضائل صحه القلب و استقامته،و فی الرذائل سقمه و مرضه، و الرذیله داء یقال:شفیت صدری بکذا إذا ذهب به ما فی صدره من ضیق و حرج، و یقال:شفیت قلبی،فشفاء الصدور و شفاء ما فی الصدور کنایه عن ذهاب ما فیها من الصفات الروحیه الخبیثه التی تجلب إلی الإنسان الشقاء و تنغص عیشته السعیده و تحرمه خیر الدنیا و الآخره.

و الهدی هی الدلاله علی المطلوب بلطف علی ما ذکره الراغب،و قد تقدم فی ذیل قوله تعالی :«فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ:» الأنعام:-۱۲۵ فی الجزء السابع من الکتاب بحث فیها.

و الرحمه تأثر خاص فی القلب عن مشاهده ضر أو نقص فی الغیر یبعث الراحم إلی جبر کسره و إتمام نقصه،و إذا نسبت إلیه تعالی کان بمعنی النتیجه دون أصل التأثر لتنزهه تعالی عن ذلک فینطبق علی مطلق عطیته تعالی و إفاضته الوجود علی خلقه.

و عطیته إذا نسبت إلی مطلق خلقه کانت هی ما ینسب إلیه تعالی من وجودهم و بقائهم و رزقهم الذی یمد به بقاؤهم و سائر ما ینعم به علیهم من نعمه التی لا تحصی کثره وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا ،و إذا نسبت إلی المؤمنین خاصه کانت هی ما یختص بهم من سعاده الحیاه الإنسانیه بمظاهرها المختلفه التی ینعم الله بها علیهم من المعارف الحقه الإلهیه و الأخلاق الکریمه و الأعمال الصالحه،و الحیاه الطیبه فی الدنیا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم إذا وصف القرآن بأنه رحمه للمؤمنین کان معناه أنه یغشی المؤمنین

أنواع الخيرات و البركات التی کنزها الله فیه لمن تحقق بحقائقها و تلبس بمعانیها،قال تعالی :«وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لاٰ یَزِیدُ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ خَسٰاراً:» إسراء:-٨٢.

و إذا أخذت هذه النعوت الأربعه التی عدها الله سبحانه للقرآن فی هذه الآیه أعنی أنه موعظه و شفاء لما فی الصدور و هدی و رحمه،و قیس بعضها إلی بعض ثم اعتبرت مع القرآن کانت الآیه بیانا جامعا لعامه أثره الطیب الجمیل و علمه الزاکی الطاهر الذی یرسمه فی نفوس المؤمنین منذ أول ما یقرع أسماعهم إلی آخر ما یتمکن من نفوسهم و یستقر فی قلوبهم.

فإنه یدرکهم أول ما یدرکهم و قد غشیهم یم الغفله و أحاطت بهم لجه الحیره فأظلمت باطنهم بظلمات الشک و الریب،و أمرضت قلوبهم بأدواء الرذائل و کل صفه أو حاله ردیه خبیثه فیعظهم موعظه حسنه ینبههم بها عن رقده الغفله،و یزجرهم عما بهم من سوء السریره و الأعمال السیئه،و یبعثهم نحو الخیر و السعاده.

ثم یأخذ فی تطهیر سرهم عن خبائث الصفات،و لا یزال یزیل آفات العقول و أمراض القلوب واحدا بعد آخر حتی یأتی علی آخرها.

ثم یدلهم علی المعارف الحقه و الأخلاق الکریمه و الأعمال الصالحه دلاله بلطف برفعهم درجه بعد درجه،و تقریبهم منزله فمنزله حتی یستقروا فی مستقر المقربین، و یفوزوا فوز المخلصین.

ثم یلبسهم لباس الرحمه و ینزلهم دار الکرامه و یقرهم علی أریکه السعاده حتی یلحقهم بالنبیین و الصدیقین و الشهداء و الصالحین و حسن أولئک رفیقا،و یدخلهم فی زمره عباده المقربین فی أعلی علیین.

فالقرآن واعظ شاف لما فی الصدور هاد إلی مستقیم الصراط مفیض للرحمه بإذن الله سبحانه،و إنما یعظ بما فیه و یشفی الصدور و یهدی و یبسط الرحمه بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصول بین الله و بین خلقه فهو موعظه و شفاء لما فی

الصدور و هدی و رحمه للمؤمنین.فافهم ذلک.

و قد افتتح سبحانه الآیه بقوله:« یا أَیُّهَا النّاسُ »و هو خطاب لعامه الناس دون المشرکین أو مشرکی مکه خاصه و إن کانت الآیه واقعه فی سیاق الکلام معهم و ذلک لأن النعوت المذکوره فیها بقوله:« قَدْ جاءَتْکُمْ مَوْعِظَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِی الصُّدُورِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ »تتعلق بعامتهم دون قبیل خاص منهم.

و من غریب التفسیر قول بعضهم:إن المراد بالرحمه ما یتصف به المؤمنون من الرحمه و الرأفه فیما بینهم و هو خطأ یدفعه السیاق البته.

قوله تعالی:« قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا هُوَ خَیْرٌ مِمّا یَجْمَعُونَ » الفضل هو الزیاده،و تسمی العطیه فضلا لأن المعطی إنما یعطی غالبا ما لا یحتاج إلیه من المال ففی تسمیه ما یفیضه الله علی عباده فضلا إشاره إلی غناه تعالی و عدم حاجته فی إفاضته إلی ما یفیضه و لا إلی من یفیض علیه.

و لیس من البعید أن یکون المراد بالفضل ما یبسطه الله من عطائه علی عامه خلقه،و بالرحمه خصوص ما یفیضه علی المؤمنین فإن رحمه السعاده الدینیه إذا انضمت إلی النعمه العامه من حیاه و رزق و سائر البرکات العامه کان المجموع منهما أحق بالفرح و السرور و أحری بالانبساط و الابتهاج.

و من الممکن أن یتأید ذلک بقوله:« بِفَضْلِ اللّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ »حیث أدخلت باء السببیه علی کل من الفضل و الرحمه،و هو مشعر بکون کل واحد منهما سببا مستقلا و إن جمع بینهما ثانیا بقوله:« فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا »للدلاله علی استحقاق مجموعهما لأن ینحصر فیه الفرح.

و یمکن أن یکون المراد بالفضل غیر الرحمه من الأمور المذکوره فی الآیه السابقه أعنی الموعظه و شفاء ما فی الصدر و الهدی،و المراد بالرحمه الرحمه بمعناها المذکور فی الآیه السابقه و هی العطیه الخاصه الإلهیه التی هی سعاده الحیاه فی الدنیا و الآخره.

و المعنی علی هذا أن ما تفضل الله به علیهم من الموعظه و شفاء ما فی الصدور

و الهدى،و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيبه ذلک أحق أن يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه :«وَ لَوْ لاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يُزَكِّي مَنْ يَشٰاءُ:» النور:-٢١ حيث نسب زکاتهم إلى الفضل و الرحمه معا و استناد الزکاه إلى الفضل بمعنى العطيه العامه بعيد عن الفهم، و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد فى الروايه من تفسير الآيه بالنبى ص و على (ع)أو بالقرآن و الاختصاص به و سيجىء إن شاء الله.

و قوله:« فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا »ذکروا أن الفاء فى قوله:« فَلْيَفْرَحُوا »زائده کقول الشاعر:«فإذا قتلت فعند ذلک فاجزعى.»و الظرف أعنى قوله:« فَبِذٰلِكَ » بدل من قوله:« بِفَضْلِ اللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ »،و متعلق بقوله:« فَلْيَفْرَحُوا »قدم عليه لإفاده الحصر،و قوله:« هُوَ خَيْرٌ مِمّٰا يَجْمَعُونَ »بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلک کله أن الآيه تفريع على مضمون الآيه السابقه فإنه تعالى لما خاطب الناس امتنانا عليهم بأن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما فى صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرع عليه أنه ينبغى لهم حينئذ أن يفرحوا بهذا الذى امتن به عليهم من الفضل و الرحمه لا بالمال الذى يجمعونه فإن ذلک-و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم-خير من المال الذى ليس إلا فتنه ربما أهلکتهم و أشقتهم.

قوله تعالى:« قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً » إلى آخر الآيه.نسبه الرزق و هو ما يمد الإنسان فى بقائه من الأمور الأرضيه من مأکول و مشروب و ملبوس و غيرها إلى الإنزال مبنى على حقيقه يفيدها القرآن و هى أن الأشياء لها خزائن عند الله تتنزل من هناک على حسب ما قدرها الله سبحانه، قال تعالى :«وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ:» الحجر:-٢١ و قال تعالى :«وَ فِي السَّمٰاءِ رِزْقُكُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ:» الذاريات:-٢٢ و قال :«وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ:» الزمر:-٦ و قال :«وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ:» الحديد:-٢٥.

و أما ما قيل:إن التعبير بالإنزال إنما هو لکون أرزاق العباد من المطر الذى

ينزله الله من السماء،فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته فى جميع الموارد التى عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما فى الأنعام و فى الحديد،و الرزق الذى تذكر الآيه أن الله أنزله لهم فجعلوا منه حراما و حلالا هو الأنعام من الإبل و الغنم كالوصيله و السائبه و الحام و غيرها.

و اللام فى قوله:« لَكُمْ »للغايه و تفيد معنى النفع أى أنزل الله لأجلكم و لتنتفعوا به،و ليست للتعديه فإن الإنزال إنما يتعدى بعلى أو إلى،و من هنا أفاد الكلام معنى الإباحه و الحل أى أنزلها الله فأحلها،و هذا هو النكته فى تقديم التحريم على الإحلال فى قوله:« فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً »أى كان الله أحله لكم بإنزاله رزقا لكم تنتفعون به فى حياتكم و بقائكم و لكنكم قسمتموه قسمين من عند أنفسكم فحرمتم قسما و أحللتم آخر فالمعنى:قل لهم يا محمد:أخبرونى عما أنزل الله لكم و لأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين و جعلتم بعضه حراما و بعضه حلالا ما هو السبب فى ذلك؟و من البين أنه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى.

و قوله:« قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّٰهِ تَفْتَرُونَ »سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق إلى حرام و حلال،و إذ كان من البين أنه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربهم بوحى أو رسول كان من المتعين أنه افتراء فالاستفهام فى سياق الترديد كنايه عن إثبات الافتراء لهم و توبيخ و ذم.

و الذى يقضى به النظر الابتدائى أن الترديد فى الآيه غير حاصر إذ كما يجوز أن يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام و حلال عن إذن من الله أو افتراء عليه تعالى كذلك يجوز أن يكون عن مصلحه أحرزوها أو زعموها فى ذلك أو عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فيكون افتراء عليه.

و من وجه آخر الترديد فى الآيه بين إذن الله و الافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا و هو دائر بينهم إما أن يكون من الله أو افتراء عليه،و من الممكن أن يمنع ذلك فى بادئ النظر فكثير من السنن الدائره بين الناس كونتها طبيعه مجتمعهم أو عادتهم القوميه و غير ذلك.

لکن التدبر فی کلامه تعالی و البحث العمیق یدفع ذلک فإن القرآن یری أن الحکم یختص بالله تعالی،و لیس لأحد من خلقه أن یبادر إلی تشریع حکم و وضعه فی المجتمع الإنسانی،قال تعالی :«إِنِ الْحُکْمُ إِلاّ لِلّهِ:» یوسف:-۴۰.

و قد أشار تعالی إلی لم ذلک فی قوله :«فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ:» الروم:-۳۰ فتبین به أن معنی کون الحکم لله کونه معتمدا علی الخلقه و الفطره منطبقا علیها غیر مخالف لما ینطق به الکون و الوجود.

و ذلک أن الله سبحانه لم یخلق الخلق عبثا کما قال :«أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناکُمْ عَبَثاً» المؤمنون:-۱۱۵ بل خلقهم لأغراض إلهیه و غایات کمالیه یتوجهون إلیها بحسب جبلتهم و یسیرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم إلیه من السبیل المیسر لهم کما قال :«أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدی:» طه:-۵۰، و قال :«ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ:» عبس:-۲۰.

فوجود الأشیاء فی بدء خلقها مناسب لما هیئ لها من منزله الکمال مجهز بقوی و أدوات یتوسل بها إلی غایتها،و لا یسیر شیء منها إلی کماله المهیا له إلا من طریق الصفات الاکتسابیه و الأعمال،فمن الواجب بالنظر إلی ذلک أن یکون الدین أعنی القوانین الجاریه فی الصفات و الأعمال الاکتسابیه منطبقا علی الخلقه و الفطره فإن الفطره لا تنسی غایتها و لا تتخطاها،و لا تبعث نحو فعل و لا تزجر عن فعل إلا لدعوه ما جهزت به إلیه،و لا یدعو الجهاز إلا لأجل ما جهز لأجله و هو الغایه.

فالإنسان لما کان مجهزا بجهاز التغذیه و النکاح کان حکمه الحقیقی فی دین الفطره هو التغذی و النکاح دون الجوکیه و الرهبانیه مثلا،و لما کان مطبوعا علی الاجتماع و التعاون کان من حکمه أن یشارک سائر الناس فی مجتمعهم و یقوم بالأعمال الاجتماعیه، و علی هذا القیاس.

فالذی یتعین للإنسان من الأحکام و السنن هو الذی یدعوه إلیه الکون العالمی الذی هو جزء حقیر منه،و قد جهز وجوده بما یسوقه إلیه من مرحله الکمال،فهذا

الكون العام المرتبط بعض أجزائه ببعض،و هو مركب إراده الله تعالى هو الحامل للشريعه الفطريه الإنسانيه،و الداعى إلى دين الله الحنيف.

فالدين الحق هو حكم الله سبحانه لا حكم إلا له،و هو المنطبق على الخلقه الإلهيه،و ما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الإنسان إلا إلى الشقاء و الهلاك و لا يهديه إلا إلى عذاب السعير.

و من هنا ينحل ما تقدم من العقدتين فإن الحكم لما كان لله سبحانه وحده كان كل حكم دائر بين الناس إما حكما لله حقيقه مأخوذا من لدنه بوحى أو رساله أو حكما مفترى على الله،و لا ثالث للقسمين.

على أن المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التى ابتدعوها و استنوا بها فيما بينهم إلى الله سبحانه كما يشير إليه قوله تعالى :«وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللّهُ أَمَرَنا بِها:» الآيه الأعراف:-٢٨.

قوله تعالى:« وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَهِ »إلى آخر الآيه،لما كان جواب الاستفهام المتقدم:« آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ »معلوما من المورد،و هو أنه افتراء،استعظم وخامه عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البداهه فلا محاله له أثر سيئ،و لذلك قال تعالى إيعادا و تهديدا:« وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَهِ ».

و أما قوله:« إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ »فهو شكوى و عتبى يشار به إلى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمه الله، و عدم شكرهم قبال عطيته و نعمته،و المراد بالفضل هاهنا هو العطيه الإلهيه فإن الكلام فى الرزق الذى أنزله الله لهم و هو الفضل و تحريمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجوع ذيل الآيه إلى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته،و المعنى أن الله ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمه الله و رزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامه.

قوله تعالی:« وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً »إلی آخر الآیه،قال الراغب: الشأن الحال و الأمر الذی یتفق و یصلح، و لا یقال إلا فیما یعظم من الأحوال و الأمور قال:« کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ »انتهی.

و قوله:« وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ »الظاهر أن الضمیر إلی الله سبحان و من الأولی للابتداء و النشوء و الثانیه للبیان،و المعنی و لا تتلو شیئا هو القرآن ناشئا و نازلا من قبله تعالی،و الإفاضه فی الفعل الخوض فیه جمعا.

و قد وقع فی قوله:« إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً »التفات من الغیبه إلی التکلم مع الغیر،و النکته فیه الإشاره إلی کثره الشهود فإن لله شهودا علی أعمال الناس من الملائکه و الناس و الله من ورائهم محیط،و العظماء یتکلمون عنهم و عن غیرهم للدلاله علی أن لهم أعوانا و خدمه.

و لیس ینبغی أن یغفل عن أن أصل الالتفات یبدأ من أول الآیه فإن الآیات السابقه کانت تخاطب النبی ص و تأخذ المشرکین علی الغیبه و تکلمهم بوساطته من غیر أن تواجهه بشیء من الخطاب یخص نفسه،و قد حولت هذه الآیه وجه الکلام إلی النبی ص بما یخص به نفسه فقالت:« وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ مٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ »ثم جمعته و المشرکین و غیرهم جمیعا فی خطاب واحد فقالت:« وَ لاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّٰ کُنّٰا عَلَیْکُمْ شُهُوداً »و ذلک بضمهم إلی النبی ص و هم علی غیبتهم و بسط الخطاب علی الجمیع بنوع من التغلیب کما تقول لمخاطبک أنت و قومک تفعلون کذا و کذا.

و الدلیل علی أن هذا الخطاب بنحو الضم و التغلیب قوله بعده:« وَ مٰا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ »إلخ،فإنه یکشف عن کون الخطاب معه(ص)جاریا علی ما کان.

و علی أی حال فالتحول المذکور فی خطاب الآیه للإشاره إلی أن السلطنه و الإحاطه التامه الإلهیه واقعه علی الأعمال شهاده و علما علی أتم ما یکون من کل جهه من غیر أن یستثنی منه نبی و لا مؤمن و لا مشرک أو یغفل عن عمل من الأعمال فلا یتوهمن أحد أن الله یخفی علیه شیء من أمره فلا یحاسبه علیه یوم القیامه،

و لیکن هذا هو ظنه بربه یوم القیامه و لیأخذ حذره.

و ذکر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله فی قوله قبلا:« وَ مٰا تَکُونُ فِی شَأْنٍ » فإن أحد شئونه(ص)للإیماء إلی أهمیه أمرها و مزید العنایه بها.

و فی الآیه أولا تشدید فی العظه علی النبی ص و علی أمته و ثانیا:أن الذی یتلوه النبی ص من القرآن للناس من وحی الله و کلامه لا یطرقه تغییر و لا یدب فیه باطل لا فی تلقیه من الله و لا فی تلاوته للناس فالآیه قریبه المضمون من قوله :

«عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ:» الجن:-٢٨.

و قوله:« وَ مٰا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقٰالِ ذَرَّهٍ »إلی آخر الآیه. العزوب الغیبه و التباعد و الخفاء،و فیه إشاره إلی حضور الأشیاء عنده تعالی من غیر غیبه و حفظه لها فی کتاب من غیر زوال،و قد تقدم بعض ما یتعلق به من الکلام فی ذیل قوله :

«وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ:» الأنعام:-٥٩ فی الجزء السابع من الکتاب.

قوله تعالی:« أَلاٰ إِنَّ أَوْلِیٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ »استئناف فی الکلام غیر أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه إلی الإیمان بکتاب الله و الندب إلی توحید الله تعالی بمعناه الوسیع.

و للدلاله علی أهمیه المطلب افتتح بلفظه« أَلاٰ »التنبیهیه،و الله سبحانه یذکر فی هذه الآیه و الآیتین بعدها أولیاءه و یعرفهم و یصف آثار ولایتهم و ما یختصون به من الخصیصه.

و الولایه و إن ذکروا لها معانی کثیره لکن الأصل فی معناها ارتفاع الواسطه الحائله بین الشیئین بحیث لا یکون بینهما ما لیس منهما،ثم استعیرت لقرب الشیء من الشیء بوجه من وجوه القرب کالقرب نسبا أو مکانا أو منزله أو بصداقه أو غیر ذلک و لذلک یطلق الولی علی کل من طرفی الولایه،و خاصه بالنظر إلی أن کلا منهما یلی من الآخر ما لا یلیه غیره فالله سبحانه ولی عبده المؤمن لأنه یلی أمره و یدبر شأنه فیهدیه إلی صراطه المستقیم و یأمره و ینهاه فیما ینبغی له أو لا ینبغی و ینصره فی الحیاه الدنیا و فی الآخره.

و المؤمن حقا ولی ربه لأنه یلی منه إطاعته فی أمره و نهیه و یلی منه عامه البرکات المعنویه من هدایه و توفیق و تأیید و تسدید و ما یعقبها من الإکرام بالجنه و الرضوان.

فأولیاء الله-علی أی حال-هم المؤمنون فإن الله یعد نفسه ولیا لهم فی حیاتهم المعنویه حیث یقول :«وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ:» آل عمران:-۶۸.

غیر أن الآیه التالیه لهذه الآیه المفسره للکلمه تأبی أن تکون الولایه شامله لجمیع المؤمنین و فیهم أمثال الذین یقول الله سبحانه فیهم :«وَ مٰا یُؤْمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِکُونَ:» یوسف:-۱۰۶ فإن قوله فی الآیه التالیه:« اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ »یعرفهم بالإیمان و التقوی مع الدلاله علی کونهم علی تقوی مستمر سابق علی إیمانهم من حیث الزمان حیث قیل:« آمَنُوا »ثم قیل عطفا علیه:« وَ کٰانُوا یَتَّقُونَ » فدل علی أنهم کانوا یستمرون علی التقوی قبل تحقق هذا الإیمان منهم و من المعلوم أن الإیمان الابتدائی غیر مسبوق بالتقوی بل هما متقاربان أو هو قبل التقوی و خاصه التقوی المستمر.

فالمراد بهذه الإیمان مرتبه أخری من مراتب الإیمان غیر المرتبه الأولی منه.

فقد تقدم فی الجزء الأول من الکتاب آیه ۱۳۰ من البقره أن لکل من الإیمان و الإسلام و کذا الشرک و الکفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الأولی من الإسلام إجراء الشهادتین لسانا و التسلیم ظاهرا،و تلیه المرتبه الأولی من الإیمان و هو الإذعان بمؤدی الشهادتین قلبا إجمالا-و إن لم یسر إلی جمیع ما یعتقد فی الدین من الاعتقاد الحق،و لذا کان من الجائز أن یجتمع مع الشرک من بعض الجهات،قال تعالی :

«وَ مٰا یُؤْمِنُ أَکْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاّٰ وَ هُمْ مُشْرِکُونَ» یوسف:-۱۰۶.

و لا یزال إسلام العبد یصفو و ینمو حتی یستوعب تسلیمه لله سبحانه فی کل ما یرجع إلیه و إلیه مصیر کل أمر،و کلما ارتفع الإسلام درجه و رقی مرتبه کان الإیمان المناسب له الإذعان بلوازم تلک المرتبه حتی یسلم العبد لربه حقیقه معنی ألوهیته و ینقطع عنه السخط و الاعتراض فلا-یسخط لشیء من أمره من قضاء و قدر و حکم،و لا یعترض علی شیء من إرادته،و بإزاء ذلک الإیمان بالیقین بالله و جمیع

ما يرجع إليه من أمر،و هو الإيمان الكامل الذى تتم به للعبد عبوديته.

قال تعالى :«فَلاَ وَ رَبِّکَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوکَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» النساء:-۶۵،و الأشبه أن تكون هذه المرتبه من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآيه أعنى قوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ »فإنه الإيمان المسبوق بتقوى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى كما تقدم.

على أن توصيفه أهل هذا الإيمان بأنهم« لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »يدل على أن المراد منه الدرجه العاليه من الإيمان الذى يتم معه معنى العبوديه و المملوكيه المحضه للعبد الذى يرى معه أن الملک لله وحده لا شريک له، و أن ليس إليه من الأمر شىء حتى يخاف فوته أو يحزن لفقده.

و ذلک أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود إليها،و الحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحبه أو تحقق ما تكرهه مما يعود إليها نفعه أو ضرره، و لا يستقيم تحقق ذلک إلا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكا أو حقا متعلقا بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلک.و أما ما لا علقه للإنسان به بوجه من الوجوه أصلا فلا يخاف الإنسان عليه و لا يحزن لفقده البته.

و الذى يرى كل شىء ملكا طلقا لله سبحانه لا يشاركه فى ملكه أحد لا يرى لنفسه ملكا أو حقا بالنسبه إلى شىء حتى يخاف فى أمره أو يحزن،و هذا هو الذى يصفه الله من أوليائه إذ يقول:« أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » فهؤلاء لا يخافون شيئا و لا يحزنون لشىء لا فى الدنيا و لا فى الآخره إلا أن يشاء الله و قد شاء أن يخافوا من ربهم و أن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم و هذا كله من التسليم لله فافهم ذلک.

فإطلاق الآيه يفيد اتصافهم بهذين الوصفين:عدم الخوف و عدم الحزن فى النشأتين الدنيا و الآخره،و أما مثل قوله تعالى :«إِلاَّ الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ:» الزخرف:-۷۰ فإن ظاهر الآيات و إن كان هو أنها تريد الأولياء بالمعنى الذى تصفه الآيه التى نحن فيها إلا أن إثبات عدم الخوف و الحزن لهم يوم القيامه لا ينفى ذلک عنهم فى غيره.نعم

هناك فرق من جهه أخرى و هو خلوص النعمه و الكرامه و بلوغ صفائها يوم القيامه و كونها مشوبه غير خالصه فى غيره.

و نظيرها قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِى الْحَياهِ الدُّنْيا وَ فِى الْآخِرَهِ» فصلت:-۳۱ فإن الآيات و إن كانت ظاهره فى كون هذا التنزل و القول و البشاره يوم الموت لمكان قوله:« كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »و قوله:

« أَبْشِرُوا »غير أن الإثبات فى وقت لا يكفى للنفى فى وقت آخر كما عرفت.

هذا ما يدل عليه الآيه بحسب إطلاق لفظها و تأييد سائر الآيات لها،و قد قيد أكثر المفسرين قوله:« لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ »-بالاستناد إلى آيات الآخره-بيوم الموت و القيامه،و أهملوا ما تفيده خصوصيه اللفظ فى قوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ »و أخذوا الإيمان و التقوى أمرين متقارنين فرجع المعنى إلى أن أولياء الله هم المتقون من أهل الإيمان و لا خوف عليهم فى الآخره و لا هم يحزنون و هذا-كما عرفت-من التقييد من غير مقيد.

و عمم بعضهم نفى الخوف و الحزن فذكر أنهم متصفون به فى الدنيا و الآخره غير أنه أفسد المعنى من جهه أخرى فقال:إن المراد بالأولياء على ما تفسرهم به الآيه الثانيه جميع المتقين من المؤمنين،و المراد بعدم خوفهم و حزنهم أنهم لا يخافون فى الآخره مما يخاف منه الكافرون و الفاسقون و الظالمون من أهوال الموقف و عذاب الموقف و عذاب الآخره و لا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم و أنهم لا يخافون فى الدنيا كخوف الكفار و لا يحزنون كحزنهم.

قال:و أما أصل الخوف و الحزن فهو من الأعراض البشريه التى لا يسلم منها أحد فى الدنيا،و إنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس و أرضاهم بسنن الله اعتقادا و علما بأنه إذا ابتلاهم بشىء مما يخيف أو يحزن فإنما يربيهم بذلك لتكميل نفوسهم و تمحيصها بالجهاد فى سبيله الذى يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيره.انتهى.

أما تقييده الآيه بأن المنفى عن الأولياء هو الخوف و الحزن اللذين يعرضان

للكفار دون ما يعرض لعامه المؤمنين بحسب الطبع البشرى و استناده فى ذلك إلى الآيات الكثيره فهو من التقييد من غير مقيد،و أما قوله إن أصل الخوف و الحزن مما لا يسلم منه أحد أصلا فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمقه فى البحث عن الأخلاق العاليه و المقامات المعنويه الإنسانيه فحمله ذلك على أن يقيس حال المكرمين من عباد الله المقربين من الأنبياء و الأولياء إلى ما يجده من حال المتوسطين من عامه الناس فزعم أن ما يغشى العامه من الأعراض التى سماها أحوالا طبيعيه يغشى الخاصه لا محاله،و أن ما يتعذر أو يتعسر على المتوسطين من الأحوال فهو كذلك عند الكاملين،و لا يبقى حينئذ للمقامات المعنويه و الدرجات الحقيقيه إلا أنها أسماء ليس وراءها حقيقه،و اعتبارات وضعيه اصطلح عليها نظير المقامات الوهميه و الدرجات الرسميه الاجتماعيه التى نتداولها فى مجتمعاتنا لمصلحه الاجتماع.

فلا وفى حق البحث العلمى حتى يهديه إلى حق النتيجه فيتبين أن التوحيد الكامل يقصر حقيقه الملك فى الله سبحانه فلا يبقى لغيره شىء من الاستقلال فى التأثير حتى يتعلق به لنفسه حب أو بغض أو خوف أو حزن و لا فرح و لا أسى و لا غير ذلك،و إنما يخاف هذا الذى غشيه التوحيد و يحزن أو يحب أو يكره بالله سبحانه، و يرتفع التناقض حينئذ بين قولنا:إنه لا يخاف شيئا إلا الله و بين قولنا:إنه يخاف كثيرا مما يضره و يحذر أمورا يكرهها فافهم ذلك.

و لا البحث القرآنى أتقن و استفرغ فيه الوسع حتى يظهر له أن قوله تعالى:

« أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ »أطلق فيه نفى الخوف و الحزن من غير تقييد بشىء أو حال إلا ما صرح به آيات من وجوب مخافه الله فهؤلاء لا يخافون من شىء فى دنيا و لا آخره إلا من الله سبحانه و لا يحزنون.

و أما الآيات الكثيره التى تصف المؤمنين بعدم الخوف و الحزن عند الموت أو يوم القيامه فهى إنما تصف أحوالهم فى ظرف و لا يستوجب نفى شىء أو إثباته فى مورد خلافه فى غيره و هو ظاهر.

و الآيه مع ذلك تدل على أن هذا الوصف إنما هو لطائفه خاصه من المؤمنين

يمتازون عن غيرهم بمرتبه خاصه من الإيمان تخصهم دون غيرهم من عامه المؤمنين و ذلک بما يفسرها من قوله:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ »بما تقدم من تقرير دلالته.

و بالجمله ارتفاع الخوف من غير الله و الحزن عن الأولياء ليس معناه أن الخير و الشر و النفع و الضرر و النجاه و الهلاک و الراحه و العناء و اللذه و الألم و النعمه و البلاء متساويه عندهم و متشابهه فی إدراکهم فإن العقل الإنسانی بل الشعور العام الحيوانی لا يقبل ذلک.

بل معناه أنهم لا يرون لغيره تعالی استقلالا فی التأثير أصلا،و يقصرون الملک و الحكم فيه تعالی فلا يخافون إلا إياه أو ما يحب الله و يريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه.

قوله تعالی:« لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ فِی الْآخِرَهِ لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »يبشرهم الله تعالی بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله:« لَهُمُ الْبُشْرىٰ »إنشاء للبشاره كان معناه وقوع ما بشر به فی الدنيا و فی الآخره كلتيهما،و إن كان إخبارا بأن الله سيبشرهم بشری كانت البشاره واقعه فی الدنيا و فی الآخره،و أما المبشر به فهل يقع فی الآخره فقط أو فی الدنيا و الآخره معا؟الآيه ساكته عن ذلک.

و قد وقع فی كلامه تعالی بشارات للمؤمنين بما ينطبق علی أوليائه تعالی كقوله تعالی :«وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ:» الروم:-٤٧ و قوله :«إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ:» المؤمن:-٥١ و قوله :«بُشْرٰاكُمُ الْيَوْمَ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ:» الحديد:-١٢ إلی غير ذلک.

و قوله:« لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ »إشاره إلی أن ذلک من القضاء المحتوم الذی لا سبيل للتبدل إليه،و فيه تطييب لنفوسهم.

قوله تعالی:« وَ لاٰ يَحْزُنْکَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّهَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »تأديب للنبی ص بتعزيته و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع فی ربه و الطعن فی دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول فی الآيه التاليه فكاد يحزن لله فسلاه

الله و طیب نفسه بتذکیره ما یسکن وجده و هو أن العزه لله و أنه سمیع لمقالهم علیهم بحاله و حالهم و إذ کان له تعالی کل العزه فلا یعبأ بما اعتزوا به من العزه الوهمیه فهذوا ما هذوا،و إذ کان سمیعا علیما فلو شاء لأخذهم بالنکال و إذ کان لا یأخذهم فإنما فی ذلک مصلحه الدعوه و خیر العاقبه.

و من هنا یظهر أن کلا من قوله:« إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ »و قوله:« هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ »عله مستقله للنهی و لذا جیء بالفصل من غیر عطف.

قوله تعالی:« أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ »إلی آخر الآیه فیه بیان مالکیته تعالی لکل من فی السماوات و الأرض التی بها یتم للإله معنی الربوبیه فإن الرب هو المالک المدبر لأمر مملوکه،و هذا الملک لله وحده لا شریک له فما یدعون له من الشرکاء لیس لهم من معنی الشرکه إلا ما فی ظن الداعین و فی خرصهم من المفهوم الذی لا مصداق له.

فالآیه تقیس شرکاءهم إلیه تعالی و تحکم أن نسبتهم إلیه تعالی نسبه الظن و الخرص إلی الحقیقه و الحق،و الباقی ظاهر.

و قد قیل:« مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ » و لم یقل:ما فی السماوات و ما فی الأرض لأن الکلام فی ربوبیه العباد من ذوی الشعور و العقل و هم الملائکه و الثقلان.

قوله تعالی:« هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً » الآیه.الآیه تتمم البیان الذی أورد فی الآیه السابقه لإثبات ربوبیته تعالی و الربوبیه- کما تعلم-هی الملک و التدبیر،و قد ذکر ملکه تعالی فی الآیه السابقه،فبذکر تدبیر من تدابیره العامه فی هذه الآیه تصلح به عامه معیشه الناس و تستبقی به حیاتهم یتم له معنی الربوبیه.

و للإشاره إلی هذا التدبیر ذکر مع اللیل سکنهم فیه،و مع النهار إبصارهم فیه الباعث لهم إلی أنواع الحرکات و التنقلات لکسب مواد الحیاه و إصلاح شئون المعاش فلیس یتم أمر الحیاه الإنسانیه بالحرکه فقط أو بالسکون فقط فدبر الله

سبحانه الأمر فى ذلك بظلمه الليل الداعيه إلى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العى و التعب و النصب و إلى الارتياح و الأنس بالأهل و التمتع مما جمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبوديه،و بضوء النهار الباعث إلى الرؤيه فالاشتياق فالطلب.

قوله تعالى:« قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ »إلى آخر الآيه الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو أن يفصل الموجود الحى بعض أجزاء مادته فيربيه بالحمل أو البيض تربيه تدريجيه حتى يتكون فردا مثله،و الإنسان من بينها خاصه ربما يطلب الولد ليكون عونا له على نوائب الدهر و ذخرا ليوم الفاقه،و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عز اسمه منزه عن الأجزاء متعال عن التدريج فى فعله برىء عن المثل و الشبه مستغن عن غيره بذاته.

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكوره كما تعرض لنفيه من جميعها فى قوله :«وَ قٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ:» البقره:-١١٧ و قد مرت الإشاره إلى ذلك فى تفسير الآيات فى الجزء الأول من الكتاب.

و أما الآيه التى نحن فيها فهى مسوقه للاحتجاج على نفى الولد من الجهه الأخيره فحسب و هو أن الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلك إنما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجا فقيرا،و الله سبحانه هو الغنى الذى لا يخالطه فقر فإنه المالك لما فرض فى السماوات و الأرض من شىء.

و قوله:« إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ أى برهان »بِهٰذٰا »إثبات لكونهم إنما قالوه جهلا من غير دليل فيكون محصل المعنى أنه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه و هو أنه تعالى غنى على الإطلاق،و الولد إنما يطلبه من به فاقه و حاجه،و الكلام على ما اصطلح عليه فى فن المناظره من قبيل المنع مع السند.

و قوله:« أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ »توبيخ لهم فى قولهم ما ليس لهم به

علم،و هو مما يستقبحه العقل الإنسانى و لا سيما فى ما يرجع إلى رب العالمين عز اسمه.

قوله تعالى:« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ »تخويف و إنذار بشؤم العاقبه،و فى الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله أولا عنهم من طريق الغيبه قولهم:« اِتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً »ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا إليه و افتروا عليه فقال:« إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بِهٰذٰا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ »و إنما خاطبهم متنكرا من غير أن يعرفهم نفسه حيث قال:

« عَلَى اللّٰهِ »و لم يقل:على أو علينا صونا لعظمه مقامه أن يخالطهم معروفا ثم أعرض عنهم تنزها عن ساحه جهلهم و رجع إلى خطاب رسوله قائلا:« قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ »لأنه إنذار و الإنذار شأنه.

قوله تعالى:« مَتٰاعٌ فِي الدُّنْيٰا ثُمَّ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذٰابَ الشَّدِيدَ بِمٰا كٰانُوا يَكْفُرُونَ »خطاب للنبى ص فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس بحذائه إلا متاع قليل فى الدنيا ثم الرجوع إلى الله و العذاب الشديد الذى يذوقونه.

(بحث روائى)

فى أمالى الشيخ،قال:أخبرنا أبو عمرو قال:أخبرنا أحمد قال:حدثنا يعقوب بن يوسف بن زياد قال:حدثنا نصر بن مزاحم قال:حدثنا محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال": بفضل الله و برحمته»بفضل الله النبى ص،و برحمته على(ع):

أقول:و رواه الطبرسى و ابن الفارسى عنه مرسلا،و رواه أيضا فى الدر المنثور،عن الخطيب و ابن عساكر عنه.

و فى المجمع،قال أبو جعفر الباقر(ع): فضل الله رسول الله ص-و رحمته على بن أبى طالب(ع).

أقول:و ذلك أن النبى ص نعمه أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من

الرساله و مواد الهـدايه،و علی(ع)هو أول فاتـح لباب الولايه و فعليه التحقق بنعمه الهـدايه فهو الرحمه فينطبق الخبر علی ما قدمناه فی تفسير الآيه.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن أبی شـيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البيهقی عن ابن عباس": قل بفضل الله القرآن و برحمته»حين جعلهم من أهل القرآن.

أقول:أی الفضـل مواد المعـارف و الأحكـام التی فيه،و الرحمه فعليه تحقق ذلـک فی العاملين به فيرجع إلی ما قـدمناه فی تفسـير الآيه فتبصر،و لا مخالفه بين هذه الروايه و الروايه السابقه حينئذ بحسب الحقيقه.

و فی تفسير القمی،": فی قوله تعالی:« وَ مٰا تَكُونُ فِی شَأْنٍ »الآيه قال:كان رسول الله ص إذا قرأ هذه الآيه-بكی بكاء شديدا:

أقول:و رواه فی المجمع،عن الصادق(ع).

و فی أمالی المفيـد،بإسـناده عن عبايه الأسـدی عن ابن عباس قال: سـئل أمير المؤمنين علی بن أبی طالب(ع)عن قوله تعالی:« أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ »فقيل له:من هؤلاء الأولياء؟فقال أمير المؤمنين(ع):

قوم أخلصوا لله فی عبادته،و نظروا إلی باطن الدنيا-حين نظر الناس إلی ظاهرها- فعرفوا آجلها حين غرت الخلق سواهم بعاجلها- فتركوا ما علموا أنه سيتركهم، و أماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم.

ثم قال:أيها المطل نفسه بالدنيا-الراكض علی حبائلها-المجتهد فی عماره ما سيخرب منها-أ لم تر إلی مصارع آبائک فی البلاد- و مصارع أبنائک تحت الجنادل و الثری؟كم مرضت ببـدنک و عللت بكفنک-تسـتوصف لهم الأطباء-و تسـتغيث لهم الأحباء- فلم تغن عنهم غناؤک،و لا ينجع عنهم دواؤک؟

و فی تفسـير العياشـی،عن مرثـد العجلی عن أبی جعفر(ع)قـال: وجـدنا فی كتاب علی بن الحسـين(ع):«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون»

قال:إذا أدوا فرائض الله،و أخذوا بسنن رسول الله ص،و تورعوا عن محارم الله،و زهدوا فی عاجل زهره الدنيا،و رغبوا فيما عند الله،و اكتسبوا الطيب من رزق الله، و لا يريدون هذا التفاخر و التكاثر-ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبه-فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا-و يثابون على ما قدموا لآخرتهم.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و الحكيم و الترمذی عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبی ص يقول: إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان-حتی يحب لله و يبغض لله تعالی-فإذا أحب الله و أبغض الله-فقد استحق الولاء من الله. الحديث.

أقول:و الروايات الثلاث فی معنی الولايه يرجع بعضها إلی بعض و ينطبق الجميع علی ما قدمناه فی تفسير الآيه.

و فيه،أخرج ابن المبارک و ابن أبی شيبه و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبی ص: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» قال:يذكر الله لرؤيتهم.

أقول:ينبغی أن يحمل إلی أن من آثار ولايتهم ذلک لا أن كل من كان كذلک كان من أهل الولايه إلا أن يراد أنهم كذلک فی جميع أحوالهم و أعمالهم، و فی معناها

ما روی عن أبی الضحی و سعد عن النبی ص: فی الآيه قال:إذا رأوا ذكر الله.

و فيه،أخرج ابن أبی الدنيا فی ذكر الموت و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو القاسم بن منده فی كتاب سؤال القبر من طريق أبی جعفر عن جابر بن عبد الله قال: أتی رجل من أهل الباديه رسول الله ص فقال:يا رسول الله أخبرنی عن قول الله:

« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ- لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ فِی الْآخِرَهِ »فقال رسول الله ص:أما قوله لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِی الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا »فهی الرؤيا الحسنه تری للمؤمن فيبشر بها فی دنياه،و أما قوله:« وَ فِی الْآخِرَهِ »فإنها بشاره المؤمن عند الموت أن الله قد غفر لک- و لمن حملک إلی قبرک.

أقول:و فی هذا المعنی روايات كثيره من طرق أهل السنه و رواها الصدوق

مرسلا و قوله:«ترى للمؤمن»بصيغه المجهول أعم من أن يراها هو نفسه أو غيره و قوله:«عند الموت»قد أضيف إليه فى بعض الروايات البشرى يوم القيامه بالجنه.

و فى المجمع،: فى قوله:« لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ »:عن أبى جعفر(ع):فى معنى البشاره فى الدنيا:الرؤيا الصالحه يراها المؤمن لنفسه-أو ترى له،و فى الآخره الجنه-و هى ما يبشرهم به الملائكه عند خروجهم من القبور،و فى القيامه إلى أن يدخلوا الجنه-يبشرونهم حالا بعد حال:

أقول:و قال بعد ذلك و روى ذلك فى حديث مروى عن النبى ص انتهى و روى مثله عن الصادق(ع)و رواه القمى فى تفسيره،مضمرا .

و فى تفسير البرهان،عن ابن شهرآشوب عن زريق عن الصادق(ع): فى قوله تعالى:« لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا »قال:هو أن يبشراه بالجنه عند الموت يعنى محمدا و عليا(ع).

و فى الكافى،بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبه أنه سمع أبا عبد الله(ع) يقول: إن الرجل إذا وقعت نفسه فى صدره رأى.قلت:جعلت فداك و ما يرى؟ قال:يرى رسول الله ص فيقول له رسول الله.أنا رسول الله أبشر،ثم قال:

ثم يرى على بن أبى طالب(ع)فيقول:أنا على بن أبى طالب الذى كنت تحب- أما لأنفعنك اليوم.

قال:قلت له:أ يكون أحد من الناس يرى هذا-ثم يرجع إلى الدنيا؟قال:

إذا رأى هذا أبدا مات و أعظم ذلك-قال:و ذلك فى القرآن قول الله عز و جل:

« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرىٰ-فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ فِي الْآخِرَةِ-لاٰ تَبْدِيلَ لِكَلِمٰاتِ اللّٰهِ ».

أقول:و هذا المعنى مروى عن أئمه أهل البيت(ع)بطرق كثيره جدا و قوله:«و أعظم ذلك»أى عده عظيما.و قد أخذ فى الحديث قوله تعالى:

« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ »كلاما مستقلا ففسره بما فسر،و تقدم نظيره فى روايه الدر المنثور،عن جابر بن عبد الله عن النبى ص مع أن ظاهر السياق كون الآيه مفسره لقوله قبلها:« أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهِ »الآيه و هو يؤيد ما قدمناه فى بعض الأبحاث

السابقه أن جميع التقادير من التركيبات الممكنه فی كلامه تعالی حجه يحتج بها كما فی قوله :«قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ:» الأنعام:-٩١ و قوله:« قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ »و قوله:« قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ »و قوله:« قُلِ اللّهُ ».

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی شيبه و أحمد و الترمذی و صححه و ابن مردويه عن أنس قال:قال رسول الله ص: إن الرساله و النبوه قد انقطعت فلا رسول بعدی و لا نبی-و لكن المبشرات.قالوا:يا رسول الله و ما المبشرات قال:رؤيا المسلم و هی جزء من أجزاء النبوه:

أقول:و روی ما فی معناه عن أبی قتاده و عائشه عنه(ص) .

و فيه،أخرج ابن أبی شيبه و مسلم و الترمذی و أبو داود و ابن ماجه عن أبی هريره قال:قال رسول الله ص: إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، و أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا،و رؤيا المسلم جزء من سته و أربعين جزء من النبوه، و الرؤيا ثلاث:فالرؤيا الصالحه بشری من الله،و الرؤيا من تحزن-و الرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه.و إذا رأی أحدكم ما يكره-فليقم و ليتفل و لا يحدث به الناس الحديث.

و فيه،أخرج ابن أبی شيبه عن عوف بن مالك الأشجعی قال:قال رسول الله ص: الرؤيا علی ثلاثه:تخويف من الشيطان-ليحزن به ابن آدم-و منه الأمر يحدث به نفسه فی اليقظه-فيراه فی المنام،و منه جزء من سته و أربعين جزء من النبوه.

أقول:أما انقسام الرؤيا إلی الأقسام الثلاثه كما ورد فی الروايتين و فی معناهما روايات أخری من طرق أهل السنه و أخری من طرق أئمه أهل البيت(ع) فسيجیء توضيحه فی تفسير سوره يوسف إن شاء الله تعالی.

و أما كون الرؤيا الصالحه جزء من سته و أربعين جزء من النبوه فقد وردت به روايات كثيره من طرق أهل السنه رواها عنه(ص)جمع من الصحابه كأبی هريره و عباده بن الصامت و أبی سعيد الخدری و أبی رزين،

و روی أنس و أبو قتاده و عائشه عنه(ص): أنها من أجزاء النبوه كما تقدم.

و عن الصفدی أنه وجه الروایه بأن مده نبوه النبی ص ثلاث و عشرون سنه دعا فیها إلی ربه ثلاث عشره سنه قبل الهجره،و عشر سنین بعدها،و قد ورد أن الوحی کان یأتیه سته أشهر من أولها من طریق الرؤیا الصالحه حتی نزل القرآن، و النسبه بین السته الأشهر و بین الثلاث و عشرین سنه نسبه الواحد إلی السته و الأربعین.

و قد روی عن ابن عمر و أبی هریره عنه(ص): أنها جزء من سبعین جزء من النبوه فإن صحت هذه الروایه کان المراد بالتعداد مجرد التکثیر من غیر خصوصیه لعدد السبعین.

و اعلم أن الرؤیا ربما أطلقت فی لسان القرآن و الحدیث علی ما یشاهده الرائی ما لا یشاهده غیره و إن لم ینم نومه الطبیعی،و قد نبهنا علیه فی مباحث النبوه فی الجزء الثانی من الکتاب و أحسن کلمه فی تفسیرها

قوله(ص): تنام عینی و لا ینام قلبی.

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۷۱ الی ۷۴]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ یٰا قَوْمِ إِنْ کٰانَ کَبُرَ عَلَیْکُمْ مَقٰامِی وَ تَذْکِیرِی بِآیٰاتِ اَللّٰهِ فَعَلَی اَللّٰهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَکُمْ وَ شُرَکٰاءَکُمْ ثُمَّ لاٰ یَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّهً ثُمَّ اُقْضُوا إِلَیَّ وَ لاٰ تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِینَ (۷۲) فَکَذَّبُوهُ فَنَجَّیْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی اَلْفُلْکِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلاٰئِفَ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُنْذَرِینَ (۷۳) ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلیٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ کَذٰلِکَ نَطْبَعُ عَلیٰ قُلُوبِ اَلْمُعْتَدِینَ (۷۴)

(بيان)

تذكر الآيات إجمال قصه نوح(ع)و من بعده من الرسل إلى زمن موسى و هارون(ع)،و ما عامل به الله سبحانه أممهم المكذبين لرسلهم حيث أهلكهم و نجا رسله و المؤمنين بهم ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الأمه.

قوله تعالى:« وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ »إلى آخر الآيه المقام مصدر ميمى و اسم زمان و مكان من القيام،و المراد به الأول أو الثالث أي قيامى بأمر الدعوه إلى توحيد الله أو مكانتي و منزلتي و هي منزله الرساله،و الإجماع العزم و ربما يتعدى بعلى قال الراغب:و أجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل إليه بالفكره نحو فأجمعوا كيدكم و شركاءكم.

و الغمه هي الكربه و الشده و فيه معنى التغطيه كان الهم يغطى القلب،و منه الغمام للغيم سمى به لتغطيته وجه السماء،و القضاء إلى الشيء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلك.

و معنى الآيه:« وَ اتْلُ »يا محمد« عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ »و خبره العظيم حيث واجه قومه و هو واحد يتكلم عن نفسه،و هو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك،و أتم الحجه على مكذبيه في ذلك« إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ إِنْ كٰانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقٰامِي »و نهضتي لأمر الدعوه إلى التوحيد أو منزلتي من الرساله« وَ تَذْكِيرِي بِآيٰاتِ اللّٰهِ »و هو داعيكم لا محاله إلى قتلى و إيقاع ما تقدرون عليه من الشر بي لإراحه أنفسكم مني« فَعَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْتُ »قبال ما يهددني من تحرج صدوركم و ضيق نفوسكم على بإرجاع أمري إليه و جعله وكيلا يتصرف في شئوني و من غير أن أشتغل بالتدبير« فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكٰاءَكُمْ »الذين تزعمون أنهم ينصرونكم في الشدائد،و اعزموا على بما بدا لكم،و هذا أمر تعجيزى، ثُمَّ لاٰ يَكُنْ

أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

»إن لم تكونوا اجتهدتم فى التوسل إلى كل سبب فى دفعى« ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ »بدفعى و قتلى« وَ لاٰ تُنْظِرُونِ »و لا تمهلونى.

و فى الآيه تحديه(ع)على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم،و إظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشركائهم و آلهتهم.

قوله تعالى:« فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمٰا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ »إلى آخر الآيه.تفريع على توكله بربه،و قوله:« فَمٰا سَأَلْتُكُمْ »إلخ،بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتم و أعرضتم عن استجابه دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أ تضرر فى إعراضكم شيئا لأنى إنما كنت أ تضرر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجرا على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله.

و قوله:« وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »أى الذين يسلمون الأمر إليه فيما أراده لهم و عليهم،و لا يستكبرون عن أمره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهره حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به إيصال نفع أو دفع شر.

قوله تعالى:« فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنٰاهُمْ خَلاٰئِفَ »إلى آخر الآيه، الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الأرض و الباقين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ »إلى آخر الآيه،يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح إلى زمن موسى(ع).و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزه التى اقترحتها الأمم على أنبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين أممهم،و يؤيده قوله بعده:« فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ »إلخ،فإن السابق إلى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن فى وسعهم أن يؤمنوا ثانيا بما كذبوا به أولا.

و لازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجىء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثوا دعوتهم فيهم و دعوهم إلى توحيد الله فكذبوا به و بهم ثم اقترحوا

علیهم آیه معجزه فجاءوهم بها فلم یؤمنوا.

و قد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآیه فی تفسیر قوله :«فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ :الأعراف:-۱۰۱ فی الجزء الثامن من الکتاب،و بینا هناک أن فی الآیه إشاره إلی عالم الذر غیر أنه لا ینافی إفادتها لما قدمناه من المعنی آنفا فلیراجع.

(بحث روائی)

فی الکافی،عن محمد بن یحیی عن محمد بن الحسین عن محمد بن إسماعیل عن صالح بن عقبه عن عبد الله بن محمد الجعفی و عقبه جمیعا عن أبی جعفر(ع)قال: إن الله عز و جل خلق الخلق-فخلق من أحب مما أحب-فکان مما (۱)أحب أن خلقه من طین الجنه-و خلق من أبغض مما أبغض-و کان ما أبغضه أن خلقه من طینه النار-ثم بعثهم فی الظلال،فقلت:و أی شیء الظلال؟فقال:أ لم تر إلی ظلک فی الشمس شیء و لیس بشیء-.

ثم بعث منهم النبیین-فدعوهم إلی الإقرار بالله عز و جل:« وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ »ثم دعوهم إلی الإقرار بالنبیین-فأقر بعض و أنکر بعض،ثم دعوهم إلی ولایتنا فأقر بها و الله من أحب-و أنکرها من أبغض،و هو قوله:« فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ».ثم قال أبو جعفر(ع):کان التکذیب من قبل:.

أقول:و رواه فی العلل،بإسناده إلی محمد بن إسماعیل عن صالح عن عبد الله و عقبه عنه(ع)،و رواه العیاشی عن الجعفی عنه(ع) .

و فی تفسیر العیاشی،عن زراره و حمران عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع):

خلق الخلق و هم أظله-فأرسل رسوله محمدا ص-فمنهم من آمن به و منهم من کذبه- ثم بعثه فی الخلق الآخر فآمن به من کان آمن به فی الأظله-و جحده من جحده یومئذ

ص:۱۰۴

۱- ۱) ما ظ.

فقال:« فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ».

أقول:قد فصلنا القول فی ما يسمی عالم الذر فی تفسير قوله تعالی:« وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ » الآيه.و أوضحنا هناك أن آيات الذر تثبت عالما إنسانيا آخر غير هذا العالم الإنسانی المادی التدريجی المشوب بالآلام و المصائب و المعاصی و الآثام المشهود لنا من طريق الحس.

و هو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعا من المقارنه لكنه غير محكوم بهذه الأحكام الماديه،و ليس تقدمه علی عالمنا هذا تقدما بالزمان بل بنوع آخر من التقدم نظير التقدم المستفاد من قوله :«أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ:» يس:-٨٢ فإن«كن» و«يكون»يحكيان عن مصداق واحد و هو وجود الشیء خارجا لكن هذا الوجود بعينه بوجهه الذی إلی الله متقدم عليه بوجهه الآخر، و هو بوجهه الربانی غير تدريجی و لا زمانی و لا غائب عن ربه و لا منقطع عنه بخلاف وجهه إلی الخلق علی التفصيل الذی تقدم هناك.

و الذی أوردناه من الروايه فی هذا البحث الروائی تشير إلی عالم الذر كالذی مرت سابقا غير أنها تختص بمزيه و هی ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإن بإجاده التأمل فی هذا التعبير يتضح المراد أحسن الاتضاح فإن فی الأشياء الكونيه أمورا هی كالظلال فی أنها لازمه لها حاكيه لخصوصيات وجودها و آثار وجودها،و مع ذلك فهی هی و ليست هی.

فإنا إذا نظرنا إلی الأشياء و جردنا النظر و محضناه فی كونها صنع الله و فعله المحض غير المنفك منه و لا المنفصل عنه-و هی نظره حقه واقعيه-لم يتحقق فيها إلا التسليم لله و الخضوع لإرادته و التذلل لكبريائه و التعلق برحمته و أمر ربوبيته و الإيمان بوحدانيته و بما أرسل به رسله و أنزله إليهم من دينه.

و هذه الوجودات ظلال-أشياء و ليست بأشياء-إذا قيست إلی وجودات الأشياء الماديه،و أخذ العالم المادی أصلا مقيسا إليه و هو الذی بنت عليه الآيات من جهه كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفا لا محيص عنه مسئولا عنه يوم القيامه.

و لو أخذت جهه الرب تعالى أصلا و قيس إليه هذا العالم المادى بما فيه من الموجودات الماديه-و هو أيضا نظر حق-كان هذا العالم هو الظل و كانت جهه الرب تعالى هو الأصل و الشخص الذى له الظل كما يشير إليه قوله تعالى :«كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ:» ، القصص:-٨٨ و قوله :«كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ:» ، الرحمن-٢٧.

و أما ما رواه العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد الله(ع):فى قوله: « فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ »قال:«بعث الله الرسل إلى الخلق-و هم فى أصلاب الرجال و أرحام النساء-فمن صدق حينئذ صدق بعد ذلك،و من كذب حينئذ كذب بعد ذلك ».

فظاهره أن للبعث تعلقا بالنطف التى فى الأصلاب و الأرحام.و هم أحياء عقلاء مكلفون،و هذا مما يدفعه الضروره كما تقدم فى الكلام على آيه الذر اللهم إلا أن يحمل على أن المراد كون عالم الذر محيطا بهذا العالم المادى التدريجى الزمانى من جهه كونه غير زمانى فلا يتعلق الوجود الذرى بزمان دون زمان و هو مع ذلك محمل بعيد.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧۵ الى ٩٣]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ بِآيٰاتِنٰا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧۵) فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا إِنَّ هٰذٰا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧۶) قٰالَ مُوسىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هٰذٰا وَ لاٰ يُفْلِحُ اَلسّٰاحِرُونَ (٧٧) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا وَ تَكُونَ لَكُمَا اَلْكِبْرِيٰاءُ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا نَحْنُ لَكُمٰا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ اِئْتُونِي بِكُلِّ سٰاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمّٰا جٰاءَ اَلسَّحَرَةُ قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا مٰا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمّٰا أَلْقَوْا قٰالَ مُوسىٰ مٰا جِئْتُمْ بِهِ اَلسِّحْرُ إِنَّ اَللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ اَلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اَللّٰهُ اَلْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِي اَلْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ اَلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨۴) فَقٰالُوا عَلَى اَللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (٨۵) وَ نَجِّنٰا بِرَحْمَتِكَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلْكٰافِرِينَ (٨۶) وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءٰا لِقَوْمِكُمٰا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اِجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قٰالَ مُوسىٰ رَبَّنٰا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوٰالاً فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا رَبَّنٰا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اِطْمِسْ عَلىٰ أَمْوٰالِهِمْ وَ اُشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُوا حَتّٰى يَرَوُا اَلْعَذٰابَ اَلْأَلِيمَ (٨٨) قٰالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمٰا فَاسْتَقِيمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِيلَ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِي إِسْرٰائِيلَ اَلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتّٰى إِذٰا أَدْرَكَهُ اَلْغَرَقُ قٰالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرٰائِيلَ وَ أَنَا مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلنّٰاسِ عَنْ آيٰاتِنٰا لَغٰافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ اَلطَّيِّبٰاتِ فَمَا اِخْتَلَفُوا حَتّٰى جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

(بيان)

ثم ساق الله سبحانه نبأ موسى و أخيه و وزيره هارون مع فرعون و ملئه و قد أوجز فى القصه غير أنه ساقها سوقا ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثه النبى ص و دعوته عتاه قومه و الطواغيت من قريش و غيرهم،و عدم إيمانهم به إلا ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجئوا إلى الهجره فهاجر هو(ص)و جمع من المؤمنين به إلى المدينه فعقبه فراعنه هذه الأمه و ملؤهم فأهلكهم الله بذنوبهم و بوأ الله المؤمنين ببركه الإسلام مبوأ صدق و رزقهم من الطيبات ثم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم و سيقضى الله بينهم.

فكان ذلك كله تصديقا لما أسر الله سبحانه إلى نبيه ص فى هذه الآيات فيما سيستقبله و قومه من الحوادث،و لقوله(ص)يخاطب أصحابه و أمته:لتتبعن سنه بنى إسرائيل حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

قوله تعالى:« ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ »إلخ،أى ثم بعثنا من بعد نوح و الرسل الذين من بعده موسى و أخاه هارون بآياتنا إلى فرعون و الجماعه الذين يختصون به من قومه و هم القبط فاستكبروا عن آياتنا و كانوا مستمرين على الاجرام.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا »إلخ،الظاهر أن المراد بالحق هو الآيه الحقه كالثعبان و اليد البيضاء،و قد جعلهما الله آيه لرسالته بالحق فلما جاءهم

الحق قالوا و أكدوا القول:إن هذا-يشيرون إلى الحق من الآيه-لسحر مبين واضح كونه سحرا،و إنما سمى الآيه حقا قبال تسميتهم إياها سحرا.

قوله تعالى:« قَالَ مُوسىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هٰذٰا »إلخ،أى فلما سمع مقالتهم تلك و رميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكرا لقولهم فى صوره الاستفهام:« أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَكُمْ »إنه لسحر؟ثم كرر الإنكار مستفهما بقوله:« أَ سِحْرٌ هٰذٰا »؟فمقول القول فى الجمله الاستفهاميه محذوف إيجازا لدلاله الاستفهام الثانى عليه،و قوله:« وَ لاٰ يُفْلِحُ السّٰاحِرُونَ »يمكن أن يكون جمله حاليه معلله للإنكار الذى يدل عليه قوله:« أَ سِحْرٌ هٰذٰا »،و يمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرئ به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنهم لا يفلحون.

قوله تعالى:« قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا »إلخ، اللفت هو الصرف عن الشيء،و المعنى:قال فرعون و ملؤه لموسى معاتبين له:« أَ جِئْتَنٰا لِتَلْفِتَنٰا »و تصرفنا« عَمّٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا »يريدون سنه قدمائهم و طريقتهم « وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيٰاءُ فِی الْأَرْضِ »يعنون الرئاسه و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمون بذلك أنكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله إلى إبطال طريقتنا المستقره فى الأرض،و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها فى الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمه فى المملكه.

و بعباره أخرى إنما جئتما لتبدلا الدوله الفرعونيه المتعرقه فى القبط إلى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكما و قيادتكما،و ما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكما و تبلغا غايتكما من هذه الدعوه المزوره.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِكُلِّ سٰاحِرٍ عَلِيمٍ » كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصل فى سائر الآيات القاصه للقصه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَ السَّحَرَةُ قٰالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا »إلخ،أى لما جاءوا و واجهوا موسى و تهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال

ص :۱۰۹

و العصی،و قد کانوا هیئوها لیلقوها فیظهروها فی صور الحیات و الثعابین بسحرهم.

قوله تعالی:« فَلَمّا أَلْقَوْا قالَ مُوسی ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ »ما قاله(ع) بیان لحقیقه من الحقائق لینطبق علیها ما سیظهره الله من الحق علی یدیه من صیروره العصا ثعبانا یلقف ما ألقوه من الحبال و العصی و أظهروه فی صور الحیات و الثعابین بسحرهم.

و الحقیقه التی بینها لهم أن الذی جاءوا به سحر و السحر شأنه إظهار ما لیس بحق واقع فی صوره الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم،و إذ کان باطلا فی نفسه فإن الله سیبطله لأن السنه الإلهیه جاریه علی إقرار الحق و إحقاقه فی التکوین و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و إن کانت للباطل جوله أحیانا.

و لذا علل قوله:« إِنَّ اللّهَ سَیُبْطِلُهُ »بقوله:« إِنَّ اللّهَ لا یُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ » فإن الصلاح و الفساد شأنان متقابلان،و قد جرت السنه الإلهیه أن یصلح ما هو صالح و یفسد ما هو فاسد أی إن یرتب علی کل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح أن یناسب و یلائم سائر الحقائق الکونیه فی نظامها الذی تجری هی علیه،و یمتزج بها و یخالطها فیصلحه الله سبحانه و یجریه علی ما کان من طباعه،و أثر العمل الفاسد أن لا یناسب و لا یلائم سائر الحقائق الکونیه فیما تقتضیه بطباعها و تجری علیه بجبلتها فهو أمر استثنائی فی نفسه،و لو أصلحه الله فی فساده کان ذلک إفسادا للنظام الکونی.

فیعارضه سائر الأسباب الکونیه بما لها من القوی و الوسائل المؤثره،و تعیده إلی السیره الصالحه إن أمکن و إلا أبطلته و أفنته و محته عن صحیفه الوجود البته.

و هذه الحقیقه تستلزم أن السحر و کل باطل غیره لا یدوم فی الوجود و قد قررها الله سبحانه فی کلامه فی مواضع مختلفه کقوله:« وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ » و قوله:« وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ »و قوله :«إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذّابٌ:» المؤمن:-۲۸،و منها قوله فی هذه الآیه:« إِنَّ اللّهَ لا یُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِینَ ».

و أکده بتقریره فی جانب الإثبات بقوله فی الآیه التالیه:« وَ یُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ

بِكَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

»كما سيأتى توضيحه.

قوله تعالى:« وَ يُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »لما كشف الله عن الحقيقه المتقدمه فى جانب النفى بقوله:« إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ »أبان عنه فى جانب الإثبات أيضا فى هذه الآيه بقوله:« وَ يُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمٰاتِهِ »و قد جمع تعالى بين معنيى النفى و الإثبات فى قوله :«لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبٰاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ:» الأنفال:-٨.

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات فى الآيه أقسام الأقضيه الإلهيه فى شئون الأشياء الكونيه الجاريه على الحق فإن قضاء الله ماض و سنته جاريه أن يضرب الحق و الباطل فى نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلائه،و ذلك قوله تعالى :«أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رٰابِياً وَ مِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَ الْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَ أَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ:» الرعد:-١٧،و سيجىء استيفاء البحث فيه فى ذيل الآيه إن شاء الله تعالى.

و الحاصل أن موسى(ع)إنما ذكر هذه الحقيقه لهم ليوقفهم على سنه إلهيه حقه غفلوا عنها،و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل،و لذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزه،و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه فى مواضع أخرى من كلامه.

و قوله:« وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »ذكر الاجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق،و لذلك نسب الله كراهه ظهور الحق إليهم بما هم مجرمون فى قوله:

« وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »و فى معناه قوله فى أول الآيات:« فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ».

قوله تعالى:« فَمٰا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلاّٰ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِمْ » إلى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير فى«قومه»راجع إلى فرعون،

و الـذريه الـذين آمنـوا مـن قـومه كـانت أمهـاتهم من بنى إسـرائيل و آبـاؤهم من القبـط فتبعـوا أمهـاتهم فى الإيمـان بموسـى،و قيل:الـذريه بعض أولاد القبط،و قيل:أريـد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون،و قـد ذكرا فى القرآن و جاريه و امرأه هى مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضـمير لموسـى(ع)و المراد بالـذريه جمـاعه من بنى إسـرائيل تعلمـوا السـحر و كـانوا من أصـحاب فرعـون،و قيل:هم جميع بنى إسـرائيل و كانوا ستمائه ألف نسمه سماهم ذريه لضعفهم،و قيل:ذريه آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد،و هذه الوجوه-كما ترى-لا دليل على شىء منها فى الآيات من جهه اللفظ.

و الذى يفيده السـياق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا إلى موسى و المراد بالذريه من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسـرائيل دون ملئهم الأقويـاء و الشـرفاء،و الاعتبـار يساعـد على ذلـك فـإنهم جميعـا كانوا أسـراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم،و العاده الجاريه فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشـرفاء و الأقوياء بأى وسيله أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعيه و جاههم القومى،و يتقربوا إلى الجبار المسـيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخـدمه و مراءاه النصـح و التجنب عما لا يرتضـيه فلم يكن فى وسع الملإ من بنى إسرائيل أن يعلنوا موافقه موسى على بغيته، و يتظاهروا بالإيمان به.

على أن قصـص بنى إسـرائيل فى القرآن أعـدل شاهـد على أن كثيرا من عتاه بنى إسـرائيل و مسـتكبريهم لم يؤمنوا بموسـى إلى أواخر عهـده و إن كانوا يتسـلمون له و يطيعونه فى عامه أوامره التى كان يصدرها لبذل المساعى فى سبيل نجاه بنى إسـرائيل لما كـان فيها صـلاح قوميتهم و حريه شـعبهم و منافع أشخاصـهم،فالإطاعه فى هـذه الأمور أمر و الإيمان بالله و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و يسـتقيم على هـذا معنى قوله:« وَ مَلاَئِهِمْ »بـأن يكون الضـمير إلى الـذريه و يفيـد الكلام أن الـذريه الضـعفاء كانوا فى إيمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بنى إسرائيل فإنهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه

و يطيبوا أنفسهم فلا يضيقوا عليهم و ينقصوا من إيذائهم و التشديد عليهم.

و أما ما قيل:إن الضمير راجع إلى فرعون لأنه ذو أصحاب أو للذريه لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار إليه البته و خاصه أول الوجهين.

و قوله:« أَنْ يَفْتِنَهُمْ »أى يعذبهم ليعودوا إلى ملته و قوله:« وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعٰالٍ فِي الْأَرْضِ »أى و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال فى الأرض مسرف فى الأمر.

فالمعنى-و الله أعلم-فتفرع على قصه بعثهما و استكبار فرعون و ملئه أنه لم يؤمن بموسى إلا ضعفاء من بنى إسرائيل و هم يخافون ملأهم و يخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم و كان ينبغى لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عاليا فى الأرض مسلطا عليهم و إنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحد فى الظلم و التعذيب.

و لو صح أن يراد بقومه كل من بعث إليهم موسى و بلغهم الرساله و هم القبط و بنو إسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجه إلى ما تقدم من تكلفاتهم.

قوله تعالى: وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ »لما كان الإيمان بالله بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالا و أنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهى كل سبب،و هو المدبر لكل أمر،يدعوه إلى تسليم الأمر إليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل،و لازم ذلك إرجاع الأمر إليه و التوكل عليه،و قد أمرهم فى الآيه بالتوكل على الله،علقه أولا على الشرط الذى هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذى هو الإسلام.

فالكلام فى تقدير:إن كنتم آمنتم بالله و مسلمين له فتوكلوا عليه.و قد فرق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول:«إن كنتم آمنتم و أسلمتم فتوكلوا»لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم،و أما الإسلام فهو من كمال

الإيمان،و ليس من الواجب الضرورى أن يكون كل مؤمن مسلما بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون أحدهما واجبا واقعا منهم،و الآخر مما ينبغى لهم أن يتحققوا به فالمعنى:يا قوم إن كنتم آمنتم بالله-و قد آمنتم- و كنتم مسلمين له-و ينبغى أن تكونوا كذلك-فتوكلوا على الله ففى الكلام من لطيف الصنعه ما لا يخفى.

قوله تعالى:« فَقالُوا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ »إلى آخر الآيتين،إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم:« رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً »إلخ،سؤال منهم نتيجه توكلهم و هو أن ينزع الله منهم لباس الضعف و الذله،و ينجيهم من القوم الكافرين.

أما الأول فقد أشاروا إليه بقولهم:« رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ » و ذلك أن الذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنه للقوى الظالم كما أن الأموال و الأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للإنسان قال تعالى :«إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ:» التغابن:-۱۵،و الدنيا فتنه لطالبها فسؤالهم ربهم أن لا يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف و الذله بسلب الغرض منه و هو سلب الشىء بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكايه عنهم فى الآيه الثانيه:« وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ».

قوله تعالى:« وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً »إلخ، التبوى أخذ المسكن و المنزل،و مصر بلد فرعون،و القبله فى الأصل بناء نوع من المصدر كجلسه أى الحاله التى يحصل بها التقابل بين الشىء و غيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أى اجعلوا بيوتكم متقابله يقابل بعضها بعضا و فى جهه واحده و كان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ و يتمكنوا من إقامه الصلاه جماعه كما يدل عليه أو يشعر به قوله بعده:« وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ »لوقوعه بعده.

ص :۱۱۴

و أما قوله:« وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »فالسياق يدل على أن المراد به البشاره بإجابه ما سألوه فى دعائهم المذكور آنفا:« رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا فِتْنَةً »إلى آخر الآيتين.

و المعنى:و أوحينا إلى موسى و أخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت فى مصر-و كأنهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلا كهيئه البدويين يعيشون فى الفساطيط أو عيشه تشبهها-و اجعلا أنتما و قومكما بيوتكم متقابله و فى جهه واحده يتصل بذلك بعضكم ببعض و يتمشى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع فى الصلوات،و أقيموا الصلاه و بشر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون و قومه.

قوله تعالى:« وَ قٰالَ مُوسىٰ رَبَّنٰا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوٰالاً » إلخ، الزينه بناء نوع من الزين و هى الهيأه التى تجذب النفس إلى الشىء،و النسبه بين الزينه و المال العموم من وجه فبعض الزينه ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه و اعتدال القامه،و بعض المال ليس بزينه كالأنعام و الأراضى،و بعض المال زينه كالحلى و التقابل الواقع بين الزينه و المال يعطى أن يكون المراد بالزينه جهه الزينه من غير نظر إلى الماليه كالحلى و الرياش و الأثاث و الأبنيه الفاخره و غيرها.

و قوله:« رَبَّنٰا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ »قيل اللام للعاقبه،و المعنى و عاقبه أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك و لا يجوز أن يكون لام الغرض لأنا قد علمنا بالأدله الواضحه أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال و لا يريد أيضا منهم الضلال، و كذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا.انتهى.

و هو حق لكن فى الإضلال الابتدائى المستحيل عليه تعالى،و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبته كلامه فى موارد كثيره،و قد كان فرعون و ملؤه مصرين على الاستكبار و الإفساد ملحين على الاجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينه و أموالا ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

و ربما قيل:إن اللام فى«ليضلوا»للدعاء،و ربما قيل:إن الكلام بتقدير لا أى لئلا يضلوا عن سبيلك،و السياق لا يساعد على شىء من الوجهين.

ص:١١٥

و الطمس -كما قيل-تغير إلى الدثور و الدروس فمعنى«اطمس على أموالهم» غيرها إلى الفناء و الزوال،و قوله:« وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ »من الشد المقابل للحل أى أقس قلوبهم و اربط عليها ربطا لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب،و قول بعضهم:إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم و آلم،و كذا قول آخرين:

إنه كنايه عن إماتتهم و إهلاكهم من الوجوه البعيده.

فمعنى الآيه:و قال موسى-و كان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون و ملئه و يقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال و الإضلال كما يدل عليه سياق كلامه فى دعائه- ربنا إنك جازيت فرعون و ملأه على كفرهم و عتوهم جزاء السوء فآتيتهم زينه و أموالا فى الحياه الدنيا ربنا إراده منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك،و إرادتك لا تبطل و غرضك لا يلغو ربنا أدم على سخطك عليهم و اطمس على أموالهم و غيرها عن مجرى النعمه إلى مجرى النقمه و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفا لا ينفعهم الإيمان و هو زمان يرون فيه العذاب الإلهى.

و هذا الدعاء من موسى(ع)على فرعون و ملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم،و علمه أنه لا يترقب منهم فى الحياه إلا أن يضلوا و يضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله :«رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبٰادَكَ وَ لاٰ يَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً كَفّٰاراً:» نوح:-٢٧،و حاشا ساحه الأنبياء (ع)أن يتكلموا على الخرص و المظنه فى موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه و عز شأنه.

قوله تعالى:« قٰالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمٰا فَاسْتَقِيمٰا وَ لاٰ تَتَّبِعٰانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ »الخطاب-على ما يدل عليه السياق-لموسى و هارون و لم يحك الدعاء فى الآيه السابقه إلا عن موسى،و هذا يؤيد ما ذكره المفسرون:أن موسى(ع) كان يدعو،و كان هارون يؤمن له و آمين دعاء فقد كانا معا يدعوان و إن كان متن الدعاء لموسى(ع)وحده.

و الاستقامه هو الثبات على الأمر،و هو منهما(ع)الثبات على الدعوه

إلى الله و على إحياء كلمه الحق،و المراد بالـذين لا يعلمون الجهله من شعب إسرائيل و قد وصفهم موسى(ع)بالجهل كما فى قوله :«قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ:» الأعراف:-١٣٨.

و المعنى:«قال»الله مخاطبا لموسى و هارون« قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا »من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه،و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم« فَاسْتَقِيمَا » و اثبتا على ما أمرتما به من الدعوه إلى الله و إحياء كلمه الحق« وَ لاَ تَتَّبِعَانِّ »البته « سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ »بإجابه ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم،و فيه نوع تلويح إلى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجمله فالآيه تذكر إجابه دعوتهما المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للإيمان و وعدهما بذلك و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابه و كذا الآيه المخبره عن كيفيه إنجازه،

و قد نقل فى المجمع،عن ابن جريح": أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه": قال:و روى ذلك عن أبى عبد الله(ع)،و رواه عنه(ع) فى الإحتجاج،و كذا فى الكافى،و تفسير العياشى،عن هشام بن سالم عنه(ع) و فى تفسير القمى،عن أبيه عن النوفلى عن السكونى عنه(ع) .

قوله تعالى:« وَ جَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً »إلى آخر الآيه، البغى و العدو كالعدوان الظلم و إدراك الشىء اللحوق به و التسلط عليه كما أن إتباع الشىء طلب اللحوق به.

و قوله:« آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ »أى آمنت بأنه.

و قد وصف الله بالذى آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزه البحر و الأمان من الغرق،و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصيه و هو الشرك بالله و الاستكبار على الله،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »آلآن بالمد أصله أ الآن أى أ تؤمن بالله الآن و هو حين أدركك العذاب و لا إيمان و توبه حين غشيان العذاب و مجىء الموت من كل مكان،و قد عصيت قبل هذا و كنت من المفسدين، و أفنيت أيامك فى معصيته،و لم تقدم التوبه لوقتها فما ذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته و هذا هو الذى كان موسى و هارون سألاه ربهما أن يأخذه بعذاب أليم و يسد سبيله إلى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان و لا تغنى عنه التوبه شيئا.

قوله تعالى:« فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » التنجيه و الإنجاء تفعيل و إفعال من النجاه كالتخليص و الإخلاص من الخلاص وزنا و معنى.

و تنجيته ببدنه تدل على أن له أمرا آخر وراء البدن فقده بدنه بغشيان العذاب و هو النفس التى تسمى أيضا روحا،و هذه النفس المأخوذه هى التى يتوفاها الله و يأخذها حين موتها كما قال تعالى :«اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا:» الزمر:-۴۲، و قال :«قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ:» الم السجده:-۱۱،و هى التى يخبر عنها الإنسان بقوله:«أنا»و هى التى بها تتحقق للإنسان إنسانيته،و هى التى تدرك و تريد و تفعل الأفعال الإنسانيه بواسطه البدن بما له من القوى و الأعضاء الماديه،و ليس للبدن إلا أنه آله و أداه تعمل بها النفس أعمالها الماديه.

و لمكان الاتحاد الذى بينها و بين البدن يسمى باسمها البدن و إلا فأسماء الأشخاص فى الحقيقه لنفوسهم لا لأبدانهم،و ناهيك فى ذلك التغير المستمر الذى يعرض البدن مده الحياه،و التبدل الطبيعى الذى يطرء عليه حينا بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه إلى أجزاء أخر تتركب بدنا آخر فلو كان زيد هو البدن الذى ولدته أمه يوم ولدته و الاسم له لكان غيره و هو ذو سبعين و ثمانين قطعا و الاسم لغيره حتما، و لم يثب و لم يعاقب الإنسان و هو شائب على ما عمله و هو شاب لأن الطاعه و المعصيه لغيره.

فهذه و أمثالها شواهد قطعيه على أن إنسانيه الإنسان بنفسه دون بدنه، و الأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الإنسان و يعرفها إجمالا و إن كان ربما أنكرها

فی مقام التفصیل.

و بالجمله فالآیه:« فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ »کالصریح أو هو صریح فی أن النفوس وراء الأبدان،و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما یطلق علی الأبدان بعنایه الاتحاد.

فمعنی« نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ »نخرج بدنک من ألیم و ننجیه،و هو نوع من تنجیتک -لما بین النفس و البدن من الاتحاد القاضی بکون العمل الواقع علی أحدهما واقعا بنحو علی الآخر-لتکون لمن خلفک آیه،و هذا بوجه نظیر قوله تعالی :«مِنْها خَلَقْناکُمْ وَ فِیها نُعِیدُکُمْ:» طه:-۵۵ فإن الذی یعاد إلی الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فلیست نسبه الإعاده إلی الإنسان إلا لما بین نفسه و بدنه من الاتحاد.

و قد ذکر المفسرون أن الإنجاء و التنجیه لما کان دالا بلفظه علی سلامه الذی أنجی إنجاء کان مفاد قوله:« نُنَجِّیکَ »أن یکون فرعون خارجا من ألیم حیا و قد أخرجه الله میتا فالمتعین أخذ قوله:« نُنَجِّیکَ »من النجوه و هی الأرض المرتفعه التی لا یعلوها السیل،و المعنی الیوم نخرج بدنک إلی نجوه من الأرض.

و ربما قال بعضهم إن المراد بالبدن الدرع،و قد کان لفرعون درع من ذهب یعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه لیکون لمن خلفه آیه و عبره،و ربما قال بعضهم إن التعبیر بالتنجیه تهکم به.

و الحق أن هذا کله تکلف لا حاجه إلیه،و لم یقل:« نُنَجِّیکَ »و إنما قیل « نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ »و معناه ننجی بدنک،و الباء للآلیه أو السببیه،و العنایه هی الاتحاد الذی بین النفس و البدن.

علی أن جعل نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ »بمعنی نجعلک علی نجوه من الأرض لا یفی بدفع الإشکال من أصله فإن الذی جعل علی نجوه هو بدن فرعون علی قولهم،و هو غیر فرعون قطعا و إلا کان حیا سالما،و لا مناص إلا أن یقال:إن ذلک بعنایه الاتحاد الذی بین الإنسان و بدنه،و لو صححت هذه العنایه إطلاق اسم الإنسان علی بدنه من غیر نفس لکان لها أن تصحح نسبه التنجیه إلی الإنسان من جهه وقوع

التنجیه ببـدنه،و خاصه مع وجود القرینه الـداله علی أن المراد بالتنجیه هی التی للبـدن دون التی للإنسان المسـتتبع لحفظ حیاته و سلامته نفسا و بدنا،و القرینه هی قوله:« بِبَدَنِکَ ».

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِی إِسْرائِیلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ » أی أسـکناهم مسـکن صدق،و إنما یضاف الشیء إلی الصـدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله علی أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فیه صـدقا من غیر أن یکذب فی شـیء من آثاره التی یعدها بلسان دلالته الالتزامیه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الـذی سـیفی به واعـده،و یسـر بالوفاء به موعوده،و یحق أن یطمع فیه و یرجی وقوعه.فإن لم یکن کـذلک فلیس بوعد صدق بل وعد کذب کأنه یکذب فی معناه و لوازم معناه.

و علی هـذا فقوله:« مُبَوَّأَ صِدْقٍ »یدل علی أن الله سـبحانه بوأهم مبوءا یوجد فیه جمیع ما یطلبه الإنسان من المسـکن من مقاصـد السـکنی کطیب المـاء و الهواء و برکـات الأرض و وفور نعمها و الاسـتقرار فیها و غیر ذلک،و هـذه هی نواحی بیت المقـدس و الشام التی أسکن الله بنی إسرائیل فیها و سماها الأرض المقدسه المبارکه و قد قص القرآن دخولهم فیها.

و أما قول بعضـهم:إن المراد بهـذا المبوء مصـر دخلها بنو إسـرائیل و اتخـذوا فیها بیوتا فأمر لم یـذکره القرآن.علی أنهم لو فرض دخولهم فیها ثانیا لم یستقروا فیها استقرارا مستمرا،و تسمیه ما هذا شأنه مبوأ صدق مما لا یساعد علیه معنی اللفظ.

و الآیه أعنی قوله:« وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِی إِسْرائِیلَ -إلی قوله- مِنَ الطَّیِّباتِ » مسوقه سوق الشـکوی و العتبی،و یشـهد به تذییلها بقوله:« فَمَا اخْتَلَفُوا حَتّی جاءَهُمُ الْعِلْمُ ،و قوله:« إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ إلی آخر الآیه بیان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخـذ النتیجه من القصه.

و المعنی:أنا أتممنا علی بنی إسرائیل النعمه و بوأناهم مبوأ صدق و رزقناهم من الطیبات بعد حرمانهم من ذلک مده طویله کانوا فیها فی إساره القبط فوحدنا

شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرقوا الكلمه و اختلفوا فی الحق،و لم یکن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربک یقضی بینهم فیما کانوا فیه یختلفون

[سوره یونس (۱۰): الآیات ۹۴ الی ۱۰۳]

اشاره

فَإِنْ کُنْتَ فِی شَکٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ فَسْئَلِ اَلَّذِینَ یَقْرَؤُنَ اَلْکِتابَ مِنْ قَبْلِکَ لَقَدْ جاءَکَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِینَ (۹۴) وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِ اَللّهِ فَتَکُونَ مِنَ اَلْخاسِرِینَ (۹۵) إِنَّ اَلَّذِینَ حَقَّتْ عَلَیْهِمْ کَلِمَتُ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ (۹۶) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ کُلُّ آیَهٍ حَتّی یَرَوُا اَلْعَذابَ اَلْأَلِیمَ (۹۷) فَلَوْ لا کانَتْ قَرْیَهٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِیمانُها إِلاّ قَوْمَ یُونُسَ لَمّا آمَنُوا کَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ اَلْخِزْیِ فِی اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ (۹۸) وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی اَلْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ اَلنّاسَ حَتّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۹۹) وَ ما کانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اَللّهِ وَ یَجْعَلُ اَلرِّجْسَ عَلَی اَلَّذِینَ لا یَعْقِلُونَ (۱۰۰) قُلِ اُنْظُرُوا ما ذا فِی اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ ما تُغْنِی اَلْآیاتُ وَ اَلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلاّ مِثْلَ أَیّامِ اَلَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِینَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۰۳)

ص: ۱۲۱

(بيان)

تتضمن الآيات الاستشهاد على حقيه ما أنزله الله فى السوره من المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و ما قصه من قصص الأنبياء و أممهم-و منهم نوح و موسى و من بينهما من الأنبياء(ع)و أممهم-إجمالا بما قرأه أهل الكتب السماويه فيها قبل نزول القرآن على النبى ص.

ثم تذكر ما هو كالفذلكه و المعنى المحصل من البيانات السابقه و هو أن الناس لن يملكوا من أنفسهم أن يؤمنوا بالله و آياته إلا بإذن الله،و إنما يأذن الله فى إيمان من لم يطبع على قلبه و لم يجعل الرجس عليه و إلا فمن حقت عليه كلمه الله لن يؤمن بالله و آياته حتى يرى العذاب.

فالسنه الجاريه أن الناس منذ خلقوا و اختلفوا بين مكذب بآيات الله و مصدق لها،و قد جرت سنه الله على أن يقضى فيهم بالحق بعد مجيء رسلهم إليهم فينجى الرسل و المؤمنين بهم،و يأخذ غيرهم بالهلاك.

قوله تعالى:« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ »إلى آخر الآيه الشك الريب،و المراد بقوله:« مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ »المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و السنه الإلهيه فى القضاء على الأمم مما تقدم فى السوره،و قوله:« يَقْرَؤُنَ الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَ »« يَقْرَؤُنَ »فعل مضارع استعمل فى الاستمرار و« مِنْ قَبْلِكَ »حال من الكتاب عامله متعلقه المقدر،و التقدير منزلا من قبلك.كل ذلك على ما يعطيه السياق.

و المعنى« فَإِنْ كُنْتَ »أيها النبى« فِي شَكٍّ »و ريب« مِمّٰا أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ »من المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و ما قصصنا عليك إجمالا من قصص الأنبياء الحاكيه لسنه الله الجاريه فى خلقه من الدعوه أولا ثم القضاء بالحق« فَسْئَلِ »أهل الكتاب « اَلَّذِينَ »لا يزالون« يَقْرَؤُنَ »جنس« اَلْكِتٰابَ »منزلا من السماء« مِنْ قَبْلِكَ » أقسم« لَقَدْ جٰاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »المترددين.

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى ص و لا تحقق شك منه فإن

هـذا النوع من الخطاب كما يصـح أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كـذلک يصـح أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بينه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الـذى أخبر به المخبر مما تعاضـدت عليه الحجـج و تجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شک فى واحده منها كان له أن يأخذ بالأخرى.

و هـذه طريقه شـائعه فى عرف التخـاطب و التفـاهم يأخـذ بهـا العقلاء فيما بينهم جريا على ما تـدعوهم إليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجه على أمر من الأمور ثم يقول:فإن شـككت فى ذلک أو سـلمنا أنها لا توجب المطلوب فهناک حجه أخرى على ذلک و هى أن كذا كذا و ذلک كنايه عن أن الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضـروبه على ما لا يحتاج إلى أزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيئول معنى الكلام إلى أن هذه معارف بينها الله لک بحجج تضـطر العقول إلى قبولها و قصـص تحكى سنه الله فى خلقه و الآثار تـدل عليهـا،بينهـا فى كتـاب لاـ ريب فيه،فعلى ما بينه حجه و هناک حجه أخرى و هى أن أهل الكتب السـماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلک فيما يقرءونه من الكتاب فهناک مبدأ و معاد، و هناک دين إلهى بعث به رسـله يدعون إليه،و لم يدعوا أمه من الأمم إلا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذب فأنزل الله آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه،و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى ص و بعض ما يختص به الإسـلام من المعارف و ما غيروه فى الكتب من الجزئيات،و من لطيف الإشاره أن الله سـبحانه لم يـذكر فى القصـص المذكوره فى هذه السوره قصه هود و صالح لعدم تعرض التوراه الموجوده عندهم لقصتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها و ليس إلا لمكان أن يستشهد فى هذه الآيه بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآيه فى إلقاء الحجه على النبى ص وزانها وزان قوله تعالى :«أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰاءُ بَنِى إِسْرٰائِيلَ:» الشعراء:-١٩٧ فى إلقاء الحجه إلى الناس.

على أن السوره من أوائل السور النازله بمكه،و لم تشتد الخصومه يومئذ بين

المسلمين و أهل الكتاب و خاصه اليهود اشتدادها بالمدينه،و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذى ركبوه بعد هجره النبى ص،و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذى قالوا :«مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ:» الأنعام:-٩١.

فهذا ما يعطيه سياق الآيه من المعنى،و أظنك إن أمعنت فى تدبر الآيه و سائر الآيات التى تناسبها مما يخاطب النبى ص بحقيه ما نزل إليه من ربه،و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله،و ما يصف النبى ص أنه على بصيره من أمره، و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى،و أغناك عن التمحلات التى ارتكبوها فى تفسير الآيه بما لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى:« وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ » نهى عن الارتياب و الامتراء أولا ثم ترقى إلى النهى عن التكذيب بآيات الله و هو العناد مع الحق استكبارا على الله فإن الآيه لا تكون آيه إلا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبينا إلا على العناد و اللجاج.

و قوله:« فَتَكُونَ مِنَ الْخٰاسِرِينَ »تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقيقه.و المعنى:و لا تكن من الخاسرين،و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه،و هو الإيمان بالله و آياته الذى هو رأس مال الإنسان فى سعاده حياته فى الدنيا و الآخره على ما يستفاد من الآيه التاليه حيث يعلل خسرانهم بأنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاٰ يُؤْمِنُونَ وَ لَوْ جٰاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ »إلخ،تعليل للنهى السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال:لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعاده هو الإيمان فوضع قوله« اَلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ »موضع«المكذبين»للأدله على سبب الحكم و أن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمه الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التى حقت على المكذبين بآيات الله هى قوله يوم شرع الشريعه

العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما :«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً -Xإلى قولهX- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ:» البقره:-٣٩.

و هذا هو الذى يريده بقوله فى مقام بيان سبب خسران المكذبين: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ »و هم المكذبون حقت عليهم كلمه العذاب فهم« لاٰ يُؤْمِنُونَ » و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته فى الدنيا و الآخره،و إذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم إلى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه« حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ »و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

و قد كرر الله سبحانه فى كلامه هذا القول و استتباعه للخسران و عدم الإيمان كقوله :«لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ:» يس:-٧،و قوله :«لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰافِرِينَ:» يس:-٧٠ أى بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم،و قوله :«وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ:» حم السجده:-٢٥ إلى غير ذلك.

و قد ظهر من الآيات أولا أن العناد مع الحق و التكذيب بآيات الله يحق كلمه العذاب الخالد على الإنسان.

و ثانيا:أن رأس مال سعاده الحياه للإنسان هو الإيمان.

و ثالثا:أن كل إنسان فهو مؤمن لا محاله إما إيمانا اختياريا مقبولا يسوقه إلى سعاده الحياه الدنيا و الآخره،و إما إيمانا اضطراريا غير مقبول حيثما يرى العذاب الأليم.

قوله تعالى:« فَلَوْ لاٰ كٰانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْيِ »إلخ،ظاهر السياق أن لو لا للتحضيض،و أن المراد بقوله:« آمَنَتْ »الإيمان الاختيارى الصحيح كما يشعر به قوله بعده:« فَنَفَعَهٰا إِيمٰانُهٰا »و لوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجمله معنى اليأس المساوق للنفى فاستقام الاستثناء الذى فى قوله:« إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ ».

و المعنى:هلا كانت قريه-من هذه القرى التى جاءتهم رسلنا فكذبوهم-

آمنت قبل نزول العذاب إيمانا اختياريا فنفعها إيمانها.لا و لم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه إلى حين آجالهم العاديه الطبيعيه.و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

و ذكر بعضهم أن المعنى لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قريه بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلا كانت القرى كلها هكذا.

و فيه أنه فى نفسه معنى لا بأس فيه إلا أن الآيه بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات و هو ظاهر.

و ذكر بعض آخر:أن المعنى لم يكن معهودا من حال قريه من القرى أن يكفر ثم يؤمن فينفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب و متعناهم.

و الإشكال عليه كالإشكال على سابقه.

قوله تعالى:« وَ لَوْ شٰاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً » أى لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه فى ذلك إلى الله سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغى لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنک لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان،و الإيمان الذى نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك فى صوره الاستفهام الإنكارى:« أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النّٰاسَ حَتّٰی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ »أى بعد ما بينا أن أمر المشيه إلى الله و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البته لم يبق لك إلا أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان، و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذى هذا نعته.

قوله تعالى:« وَ مٰا کٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ وَ یَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لاٰ یَعْقِلُونَ »لما ذكر فى الآيه السابقه أن الأمر إلى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعا لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع فى إيمان الجميع زاد فى هذه الآيه فى بيان ذلک ما محصله أن الملك-بالكسر-لله فله أصاله التصرف فى كل أمر لا يشاركه فى ذلك مشارک إلا أن يأذن لبعض ما خلقه فى بعض التصرفات.

و الإيمان بالله عن اختيار و الاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج فی تحققه إلی سبب يخصه،و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف فی الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه فی ذلک لکن الله سبحانه بجعل الرجس و الضلال علی أهل العناد و الجحود لم يأذن فی إيمانهم، و لا رجاء فی سعادتهم.

و لو أنه تعالی أذن فی ذلک لأحد لأذن فی إيمان غير أولئک المکذبين فقوله:

« وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ »حکم عام حقيقی ينيط تملک النفوس للإيمان إلی إذن الله،و قوله:« وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ »إلخ،يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقی غيرهم.

و قد أريد فی الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشک و الريب بمعنی أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس فی المقام لما قوبل بالإيمان،و قد عرف فی قوله تعالی :

«وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِی السَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ:» الأنعام:-١٢٥.

و قد أريد أيضا بقوله:« اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ »أهل التکذيب بآيات الله من جهه أنهم ممن حقت عليه کلمه العذاب فإنهم الذين طبع الله علی قلوبهم فهم لا يعقلون قال :«وَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ:» التوبه:-٩٣.

قوله تعالی:« قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ »أی من المخلوقات المختلفه المتشتته التی کل واحد منها آيه من آيات الله تعالی تدعو إلی الإيمان،و قوله:

« وَ مٰا تُغْنِی الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ »ظاهره أن« مٰا »استفهاميه و الجمله مسوقه بداعی الإنکار و إظهار الأسف کقول الطبيب:بما ذا أعالج الموت؟أی أنا أمرناک أن تنذرهم بقولنا:« قُلِ انْظُرُوا مٰا ذٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ »إلخ، لکن أی تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم و هم لا يؤمنون أی عازمون مجمعون علی أن لا يؤمنوا بالطبع الذی علی قلوبهم و ربما قيل:إن ما نافيه.

قوله تعالی:« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَيّٰامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ »تفريع علی ما فی الآيه السابقه من قوله:« وَ مٰا تُغْنِی الْآيٰاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ »أی إذا لم تغن الآيات و النذر عنهم شيئا و هم لا يؤمنون البته فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام

الـذين خلوا من قبلهم،و إنمـا يحبسون نفوسـهم لآيه العـذاب الإلهی التی تفصل بينک و بينهم فتقضـی عليهم لأنهم حقت عليهم كلمه العذاب.

و لذا أمر النبی ص أن يبلغهم ذلک بقوله:« قُلْ فَانْتَظِرُوا »أی مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعنی يوم العذاب الذی يفصل بينی و بينكم فتؤمنون و لا ينفعكم إيمانكم« إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ».

و قد تبين بما مر أن الاستفهام فی الآيه إنكاری.

قوله تعـالی:« ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا »الجمله تتمه صـدر الآيه السـابقه و قوله:« قُلْ فَانْتَظِرُوا »إلـخ،جمله معـترضه و النظم الأصـلی بحسب المعنی« فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ »أی قومک هؤلاء« إِلاّ مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ »من الأمم الـذين كانت تحق عليهم كلمه العذاب فنرسل إليهم آيه العذاب« ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا ».

و إنمـا اعـترض بقوله:« قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »بين الكلام لأنه يتعلق بـالجزء الـذی يتقـدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم،و هو يتضمن انتظار النبی ص للقضاء بينه و بينهم،و أما تنجيته و تنجيه المؤمنين به فـإن المنتظر لهـا هو النبی ص و المؤمنون لا هو وحـده و لا يتعلق هـذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العـذاب و هو مع ذلک لا يتعلق به غرض فی المقام الذی سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبی ص و المؤمنين فافهم ذلک.

و أمـا قوله:« كَذلِکَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ »فمعنـاه كمـا كنا ننجی الرسل و الـذين آمنوا فی الأمم السابقه عنـد نزول العـذاب كـذلک ننجی المؤمنين بک من هـذه الأمه حق علينا ذلک حقا،فقوله:« حَقًّا عَلَيْنا »مفعول مطلق قام مقام فعله المحـذوف،و اللام فی« اَلْمُؤْمِنِينَ »للعهد و المراد به مؤمنوا هذه الأمه،و هذا هو الوعد الجميل للنبی ص و المؤمنين من هذه الأمه بالإنجاء.

و ليس من البعيـد أن يستفاد من قوله:« نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ »أن فيه تلويحـا إلی أن النـبی ص لا يـدرک هـذا القضـاء،و إنمـا يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر

معهم النبی ص مع أنه تعالی ذکر فی السابقین رسله مع المؤمنین بهم کما ربما یخطر بالبال من تکرر قوله تعالی فی کلامه:« فَإِمّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا یُرْجَعُونَ »أو ما فی معناه.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن سعید الأسدی أن موسی بن محمد بن الرضا أخبره أن یحیی بن أکثم کتب إلیه یسأله عن مسائل":أخبرنی عن قول الله تبارک و تعالی:

« فَإِنْ کُنْتَ فِی شَکٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ-فَسْئَلِ الَّذِینَ یَقْرَؤُنَ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکَ »من المخاطب بالآیه؟فإن کان المخاطب فیها النبی-فقد شک فیما أنزل الله،و إن کان المخاطب بها غیره فعلی غیره إذا نزل الکتاب-.

قال موسی:فسألت أخی عن ذلک.قال:فأما قوله:« فَإِنْ کُنْتَ فِی شَکٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إِلَیْکَ-فَسْئَلِ الَّذِینَ یَقْرَؤُنَ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکَ »فإن المخاطب بذلک رسول الله ص-و لم یکن فی شک مما أنزل الله،و لکن قالت الجهله:کیف لم یبعث إلینا نبیا من الملائکه؟أنه لم یفرق بینه و بین غیره فی الاستغناء-فی المأکل و المشرب و المشی فی الأسواق-فأوحی الله إلی نبیه ص:فاسأل الذین یقرءون الکتاب-من قبلک بمحضر الجهله هل بعث الله رسولا من قبلک-إلا و هو یأکل الطعام و یشرب و یمشی فی الأسواق؟و لک بهم أسوه.

و إنما قال:فإن کنت فی شک،و لم یکن و لکن لیتبعهم-کما قال له:« فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ-وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ-ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ »، و لو قال:تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله علیکم-لم یکونوا یجیئون للمباهله،و قد عرف أن نبیه مؤد عنه رسالته-و ما هو من الکاذبین،کذلک عرف النبی ص-أنه صادق فیما یقول-و لکن أحب أن ینصف من نفسه":

أقول:و رواه الصدوق فی المعانی،بإسناده عن موسی بن محمد بن علی

،و هو

يرجع إلى ما قدمناه،و قد ورد فی بعض الروايات أن الآيه نزلت ليله المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك،و هم الذين أرادهم بقوله:« اَلَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكَ »و روی الوجه أيضا عن الزهری لكن فی انطباقه علی لفظ الآيه خفاء.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتاده فی الآيه قال" :ذكر لنا أن رسول الله ص قال:لا أشك و لا أسأل.

و فی تفسير العياشی،عن معمر قال:قال أبو الحسن الرضا(ع): إن يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه-فأظلهم العذاب ففرقوا بينهم و بين أولادهم-و بين البهائم و أولادها ثم عجوا إلی الله و ضجوا-فكف الله العذاب عنهم. الحديث.

أقول:و سيأتی إن شاء الله قصه يونس و قومه فی ذيل بعض الآيات المتعرضه لتفصيل قصته(ع).

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و اللالكائی فی السنه عن علی بن أبی طالب قال: إن الحذر لا يرد القدر،و إن الدعاء يرد القدر،و ذلك فی كتاب الله:

« إِلاّٰ قَوْمَ يُونُسَ لَمّٰا آمَنُوا-كَشَفْنٰا عَنْهُمْ عَذٰابَ الْخِزْيِ »الآيه:.

أقول:و روی ما فی معناه عن ابن النجار عن عائشه عن النبی ص .

و فی الكافی،و البصائر،مسندا عن أبی بصير عن أبی عبد الله(ع)قال:

الرجس هو الشك و لا نشك فی ديننا أبدا.

[سوره يونس (۱۰): الآيات ۱۰۴ الی ۱۰۹]

اشاره

قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاٰ أَعْبُدُ اَلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اَللّٰهَ اَلَّذِي يَتَوَفّٰاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لاٰ تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَنْفَعُكَ وَ لاٰ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اَللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاٰ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۱۰۷) قُلْ يٰا أَيُّهَا اَلنّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اِهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اِتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ اِصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ اَللّٰهُ وَ هُوَ خَيْرُ اَلْحٰاكِمِينَ (۱۰۹)

(بیان)

الآیات،ختام السوره تفرغ المحصل من بیاناتها فتشیر إجمالا إلی التوحید و المعاد و النبوه،و تأمر باتباع القرآن و الصبر فی انتظار حکم الله بینه و بین أمته.

قوله تعالی:« قُلْ یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی »إلـخ،قـد تقدم غیر مره أن الدین هو السـنه المعمول بها فی الحیاه لنیل سعادتها و فیه معنی الطاعه کما فی قوله تعالی :«وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّٰهِ:» النساء:-۱۴۶ و ربما استعمل بمعنی الجزاء.

و قوله:« إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی »أی فی طریقتی التی أسـلکها و أثبت علیها و شک الإنسان فی دین غیره و طریقته المعموله له إنمـا یکون فی ثبـاته علیه هل یسـتقر علیه و یسـتقیم؟و قـد کان المشـرکون یطمعون فی دینه(ص)و ربما رجوا أن یحولوه عنه فینجوا من دعوته إلی التوحید و رفض الشرک بالآلهه.

فالمعنی:إن کنتم تشـکون فیما أدین به و أدعو إلیه هل أسـتقیم علیه؟أو شککتم فی دینی ما هو؟و لم تحصلوا الأصل الذی یبتنی علیه فإنی أصرح لکم القول فیه

و أبينه لكم و هو أنى لا أعبد آلهتكم و أعبد الله وحده.

و قد أخذ فى قوله:« وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِی یَتَوَفّٰاكُمْ »له تعالى وصف توفيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجه إليه فى دفع الضـرر و جلب النفع،و التوفى أمر لا يشكون أنه سيصيبهم و أنه لله وحده فمساس الحاجه إلى الأمن من ضرره يوجب عباده الله سبحانه.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون فى الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات.

السابقه وعدتهم العذاب وعدا قطعيا،و وفاه المشركين ميعاد عذابهم،و يؤيد ذلك اتباع قوله:« وَ لٰكِنْ أَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِی یَتَوَفّٰاكُمْ »بقوله:« أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ » فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذى ذكره الله فى الآيتين السابقتين على هذه الآيه:

« فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلاّٰ مِثْلَ أَیّٰامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ- -إلى قوله نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ ».

و المعنى:فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلهتكم و لكن أعبد الله الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عباده الآلهه.

قوله تعالى:« وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّینِ حَنِیفاً »عطف على موضع قوله:

« وَ أُمِرْتُ أَنْ »إلخ،فإنه فى معنى و كن من المؤمنين،و قد مر الكلام فى معنى إقامه الوجه للدين الحنيف غير مره.

قوله تعالى:« وَ لاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ یَنْفَعُكَ وَ لاٰ یَضُرُّكَ »نهى بعد نهى عن الشرك،و بيان أن الشرك يدخل الإنسان فى زمره الظالمين فيحق عليه ما أوعد الله به الظالمين فى كلامه.

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء:« مٰا لاٰ یَنْفَعُكَ وَ لاٰ یَضُرُّكَ »و حين ذكر العباده:« اَلَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »فإن العباده بالطبع يعطى للمعبود شعورا و عقلا فناسب أن يعبر عنه بنحو« اَلَّذِینَ »المستعمل فى ذوى العلم و العقل، و الدعاء و إن كان كذلك لمساوقته العباده غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضر،و ربما توهم أن ذوى العلم و العقل يصح أن تنفع و تضر،عبر بلفظه« مٰا » ليلوح إلى أنها جماد لا يتخيل فى حقهم إراده نفع أو ضرر.

و فی التعبیر نفسه أعنی قوله:« مٰا لاٰ یَنْفَعُکَ وَ لاٰ یَضُرُّکَ »إعطاء الحجه علی النهی عن الدعاء.

قوله تعالی:« إِنْ یَمْسَسْکَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلاٰ کٰاشِفَ لَهُ إِلاّٰ هُوَ »إلخ،الجمله حالیه و هی تتمه البیان فی الآیه السابقه،و المعنی:و لا تدع من دون الله ما لا نفع لک عنده و لا ضرر،و الحال أن ما مسک الله به من ضر لا یکشفه غیره و ما أرادک به من خیر لا یرده غیره فهو القاهر دون غیره یصیب بالخیر عباده بمشیئته و إرادته، و هو مع ذلک غفور رحیم یغفر ذنوب عباده و یرحمهم،و اتصافه بهذه الصفات الکریمه و کون غیره صفر الکف منها یقتضی تخصیص العباده و الدعوه به.

قوله تعالی:« قُلْ یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَکُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ »و هو القرآن أو ما یشتمل علیه من الدعوه الحقه،و قوله:« فَمَنِ اهْتَدیٰ »إلی آخر الآیه،إعلام لهم بکونهم مختارین فیما ینتخبونه لأنفسهم من غیر أن یسلبوا الخیره ببیان حقیقه هی أن الحق-و قد جاءهم- من حکمه أن من اهتدی إلیه فإنما یهتدی و نفعه عائد إلیه، و من ضل عنه فإنما یضل و ضرره علی نفسه فلهم أن یختاروا لأنفسهم ما یحبونه من نفع أو ضرر،و لیس هو(ص)وکیلا لهم یتصدی من الفعل ما هو لهم فالآیه کنایه عن وجوب اهتدائهم إلی الحق لأن فیه نفعهم.

قوله تعالی:« وَ اتَّبِعْ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ وَ اصْبِرْ حَتّٰی یَحْکُمَ اللّٰهُ وَ هُوَ خَیْرُ الْحٰاکِمِینَ »أمر باتباع ما یوحی إلیه و الصبر علی ما یصیبه فی جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن،و وعد بأن الله سبحانه سیحکم بینه و بین القوم،و لا یحکم إلا بما فیه قره عینه فالآیه تشتمل علی أمره بالاستقامه فی الدعوه و تسلیته فیما یصیبه، و وعده بأن العاقبه الحسنی له.

و قد اختتمت الآیه بحکمه تعالی،و هو الذی علیه یعتمد معظم آیات السوره فی بیانها.و الله أعلم.

ص :۱۳۳

(۱۱)(سوره هود مکیه و هی مائه و ثلاث و عشرین آیه)(۱۲۳)

[سوره هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

الر كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنَّنِی لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اَللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ (۴)

(بیان)

السوره کما یظهر من مفتتحها و مختتمها و السیاق الذی یجری علیه آیاتها تبین غرض الآیات القرآنیه علی کثرتها و تشتتها،و تصف المحصل من مقاصدها علی اختلافها و الملخص من مضامینها.

فتذکر أنها علی احتوائها معارف الدین المختلفه من أصول المعارف الإلهیه و الأخلاق الکریمه الإنسانیه،و الأحکام الشرعیه الراجعه إلی کلیات العبادات و المعاملات و السیاسات و الولایات ثم وصف عامه الخلیقه کالعرش و الکرسی و اللوح و القلم و السماء و الأرض و الملائکه و الجن و الشیاطین و النبات و الحیوان و الإنسان، و وصف بدء الخلیقه و ما ستعود إلیه من الفناء و الرجوع إلی الله سبحانه.

ص :۱۳۴

و هو یوم البعث بما یتقدمه من عالم القبر و هو البرزخ ثم القیام لرب العالمین و الحشر و الجمع و السؤال و الحساب و الوزن و شهاده الأشهاد ثم فصل القضاء ثم الجنه أو النار بما فیهما من الدرجات و الدرکات.

ثم وصف الرابطه التی بین خلقه الإنسان و بین عمله و ما بین عمله،و ما یستتبعه من سعاده أو شقاوه و نعمه أو نقمه و درجه أو درکه،و ما یتعلق بذلک من الوعد و الوعید و الإنذار و التبشیر بالموعظه و المجادله الحسنه و الحکمه.

فالآیات القرآنیه علی احتوائها تفاصیل هذه المعارف الإلهیه و الحقائق الحقه تعتمد علی حقیقه واحده هی الأصل و تلک فروعه،و هی الأساس الذی بنی علیه بنیان الدین و هو توحیده تعالی توحید الإسلام بأن یعتقد أنه تعالی هو رب کل شیء لا رب غیره و یسلم له من کل وجهه فیوفی له حق ربوبیته،و لا یخشع فی قلب و لا یخضع فی عمل إلا له جل أمره.

و هذا أصل یرجع إلیه علی إجماله جمیع تفاصیل المعانی القرآنیه من معارفها و شرائعها بالتحلیل،و هو یعود إلیها علی ما بها من التفصیل بالترکیب.

فالسوره تبین ذلک بنحو الإجمال فی هذه الآیات الأربع التی افتتحت بها ثم تأخذ فی بیانه التفصیلی بسمه الإنذار و التبشیر بذکر ما لله من السنه الجاریه فی عباده،و إیراد أخبار الأمم الماضیه،و قصص أقوام نوح و هود و صالح و لوط و شعیب و موسی(ع)،و ما ساقهم إلیه الاستکبار عن إجابه الدعوه الإلهیه و الإفساد فی الأرض و الإسراف فی الأمر،و وصف ما وعد الله به الذین آمنوا و عملوا الصالحات و ما أوعد الله به الذین کفروا و کذبوا بالآیات،و تبین فی خلال ذلک أمورا من المعارف الإلهیه الراجعه إلی التوحید و النبوه و المعاد.

و مما تقدم یظهر ما فی قول بعضهم عند ما ذکر غرض هذه السوره:أنها فی معنی سوره یونس و موضوعها،و هو أصول عقائد الإسلام فی الإلهیات و النبوات و البعث و الجزاء و عمل الصالحات و قد فصل فیها ما أجمل فی سوره یونس من قصص الرسل (ع).انتهی.

و قد عرفت أن السورتین مسوقتان لغرضین مختلفین لا یرجع أحدهما إلی الآخر

البته فسوره یونس تبین أن السنه الإلهیه جاریه علی القضاء بین الرسل و بین أممهم المکذبین لهم،ثم توعد هذه الأمه بما جری مثله علی الذین من قبلهم،و سوره هود تبین أن المعارف القرآنیه ترجع بالتحلیل إلی التوحید الخالص کما أن التوحید یعود بحسب الترکیب إلی تفاصیل المعارف الأصلیه و الفرعیه.

و السوره-علی ما تشهد به آیاتها بمضامینها و الاتصال الظاهر بینها-مکیه نازله دفعه واحده،و قد روی عن بعضهم استثناء قوله تعالی :«فَلَعَلَّکَ تٰارِکٌ بَعْضَ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ:» الآیه-۱۲ فذکر أنها مدنیه.

و استثنی بعضهم قوله :«أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ:» الآیه-۱۷،و بعضهم قوله تعالی :«وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ طَرَفَیِ النَّهٰارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ:» الآیه-۱۱۴،و لا دلیل علی شیء من ذلک من طریق اللفظ،و ظاهر اتصالها أنها جمیعا مکیه.

قوله تعالی:« الر کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ » المقابله بین الإحکام و التفصیل الذی هو إیجاد الفصل بین أجزاء الشیء المتصل بعضها ببعض،و التفرقه بین الأمور المندمجه کل منها فی آخر تدل علی أن المراد بالإحکام ربط بعض الشیء ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه إلی طرف آخر بحیث یعود الجمیع شیئا واحدا بسیطا غیر ذی أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الکتاب إذا اتصف بالإحکام و التفصیل بهذا المعنی الذی مر فإنما یتصف بهما من جهه ما یشتمل علیه من المعنی و المضمون لا من جهه ألفاظه أو غیر ذلک،و أن حال المعانی فی الإحکام و التفصیل و الاتحاد و الاختلاف غیر حال الأعیان فالمعانی المتکثره إذا رجعت إلی معنی واحد کان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ فی الجمیع و هو بعینه علی إجماله هذه التفاصیل،و هی بعینها علی تفاصیلها ذاک الإجمال و هذا کله ظاهر لا ریب فیه.

و علی هذا فکون آیات الکتاب محکمه أولا ثم مفصله ثانیا معناه أن الآیات الکریمه القرآنیه علی اختلاف مضامینها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع إلی معنی واحد بسیط،و غرض فارد أصلی لا تکثر فیه و لا تشتت بحیث لا تروم آیه من الآیات الکریمه مقصدا من المقاصد و لا ترمی إلی هدف إلا و الغرض الأصلی هو الروح

ص :۱۳۶

الساری فی جثمانه و الحقیقه المطلوبه منه.

فلا غرض لهذا الکتاب الکریم علی تشتت آیاته و تفرق أبعاضه إلا غرض واحد متوحد إذا فصل کان فی مورد أصلا دینیا و فی آخر أمرا خلقیا و فی ثالث حکما شرعیا و هکذا کلما تنزل من الأصول إلی فروعها و من الفروع إلی فروع الفروع لم یخرج من معناه الواحد المحفوظ،و لا یخطی غرضه فهذا الأصل الواحد بترکبه یصیر کل واحد واحد من أجزاء تفاصیل العقائد و الأخلاق و الأعمال،و هی بتحلیلها و إرجاعها إلی الروح الساری فیها الحاکم علی أجسادها تعود إلی ذاک الأصل الواحد.

فتوحیده تعالی بما یلیق بساحه عزه و کبریائه مثلا فی مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنی و صفاته العلیا،و فی مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الکریمه من الرضا و التسلیم و الشجاعه و العفه و السخاء و نحو ذلک و الاجتناب عن الصفات الرذیله، و فی مقام الأعمال و الأفعال الإتیان بالأعمال الصالحه و الورع عن محارم الله.

و إن شئت فقل:إن التوحید الخالص یوجب فی کل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما یبینه الکتاب الإلهی من ذلک کما أن کلا من هذه المراتب و کذلک أجزاؤها لا تتم من دون توحید خالص.

فقد تبین أن الآیه فی مقام بیان رجوع تفاصیل المعارف و الشرائع القرآنیه إلی أصل واحد هو بحیث إذا رکب فی کل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصیه ذلک المورد أنتج حکما یخصه من الأحکام القرآنیه،و بذلک یظهر:

أولا:أن قوله:« کِتابٌ »خبر لمبتدإ محذوف و التقدیر:هذا کتاب،و المراد بالکتاب هو ما بأیدینا من القرآن المقسم إلی السور و الآیات، و لا ینافی ذلک ما ربما یذکر أن المراد بالکتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو فی اللوح فإن هذا الکتاب المقرو متحد مع ما فی اللوح اتحاد التنزیل مع التأویل.

و ثانیا:أن لفظه« ثُمَّ »فی قوله:« ثُمَّ فُصِّلَتْ »إلخ،لإفاده التراخی بحسب ترتیب الکلام دون التراخی الزمانی إذ لا معنی للتقدم و التأخر الزمانی بین المعانی المختلفه بحسب الأصلیه و الفرعیه أو بالإجمال و التفصیل.

ص:۱۳۷

و يظهر أيضا ما فى بعض ما ذكره أرباب التفاسير فى معنى الآيه كقول بعضهم:

إن معناها أحكمت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب و الشرائع ثم فصلت ببيان الحلال و الحرام و سائر الأحكام.

و فيه:أن الواجب على هذا المعنى أن يقيد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنيه نفسها مما لا ينبغى الارتياب فيه.و التقييد المذكور لا دلاله عليه من جهه لفظ الآيه.

و كقول بعضهم:إن المراد أحكمت آياته بالأمر و النهى ثم فصلت بالوعد و الوعيد و الثواب و العقاب.و فيه أنه تحكم لا دليل عليه أصلا.

و كقول بعضهم:إن المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحه حتى صار معجزا،و تفصيلها بالشرح و البيان.و الكلام فى هذا الوجه كسابقه.

و كقول بعضهم:المراد بإحكام آياته جعلها محكمه متقنه لا خلل فيها و لا باطل،و المراد بتفصيلها جعلها متتابعه بعضها إثر بعض.و فيه:أن التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغه إلا أن يفسر بمعنى التفرقه و التكثير و يرجع حينئذ إلى ما قدمناه من المعنى.

و كقول بعضهم:إن المراد أحكمت آياته جمله ثم فرقت فى الإنزال آيه بعد آيه ليكون المكلف أمكن من النظر و التأمل.

و فيه:أن الأحرى بهذا الوجه أن يذكر فى مثل قوله تعالى :«إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِى لَيْلَهٍ مُبٰارَكَهٍ:» الدخان:-٣،و قوله :«وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّٰاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِيلاً:» إسراء:-١٠۶ و ما فى هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن للقرآن مرتبه عند الله هى أعلى من سطح الأفهام ثم نزل إلى مرتبه تقبل التفهم و التفقه رعايه لحال الأفهام العاديه كما يشير إليه أيضا قوله :«وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ:» الزخرف:-۴.

و أما آيتنا التى نحن فيها كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ »إلخ،فقد علق

فیها الإحکام و التفصیل معا علی الآیات،و لیس ذلک إلا من جهه معانیها فتفید أن الإحکام و التفصیل هما فی معانی هذه الآیات المتکثره فلها جهه وحده و بساطه و جهه کثره و ترکب، و ینطبق علی ما قدمناه من المعنی لا علی ما ذکره الراجع إلی مسأله التأویل و التنزیل فافهم ذلک.

و کقول بعضهم:إن المراد بالإحکام و التفصیل إجمال بعض الآیات و تبیین البعض الآخر،و قد مثل لذلک بقوله تعالی فی هذه السوره :«مَثَلُ الْفَرِیقَیْنِ کَالْأَعْمیٰ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِیرِ وَ السَّمِیعِ:» الآیه:-۲۴،فإنه مجمل محکم یتبین بما ورد فیها من قصه نوح و هود و صالح.و هکذا.

و فیه:أن ظاهر الآیه أن الإحکام و التفصیل متحدان من حیث المورد بمعنی أن الآیات التی ورد علیها الإحکام بعینها هی التی ورد علیها التفصیل لا أن الإحکام وصف لبعض آیاته و التفصیل وصف بعضها الآخر کما هو لازم ما ذکره.

و قوله تعالی:« مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ »الحکیم من أسمائه الحسنی الفعلیه یدل علی إتقان الصنع،و کذا الخبیر من أسمائه الحسنی یدل علی علمه بجزئیات أحوال الأمور الکائنه و مصالحها،و إسناد إحکام الآیات و تفصیلها إلی کونه تعالی حکیما خبیرا لما بینهما من النسبه.

قوله تعالی:« أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ »الآیه،و ما بعدها تفسیر لمضمون الآیه الأولی:« کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ »و إذ کانت الآیه تتضمن أنه کتاب من الله إلی...له آیات محکمه ثم مفصله کانت العنایه فی تفسیرها متوجه إلی إیضاح هذه الجهات.

و من المعلوم أن هذا الکتاب الذی أنزله الله تعالی من عنده إلی رسوله لیتلوه علی الناس و یبلغهم له وجه خطاب إلی الرسول ص و وجه خطاب إلی الناس بوساطته أما وجه خطابه إلی الرسول ص و هو الذی یتلقاه الرسول من وحی الله فهو أن أنذر و بشر و ادع الناس إلی کذا و کذا،و هذا الوجه هو الذی عنی به فی أول سوره یونس حیث قال تعالی :«أَوْحَیْنٰا إِلیٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّٰاسَ وَ بَشِّرِ

الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ:» يونس:-٢.

و أما وجه خطابه إلى الناس و هو الذى يتلقاه الناس من الرسول ص فهو ما يلقيه إلى الناس من المعنى فى ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرساله أنى أدعوكم إلى الله دعوه نذير و بشير،و هذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله:

« أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ »إلخ.

فالآيه من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكايه ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول إياهم بتلاوه كتاب الله عليهم،و ليس كلاما للرسول بطريق الحكايه و لا بتقدير القول و لا من الالتفات فى شىء،و لا أن التقدير:أمركم بأن لا تعبدوا أو:«فصلت آياته لأن لا تعبدوا إلا الله»بأن يكون قوله:

« أَلاّ تَعْبُدُوا »نفيا لا نهيا فإن قوله بعد:« وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » معطوف على قوله: أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ ،و هو يشهد بأن« أَلاّ تَعْبُدُوا »نهى لا نفى.

على أن التقدير لا يصار إليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقوله:« أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ »دعوه إلى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير الله من الآلهه المتخذه شركاء لله،و قصر العباده فيه تعالى،و قوله:

« وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »أمر بطلب المغفره من الله و قد اتخذوه ربا لهم برفض عباده غيره ثم أمر بالتوبه و الرجوع إليه بالأعمال الصالحه و يتحصل من الجميع سلوك الطريق الطبيعى الموصل إلى القرب و الزلفى منه تعالى،و هو رفض الآلهه دون الله ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع إليه تعالى بالأعمال الصالحه.

و قد جىء بأن التفسيريه ثانيا فى قوله:« وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا »إلخ،لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله:« أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ »و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا،و قوله:« وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الأولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا

علیه أورد النذر و البشاره بعد ذکر التوحید،و الوعد الجمیل الذی یتضمنه قوله:

« یُمَتِّعْکُمْ »إلخ،بعد ذکر الاستغفار و التوبه فقال:« أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ »فبین به أن النذر و البشری کائنین ما کانا یرجعان إلی التوحید و یتعلقان به ثم قال:« وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُمَتِّعْکُمْ مَتٰاعاً حَسَناً »إلخ فإن الآثار القیمه و النتائج الحسنه المطلوبه إنما تترتب علی الشیء بعد ما تم فی نفسه و کمل بصفاته و فروعه و نتائجه، و التوحید و إن کان هو الأصل الوحید للدین علی سعته لکن شجرته لا تثمر ما لم تقم علی ساقها و یتفرع علیها فروعها و أغصانها، « کَلِمَهً طَیِّبَهً کَشَجَرَهٍ طَیِّبَهٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَ فَرْعُهٰا فِی السَّمٰاءِ تُؤْتِی أُکُلَهٰا کُلَّ حِینٍ بِإِذْنِ رَبِّهٰا ».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فی الآیه الإیمان کما فی قوله تعالی :«فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تٰابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ:» المؤمن:-٧ فیستقیم الجمع بین الاستغفار و التوبه مع عطف التوبه علیه بثم،و المعنی اترکوا عباده الأصنام بعد هذا و اطلبوا من ربکم غفران ما قدمتم من المعصیه ثم آمنوا بربکم.

و قیل:إن المعنی اطلبوا المغفره و اجعلوها غرضکم ثم توصلوا إلیه بالتوبه و هو غیر جید و من التکلف ما ذکره بعضهم أن المعنی:استغفروا من ذنوبکم الماضیه ثم توبوا إلیه کلما أذنبتم فی المستقبل و کذا قول آخر:إن« ثُمَّ »فی الآیه بمعنی الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله:« یُمَتِّعْکُمْ مَتٰاعاً حَسَناً إِلیٰ أَجَلٍ مُسَمًّی » الأجل المسمی هو الوقت الذی ینتهی إلیه الحیاه لا تتخطاه البته،فالمراد هو التمتیع فی الحیاه الدنیا بل بالحیاه الدنیا لأن الله سبحانه سماها فی مواضع من کلامه متاعا، فالمتاع الحسن إلی أجل مسمی لیس إلا الحیاه الدنیا الحسنه.

فیئول معنی قوله:« یُمَتِّعْکُمْ مَتٰاعاً حَسَناً »علی تقدیر کون« مَتٰاعاً »مفعولا مطلقا إلی نحو من قولنا:یمتعکم تمتیعا حسنا بالحیاه الحسنه الدنیویه«و متاع الحیاه إنما یکون حسنا إذا ساق الإنسان إلی سعادته الممکنه له،و هداه إلی أمانی الإنسانیه من التنعم بنعم الدنیا فی سعه و أمن و رفاهیه و عزه و شرافه فهذه الحیاه الحسنه تقابل

المعیشه الضنک التی یشیر إلیها فی قوله :«وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَهً ضَنْکاً:» طه:-۱۲۴.

و لا حسن لمتاع الحیاه الدنیا و لا سعه فی المعیشه لمن أعرض عن ذکر الله و لم یؤمن بربه فإن البعض من الناس و إن أمکن أن یؤتی سعه من المال و علوا فی الأرض ثم یحسب أن لا ـ أمنیه من أمانی الإنسانیه إلا و قد أوتیها لکنه فی غفله عن ابتهاج من تحقق بحقیقه الإیمان بالله و دخل فی ولایه الله فآتاه الله الحیاه الطیبه الإنسانیه، و آمنه من ذله الحیاه الحیوانیه التی لا حکومه فیها إلا للحرص و الشره و الافتراس و التکلب و الجهاله،فالنفس الحره الإنسانیه تذم من الحیاه ما یستأثره النفوس الرذیله الخسیسه و إن استتبع الذله و المسکنه و کل شناعه.

فالحیاه الحسنه لمجتمع صالح حر أن یشترکوا فی التمتع من مزایا النعم الأرضیه التی خلقها الله لهم اشتراکا عن تراحم بینهم و تعاون و تعاضد من غیر تعد و تزاحم بحیث یطلب کل خیر نفسه و نفعها فی خیر مجتمعه و نفعه من غیر أن یعبد نفسه و یستعبد الآخرین.

و بالجمله التمتع بالحیاه الحسنه إلی أجل مسمی هو تمتع الفرد بالحیاه علی ما تستحسنه الفطره الإنسانیه و هو الاعتدال فی التمتعات المادیه فی ضوء العلم النافع و العمل الصالح هذا إذا نسب إلی الفرد،و أما إذا نسب إلی المجتمع فهو الانتفاع العام من نعم الحیاه الأرضیه الطیبه بتخصیص ما یناله الأفراد بکدهم و سعیهم بالمجتمع الملتئم الأ ـ جزاء من غیر تضاد بین أبعاضه أو تناقض.

و قوله:« وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ » الفضل هو الزیاده و إذ نسب الفضل فی قوله:« کُلَّ ذِی فَضْلٍ »إلی من عنده الفضل من الأفراد کان ذلک قرینه علی کون الضمیر فی« فَضْلَهُ »راجعا إلی ذی الفضل دون اسم الجلاله کما احتمله بعضهم و الفضل و الزیاده من المعانی النسبیه التی إنما تتحقق بقیاس شیء إلی شیء و إضافته إلیه.

فالمعنی:و یعطی کل من زاد علی غیره بشیء من صفاته و أعماله و ما یقتضیه من الاختصاص بمزید الأجر و خصوصه موهبه السعاده تلک الزیاده من غیر أن یبطل حقه أو یغصب فضله أو یملکه غیره کما یشاهد فی المجتمعات غیر الدینیه و إن کانت مدنیه

راقيه فلم تزل البشريه منذ سكنت الأرض و كونت أنواع المجتمعات الهمجيه أو الراقيه أو ما هى أرقى تنقسم إلى طائفتين مستعليه مستكبره قاهره،و مستذله مستعبده مقهوره،و ليس يعدل هذا الإفراط و التفريط و لا يسوى هذا الاختلاف إلا دين التوحيد.

فدين التوحيد هو السنه الوحيده التى تقصر المولويه و السياده فى الله سبحانه و تسوى بين القوى و الضعيف و المتقدم و المتأخر و الكبير و الصغير و الأبيض و الأسود و الرجل و المرأه و تنادى بمثل قوله تعالى :«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ:» الحجرات:-١٣، و قوله :«أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ:» آل عمران:-١٩٥.

ثم إن وقوع قوله:« وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ »الحاكى عن الاعتناء بفضل كل ذى فضل بعد قوله:« يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى »الدال على تمتيع الجميع مشعر:

أولا:بأن المراد بالجمله الأولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع و بعباره أخرى حياه المجتمع العامه الحسنه،و بالجمله الثانيه المزايا التى يؤتاها بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل.

و ثانيا:أن الجمله الأولى تشير إلى التمتيع بمتاع الحياه الدنيا و الثانيه إلى إيتاء ثواب الآخره قبال الأعمال الصالحه القائمه بالفرد أو إيتاء كل ذى فضل فضله فى الدنيا و الآخره معا بتخصيص كل من جاء بزياده فى جهه دنيويه بما تقتضيه زيادته من المزيه فى جهات الحياه بإقامه كل ذى فضيله فى صفه أو عمل مقامه الذى تقتضيه صفته أو عمله و وضعه موضعه من غير أن يسوى بين الفاضل و المفضول فى دينهما أو تزاح الخصوصيات و تبطل الدرجات و المنازل بين الأعمال و المساعى الاجتماعيه فلا يتفاوت حال الناشط فى عمله و الكسلان،و لا يختلف أمر المجتهد فى العمل الدقيق المهم فى بابه و اللاعب بالعمل الحقير الهين و هكذا.

و قوله:« وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ »أى فإن تتولوا

إلخ بالخطاب،و الدليل عليه قوله:« عَلَيْكَمْ »و ما تقدم فی الآيتين من الخطابات المتعدده فلا يصغی إلی قول من يأخذ قوله:« تَوَلَّوْا »جمعا مذكرا غائبا من الفعل الماضی فإنه ظاهر الفساد.

و قـد أغرب بعض المفسـرين حيث قـال فی قوله تعالی:« يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى »:و الآيه تتضـمن نجاه هـذه الأمه المحمديه من عذاب الاستئصال كما بيناه فی تفسير سوره يونس أيضا انتهی،و لست أدری كيف استفاد من الآيه ما ذكره و لعله بنی ذلـك علی أن الآيه اشترطت للأمه الحياه الحسـنه من غير استئصال إن آمنوا بالله و آياته ثم إنهم آمنوا و انتشر الإسـلام فی الـدنيا،لكن من المعلوم أن الرسول ص مرسل إلی أهـل الـدنيا عـامه و لم يؤمن به عـامتهم،و لا أن المؤمنين به أخلصوا جميعا إيمانهم من النفاق و سری الإيمان من ظاهرهم إلی باطنهم و من لسانهم إلی جنانهم.

و لو كـان مجرد إيمـان بعض الأمه مع كفر الآخرين كافيـا فی تحقق الشـرط و ارتفـاع عـذاب الاستئصـال لكفی فی أمه نوح و هود(ع)و غيرهما و قد دعوا أممهم إلی ما دعا إليه محمد ص،و اشترطوا لهم مثل ما اشترط لأمته ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال و كان حقا عليه نصر المؤمنين.

و قـد حكی الله سبحانه عن نـوح قوله لقومه فی ضـمن دعوته :«اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كٰانَ غَفّٰاراً يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنّٰاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهٰاراً:» نوح:-١٢ و حكی عن هود قوله :«وَ يٰا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرٰاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ:» هود:-٥٢،و حكی جمله عن نـوح و هود و صالـح و الذين من بعدهم قولهم :«أَ فِي اللّٰهِ شَكٌّ فٰاطِرِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى:» إبراهيم:-١٠.

و أما قوله:«و قـد بيناه فی سوره يونس أيضا»فلم يأت هناك إلا بـدعوی خاليه و قـد قدمنا هناك أن آيات سوره يونس صريحه فی أن الله سيقضی بين هذه الأمه بين نبيها(ص)فيعذبهم و ينجی المؤمنين سنه الله التی قد خلت فی عباده

و لن تجد لسنه الله تبديلا.

قوله تعالى:« إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »فى مقام التعليل لما يفيده قوله:« وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ »من المعاد،و ذيل الآيه،مسوق لإزاحه ما يمكن أن يختلج فى صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت،و المعنى و إن تتولوا عن إخلاص العباده له و رفض الشركاء فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه و هو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله و الله على كل شىء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الإماته فإياكم أن تستبعدوا ذلك.

فالآيه قرينه على أن المراد باليوم الكبير يوم القيامه،

و روى القمى فى تفسيره، مضمرا": أن المراد بعذاب يوم كبير الدخان و الصيحه.

[سوره هود (١١): الآيات ۵ الى ١۶]

اشاره

أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۵) وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِي اَلْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اَللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ (۶) وَ هُوَ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِي سِتَّهِ أَيّٰامٍ وَ كٰانَ عَرْشُهُ عَلَى اَلْمٰاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ اَلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ اَلْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّهٍ مَعْدُودَهٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُ أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنّٰا رَحْمَهً ثُمَّ نَزَعْنٰاهٰا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنٰاهُ نَعْمٰاءَ بَعْدَ ضَرّٰاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ اَلسَّيِّئٰاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ بَعْضَ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيٰاتٍ وَ اُدْعُوا مَنِ اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اَللّٰهِ وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١۴) مَنْ كٰانَ يُرِيدُ اَلْحَيٰاهَ اَلدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمٰالَهُمْ فِيهٰا وَ هُمْ فِيهٰا لاٰ يُبْخَسُونَ (١۵) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَهِ إِلاَّ اَلنّٰارُ وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِيهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١۶)

ص:١۴۵

(بیان)

جمـل و فصول من أعمـال المشـركين و أقوالهم فی الرد علی نبوه النبی ص و مـا نزل علیه من الكتـاب تـذكرها الآیات و تجیب عنها بإلقاء الحجه كاستخفائهم من الله،

ص: ۱۴۶

و قولهم:ما يحبس العذاب عنا،و قولهم:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، و قولهم:إنه افترى القرآن.و فيها بعض معارف أخر.

قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ »إلى آخر الآيه، ثنى الشيء يثناه ثنيا كفتح يفتح فتحا أى عطفه و طواه و رد بعضه على بعض قال فى المجمع،:أصل الثنى العطف تقول:ثنيته عن كذا أى عطفته،و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى،و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح،و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه،انتهى.و قال أيضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال:استخفى و تخفى بمعنى،و كذلك استغشى و تغشى،انتهى.

فالمراد بقوله:« يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ »أنهم يميلون بصدورهم إلى خلف و يطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب أى من استماعه حين تلاوته و هو كنايه عن استخفائهم من النبى ص و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجه.

و قوله:« أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ »إلخ،كأنهم كانوا يسترون رءوسهم أيضا بثيابهم عند استخفائهم بثنى الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفى عن استماع القرآن و الله يعلم سرهم و علانيتهم.

و قيل:إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء فى بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم،و هو أخفى ما يكون فيه الإنسان و أخلى أحواله،و المعنى:أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم،و الله يعلم سرهم و علانيتهم فى أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيهم بثيابهم للنوم،و لا يخلو الوجه من ظهور.

هذا ما يفيده السياق فى معنى الآيه،و ربما ذكر لها معان أخر بعيده من السياق منها قولهم:إن الضمير فى لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ »راجع إليه تعالى أو إلى النبى ص و منها قول بعضهم: « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ »أى يطوونها على الكفر،و قول آخرين:

أى يطوونها على عداوه النبى ص إلى غير ذلك من المعانى المذكوره و هى جميعا معان بعيده.

قوله تعالى:« وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا »إلى آخر الآيه، الدابه على ما فى كتب اللغه كل ما يدب و يتحرك،و يكثر استعماله فى النوع الخاص منه،و قرينه المقام تقتضى كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعه علمه تعالى،و لذلك عقب به قوله:« أَلاٰ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ ».

و هذا المعنى أعنى كون ذكر وجوب رزق كل دابه على الله لبيان سعه علمه لكل دابه فى جميع أحوالها يستوجب أن يكون قوله:« وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا » بمنزله عطف التفسير لقوله:« عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا »فيعود المعنى إلى أن كل دابه من دواب الأرض على الله أن يرزقها-و لن تبقى بغير رزق-فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت فى مستقر لا تخرج منه كالحوت فى الماء و كالصدف فيما وقعت و استقرت فيه من الأرض رزقها هناك و إن كانت خارجه من مستقرها و هى فى مستودع ستتركه إلى مستقرها كالطير فى الهواء أو كالمسافر الغارب عن وطنه أو كالجنين فى الرحم رزقها هناك و بالجمله هو تعالى عالم بحال كل دابه فى الأرض و كيف لا و عليه تعالى رزقها و لا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حل فيه من محل دائم أو معجل و مستقر أو مستودع.

و من هنا يظهر أن المراد بالمستقر و المستودع المحل الذى تستقر فيه الدابه ما دامت دابه تدب فى الأرض و تعيش عيشه دنيويه و المحل الذى تحل فيه ثم تودعه و تفارقه،و أما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر و المستودع أماكنها فى الحياه و بعد الممات أو أن المراد بهما الأصلاب و الأرحام أو أن المراد بهما مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل و مودعها من المواد و المقار حين كانت بعد بالقوه فمعان بعيده عن سياق الآيه اللهم إلا أن يجعل قوله:« وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا »كلاما مستأنفا بحياله غير مفسر لما قبله.

و قد تقدم فى قوله تعالى :«وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ:» الأنعام-٩٨ ما يناسب هذا المقام فليراجع إليه من شاء.

و أما قوله:« عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا »فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى و قد

تكرر فی القرآن أن الرزق من أفعاله تعالی المختصه به و أنه حق للخلق علیه تعالی قال تعالی :«أَمَّنْ هٰذَا الَّذِی یَرْزُقُکُمْ إِنْ أَمْسَکَ رِزْقَهُ:» الملک:-۲۱،و قال تعالی :

«إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزّٰاقُ ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِینُ:» الذاریات:-۵۸ و قال تعالی :«وَ فِی السَّمٰاءِ رِزْقُکُمْ وَ مٰا تُوعَدُونَ فَوَ رَبِّ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مٰا أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ:» الذاریات:-۲۳.

و لا ضیر فی أن یثبت علیه تعالی حق لغیره إذا کان تعالی هو الجاعل الموجب لذلک علی نفسه من غیر أن یداخل فیه غیره،و لذلک نظائر فی کلامه تعالی کما قال :

«کَتَبَ عَلیٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَهَ:» الأنعام:-۱۲،و قال :«وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ:» الروم:-۴۷ إلی غیر ذلک من الآیات.

و الاعتبار العقلی یؤید ذلک فإن الرزق هو ما یدیم به المخلوق الحی وجوده و إذ کان وجوده من فیض جوده تعالی فما یتوقف علیه من الرزق من قبله،و إذ لا شریک له تعالی فی إیجاده لا شریک له فی ما یتوقف علیه وجوده کالرزق.

و قد تقدم بعض الکلام فی معنی الکتاب المبین فی سوره الأنعام آیه:۵۹ و فی سوره یونس آیه:۶۱ فلیراجع.

قوله تعالی:« وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ »الکلام المستوفی فی توصیف خلق السماوات و الأرض علی ما یظهر من کلامه تعالی و یفسره ما ورد فی ذلک عن أهل العصمه(ع)موکول إلی ما سیأتی من تفسیر سوره حم السجده إن شاء الله تعالی.

و إجمال القول الذی یظهر به معنی قوله:« سِتَّهِ أَیّٰامٍ »و قوله:« وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ »هو أن الظاهر أن ما یذکره تعالی من السماوات-بلفظ الجمع-و یقارنها بالأرض و یصف خلقها فی سته أیام طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا فکل ما علاک و أظلک فهو سماء علی ما قیل و العلو و السفل من المعانی الإضافیه.

فهی طبقات من الخلق الجسمانی المشهود تعلو أرضنا و تحیط بها فإن الأرض

كرويه الشكل على ما يفيده قوله تعالى :«يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً:» الأعراف-۵۴.

و السماء الأولى هى التى تزينه مصابيح النجوم و الكواكب فهى الطبقه التى تتضمنها أو هى فوقها و تتزين بها كالسقف يتزين بالقناديل و المشاكى و أما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد فى كلامه شىء من صفتها غير ما فى قوله تعالى سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً:» الملك:-۳،و قوله :«أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً:» نوح:-۱۶ حيث يدل على مطابقه بعضها بعضا.

و قد ذكر الله سبحانه فى صفه خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها و متفرقه متلاشيه فجمعها و ركمها و أنها كانت دخانا فصيرها سماوات،قال تعالى :«أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ:» الأنبياء:-۳۰:«و قال ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها:» حم السجده-۱۲ فأفاد أن خلق السماوات إنما تم فى يومين،و اليوم مقدار معتد به من الزمان و ليس من الواجب أن يطابق اليوم فى كل ظرف و وعاء يوم أرضنا الحاصل من دوره واحده من حركتها الوضعيه كما أن اليوم الواحد فى القمر الذى لهذه الأرض يعدل تسعه و عشرين يوما و نصفا تقريبا من أيام الأرض و استعمال اليوم فى البرهه من الزمان شائع فى الكلام.

فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع فى برهتين من الزمان كما قال فى الأرض :

«خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ -Xإلى أن قالX- وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ:» حم السجده:-۱۰ فأنبأ عن خلقها فى يومين و هما عهدان و طوران و جعل الأقوات فى أربعه أيام و هى الفصول الأربعه.

فالمتحصل من الآيات أولا:أن خلق السماوات و الأرض على ما هى عليه اليوم من الصفه و الشكل لم يكن عن عدم بحت بل هى مسبوقه الوجود بماده متشابهه

مركومه مجتمعه ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضا فی برهتین من الزمان و قد کانت السماء دخانا ففصلت و قضیت سبع سماوات فی برهتین من الزمان.

و ثانیا:أن ما نراه من الأشیاء الحیه إنما جعلت من الماء فماده الماء هی ماده الحیاه.

و بما قدمنا یظهر معنی الآیه التی نحن فیها فقوله:« هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ »المراد بخلقها جمع أجزائها و فصلها و فتقها من سائر ما یختلط بها من الماده المتشابهه المرکومه،و قد تم أصل الخلق و الرتق فی السماوات فی یومین و فی الأرض أیضا فی یومین و یبقی من السته الأیام یومان لغیر ذلک.

و أما قوله:« وَ کٰانَ عَرْشُهُ عَلَی الْمٰاءِ »فهو حال و المعنی و کان عرشه یوم خلقهن علی الماء و کون العرش علی الماء یومئذ کنایه عن أن ملکه تعالی کان مستقرا یومئذ علی هذا الماء الذی هو ماده الحیاه فعرش الملک مظهر ملکه،و استقراره علی محل هو استقرار ملکه علیه کما أن استواءه علی العرش احتواءه علی الملک و أخذه فی تدبیره.

و قول بعضهم:إن المراد بالعرش البناء أخذا من قوله تعالی :«مِمّٰا یَعْرِشُونَ:» النحل:-۶۸ أی یبنون کلام بعید عن الفهم.

قوله تعالی:« لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »اللام للغایه و البلاء الامتحان و الاختبار،و قوله:« أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »بیان للاختبار و الامتحان فی صوره الاستفهام و المراد أنه تعالی خلق السماوات و الأرض علی ما خلق لغایه امتحانکم و تمییز المحسنین منکم من المسیئین.

و من المعلوم أن البلاء و الامتحان أمر مقصود لغیره و هو تمییز الجید من الردی و الحسن من السیئ،و کذلک الحسنه و السیئه إنما یراد تمییزهما لأجل ما یترتب علیهما من الجزاء،و کذلک الجزاء إنما یراد لأجل ما فیه من إنجاز الوعد الحق و لذلک نجده تعالی یذکر کل واحد من هذه الأمور المترتبه غایه للخلقه فقال فی کون الابتلاء غایه للخلقه :«إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً:» الکهف:-۷، و قال فی معنی التمییز و التمحیص :«لِیَمِیزَ اللّٰهُ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ:» الأنفال:-۳۷،

و قال فی خصوص الجزاء :«وَ خَلَقَ اللّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ:» الجاثیه:-۲۲ و قال فی کون الإعاده لإنجاز الوعد :«کَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِیدُهُ وَعْداً عَلَیْنا إِنّا کُنّا فاعِلِینَ:» الأنبیاء:-۱۰۴ إلی غیر ذلک من الآیات،و قال فی کون العباده غرضا فی خلق الثقلین :«وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ:» الذاریات:-۵۶.

و عد العمل الصالح أو الإنسان المحسن غایه للخلقه لا ینافی اشتمال الخلقه علی غایات أخری بعد ما کان الإنسان أحد تلک الغایات حقیقه لأن الوحده و الاتصال الحاکم علی العالم یصحح کون کل واحد من أنواع الموجودات غایه للخلقه بما أنه محصول الارتباط و نتیجه الازدواج العام بین أجزائه فمن الجائز أن یخاطب کل نوع من أنواع الخلیقه أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات و الأرض بما أنها تؤدی إلیه.

علی أن الإنسان أکمل و أتقن المخلوقات الجسمانیه من السماوات و الأرض و ما فیهما صنعا و لئن نمی فی جانب العلم و العمل نماء حسنا کان أفضل ذاتا مما سواه و أرفع مقاما و أعلی درجه من غیره و إن کان بعض الخلیقه کالسماء أشد منه خلقا کما ذکره الله تعالی و من المعلوم أن کمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل علی ناقص و لذا کنا نعد مراحل وجود الإنسان المختلفه من المنویه و الجنینیه و الطفولیه و غیرها مقدمه لوجود الإنسان السوی الکامل و هکذا.

و بهذا البیان یظهر أن أفضل أفراد الإنسان-إن کان فیهم من هو أفضل مطلقا-غایه لخلق السماوات و الأرض،و لفظ الآیه أیضا لا یخلو عن إشاره أو دلاله علی ذلک فإن قوله:« أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »یفید أن القصد إلی تمییز من هو أحسن عملا من غیره سواء کان ذلک الغیر محسنا أو مسیئا فمن کان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء کانوا محسنین و أعمالهم دون عمله أو مسیئین کان تمییزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقه،و بذلک یستصح

ما ورد فی الحدیث القدسی من خطابه تعالی لنبیه(ص):

«لولاک لما خلقت الأفلاک »فإنه(ص)أفضل الخلق.

و فی المجمع،:قال الجبائی:و فی الآیه دلاله علی أنه کان قبل خلق السماوات

و الأرض و الملائكه لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من حى مكلف،و قال على بن عيسى:

لا يمتنع أن يكون فى الإخبار بذلك مصلحه للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائى و هو الذى اختاره المرتضى قدس الله روحه.انتهى.

أقول:و ما ذكراه مبنى على ما ذهب إليه المعتزله:أن أفعال الله سبحانه معلله بالأغراض و تابعه للمصالح و جهات الحسن و لو كان ذلك بأن يخلق خلقا ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به و يؤمنوا له فيتم بذلك مصلحه من مصالحهم،و قد تقدم فى أبحاثنا السابقه أن الله سبحانه لا يحكم عليه و لا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحه أو أى شىء آخر مفروض و أن غيره أى شىء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمرا ذا واقعيه و وجود إن الحكم إلا لله و الله خالق كل شىء.

فجهات الحسن و المصلحه و هى التى تحكم علينا و تبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجه عن أفعالنا مؤثره فينا من جهه كوننا فاعلين نروم بها إلى سعاده الحياه،و أما هو سبحانه فإنه أجل من ذلك.و ذلك أن جهات الحسن و المصلحه هذه إنما هى قوانين عامه مأخوذه من نظام الكون و الروابط الدائره بين أجزاء الخلقه،و من الضرورى أن الكون و ما فيه من النظام الجارى فعله سبحانه،و من الممتنع جدا أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه و لا يقنع حتى يتقدم على فاعله الموجد له.

و أما ما فى الآيه من تعليل خلق السماوات و الأرض بقوله:« لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »و نظائره الكثيره فى القرآن فإنما هو و أمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبه و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال :«الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ:» الم السجده:-٧،فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه و هو الحسن لا قبح عنده و ما كان كذلك لم يصدر عنه شر و لا قبيح البته.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذى أمر به و إن استقبحه العقل،و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذى نهى عنه

و إن استحسنه العقل و استصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى :«قُلْ إِنَّ اللّهَ لاٰ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰاءِ:» الأعراف:-٢٨.

قوله تعالى:« وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ »لما كان قوله:« لِيَبْلُوَكُمْ »إلخ،يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه به الكفار ذكره(ص)للمعاد برميه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحه و بلاغه النظم سحرا،كذلك كانوا يسمون ما يخبر به القرآن أو النبى ص من حقائق المعارف التى لا يصدقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا،و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب الله و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر إلى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق الملزوم و إراده اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد :«قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ:» المؤمنون:-٨٩.

قوله تعالى:« وَ لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مٰا يَحْبِسُهُ » إلى آخر الآيه.اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله:« لَيَقُولُنَّ » باللام و النون و المعنى:و أقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزءين:ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحل بنا.

و فى هذا إشاره أو دلاله على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبى ص ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و إن الله أخر ذلك تأخيرا رحمه لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم:« مٰا يَحْبِسُهُ »و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك:« أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ »إلخ.

و بهـذا يتأيـد أن السوره-سوره هود-نزلت بعـد سوره يونس لمكـان قوله تعالى فيها:« وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ »إلى آخر الآيات.

و قوله:« إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » الأمه الحين و الوقت كما فى قوله تعالى :«وَ قٰالَ الَّذِي نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ:» يوسف:-۴۵ أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالأمه الجماعه فقـد وعـد الله سبحانه أن يؤيـد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شـيئا و يمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضـى لهم قال :«فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰافِرِينَ يُجٰاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَةَ لاٰئِمٍ:» المائده:-۵۴،و قال :

«وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ -Xإلى أن قالX- يَعْبُدُونَنِي لاٰ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً:» النور:-۵۵،و هذا وجه لا بأس به.

و قيل:إن المراد بالأمه الجماعه و هم قوم يأتى الله بهم بعـد هؤلاء فيصـرون على الكفر فيعـذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح،أو هم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرون على معصيه الله فتقوم عليهم القيامه.

و الوجهـان سـخيفان لبنائهما على كون المعـذبين غير هؤلاء المسـتهزءين من الكفار و ظاهر قوله تعالى:« أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ »إلـخ،إن المعذبين هم المستهزءون بقولهم:« مٰا يَحْبِسُهُ ».

و قوله:« أَلاٰ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ » بمنزله الجواب عن قولهم:« مٰا يَحْبِسُهُ »الواقع موقع الاسـتهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعـدوا به من العـذاب،و محصـله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقا لم يكن لحبسـه سبب فإنـا كـافرون غير عـادلين عن الكفر و لا تـاركين له فتـأخر نزول العـذاب من غير مـوجب لتأخره بـل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب الله عن ذلک بأنه سيأتيهم و لا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحيق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

و بما تقدم يظهر أن هذا العذاب الذى يهددون به عذاب دنيوى سيحيق بهم و ينزل عليهم دون عذاب الآخره،و على هذا فهذه الآيه و التى قبلها يذكر كل منهما شيئا من ما تهوس به الكفار بجهالتهم فالآيه السابقه تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث و أنذروا بعذاب يوم القيامه قالوا:إن هذا إلا سحر مبين،و هذه الآيه تذكر أن الله إذا أخر عنهم العذاب إلى أمه و أخبروا بذلک قالوا مستهزءين:ما يحبسه.

قوله تعالى:« وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ » قال فى المجمع،: الذوق تناول الشىء بالفم لإدراک الطعم،و سمى الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل:أحلام نوم أو كظل زائل و النزع قلع الشىء عن مكانه،و اليئوس فعول من يئس-صيغه مبالغه-و اليأس القطع بأن الشىء المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء.انتهى.

و قد وضعت الرحمه فى الآيه مكان النعمه للإشعار بأن النعم التى يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمه و هى رفع حاجه الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق و إيجاب و المعنى:أنا إن آتينا الإنسان شيئا من النعم التى يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها و اشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها إليه ثانيا ممكنا و كفر بنعمتنا كأنه يرى تلک النعمه من حقه الثابت علينا و يرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه و الكفران،و قد أخذ فى الآيه لفظ الإنسان-و هو لفظ دال على نوعه- للدلاله على أن الذى يذكر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالى:« وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »قال فى المجمع،: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه و الضراء مضره يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عيناء مع ما فيهما من المبالغه،و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما يلتذ به و ضده الغم -إلى أن قال:-و الفخور الذى يكثر فخره و هو التطاول بتعديد المناقب و هى

صفه ذم إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه.انتهى.

و المراد بالسيئات بقرينه المقام المصائب و البلايا التى يسوء الإنسان نزولها عليه، و المعنى:و لئن أصبناه بالنعمه بعد الضراء ليقولن ذهب الشدائد عنى،و هو كنايه عن الاعتقاد بأن هاتيک الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانيا.

و قوله:« إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ »بمنزله التعليل لقوله:« ذَهَبَ السَّيِّئٰاتُ عَنِّي »فإنه يفرح و لا يزال على ذلک لما ذاقه من النعماء بعد الضراء،و لو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقائه و لا اعتماد على دوامه،و أن الأمر ليس إليه بل إلى غيره و من الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحا بذلک فإنه لا فرح فى أمر مستعار غير ذى قرار.

و إنه ليفخر بما أوتى من النعماء على غيره،و لا فخر إلا بكرامه أو منقبه يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمه أمرا بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه و ينزعه منه و يعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات و لذلک يفخر و يكثر من الفخر.

قوله تعالى:« إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ »ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشده و البلاء من اليأس و الكفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر،و مغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده فى حاله الحاضره،و يذهل عما دون ذلک فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عوده و أنها كانت من عند الله سبحانه،و له تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه و يتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله،و إن عادت إليه نعمه بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح و فخر و لم ير لله تعالى صنعا فى ذلک حتى يشكره عليها و يكف عن الفرح و عن التطاول على غيره بالفخر.

استثنى سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله:« اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله:« أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ »و ذلک أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند

الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس و الكفر،و يعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه فى ما يرضيه و يريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلك الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر كبير.

و فى الآيه دلاله على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفره و أجرا كبيرا،و المغفره لا تنال المشركين،قال تعالى :«إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ:» النساء:-١١۶.

و قد ورد الوعد بعين ما ذكر فى هذه الآيه أعنى المغفره و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى :«وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ:» فاطر:-٧، و قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ:» الملك:-١٢.

و اتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان فى الآيات السابقه مسوقا فى كفر الكافرين و رميهم الوعد بالبعث بالسحر و مقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالاستهزاء،فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبعى لا يرون لما عندهم من نعمه الله زوالا بنزول العذاب و لا لما بهم من رث الحال تبدلا إلى العيش الهنىء و المتاع الحسن الذى وعدهم الله به فى صدر السوره.

قوله تعالى:« فَلَعَلَّكَ تٰارِكٌ بَعْضَ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ »إلى آخر الآيه،لما كانت رساله النبى ص بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البينات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لإنسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع،و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الإنسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع إلى ما يستبعده الطبع.

ص :١۵٨

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هـذا المقام و كان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى ص إليهم من الحق الصريح و ما أنزل إليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات و الحجج مما لا ينبغى أن يـذعن به لبعـده طبعا بين تعالى لـذلك وجها بعد وجه على سبيل الترجى فقال:« فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحىٰ إِلَيْكَ »إلخ ،«أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ »إلخ.

فكأنه قيل:من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و غير داعيهم إليه و لـذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله و لـذلك لم يؤمنوا به.فإن كنت تركت بعض الوحى خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلا ما شاء الله، و أن يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات«إلخ».

و مما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجى و الاحتمال لرعايه ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد و مقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير فى الحادثه المستبعده،اعتبر ذلك فى ملك ينتهى إليه تمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع و الطاعه و يكتب فى ذلك كتابا يأمره أن يقرأه عليهم و يلومهم على تمردهم و استكبارهم على ما بهم من الضعف و الذله و لمولاهم من القوه و السطوه و العزه ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله،و يكتب إليه كتابا ثانيا يأمره بقراءته عليهم و إذا فيه:لعلك لم تقرأ كتابى عليهم مخافه أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلى و إنما افتريته على افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ و إن كان الثانى فإن الكتاب بخطى كتبته بيدى و ختمت عليه بخاتمى و لا يقدر أحد غيرى أن يقلدنى فى ذلك.

و التأمل فى هذا المثال يعطى أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثانى من الخطاب مقام الاستبعاد و أن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الإبلاغ و زعم الافتراء ليس هو توبيخ الرسول جدا أو احتمال زعمهم الكذب و الفريه جدا،و إنما ذكر الوجهان

لداعی أن یکونا کالمقدمه لذکر ما یزول به الشبهتان و هو أن الرسول لیس له من الأمر شیء حتی یقترح،علیه بما یقترح و أن الکتاب للملک لیس فیه ریب و لا شک.

و من هنا یظهر أن قوله تعالی:« فَلَعَلَّکَ تٰارِکٌ بَعْضَ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ »إلخ،لیس یفید الترجی الجدی و لا مسوقا لتوبیخ النبی ص و لا مرادا به تسلیته و تطییب نفسه إثر ما کان یناله من الحزن و الأسی بکفرهم و جحودهم لما أتی به من الحق الصریح بل الکلام مسوق لیتوصل به إلی ذکر قوله:« إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِیرٌ وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ ».

فما ذکره بعض المفسرین أن الکلام مسرود لنهی النبی ص عن الحزن و ضیق الصدر بما کانوا یواجهونه به من الکفر و الجحود،و النهی نهی تسلیه و تطییب للنفس نظیر ما فی قوله :«وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ تَکُ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ:» النحل:- ۱۲۷،و قوله :«لَعَلَّکَ بٰاخِعٌ نَفْسَکَ أَلاّٰ یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمٰاءِ آیَةً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ لَهٰا خٰاضِعِینَ:» الشعراء:-۴ کلام لیس فی محله.

و یظهر أیضا أن قوله:« فَلَعَلَّکَ تٰارِکٌ »إلخ،و قوله:« أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ » إلخ،کشقی التردید و یتصلان معا بما قبلهما من وجه واحد کما ذکرناه.

و قوله:« تٰارِکٌ بَعْضَ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ »إنما ذکر البعض لأن الآیات السابقه متضمنه لتبلیغ الوحی فی الجمله أی لعلک ترکت بعض ما أوحینا إلیک من القرآن فما تلوته علیهم فلم ینکشف لهم الحق کل الانکشاف حتی لا یجبهوک بما جبهوک به من الرد و الجحود،و ذلک أن القرآن بعضه یوضح بعضا و شطر منه یقرب شطرا منه من القبول کآیات الاحتجاج توضح الآیات المشتمله علی الدعاوی،و آیات الثواب و العقاب تقرب الحق من القبول بالتطمیع و التخویف،و آیات القصص و العبر تستمیل النفوس و تلین القلوب.

و قوله:« وَ ضٰائِقٌ بِهِ صَدْرُکَ أَنْ یَقُولُوا »إلخ،قال فی المجمع، ضائق و ضیق بمعنی واحد إلا أن ضائق هاهنا أحسن لوجهین:أحدهما:أنه عارض و الآخر أنه أشکل بقوله تارک انتهی.

و الظاهر أن ضمير« بِهِ »راجع إلى قوله:« بَعْضَ مٰا يُوحىٰ »و إن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم:« لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ »إلخ،أو إلى اقتراحهم و هذا أوفق بكون قوله« أَنْ يَقُولُوا »إلخ،بدلا من الضمير فى« بِهِ »و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله:« تٰارِكٌ »و التقدير:لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله:« إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ »جواب عن اقتراحهم بقولهم: لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ،و قد تكرر فى مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر فى بعضها على ذكر مجيء الملك و زيد فى بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرساله و أن يكون له جنه يأكل منها و أن ينزل من السماء كتابا يقرءونه.و قد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلا الرساله فليس بيده و هو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوا به عليه إلا أن يشاء الله فى ذلك شيئا و يأذن فى إتيان آيه كما قال :«وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ:» المؤمن:-٧٨.

ثم عقب قوله:« إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِيرٌ »بقوله:« وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبى ص بالمعجزات و محصله:أن النبى ص بشر مثلهم و لم يؤمر إلا بالإنذار و هو الرساله بإعلام الخطر،و القيام بالأمور كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبى ص فيما ليس إليه.

و ذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شيء فيما يجرى عليه من النظام فما من شيء إلا و هو تعالى المبدأ فى أمره و شأنه و المنتهى سواء الأمور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم إليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم إليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل.

و بذلک یظهر أن قوله:« وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ وَکِیلٌ »بمعونه من قوله:« إِنَّمٰا أَنْتَ نَذِیرٌ »یفید قصر القلب فإنهم سألوا النبی ص أمرا لیس إلیه و إنما هو إلی الله تعالی.

قوله تعالی:« أَمْ یَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ »قد تقدم من الکلام ما یصح به أخذ« أَمْ »متصله لکون قوله:« فَلَعَلَّکَ تٰارِکٌ »إلخ،فی معنی الاستفهام،و التقدیر:أ فأنت تارک بعض ما یوحی إلیک خوفا من اقتراحهم المعجزه أم یقولون إنک افتریته علینا فإن من المستبعد أن یقرأ علیهم کلامی ثم لا یؤمنوا به و قیل:إن أم مقطعه و المعنی:بل یقولون افتراه.

و قوله:« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیٰاتٍ »فی الکلام تحد ظاهر و الضمیر راجع إلی القرآن أو إلی السوره بما أنها قرآن و الفاء فی« فَأْتُوا »تفید تفریع الأمر علی قوله:« اِفْتَرٰاهُ »و فی الکلام حذف و إیصال رعایه للإیجاز،و التقدیر:قل لهم:

إن کان هذا القرآن مما افتریته علی الله کان من عندی و کان من الجائز أن یأتی بمثله غیری فإن کنتم صادقین فی دعواکم و مجدین غیر هازلین فأتوا بعشر سور مثله مفتریات و استعینوا فی ذلک بدعوه کل من تستطیعون من دون الله من أوثانکم الذین تزعمون أنهم آلهه تتسرعون إلیهم فی الحاجات و غیرهم من سائر الخلق حتی یتم لکم جمیع الأسباب و الوسائل و لا یبقی أحد ممن یطمع فی تأثیر إعانته و یرجی نفعه فی ذلک فلو کان من عندی لا من عند الله جاز أن تأتوا حینئذ بمثله.

و قد بان بهذا البیان أن التحدی بالقرآن فی الآیه الکریمه لیس من حیث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالی یأمرهم بالاستمداد من کل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء فی ذلک آلهتهم و غیر آلهتهم و فیهم من لا یعرف الکلام العربی أو جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدی عام لکل ما یتضمنه القرآن الکریم من معارف حقیقیه و الحجج و البراهین الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الکریمه و الشرائع الإلهیه و الأخبار الغیبیه و الفصاحه و البلاغه نظیر ما فی قوله تعالی :«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلیٰ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً:»

إسراء:-۸۸و قد تقدمت الإشاره إلی ذلک فی الکلام علی إعجاز القرآن فی الجزء الأول من الکتاب.

و بذلک یظهر فساد ما قیل إن جهه إعجاز القرآن إنما هی البلاغه و الفصاحه فی هذا النظم المخصوص لأنه لو کان جهه الإعجاز غیر ذلک لما قنع فی المعارضه بالافتراء و الاختلاق لأن البلاغه ثلاث طبقات فأعلی طبقاتها معجز و أدناها و أوسطها ممکن فالتحدی فی الآیه إنما وقع فی الطبقه العلیا منها،و لو کان وجه الإعجاز الصرفه لکان الرکیک من الکلام أبلغ فی باب الإعجاز.

و المثل المذکور فی الآیه لا یجوز أن یکون المراد به مثله فی الجنس لأن مثله فی الجنس یکون حکایته فلا یقع بها التحدی،و إنما یرجع فی ذلک إلی ما هو متعارف بین العرب فی تحدی بعضهم بعضا کما اشتهر من مناقضات امرئ القیس و علقمه و عمر بن کلثوم و الحارث بن حلزه و جریر و الفرزدق و غیرهم.انتهی.

فإن فیه أولا:أن لو کانت جهه الإعجاز فی القرآن هی بلاغته فحسب و هی أمر لا یعرفه غیر العرب لم یکن لتشریک غیرهم فی التحدی معنی،و لم یرجع قوله:

« وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ »علی ما فیه من العموم و کذا قوله:« لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ »الآیه إلی معنی محصل و لکان من الواجب أن یقال:لئن اجتمعت العرب»و ادعوا من استطعتم من آلهتکم و من أهل لغتکم.

و ثانیا:أنه لو کانت جهه الإعجاز هی البلاغه فقط لم یصح الاحتجاج بمثل قوله :«وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً:» النساء:-۸۲،الظاهر فی نفی مطلق الاختلاف فإن أکثر الاختلافات و هی التی یرجع إلی المعانی لا تضر ببلاغه اللفظ.

و ثالثا:أنه تعالی یتحدی بمثل قوله :«فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ:» الطور:-۳۴، و بقوله فی سوره یونس :«فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ:» آیه-۳۸،و قد استفدنا فیما تقدم أن سوره یونس قبل سوره هود فی ترتیب النزول

و يؤيده الأثر،ثم بقوله فی هذه السوره:« فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ »و لو کان جهه الإعجاز هی البلاغه خاصه لکانت هذه التحدیات خارجه عن النظم الطبیعی إذ لا یصح أن یکلف البلغاء من العرب المنکرین لکون القرآن من عند الله بإتیان مثل سوره منه ثم بعده بإتیان عشر سور مفتریات بل مقتضی الطبع أن یتحدی بتکلیفهم بإتیان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فبإتیان عشر سور مثله مفتریات فإن عجزوا فبإتیان سوره مثله.

و قد ذکر بعضهم فی التفصی عن هذا الإشکال أن الترتیب بین السور و نزول بعضها قبل بعض لا یستلزم الترتیب بین آیات السور فکم من آیه مکیه موضوعه فی سوره مدنیه و بالعکس فمن الجائز حینئذ أن تکون آیات التحدی بتمام القرآن نازله قبل غیرها مطلقا ثم تکون آیه التحدی بعشر سور مفتریات نازله بعدها،و آیه التحدی بسوره واحده نازله بعد الجمیع.

و فیه:أنه إنما ینفع لو صح نزول الآیات علی ما صوره و إلا فالإشکال علی حاله و الحق أن القرآن معجز فی جمیع صفاته المختصه به من بلاغه و فصاحه و ما فیه من المعارف الحقیقیه و الأخلاق الکریمه و الشرائع الإلهیه و القصص و العبر و الإخبار بالمغیبات و ما له من السلطان علی القلوب و الجمال الحاکم فی النفوس.

و أما الوجه فی التحدی بعشر سور مع ما فی سوره یونس من التحدی بواحده فقد قال فی المجمع،:فإن قیل:لم ذکر التحدی مره بعشر سور و مره بسوره و مره بحدیث مثله؟فالجواب:أن التحدی إنما یقع بما یظهر فیه الإعجاز من منظوم الکلام فیجوز أن یتحدی مره بالأقل و مره بالأکثر.انتهی.

أقول:و هو یصلح وجها لأصل التحدی بالواحد و الکثیر و أما التحدی بالعشر بعد الواحده و لا سیما علی ما یراه من کون إعجازه بالبلاغه فحسب فلا.

و ذکر بعضهم فی توجیه ذلک أن القرآن الکریم معجز فی جمیع ما یتضمنه من المعارف و الأخلاق و الأحکام و القصص و غیرها و ینعت به من الفصاحه و البلاغه

و انتفاء الاختلاف،و إنما یظهر صحه المعارضه و الإتیان بالمثل عند إتیان عده من السور یظهر به ارتفاع الاختلاف و خاصه من بین القصص المودعه فیها مع سائر الجهات کالفصاحه و البلاغه و المعارف و غیرها.

و إنما یتم ذلک بإتیان أمثال السور الطویله التی تشتمل علی جمیع الشئون المذکوره و تتضمن المعرفه و القصه و الحجه و غیر ذلک کسورتی الأعراف و الأنعام.

و التی نزلت من السور الطویله القرآنیه مما یشتمل علی جمیع الفنون المذکوره قبل سوره هود علی ما ورد فی الروایه هی سوره الأعراف و سوره یونس و سوره مریم و سوره طه و سوره الشعراء و سوره النمل و سوره القصص و سوره القمر و سوره ص فهذه تسع من السور عاشرتها سوره هود،و هذا الوجه هو فی التحدی بأمرهم أن یأتوا بعشر سور مثله مفتریات،انتهی بتلخیص منا و قد أطنب فی کلامه.

أقول:فیه أولا:أن لا تعویل علی الأثر الذی عول علیه فی ترتیب نزول السور فإنما هو من الآحاد التی لا تخلو عن ضعف و لا ینبغی بناء البحث التفسیری علی أمثالها.

و ثانیا:أن ظاهر قوله:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »أن رمیهم النبی ص بالافتراء علی الله سبحانه قول تقولوه بالنسبه إلی جمیع السور القرآنیه طویلتها و قصیرتها من غیر أن یخصوا به سوره دون سوره فمن الواجب أن یجابوا بما یحسم ماده الشبهه بالنسبه إلی کل سوره قرآنیه،و التحدی بما یفی بذلک،و عجزهم عن إتیان عشر سور مفتریات طویله تجمع الفنون القرآنیه لا یثبت به کون الجمیع حتی السور القصار کسورتی الکوثر و العصر من عند الله اللهم إلا ببیان آخر یضم إلیه و اللفظ خال من ذلک.

و ثالثا:أن قوله:« بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ »إن کان ما فیه من الضمیر راجعا إلی القرآن کما هو ظاهر کلام هذا القائل أفاد التحدی بإتیان عشر سور مفتریات مثله مطلقا سواء فی ذلک الطوال و القصار فتخصیص التحدی بعشر سور طویله جامعه

تقیید للفظ الآیه من غیر مقید و هو تحکم و أشد منه تحکما القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التی عدها.

و إن کان الضمیر راجعا إلی سوره هود کان مستبشعا من القول و کیف یستقیم أن یقال لمن یقول:إن سوره الکوثر و المعوذتین من الافتراء علی الله:ائت بعشر سور مفتریات مثل سوره هود و یقتصر علی ذلک؟اللهم إلا أن یهذروا بأن سوره هود وحدها من الافتراء علی الله تعالی فیتحدی عندئذ بأن یأتوا بمثلها،و لم نسمع أحدا منهم تفوه بذلک.

و یمکن أن یقال فی وجه الاختلاف الذی یلوح من آیات التحدی کقوله :

«فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِثْلِهِ:» یونس:-۳۸ الظاهر فی التحدی بسوره واحده و قوله:« فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ »الظاهر فی التحدی بعدد خاص فوق الواحد و قوله :«فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ:» الطور:-۳۴ الظاهر فی التحدی بحدیث یماثل القرآن و إن کان دون السوره أن کل واحده من الآیات تؤم غرضا خاصا فی التحدی.

بیان ذلک:أن جهات القرآن و شئونه التی تتقوم به حقیقته و هو کتاب إلهی مضافا إلی ما فی لفظه من الفصاحه و فی نظمه من البلاغه إنما ترجع إلی معانیه و مقاصده لست أعنی من المعنی ما یقصده علماء البلاغه فی قولهم:إن البلاغه من صفات المعنی و الألفاظ مطروحه فی الطریق یعنون به المفاهیم من جهه ترتبها الطبعی فی الذهن فإن الذی یعنون به من المعنی موجود فی الکذب الصریح من الکلام و فی الهزل و فی الفحش و الهجو و الفریه إذا جرت علی أسلوب البلاغه و توجد فی الکلام الموروث من البلغاء نظما و نثرا شیء کثیر من هذه الأمور.

بل المراد من معنی القرآن و مقصده ما یصفه تعالی بأنه کتاب حکیم،و نور مبین،و قرآن عظیم،و فرقان،و هاد یهدی إلی الحق و إلی طریق مستقیم،و قول فصل و لیس بالهزل،و کتاب عزیز لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه،و ذکر و أنه یحکم بین الناس فیما اختلفوا فیه،و أنه شفاء و رحمه للمؤمنین و لا یزید الظالمین إلا خسارا،و أنه تبیان لکل شیء و لا یمسه إلا المطهرون.

فمن البين أن هذه كلها صفات لمعنى القرآن.و ليست صفات لما يقصده علماء البلاغه بالمعنى البليغ الذى ربما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذى يسميه القرآن الكريم لغوا من القول و إثما و ينهى الإنسان عن تعاطيه و التفوه به و إن كان بليغا بل المعنى المتصف بهذه الصفات هو شىء من المقاصد الإلهيه التى تجرى على الحق الذى لا يخالطه باطل،و تقع فى صراط الهدايه،و يكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعته و غرض هذا شأنه هو الذى تتعلق العنايه الإلهيه بتنزيله و جعله رحمه للمؤمنين و ذكرا للعالمين.

و هذا هو الذى يصح أن يتحدى به بمثل قوله:« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ »فإنا لا نسمى الكلام حديثا إلا إذا اشتمل على غرض هام يتحدث به فينقل من ضمير إلى ضمير،و كذا قوله:« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »فإن الله لا يسمى جماعه من آيات كتابه و إن كانت ذات عدد سوره إلا إذا اشتملت على غرض إلهى تتميز بها من غيرها.

و لو لا ذلك لم يتم التحدى بالآيات القرآنيه و كان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عددا ذا كثره كقوله تعالى:« وَ الضُّحىٰ »« وَ الْعَصْرِ »« وَ الطُّورِ »« فِى كِتابٍ مَكْنُونٍ »« مُدْهامَّتانِ »« اَلْحَاقَّهُ»« مَا الْحَاقَّهُ وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّهُ »« اَلرَّحْمٰنُ » « مَلِكِ النّاسِ»« إِلٰهِ النّاسِ »« وَ خَسَفَ الْقَمَرُ »« كَلاّ وَ الْقَمَرِ »« سَنَدْعُ الزَّبانِيَهَ »إلى غير ذلك من مفردات الآيات ثم يقابل كلا منها بما يناظرها من الكلام العربى من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض و اشتمالها على غرض يجمعها و يخرجها فى صوره الوحده.

فالذى كلف به الخصم فى هذه التحديات هو أن يأتى بكلام يماثل القرآن مضافا إلى بلاغه لفظه فى بيان بعض المقاصد الإلهيه المشتمله على أغراض منعوته بالنعوت التى ذكرها الله سبحانه.

و الكلام الإلهى مع ما تحدى به فى آيات التحدى يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج إليه نوع الإنسان إلى يوم القيامه من معارف أصليه و أخلاق كريمه و أحكام فرعيه، و السوره من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الأغراض الإلهيه المتعلقه بالهدى و دين الحق على بلاغتها

الخارقه و هذه خاصه غير الخاصه التى يختص بها مجموع القرآن الكريم،و العده من السور كالعشر و العشرين منها تختص بخاصه أخرى و هى بيان فنون من المقاصد و الأغراض و التنوع فيها فإنها أبعد من احتمال الاتفاق فإن الخصم إذا عجز عن الإتيان بسوره واحده كان من الممكن أن يختلج فى باله أن عجزه عن الإتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الإتيان بمثلها لا على كونها نازله من عند الله موحاه بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات و الأعمال الإنسانيه التى من الممكن فى كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتفاقا لتصادق أسباب موجبه لذلك كفرد من الإنسان موصوف بأنه أطول الأفراد أو أكبرهم جثه أو أشجعهم أو أسخاهم أو أجبنهم أو أبخلهم.

و هذا الاحتمال و إن كان مدفوعا عن السوره الواحده من القرآن أيضا التى يقصدها الخصم بالمعارضه فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حقه ذات صفات كريمه خاليه عن ماده الكذب،و ما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق و الصدفه من غير أن يكون مقصودا فى نفسه ذا غرض يتعلق به الإراده.

إلا أنه أعنى ما مر من احتمال الاتفاق و الصدفه عن السور المتعدده أبعد لأن إتيان السوره بعد السوره و بيان الغرض بعد الغرض و الكشف عن خبىء بعد خبىء لا يدع مجالا لاحتمال الاتفاق و الصدفه و هو ظاهر.

إذا تبين ما ذكرناه ظهر أن من الجائز أن يكون التحدى بمثل قوله :«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لاٰ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً:» إسراء:-٨٨ واردا مورد التحدى بجميع القرآن لما جمع فيه من الأغراض الإلهيه و يختص بأنه جامع لعامه ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامه، و قوله:« قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »لما فيها من الخاصه الظاهره و هى أن فيها بيان غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهى بيانا فصلا من غير هزل،و قوله:« قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ »تحديا بعشر من السور القرآنيه لما فى ذلك من التفنن فى البيان و التنوع فى الأغراض من جهه الكثره،و العشره من ألفاظ الكثره كالمائه و الألف

قال تعالی :«يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» البقره:-۹۶.

فالمراد بعشر سور-و الله أعلم-السور الكثيره الحائزه لبعض مراتب الكثره المعروفه بين الناس فكأنه قيل:فأتوا بعده من سورها و لتكن عشرا ليظهر به أن تنوع الأغراض القرآنيه فی بيانه المعجز ليس إلا من قبل الله.

و أما قوله:« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ »فكأنه تحد بما يعم التحديات الثلاثه السابقه فإن الحديث يعم السوره و العشر سور و القرآن كله فهو تحد بمطلق الخاصه القرآنيه و هو ظاهر.

بقی هنا أمران أحدهما أنه:لم يقع فی شیء من آيات التحدی المذكوره توصيف ما يأتی به الخصم بالافتراء إلا فی هذه الآيه إذ قيل فيها:« فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »بخلاف قوله:« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »فلم يقل فيه:«فأتوا بسوره مثله مفتراه»و كذا فی سائر آيات التحدی.

و لعل الوجه فی ذلك أن نوع العنايه فی الآيه المبحوث عنها غير نوع العنايه فی سائر آيات التحدی فإن العنايه فی سائر الآيات متعلقه بأنهم لا يقدرون علی الإتيان بمثل القرآن أو بمثل السوره لما أنه قرآن مشتمل علی جهات لا تتعلق بها قدره الإنسان و لا يظهر عليها غيره تعالی و قد أطلق القول فيها إطلاقا.

و أما هذه الآيه فلما عقبت بقوله:« فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ »دل ذلك علی أن التحدی فيها إنما هو بكون القرآن متضمنا لما يختص علمه بالله تعالی و لا سبيل لغيره إليه،و هذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته فكأنه قيل:إن هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لأمور من العلم الإلهی الذی لا سبيل لغيره تعالی إليه،و إن ارتبتم فی ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدعون أنها افتراء، و استعينوا بمن استطعتم من دون الله فإن لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من العلم المخصوص به تعالی.فافهم ذلك.

و ثانيهما:معنی التحدی بالمثل حيث قيل:« بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ »« بِحَدِيثٍ

مِثْلِهِ »« بِسُورَهٍ مِثْلِهِ »« بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ »و الوجه الظاهر فيه أن الكلام لما كان آيه معجزه فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى فى إبطال كونه آيه معجزه و لم يحتج إلى الإتيان بما يترجح عليه فى صفاته و يفضل عليه فى خواصه.

و ربما يورد عليه أن عدم قدره غيره(ص)على ذلك لا يدل على كونه معجزه غير مستنده إليه لأن صفات الكمال التى توجد فى النوع الإنسانى كالبلاغه و الكتابه و الشجاعه و السخاء و غيرها لها مراتب متفاوته مختلفه يفضل بعضها على بعض،و إذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع و هو غايه ما يمكن أن ترتقى إليه النفس الإنسانيه البته.

فكل صفه من صفات الكمال يوجد بين الأفراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجه العليا و الغايه القصوى منها بحيث لا يعدله غيره و لا يعارضه أحد ممن سواه فبالضروره بين أفراد الإنسان عامه من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامه و أكبرهم جثه،و لم لا يجوز أن يكون النبى ص أفصح الناس جميعا و أبلغهم و القرآن من كلامه الذى لا يسع لأحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفا ليس لغيره فيه موضع قدم فلا؟يكون عندئذ عجز غيره عن الإتيان دليلا على كونه كلاما إلهيا غير بشرى لجواز كونه كلاما بشريا مختصا به(ص) مضنونا عن غيره.هذا.

و يدفعه أن الصفات الإنسانيه التى يقع فيها التفاضل و إن كانت على ما ذكر لكنها أياما كانت فهى مما تسمح بها الطبيعه الإنسانيه بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق و من غير سبب يمكن الفرد الموصوف من الاتصاف بها.

و إذا كان كذلك و فرض فرد من الإنسان اختص بصفه فاضله لا يعدله غيره و لا يفوقه سواه كان لغيره أن يسلك ما مهده من السبيل و يتعود بالتمرن و التدرب و الارتياض بما يأتيه من الأعمال التى تصدر عما عنده من صفه الكمال فيأتى بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال و يقلده فى نبذه من أعماله و إن لم يقدر على أن يزاحمه فى الجميع و يماثله فى الكل،و يبقى للفرد النابغ المذكور مقام الأصاله و السبقه و التقدم

فی ذلک فالحاتم مثلا و إن کان هو المتفرد غیر المعارض فی سخائه و جوده من غیر أن یسع غیره أن یتقدم علیه و یسبقه لکن من الممکن أن یرتاض مرتاض فی سبیله فیتمرن و یتدرب فیه فیأتی بشیء من نوع سخائه و جوده و إن لم یقدر علی مزاحمته فی الجمیع و فی أصل مقامه،و الکمالات الإنسانیه التی هی منابع للأعمال سبیلها جمیعا هذا السبیل،و یتمکن الإنسان بالتمرن و التدرب علی سلوک سبیل السابقین المبدعین فیها و الإتیان بشیء من أعمالهم و إن لم یسع مزاحمتهم فی أصل موقفهم.

فلو کان القرآن من کلام النبی ص علی فرض أنه أبلغ إنسان و أفصحه کان من الجائز أن یهتم غیره فیتمرن علی سلوک ما أبدعه فی کلامه من النظم البدیع فیقدر علی تقلیده فی شیء من الکلام و إتیان شیء من القول بسوره مثله و إن لم یقدر علی تقلید القرآن کله و الإتیان بجمیعه.

و لم یقل فیما تحدی به:فلیأتوا بحدیث أبلغ منه أو أحسن أو بسوره هی أبلغ أو أحسن حتی یقال:إن القرآن أبلغ کلام بشری أو أحسنه لیس هناک ما هو أبلغ أو أحسن منه حتی یأتی به آت فلا یدل عدم القدره علی الإتیان بذلک علی کونه کلاما لغیر البشر،بل إنما قال:« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ »« قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ »و هکذا و فی وسع البشر الإتیان بمثل کلام غیره من البشر و إن فرض کون ذلک الغیر ذا موقف من الکلام لا یعارضه غیره علی ما بیناه فالشبهه مندفعه بقوله تعالی« مِثْلِهِ ».

قوله تعالی:« فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »إجابه الدعوه و استجابتها بمعنی.

و الظاهر من السیاق أن الخطاب فی الآیه للمشرکین،و أنه من تمام کلام النبی ص الذی أمر بقوله تعالی:« قُلْ »إن یلقیه إلیهم،و علی هذا فضمیر الجمع فی قوله:« فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا »راجع إلی الآلهه و کل من استعانوا به المدلول علیهم بقوله:« وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ».

و المعنی:فإن لم یستجب لکم معاشر المشرکین هؤلاء الذین دعوتموهم من

آلهتکم و من بلغاء أهل لسانکم العارفین بأسالیب الکلام و علماء أهل الکتاب الـذین عنـدهم الکتب السـماویه و أخبار الأنبیاء و الأـمم و الکهنه المسـتمدین من إلقـاء شـیاطین الجن،و جهابـذه العلم و الفهم من سـائر النـاس المتعمقین فی المعـارف الإنسـانیه بأطرافهـا فـاعلموا أنمـا أنزل هـذا القرآن بعلم الله و لم یختلق عن علمی أنـا و لاـ غیری ممن تزعمـون أنه یعلمنی و یملی علی،و اعلموا أیضا أن ما أدعوکم إلیه من التوحیـد حق فإنه لو کان هناک إله من دون الله لنصـرکم علی ما دعوتموه إلیه فهل أنتم أیها المشرکون مسلمون لله تعالی منقادون لأمره؟.

فقوله تعـالی:« فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ »فی معنی قولنـا:فـإن لم تقـدروا علی المعارضه بعـد الاسـتعانه و الاسـتمداد بمن اسـتطعتم أن تـدعوهم من دون الله،و ذلک أن الأسـباب التی توجب قـدرتهم علی المعارضه هی ما عنـدهم من قدره البیان و قریحه البلاغه و هم یرون أن ذلک من مواهب آلهتهم من دون الله و کذا ما عند آلهتهم مما لم یهبوهم بعد،و لهم أن یؤیدوهم به إن شاءوا علی زعمهم،و أیضا ما عنـد غیر آلهتهم من المـدد،و إذا لم یسـتجبهم الـذین یـدعونهم فی معارضه القرآن فقد ارتفع جمیع الأسـباب الموجبه لقـدرتهم و ارتفعت بـذلک قـدرتهم فعدم إجابته الشـرکاء علی معارضه القرآن ملازم لعدم قدرتهم علیها حتی بما عند أنفسهم من القدره ففی الکلام کنایه.

و قوله:« فَاعْلَمُوا أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ »الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به و هو الغیب الـذی لا سبیل لغیره تعالی إلیه إلا باذنه کما قال تعالی :

«لٰکِنِ اللّٰهُ یَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ:» النسـاء:-۱۶۶،و قـال :«ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ:» یوسـف:-۱۰۲،و قال :«عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ:» الجن:-۲۷،و قـال :«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ فِی کِتٰابٍ مَکْنُونٍ لاٰ یَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِیلٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ:» الواقعه:-۸۰.

فالمعنی:فإن لم تقدروا علی معارضـته بأی سـبب ممد تعلقتم به من دون الله فتیقنوا أنه لم ینزل إلا عن سـبب غیبی و أنه من أنباء الغیب الـذی یختص به تعـالی فهـو الـذی أنزله علی و کلمنی به و أراد تفهیمی و تفهیمکم بمـا فیه من المعـارف الحقه و ذخـائر الهدایه.

و ذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله و شهاده منه له،و ذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضه أو بعلم من الله بنظمه و ترتيبه و لا يعلم غيره ذلك و هذه معان واهيه بعيده عن الفهم.

و الجمله أعني قوله:« أَنَّمٰا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ »إحدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابه شركائهم لهم.و النتيجه الأخرى قوله:« وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ » و لزوم هذه النتيجه من وجهين:أحدهما:أنهم إذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهه فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه و خاصه إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذى أتى به النبى ص كان يقطع دابرهم و يميت ذكرهم و يصرف الناس عن التوجه إليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم إذا دعوهم لمعارضه كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفى ألوهيتهم.

و ثانيهما:أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، و مما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه.

و قوله:« فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »أى لما علمتم و اتضح لكم من جهه عدم استجابه شركائكم من دون الله و عجزكم عن المعارضه فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه و كون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه؟و هو أمر بالإسلام فى صوره الاستفهام هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآيه.

و قيل:إن الخطاب فى قوله:« فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ »إلخ،للنبى ص خوطب بلفظ الجمع تعظيما له و تفخيما لشأنه و ضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أى فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبى إليه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم الله و أن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثره يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و أما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

ص :١٧٣

مضافا إلى أن استناد الوحی الإلهی و التکلیم الربانی إلیه تعالی إلیه تعالی استناد ضروری لا یقبل الشک حتی یستعان علیه بالدلیل فما یتلقاه النبی ص دلالته علی کونه کلاما من الله دلاله ضروریه غیر محتاجه إلی حجه حتی یحتج علیه بعدم إجابه المشرکین إلی معارضه القرآن و عجزهم عنها بخلاف کلام المخلوقین من الإنسان و الجن و الملک و أی هاتف آخر فإنه یحتاج فی حصول العلم باستناده إلی متکلمه إلی دلیل خارجی من حسن أو عقل،و قد تقدمت إشاره إلی ذلک فی قصه زکریا من سوره آل عمران،و سیجیء البحث المستوفی عن ذلک فیما یناسبه من المورد إن شاء الله تعالی.

علی أن خطاب النبی ص بمثل قوله:« وَ أَنْ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ »،و قوله:

« فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »لا یخلو عن بشاعه.علی أن نفس الاستدلال أیضا غیر تام کما سنبین.

و قیل:إن الخطاب فی الآیه للنبی ص و المؤمنین جمیعا أو للمؤمنین خاصه لأن المؤمنین یشارکونه(ص)فی الدعوه الدینیه و التحدی بالقرآن الذی هو کتاب ربهم المنزل علیهم و المعنی:فإن لم یستجب المشرکون لکم فی المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله و أن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله؟.

و لما تفطن بعضهم أن لا معنی لدعوه المؤمنین و هم مؤمنون بالله وحده و بکتابه إلی العلم بأنه کتاب نازل من عند الله و بأنه تعالی واحد لا شریک له أصلحه بأن المراد فاثبتوا علی علمکم أنه إنما أنزل بعلم الله و ازدادوا به إیمانا و یقینا و أنه لا إله إلا هو و لا یستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون علی إسلامکم و الإخلاص فیه؟.

و فیه أنه تقیید للآیه من غیر مقید و الحجه غیر تامه و ذلک أن المشرکین لو کانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا علیها بدعوه آلهتهم و سائر من یطمعون فیه من الجن و الإنس ثم عجزوا کان ذلک دلیلا واضحا یدلهم علی أن القرآن فوق کلام البشر و تمت بذلک الحجه علیهم،و أما عدم استجابه الکفار للمعارضه فلیس یدل علی کونه من عند الله لأنهم لم یأتمروا بما أمروا به بقوله:

« فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیٰاتٍ »إما لعلمهم بأنه کلام الله الحق و إنما کان قولهم:

« اِفْتَراهُ »قولا ناشئا عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به أو شک فیه،أو لأنهم کانوا آیسین من استجابه شرکائهم للدعوه علی المعارضه،أو لأنهم کانوا هازلین فی قولهم ذلک یهذرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابه المشرکین للنبی ص أو للمؤمنین أو لهم جمیعا لا یدل بنفسه علی کون القرآن نازلا من عند الله إلا إذا کان عدم الاستجابه المذکوره بعد تحقق دعوتهم شرکاءهم إلی المعارضه و عدم استجابتهم لهم،و لم یتحقق من المشرکین دعوه علی هذه الصفه،و مجرد عدم استجابه المشرکین أنفسهم لا ینفع شیئا،و لا یبقی إلا أن یقال:إن معنی الآیه:فإن دعا المشرکون من استطاعوا من دون الله فلم یستجیبوا لهم و لم یستجب المشرکون لکم أیها النبی و معاشر المؤمنین فاعلموا أنما أنزل بعلم الله إلخ،و هذا هو الذی أومأنا إلیه آنفا أنه تقیید للآیه من غیر مقید.

علی أن فیه أمرا للمؤمنین أن یهتدوا فی إیمانهم و یقینهم بأمر فرضی غیر واقع و کلامه تعالی یجل عن ذلک،و لو أریدت الدلاله علی أنهم غیر قادرین علی ذلک و إن دعوا شرکاءهم إلی المعارضه کان من حق الکلام أن یقال:فإن لم یستجیبوا لکم و لن یستجیبوا فاعلموا إلخ،کما قیل کذلک فی نظیره قال تعالی :«وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَهُ أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ:» البقره:-۲۴.

قوله تعالی:« مَنْ کانَ یُرِیدُ الْحَیاهَ الدُّنْیا وَ زِینَتَها نُوَفِّ إِلَیْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِیها وَ هُمْ فِیها لا یُبْخَسُونَ » التوفیه إیصال الحق إلی صاحبه و إعطاؤه له بکماله،و البخس نقص الأجر.

و فی الآیه تهدید لهؤلاء الذین لا یخضعون للحق لما جاءهم و لا یسلمون له إیثارا للحیاه الدنیا و نسیانا للآخره،و بیان لشیء من سنه الأسباب القاضیه علیهم بالیأس من نعیم الحیاه الآخره.

و ذلک أن العمل کیفما کان فإنما یسمح للإنسان بالغایه التی أرادها به و عمله

لأجلها،-فإن كانت غايه دنيويه تصلح شئون الحياه الدنيا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل-إن أعانته سائر الأسباب العامله-إلى ما يرجوه بالعمل و أما الغايات الأخرويه فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع،و مجرد صلاحيه العمل لأن يقع فى طريق الآخره و ينفع فى الفوز بنعيمها كالبر و الإحسان و حسن الخلق لا يوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله و دار ثوابه.

و لذلك عقبه بقوله تعالى:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النّٰارُ وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِيهٰا وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ »فأخبر أنهم إذا وردوا الحياه الآخره وقعوا فى دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم فى الحياه كما تأكل النار الحطب و تبير و تهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود،و تحبط جميع ما صنعوا فيها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال فى الدنيا،و لذلك سماها سبحانه فى موضع آخر بدار البوار أى الهلاك فقال تعالى :«أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دٰارَ الْبَوٰارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا:» إبراهيم:-٢٩،و بذلك يظهر أن كلا من قوله:« وَ حَبِطَ مٰا صَنَعُوا فِيهٰا »و قوله:« وَ بٰاطِلٌ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ »يفسر قوله:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النّٰارُ »نوعا ما من التفسير.

و بما تقدم يظهر أولا:أن المراد من توفيه أعمالهم إليهم توفيه نتائجها و إيصال الآثار التى لها بحسب نظام الأسباب و المسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله و يرجوه بمسعاه فإن الذى يناله الفاعل فى هذه النشأه بفعله هو نتيجه الفعل التى يعينه سائر الأسباب العامله عليها لا ما يؤمه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه.

و قد عبر تعالى عن هذه الحقيقه فى موضع آخر بقوله :«وَ مَنْ كٰانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مٰا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ:» الشورى:-٢٠،فقال تعالى:« نُؤْتِهِ مِنْهٰا »و لم يقل:نؤته إياها،و قال فى موضع آخر :«مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعٰاجِلَةَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاٰهٰا مَذْمُوماً مَدْحُوراً:» إسراء:-١٨ فذكر ما يريده الإنسان من الدنيا و يناله منها و زاد بيانا أنه ليس كل من يريد أمرا يناله و لا كل ما يراد ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطى ما يشاء و يمنع ما يشاء و يقدم من يريد و يؤخر من يريد على ما تجرى عليه سنه الأسباب.

ص :١٧٦

و ثانيا:أن الآيتين أعنى قوله:« مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمٰالَهُمْ »إلى آخر الآيتين تبينان حقيقه من الحقائق الإلهيه.

(بحث روائى)

فى الكافى،:فى قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ »الآيه:بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبى جعفر(ع)قال:أخبرنى جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا-إذا مروا برسول الله ص حول البيت-طأطأ أحدهم رأسه و ظهره هكذا-و غطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله ص-فأنزل الله:« أَلاٰ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ »الآيه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى شيبه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رزين قال": كان أحدهم يحنى ظهره و يستغشى بثوبه.

و فى المجمع،روى عن على بن الحسين و أبى جعفر و جعفر بن محمد(ع):

يثنونى على يفعوعل.

و فى تفسير العياشى،عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبى جعفر(ع)قال:

أتى رسول الله ص رجل من أهل الباديه فقال:يا رسول الله إن لى بنين و بنات و إخوه و أخوات-و بنى بنين و بنى بنات و بنى إخوه و بنى أخوات-و المعيشه علينا خفيفه-فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا-.

قال:و بكى فرق له المسلمون-فقال رسول الله ص:« مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ- إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا-كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ »من كفل بهذه الأفواه-المضمونه على الله رزقها صب الله عليه الرزق صبا-كالماء المنهمر إن قليل فقليلا- و إن كثير فكثيرا.قال:ثم دعا رسول الله ص و أمن له المسلمون-.

قال:قال أبو جعفر(ع):فحدثنى من رأى الرجل فى زمن عمر-فسأله عن

حاله فقال:من أحسن من خوله حلالا و أكثرهم مالا.

و فی الدر المنثور،أخرج الحکیم الترمذی فی نوادر الأصول و الحاکم و صححه و ابن مردویه و البیهقی فی شعب الإیمان عن ابن مسعود عن النبی ص قال: إذا کان أجل أحدکم بأرض أتیحت له إلیها حاجه- حتی إذا بلغ أقصی أثره منها فیقبض- فتقول الأرض یوم القیامه:هذا ما استودعتنی.

أقول:و الروایه غیر ظاهره فی تفسیر الآیه.

و فی الکافی،بإسناده عن أبی حمزه الثمالی عن أبی جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص فی حجه الوداع: ألا إن الروح الأمین نفث فی روعی-أنه لا تموت نفس حتی تستکمل رزقها-فاتقوا الله و أجملوا فی الطلب،و لا یحملنکم استبطاء شیء من الرزق-أن تطلبوه بشیء من معصیه الله-فإن الله تعالی قسم الأرزاق بین خلقه حلالا- و لم یقسمها حراما فمن اتقی الله و صبر أتاه رزقه من حله،و من هتک حجاب ستر الله عز و جل-و أخذه من غیر حله قص به من رزقه الحلال-و حوسب علیه.

أقول:الروایه من المشهورات رواها العامه و الخاصه بطرق کثیره.

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی الهذیل عن أبی عبد الله(ع)قال: إن الله قسم الأرزاق بین عباده-و أفضل فضلا کبیرا لم یقسمه بین أحد قال الله:« وَ سْئَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ »:

أقول:و الروایه مرویه عن النبی ص

،و قد تقدمت بعض ما فی هذا المعنی من الأخبار فی ذیل قوله تعالی :«وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ:» سوره آل عمران آیه-۲۷،و قوله تعالی :«وَ سْئَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ:» سوره النساء:آیه-۳۲.

و فی الکافی،عن أبی عبد الله(ع)قال: کان أمیر المؤمنین(ع)کثیرا ما یقول:اعلموا علما یقینا أن الله جل و عز لم یجعل للعبد-و إن اشتد جهده،و عظمت حیلته و کثرت مکایده-أن یسبق ما سمی له فی الذکر الحکیم.أیها الناس إنه لن یزداد امرؤ نقیرا بحذقه،و لن ینقص امرؤ نقیرا لحمقه-فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحه فی منفعته-و العالم بهذا التارک له أعظم الناس شغلا فی مضرته،و رب

منعم علیه مستدرج بالإحسان إلیه-و رب مغرور فی الناس مصنوع له-.

فاتق الله أیها الساعی عن سعیک،و قصر من عجلتک،و انتبه من سنه غفلتک-و تفکر فیما جاء عن الله عز و جل علی لسان نبیه ص. الحدیث.

و فی الکافی،بإسناده عن ابن أبی عمیر عن عبد الله بن الحجاج عن أبی عبد الله(ع) قال: إن محمد بن المنکدر کان یقول:ما کنت أظن أن علی بن الحسین یدع خلقا- أفضل منه حتی رأیت ابنه محمد بن علی-فأردت أن أعظه فوعظنی-فقال له أصحابه:

بأی شیء وعظک؟فقال:خرجت إلی بعض نواحی المدینه فی ساعه حاره-فلقینی أبو جعفر محمد بن علی و کان رجلا بادنا ثقیلا-و هو متکئ علی غلامین أسودین أو مولیین-فقلت فی نفسی:سبحان الله-شیخ من أشیاخ قریش فی هذه الساعه علی مثل هذه الحاله-فی طلب الدنیا أما إنی لأعظنه-.

فدنوت منه و سلمت علیه فرد علی بنهر و هو ینصاب عرقا-فقلت:أصلحک الله شیخ من أشیاخ قریش فی هذه الساعه-علی هذه الحاله فی طلب الدنیا- أ رأیت لو جاء أجلک و أنت علی هذه الحال؟فقال:لو جاءنی الموت و أنا علی هذه الحال-جاءنی و أنا فی طاعه من طاعه الله عز و جل-أکف بها نفسی و عیالی عنک و عن الناس،و إنما کنت أخاف أن جاءنی الموت-و أنا علی معصیه من معاصی الله.فقلت:صدقت یرحمک الله- أردت أن أعظک فوعظتنی.

و فیه،بإسناده عن عبد الأعلی مولی آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله فی بعض طرق المدینه-فی یوم صائف شدید الحر-فقلت:جعلت فداک حالک عند الله عز و جل-و قرابتک من رسول الله ص-و أنت تجهد نفسک فی مثل هذا الیوم؟ فقال:یا عبد الأعلی خرجت فی طلب الرزق-لأستغنی به عن مثلک.

أقول:و لا منافاه بین القضاء بالرزق و بین الأمر بطلبه.و هو ظاهر.

و فی الدر المنثور،أخرج الطیالسی و أحمد و الترمذی و حسنه و ابن ماجه و ابن جریر و ابن المنذر و أبو الشیخ فی العظمه و ابن مردویه و البیهقی فی الأسماء و الصفات عن أبی رزین قال: قلت:یا رسول الله أین کان ربنا-قبل أن یخلق خلقه؟قال:کان فی عماء ما تحته هواء و ما فوقه هواء،و خلق عرشه علی الماء.

أقول: العماء الغيم الذى يمنع نفوذ البصر فيه،و«ما»فى قوله:«ما تحته هواء و ما فوقه هواء»موصوله و المراد بالهواء هو الخالى من كل شىء كما فى قوله تعالى:

« وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوٰاءٌ »أو أنها نافيه و المراد بالهواء معناه المعروف،و المراد به أنه كان عماء لا يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات.

و الروايه من أخبار التجسم و لذا وجه بأن قوله:فى عماء إلخ كنايه عن غيب الذات الذى تكل عنه الأبصار و تتحير فيه الألباب.

و فيه،أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و أبو الشيخ فى العظمه و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن:

يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر-كيف كان؟قال:كان الله قبل كل شىء، و كان عرشه على الماء،و كتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شىء،و خلق السماوات و الأرض.فنادى مناد:ذهبت ناقتك يا بن الحصين-فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب-فوالله لوددت أنى تركتها.

أقول:و روى عده من رجال الحديث هذه الروايه عن بريده: و قال بريده فى آخرها:«ثم أتانى آت فقال:هذه ناقتك قد ذهبت-فخرجت و السراب ينقطع دونها-فلوددت أنى كنت تركتها »و هذا مما يوهن الحديثين.

و فيه،:فى قوله تعالى:« لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »:أخرج داود بن المحبر فى كتاب العقل و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم فى التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول الله ص هذه الآيه:« لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »فقلت:ما معنى ذلك يا رسول الله؟قال:ليبلوكم أيكم أحسن عقلا.ثم قال:و أحسنكم عقلا أورعكم عن محارم الله-و أعلمكم (۱)بطاعه الله.

و فى الكافى،مسندا عن سفيان بن عيينه عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله عز و جل:« لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »قال:قال:ليس يعنى أكثركم عملا- و لكن أصوبكم عملا،و إنما الإصابه خشيه الله و النيه الصادقه.

۱- ۱) أعملكم ظ.

ثم قال:الإبقاء على العمل-حتى يخلص أشد من العمل،و العمل الخالص:

الـذى لا تريد أن يحمدك عليه أحد-إلا الله عز و جل و النيه أفضل من العمل-ألا إن النيه هى العمل-ثم تلا قوله عز و جل:« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلىٰ شاكِلَتِهِ »يعنى على نيته.

أقول:قوله ألا إن النيه هى العمل يعنى ليس للعمل أثر إلا لما معه من النيه.

و فى تفسير النعمانى،بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبى عبد الله(ع):

فى قوله:« لَئِنْ أَخَّرْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ »قال:العذاب خروج القائم (ع)-و الأمه المعدوده أهل بدر و أصحابه:

أقول:و روى هذا المعنى الكلينى فى الكافى،و القمى و العياشى فى تفسيريهما عن على و الباقر و الصادق(ع) .

و فى المجمع،قيل: إن الأمه المعـدوده هم أصـحاب المهـدى-ثلاثمائه و بضـعه عشـر رجلا كعـده أهل بـدر-يجتمعون فى ساعه واحده كما يجتمع قزع الخريف- قال:و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع) .

و فى تفسير القمى،: فى قوله:« إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ »قال":قال:

صبروا فى الشده و عملوا الصالحات فى الرخاء.

و فى الدر المنثور،:فى قوله:« مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا »:أخرج البيهقى فى الشعب عن أنس قال:قال رسول الله ص: إذا كان يوم القيامه صارت أمتى ثلاث فرق:فرقه يعبـدون الله خالصا،و فرقه يعبـدون الله رياء،و فرقه يعبـدون الله يصـيبون به دنيا-فيقول للـذى كان يعبـد الله للدنيا:بعزتى و جلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول:الدنيا فيقول:لا جرم لا ينفعك ما جمعت-و لا ترجع إليه انطلقوا به إلى النـار،و يقول للـذى يعبـد الله ريـاء:بعزتى و جلالـى ما أردت بعبادتى؟قال:الرياء فيقول:إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها-لا يصعد إلى منها شىء و لا ينفعك اليوم-انطلقوا به إلى النار-.

و يقول للذى كان يعبد الله خالصا:بعزتى و جلالى ما أردت بعبادتى؟فيقول:

بعزتك و جلالك لأنت أعلم به منى-كنت أعبدك لوجهك و لدارك-قال:صدق عبدى

انطلقوا به إلى الجنه.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۱۷ الى ۲۴]

اشاره

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَهً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ اَلْأَحْزابِ
فَالنّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَهٍ مِنْهُ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرى عَلَى اَللّهِ كَذِباً
أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ اَلْأَشْهادُ هؤُلاءِ اَلَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَهُ اَللّهِ عَلَى اَلظّالِمِينَ (۱۸) اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اَللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ كافِرُونَ (۱۹) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي اَلْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ مِنْ
أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ اَلْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ اَلسَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِكَ اَلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما
كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۲۲) إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ
أَصْحابُ اَلْجَنَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ اَلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ اَلْأَصَمِّ وَ اَلْبَصِيرِ وَ اَلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

ص :۱۸۲

(بيان)

ظاهر الآيات أنها واقعه موقع التطييب لنفس النبی ص و تقويه إيمانه بكتاب الله و تأكيد ما عنده من البصيره فی أمره فالكلام جار على ما كان عليه من خطابه (ص)فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء على الله سبحانه فأمره أن يتحدى عليهم بإتيان عشر سور مثله مفتريات ثم أمره أن يطيب نفسا و يثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله فإنما هو على الحق و ليس بمفتر فلا يستوحش من إعراض الأكثرين و لا يرتاب.

قوله تعالى:« أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً »الجمله تفريع على ما مضى من الكلام الذی هو فی محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه،و« فَمَنْ »مبتدأ خبره محذوف و التقدير:كغيره،أو ما يؤدی معناه،و الدليل عليه قوله تلوا:« أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزٰابِ فَالنّٰارُ مَوْعِدُهُ ».

و الاستفهام إنكاری و المعنى:ليس من كان كذا و كذا كغيره ممن ليس كذلك و أنت على هذه الصفات فلا تك فی مريه من القرآن.

و قوله:« عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » البينه صفه مشبهه معناها الظاهره الواضحه غير أن الأمور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ينضم إليها و يتعلق بها كالنور الذی هو بين ظاهر و يظهر به غيره،و لذلك كثر استعمال البينه فيما يتبين به غيره كالحجه و الآيه،و يقال للشاهد على دعوى المدعی بينه.

و قد سمى الله تعالى الحجه بينه كما فی قوله :«لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ:» الأنفال:-۴۲ و سمى آيته بينه كما فی قوله :«قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هٰذِهِ نٰاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ آيَةً:» الأعراف:-۷۳ و سمی البصيره الخاصه الإلهيه التی أوتيها الأنبياء بينه كما فی قوله حكايه عن نوح(ع) :«يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ:» هود:-۲۸ أو مطلق البصيره الإلهيه كما هو ظاهر قوله تعالى :

«أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ:» سوره محمد:-١۴ و قد قال تعالى فى معناه :«أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّٰاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمٰاتِ لَيْسَ بِخٰارِجٍ مِنْهٰا:» الأنعام:-١٢٢.

و الظاهر أن المراد بالبينه فى المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقرينه قوله بعد:

« أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ »و إن كان المراد به بحسب المورد هو النبى ص فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله:« فَلاٰ تَكُ فِي مِرْيَهٍ مِنْهُ ».

فالمراد بها البصيره الإلهيه التى أوتيها النبى(ع)لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا أن يتفرع عليه قوله:« فَلاٰ تَكُ فِي مِرْيَهٍ مِنْهُ »و هو ظاهر و لا ينافيه كون القرآن فى نفسه بينه من الله من جهه كونه آيه منه تعالى كما فى قوله :

«قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ:» الأنعام:-۵٧ فإن المقام غير المقام.

و بما مر يظهر أن قول من يقول:إن المراد بمن كان إلخ،النبى خاصه إراده استعماليه ليس فى محله و إنما هو مراد بحسب انطباق المورد. و كذا قول من قال:

إن المراد به المؤمنون من أصحاب النبى ص فلا دليل على التخصيص.

و يظهر أيضا فساد القول بأن المراد بالبينه هو القرآن،و كذا القول بأنها حجه العقل و أضيفت إلى الرب تعالى لأنه ينصب الأدله العقليه و النقليه.و وجه فساده أنه لا دليل على التخصيص و لا تقاس البينه القائمه للنبى(ع)من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهى القائم لنا من ناحيه العقول.

و قوله تعالى:« وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ »المراد بالشهاده تأديه الشهاده التى تفيد صحه الأمر المشهود له دون تحملها فإن المقام مقام تثبيت حقيه القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض ما أيقن بحقيه القرآن و كان على بصيره إلهيه من أمره فآمن به عن بصيرته و شهد بأنه حق منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهاده الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر و تفرد فيه ربما أوحشه التفرد فيه إذا لم يؤيده أحد فى القول به أما إذا قال به غيره من الناس و أيد نظره فى ذلك زالت

ص :١٨۴

عنه الوحشه و قوی قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالی بما یماثل هذا المعنی فی قوله :

«قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ:» الأحقاف:-١٠.

و علی هذا فقوله:« یَتْلُوهُ »من التلو لا ـ من التلاوه،و الضمیر فیه راجع إلی « فَمَنْ »أو إلی« بَیِّنَهٍ »باعتبار أنه نور أو دلیل،و مآل الوجهین واحد فإن الشاهد الذی یلی صاحب البینه یلی بینته کما یلی نفسه و الضمیر فی قوله:« مِنْهُ »راجع إلی« فَمَنْ »دون قوله:« رَبِّهِ »و عدم رجوعه إلی البینه ظاهر و محصل المعنی:

من کان علی بصیره إلهیه من أمر و لحق به من هو من نفسه فشهد علی صحه أمره و استقامته.

و علی هذا الوجه ینطبق ما ورد فی روایات الفریقین أن المراد بالشاهد علی(ع) إن أرید به أنه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنی الإراده الاستعمالیه.

و للقوم فی معنی الجمله أقوال شتی فقیل:إن«یتلو»من التلاوه کما قیل:

إنه من التلو،و قیل:إن الضمیر فی« یَتْلُوهُ »راجع إلی« بَیِّنَهٍ »کما قیل:إنه راجع إلی« فَمَنْ ».

و قیل:المراد بالشاهد القرآن:و قیل:جبرائیل یتلو القرآن علی النبی ص و لعله مأخوذ من قوله تعالی :«لٰکِنِ اللّٰهُ یَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلاٰئِکَهُ یَشْهَدُونَ:» النساء:-١۶۶،و قیل:الشاهد ملک یسدد النبی ص و یحفظه القرآن، و لعله لنوع من الاستناد إلی الآیه المذکوره.

و قیل:الشاهد هو النبی ص و قد قال تعالی :«یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنّٰا أَرْسَلْنٰاکَ شٰاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً:» الأحزاب:۴۵،و قیل:شاهد منه لسانه أی یتلو القرآن بلسانه.

و قیل:الشاهد علی بن أبی طالب(ع)،و قد وردت به عده روایات من طرق الشیعه و أهل السنه.

و التأمل فی سیاق الآیه و ظاهر جملها یکفی مئونه إبطال هذه الوجوه غیر ما قدمناه من معنی الآیه فلا نطیل الکلام بالبحث عنها و المناقشه فیها.

ص :١٨۵

و قوله تعالی:« وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً »الضمیر راجع إلی الموصول أو إلی البینه علی حد ما ذکرناه فی ضمیر« یَتْلُوهُ » و الجمله حال بعد حال أی أ فمن کان علی بصیره إلهیه ینکشف له بها أن القرآن حق منزل من عند الله و الحال أن معه شاهدا منه یشهد بذلک عن بصیره و الحال أن هذا الذی هو علی بینه سبقه کتاب موسی إماما و رحمه أو قبل بینته التی منها القرآن أو هی القرآن المشتمل علی المعارف و الشرائع الهادیه إلی الحق کتاب موسی إماما فلیس هو أو ما عنده من البینه ببدع من الأمر غیر مسبوق بمثل و نظیر بل هناک طریق مسلوک من قبل یهدی إلیه کتاب موسی.

و من هنا یظهر وجه توصیف کتاب موسی و هو التوراه بالإمام و الرحمه فإنه مشتمل علی معارف حقه و شریعه إلهیه یؤتم به فی ذلک و یتنعم بنعمته،و قد ذکره الله بهذا الوصف فی موضع آخر من کلامه فقال :«قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ -Xإلی أن قالX- وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا لَوْ کٰانَ خَیْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَیْهِ وَ إِذْ لَمْ یَهْتَدُوا بِهِ فَسَیَقُولُونَ هٰذٰا إِفْکٌ قَدِیمٌ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتٰابُ مُوسیٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا کِتٰابٌ مُصَدِّقٌ لِسٰاناً عَرَبِیًّا لِیُنْذِرَ الَّذِینَ ظَلَمُوا وَ بُشْریٰ لِلْمُحْسِنِینَ:» الأحقاف:-١٢.

و الآیات-کما تری-أقرب الآیات مضمونا من الآیه المبحوث عنها تذکر أولا:أن القرآن بینه إلهیه أو أمر قامت علیه بینه إلهیه ثم تذکر شهاده الشاهد من بنی إسرائیل علیه و تأیده بها ثم تذکر أنه مسبوق فیما یتضمنه من المعارف و الشرائع بکتاب موسی الذی کان إماما و رحمه یأتم به الناس و یهتدون،و طریقا مسلوکا مجربا،و القرآن کتاب مثله مصدق له منزل من عند الله لإنذار الظالمین و تبشیر المحسنین.

و من هنا یظهر أیضا:أن قوله:« إِمٰاماً وَ رَحْمَةً »حال من کتاب موسی لا من قوله:« شٰاهِدٌ مِنْهُ »علی ما ذکره بعضهم.

قوله تعالی:« أُولٰئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزٰابِ فَالنّٰارُ مَوْعِدُهُ » المشار إلیهم بقوله:« أُولٰئِکَ »بناء علی ما تقدم من معنی صدر الآیه هم الذین کانوا

على بينه من ربهم المدلول عليهم بقوله:« أَ فَمَنْ كٰانَ »إلخ،و أما إرجاع الإشاره إلى المؤمنين لدلاله السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

و كذا الضمير فى قوله:« رَبِّهِ »راجع إلى القرآن من جهه أنه بينه منه تعالى أو أمر قامت عليه البينه،و أما إرجاعه إلى النبى ص فلا يلائم ما قررناه من معنى الآيه فإن فى صدر الآيه بيان حال النبى ص بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله:« فَلاٰ تَکُ فِی مِرْيَةٍ مِنْهُ »كأنه قيل:إنک على بينه كذا و معک شاهد و قبلک كتاب موسى،و من كان على هذه الصفه يؤمن بما أوتى من كتاب الله،و لا يصح أن يقال:و من كان على هذه الصفه يؤمن بک،و الكلام فى الضمير فى« وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ »كالكلام فى ضمير« يُؤْمِنُونَ بِهِ ».

و أمر الآيه فيما يحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرها عجيب فضرب بعضها فى بعض يرقى إلى ألوف من المحتملات بعضها صحيح و بعضها خلافه.

قوله تعالى:« فَلاٰ تَکُ فِی مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ » المريه كجلسه النوع من الشک،و الجمله تفريع على صدر الآيه،و المعنى أن من كان على بينه من ربه فى أمر و قد شهد عليه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله و لا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده،و أنت كذلک فإنک على بينه من ربک و يتلوک شاهد و من قبلک كتاب موسى إماما و رحمه و إذا كان كذلک فلا تک فى مريه من أمر ما أنزل إليک من القرآن إنه محض الحق من جانب الله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

و قوله:« إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ »تعليل للنهى و قد أكد بإن و لام الجنس للدلاله على توافر الأسباب النافيه للمريه و هى قيام البينه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعالى:« وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً »إلى آخر الآيه،من الممكن أن يكون ذيلا للسياق السابق من حيث كان تطييبا لنفس النبى ص فيئول المعنى إلى أنک إذ كنت على بينه من ربک لست بظالم فحاشاک أن تكون مفتريا على الله

الکذب لأن المفتری علی الله کذبا من أظلم الظالمین،و لهم من وبال کذبهم کذا و کذا.

و کیف کان فالمراد بافتراء الکذب علی الله سبحانه توصیفه تعالی بما لیس فیه أو نسبه شیء إلیه بغیر الحق أو بغیر علم،و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم، و یعظم الظلم بعظم متعلقه حتی إذا انتهی إلی ساحه العظمه و الکبریاء کان من أعظم الظلم.

و الکلام واقع موقع قلب الدعوی علیهم إذ کانوا یقولون للنبی ص:إنه افتری علی الله کذبا بنسبه القرآن إلیه فقلب القول علیهم أنهم هم الذین افتروا علی الله کذبا إذا أثبتوا له شرکاء بغیر علم و هو الله لا إله إلا هو،و إذ صدوا عن سبیل الله و معناه نفی کونه سبیلا لله و هو افتراء،و إذ طلبوا سبیلا أخری فاستنوا بها فی حیاتهم و کان ذلک تغییرا لسبیل الله التی تهدی إلیها الفطره و النبوه،و إذ کفروا بالآخره فنفوها و ذلک إثبات مبدإ من غیر معاد و نسبه اللغو و فعل الباطل إلیه تعالی و هو افتراء علیه.

و بالجمله انتحالهم بغیر دین الله و نحلته،و أخذهم بالعقائد الباطله فی المبدإ و المعاد و استنانهم بغیر سنه الله فی حیاتهم الدنیویه الاجتماعیه-و الذی من الله إنما هو الحق و لا سنه عند الله إلا دین الحق-افتراء علی الله،و سیشهد علیهم الأشهاد بذلک یوم یعرضون علی ربهم.

و قوله تعالی:« أُولٰئِکَ یُعْرَضُونَ عَلیٰ رَبِّهِمْ » العرض إظهار الشیء لیری و یوقف علیه،و لما کان ارتفاع الحجب بینهم و بین ربهم یوم القیامه بظهور آیاته و وضوح الحق الصریح من غیر شاغل یشغل عنه حضورا اضطراریا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم علی ربهم کما سمی بوجه آخر بروزا منهم لله فقال :«یَوْمَ هُمْ بٰارِزُونَ لاٰ یَخْفیٰ عَلَی اللّٰهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ:» المؤمن:-۱۶،و قال :«وَ بَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰاحِدِ الْقَهّٰارِ:» إبراهیم:-۴۸ فقال:« أُولٰئِکَ یُعْرَضُونَ عَلیٰ رَبِّهِمْ »أی یأتی بهم الملائکه الموکلون بهم فیوقفونهم موقفا لیس بینهم و بین ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

و قوله:« وَ یَقُولُ الْأَشْهٰادُ هٰؤُلاٰءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلیٰ رَبِّهِمْ » الأشهاد جمع شهید کأشراف جمع شریف و قیل:جمع شاهد کأصحاب جمع صاحب،و یؤید الأول قوله تعالی :«فَکَیْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِیدٍ:» النساء:-۴۱ و قوله :«وَ جٰاءَتْ

كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ:» ق:-٢١.

و قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهاده منهم عليهم بالافتراء على الله أى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهه شهاده الأشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلا الحق و لا مناص فيه عن الاعتراف و القبول كما قال تعالى :«لاٰ يَتَكَلَّمُونَ إِلاّٰ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قٰالَ صَوٰاباً:» النبأ:-٣٨ و قال تعالى :«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهٰا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً:» آل عمران:-٣٠.

قوله تعالى:« أَلاٰ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ »إلخ، تتمه قول الأشهاد،و الدليل عليه قوله تعالى :«فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كٰافِرُونَ:» الأعراف:-٤٥.

و هذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد و اللعن على الظالمين و تسجيل للعذاب،و ليس اللعن و الرحمه يوم القيامه كاللعن و الرحمه فى الدنيا كما فى قوله تعالى :«أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ:» البقره:-١٥٩ و ذلك أن الدنيا دار عمل و يوم القيامه يوم جزاء فما فيه من لعنه أو رحمه هو إيصال ما ادخر لهم إليهم فلعن اللاعن أحدا يوم القيامه طرده من رحمه الله الخاصه بالمؤمنين و تسجيل عذاب البعد عليه.

ثم فسر سبحانه الظالمين بقوله حكايه عنهم:« اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ »فهم الذين لا يذعنون بيوم الحساب حتى يعملوا له و إنما يعملون للدنيا و يسلكون من طريق الحياه ما يتمتعون به للدنيا الماديه فحسب،و هو السنه الاجتماعيه غير المعتنيه بما يريده الله من عباده من دين الحق و مله الفطره فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع و عملوا بسنه محرفه منحرفه عن دين الفطره و هو الإسلام أم لم يعتقدوا به ممن يقول:إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر،ظالمون مفترون على الله الكذب،و قد تقدم بعض الكلام المتعلق بهذه المعانى فى سوره الأعراف آيه ٤٤-٤٥.

و قد بان مما تقدم من البحث فى الآيتين أولا:أن الدين فى عرف القرآن هو

السنه الاجتماعيه الدائره فى المجتمع.

و ثانيا:أن السنن الاجتماعيه إما دين حق فطرى و هو الإسلام أو دين محرف عن الدين الحق و سبيل الله عوجا.

قوله تعالى:« أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ »إلى آخر الآيه.الإشاره إلى المفترين على الله الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على أن المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض أنهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه فى حياتهم الأرضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على الله الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا ـ لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره الله سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته،و لا لأنهم خرجوا من ولايه الله فدخلوا فى ولايه غيره و هم الذين اتخذوهم أولياء من أصنامهم و كذا سائر الأسباب التى ركنوا إليها،و ذلك قوله:« وَ مٰا كٰانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ ».

و بالجمله لا قدرتهم غلبت قدره الله سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم أولياء لأنفسهم أولياء لهم بالحقيقه يدبرون أمرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل الله سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و أعمالهم بما يجرهم إلى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى :«فَلَمّٰا زٰاغُوا أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ:» الصف:-۵،و قال :«يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ:» البقره:-۲۶.

و قوله:« يُضٰاعَفُ لَهُمُ الْعَذٰابُ »ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه أو لأنهم عصوا الله بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى :«لِيَحْمِلُوا أَوْزٰارَهُمْ كٰامِلَةً يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ مِنْ أَوْزٰارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ:» النحل:-۲۵ و قال :«وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ:» يس:-۱۲.

و قوله:« مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ »فى مقام التعليل و لذا جىء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إراده

الله و لا لأن لهم أولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار و التبشير من ناحيته أو يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فی قوله :

«لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ:» الأعراف:-١٧٩،و فی قوله :«وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصٰارَهُمْ كَمٰا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ:» الأنعام:-١١٠،و قوله :«خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ:» البقره:-٧،و آيات أخرى كثيره تدل على أنه تعالى سلبهم عقولهم و أعينهم و آذانهم غير أنه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم :

«وَ قٰالُوا لَوْ كُنّٰا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مٰا كُنّٰا فِی أَصْحٰابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ:»، الملك:-١١،و اعترافهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع أن ذلك مستند إلى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على أنهم أنفسهم توسلوا إلى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى :«وَ مٰا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِينَ:» البقره:-٢۶ و غيره.

و ذكروا فی معنى قوله:« مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ » وجوها أخرى:

منها:أن قوله: مٰا كٰانُوا «إلخ»،فی محل النصب بنزع الخافض و هو متعلق بقوله: يُضٰاعَفُ «إلخ»،و الأصل:بما كانوا يستطيعون السمع و بما كانوا يبصرون، و المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون و بما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون.

و منها:أنه عنى بقوله:« مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ »إلخ،نفى السمع و البصر عن آلهتهم و أوثانهم،و تقدير الكلام أولئك الكفار و آلهتهم لم يكونوا معجزين فی الأرض،و قال مخبرا عن الآلهه: مٰا كٰانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مٰا كٰانُوا يُبْصِرُونَ .

و منها:أن لفظه ما فی« مٰا كٰانُوا »ليست للنفى بل تجرى مجرى قولهم:

لأواصلنك ما لاح نجم،و المعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء.

و منها:أن نفى السمع و البصر بمعنى نفى الفائده فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله و النظر فيها و كراهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع و لا يبصر

فالكلام على الكنايه.

و أعدل الوجوه آخرها و هى جميعا سخيفه ظاهره السخافه و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى:« أُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ » أما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقه-و ذلك بتمليك من الله تعالى-إلا نفسه و إذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيعتها بالكفر و المعصيه فقد خسر فى هذه المعامله التى أقدم عليها نفسه فخسران النفس كنايه عن الهلاك،و أما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا و افتراء ليس له وجود فى الخارج من أوهامهم و مزاعمهم التى زينتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيويه و بانطواء بساط الحياه الدنيا يزول و ينمحى تلك الأوهام و يضل ما لاح و استقر فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون أن الله هو الحق المبين،و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى:« لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ »عن الفراء:أن « لا جرم »فى الأصل بمعنى لا بد و لا محاله ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم و صارت بمعنى«حقا»و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا.انتهى،و قد ذكروا أن « جرم »بفتحتين بمعنى القطع فلعلها كانت فى الأصل تستعمل فى نتائج الكلام كلفظه«لا محاله»و تفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع أن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى فى«لا محاله»فمعنى الآيه على هذا:حقا إنهم فى الآخره هم الأخسرون.

و وجه كونهم فى الآخره هم الأخسرين أن فرض أنهم أخسر بالنسبه إلى غيرهم من أهل المعاصى هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع فى نجاتهم من النار فى الآخره كما لا مطمع فى أن يفوزوا فى الدنيا و يسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد،قال تعالى :«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ:» الأنعام:-١٢.و قال تعالى فى هؤلاء المختوم على سمعهم و أبصارهم و قلوبهم :«وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ وَ سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ:» يس:-١٠.و قال أيضا فى سبب عدم إمكان إيمانهم :

«أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَهً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ:» الجاثيه:-٢٣.

و إن فرض أنهم أخسر بالنسبه إلى الـدنيا فذلك لكونهم بكفرهم و صدهم عن سبيل الله حرموا سعاده الحياه التى يمهدها لهم الدين الحق فخسروا فى الدنيا كما خسروا فى الآخره لكنهم فى الآخره أخسر لكونها دائمه مخلده و أما الدنيا فليست إلا قليلا،قال تعالى :«كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ سَاعَةً مِنْ نَهارٍ:» الأحقاف:-٣٥.

على أن الأعمال تشتد و تتضاعف فى الآخره بنتائجها كما قال تعالى :«وَ مَنْ كانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلاً:» إسراء:-٧٢، و أحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآيه حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم فى الآخره قبال الدنيا.

قوله تعالى:« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ »إلى آخر الآيه،قال الراغب فى المفردات،: الخبت المطمئن من الأرض و أخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات فى استعمال اللين و التواضع قال الله تعالى: وَ أَخْبَتُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ ،و قال: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ أى المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته،و قوله: فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أى تلين و تخشع.انتهى.

فالمراد بإخباتهم إلى الله اطمئنانهم إليه بحيث لا يتزلزل ما فى قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون و لا يرتابون كالأرض المطمئنه التى تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل إن الأصل،أخبتوا لربهم فإن ما فى معنى الاطمئنان يتعدى بإلى دون اللام.

و تقييده تعالى الإيمان و العمل الصالح بالإخبات إليه يدل على أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنين و هم المطمئنون منهم إلى الله ممن هم على بصيره من ربهم، و هو الـذى أشرنا إليه فى صدر الآيات عند قوله:« أَ فَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ »إلخ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس و هم أهل البصيره الإلهيه و من عميت عين بصيرته.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعنى

قوله:« أ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ -إلی قوله -أ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ »بیان لحال الفریقین و هم الذین یکفرون بالقرآن و الذین یؤمنون به.

قوله تعالی:« مَثَلُ الْفَرِیقَیْنِ کَالْأَعْمیٰ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِیرِ وَ السَّمِیعِ هَلْ یَسْتَوِیٰانِ مَثَلاً أ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ المثل هو الوصف،و غلب فی المثل السائر و هو بیان معنی من المعانی الخفیه علی المستمع بأمر محسوس أو کالمحسوس یأنس به ذهنه و یتلقاه فهمه لینتقل به إلی المعنی المعقول المقصود بیانه،و المراد بالفریقین من بین حالهما فی الآیات السابقه، و الباقی واضح.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن أحمد بن عمر الخلال قال: سألت أبا الحسن(ع)عن قول الله عز و جل:« أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ »فقال:أمیر المؤمنین(ع)هو الشاهد من رسول الله ص-و رسول الله علی بینه من ربه.

و فی أمالی الشیخ،بإسناده عن عبد الرحمن بن کثیر عن جعفر بن محمد عن أبیه عن جده علی بن الحسین عن الحسن(ع): فی خطبه طویله خطبها بمحضر معاویه-منها-فأدت الأمور و أفضت الدهور-إلی أن بعث الله محمدا ص للنبوه و اختاره للرساله،و أنزل علیه کتابه ثم أمره بالدعاء إلی الله عز و جل-فکان أبی أول من استجاب لله عز و جل و لرسله-و أول من آمن و صدق الله و رسوله،و قد قال الله عز و جل فی کتابه المنزل علی نبیه المرسل:« أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ »فرسول الله ص الذی علی بینه من ربه،و أبی الذی یتلوه و هو شاهد منه. الخطبه.

أقول:و کلامه(ع)أحسن شاهد علی ما قدمناه فی معنی الآیه أن إرادته (ع)بالشاهد من باب الانطباق.

و فی بصائر الدرجات،بإسناده عن الأصبغ بن نباته قال:قال أمیر المؤمنین (ع): لو کسرت لی الوساده فقعدت علیها-لقضیت بین أهل التوراه بتوراتهم و أهل

الإنجیل بإنجیلهم-و أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء یصعد إلی الله یزهر،و الله ما نزلت آیه فی کتاب الله فی لیل أو نهار-إلا و قد علمت فیمن أنزلت،و لا أحد ممن مر علی رأسه المواسی-إلا و قد أنزلت آیه فیه من کتاب الله-تسوقه إلی الجنه أو النار-.

فقام إلیه رجل فقال:یا أمیر المؤمنین-ما الآیه التی نزلت فیک؟قال:أ ما سمعت الله یقول:« أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ-وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ »فرسول الله ص علی بینه من ربه-و أنا الشاهد له و منه:

أقول:و روی هذا المعنی المفید فی الأمالی،مسندا و فی کشف الغمه،مرسلا عن عباد بن عبد الله الأسدی عنه(ع)،و العیاشی فی تفسیره مرسلا عن جابر عن عبد الله بن یحیی عنه(ع)و کذا ابن شهرآشوب عن الطبری بإسناده عن جابر بن عبد الله عنه(ع)و کذا عن الأصبغ و عن زین العابدین و الباقر و الصادق(ع) عنه(ع) .

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم و ابن مردویه و أبو نعیم فی المعرفه عن علی بن أبی طالب رضی الله عنه قال: ما من رجل من قریش إلا نزل فیه طائفه من القرآن-فقال له رجل:ما نزل فیک؟قال:أ ما تقرأ سوره هود« أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ »رسول الله ص علی بینه من ربه،و أنا شاهد منه:

أقول:و فی تفسیر البرهان،عن تفسیر الثعلبی بإسناده عن الشعبی یرفعه إلی علی(ع)مثله و فیه عن ابن المغازلی یرفعه إلی عباد بن عبد الله عن علی(ع)مثله.

و کذا عن کنوز الرموز للرسعنی مثله .

و فیه،أخرج ابن مردویه من وجه آخر عن علی رضی الله عنه قال:قال رسول الله ص: « أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ »أنا« وَ یَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ قال:علی:

أقول:و فی تفسیر البرهان،عن ابن المغازلی فی تفسیر الآیه عن النبی ص مثله .

و فی تفسیر البرهان،عن ابن المغازلی بإسناده عن علی بن حابس قال": دخلت أنا و أبو مریم علی عبد الله بن عطاء-قال أبو مریم:حدث علینا الحدیث الذی حدثتنی به عن أبی جعفر-قال:کنت عند أبی جعفر جالسا إذ مر علینا ابن عبد الله بن سلام-

قلت:جعلت فداك هذا ابن الذى عنده علم الكتاب،قال:لا و لكنه صاحبكم على بن أبى طالب- الذى نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى:« مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ » « أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ-وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »« إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ-وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ».

و فيه،عن ابن شهرآشوب عن الحافظ أبى نعيم بثلاثه طرق عن ابن عباس قال:قال سمعت عليا يقول: قول الله تعالى:« أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ- وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »رسول الله ص على بينه-و أنا الشاهد.

و فيه،أيضا عن موفق بن أحمد قال": قوله تعالى:« أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ- وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »قال ابن عباس:هو على-يشهد للنبى ص و هو منه.

أقول:

و رواه عن الثعلبى فى تفسيره يرفعه إلى ابن عباس": « أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ »على خاصه.

أقول:قال صاحب المنار،فى تفسير الآيه عند ذكر معانى الشاهد:و منها:

أنه على رضى الله عنه ترويه الشيعه و يفسرونه بالإمامه،و روى:أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره و فسره بأنه لسانه(ص)،و قابلهم خصومهم بمثلها فقالوا:

أنه أبو بكر،و هما من التفسير بالهوى.انتهى أما قوله:«إن الشيعه ترويه»فقد عرفت أن رواته من أهل السنه أكثر من الشيعه،و أما قوله:«إنه مثل تفسيره بأبى بكر من التفسير بالهوى»فيكفيك فى ذلك ما تقدم فى معنى الآيه فراجع.

و فى الكافى،بإسناده عن زيد الشحام عن أبى عبد الله(ع)قال: قلت له:

إن عندنا رجلا يقال له:كليب-فلا يجىء عنكم شىء إلا قال:أنا أسلم فسميناه كليب تسليم-قال:فترحم عليه ثم قال:أ تدرون ما التسليم؟فسكتنا فقال:هو و الله الإخبات-قول الله عز و جل:« اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ-وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ :» أقول:و روى مثله العياشى فى تفسيره و الكشى و كذا صاحب البصائر عن أبى أسامه زيد الشحام عنه(ع) .

[سوره هود (۱۱): الآيات ۲۵ الى ۳۵]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اِتَّبَعَكَ إِلاَّ اَلَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ اَلرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاّ عَلَى اَللّٰهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اَللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اَللّٰهِ وَ لا أَعْلَمُ اَلْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اَللّٰهُ خَيْراً اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ اَلظّالِمِينَ (۳۱) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِينَ (۳۲) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اَللّٰهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اَللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَراهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّا تُجْرِمُونَ (۳۵)

(بیان)

شروع فی قصص الأنبیاء(ع)و قد بدأ بنوح و عقبه بجماعه ممن بعده کهود و صالح و إبراهیم و لوط و شعیب و موسی(ع).و قد قسم قصه نوح إلی فصول أولها احتجاجه(ع)علی قومه فی التوحید فهو(ع)أول الأنبیاء الناهضین للتوحید علی الوثنیه علی ما ذکره الله تعالی فی کتابه،و أکثر ما قص من احتجاجه (ع)مع قومه من المجادله بالتی هی أحسن و بعضه من الموعظه و قلیل منه من الحکمه و هو الذی یناسب تفکر البشر الأولی و الإنسان القدیم الساذج و خاصه تفکرهم الاجتماعی الذی لا ظهور فیه إلا للمرکوم من أفکار الأفراد المتوسطین فی الفهم.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ »القراءه المعروفه « إِنِّی »بکسر الهمزه علی تقدیر القول و قرئ أنی بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدیر بأنی لکم نذیر مبین،و الجمله أعنی قوله: « إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ »علی أی حال بیان إجمالی لما أرسل به فإن جمیع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به إلیهم إنذار مبین فهو نذیر مبین.

فکما أنه لو قال:ما سألقیه إلیکم من القول إنذار مبین کان بیانا لجمیع ما أرسل به إلیهم بأوجز کلمه کذا قوله: إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ بیان لذلک بالإجمال غیر أنه یزید علی سابقه ببیان سمه نفسه و هی أنه رسول من الله إلیهم لینذرهم بعذاب الله، و لیس له من الأمر شیء أزید من أنه واسطه یحمل الرساله.

قوله تعالی:« أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّٰهَ إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ أَلِیمٍ ».بیان ثان لما أرسل به أو بیان لقوله:« إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ »و مآل الوجهین واحد،و أن

على أى حال مفسره،و المعنى أن محصل رسالته النهى عن عباده غير الله تعالى من طريق الإنذار و التخويف.

و ذكر بعض المفسرين أن الجمله أعنى قوله:« أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا »إلخ،بدل من قوله:« إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ »أو مفعول لقوله مبين.و لعل السياق يؤيد ما قدمناه.

و الظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامه أو الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم:« يٰا نُوحُ قَدْ جٰادَلْتَنٰا فَأَكْثَرْتَ جِدٰالَنٰا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِينَ قٰالَ إِنَّمٰا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ »الآيه،فإنه ظاهر فى عذاب الاستئصال.

فهو(ع)كان يدعوهم إلى رفض عباده الأوثان و يخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أى مؤلم و نسبه الإيلام إلى اليوم دون العذاب فى قوله:

« عَذٰابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ »من قبيل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم يندفع ما ربما قيل:إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه فى خوفه(ع)من تعذيبهم المقطوع؟و الخوف إنما يستقيم فى محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجمله كان(ع)يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب،و إنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح(ع)بأن الله سبحانه هو الذى خلقهم و دبر شئون حياتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه(ع)فى سوره نوح.

و إذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه و ليعبدوه وحده.

و هذه الحجه فى الحقيقه حجه برهانيه مبنيه على اليقين لكنهم إنما كانوا يتلقونها حجه جدليه مبنيه على الظن لأنهم لسذاجه أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الرب و عذابه على المخالفه لأنهم يرونه وليا لأمرهم مصلحا لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من

الإنسان الحاكمين فی من دونهم من أفراد المجتمع الـذين يجب الخضوع لمقامهم و التسـليم لإرادتهم و لو اسـتكبر عن الخضوع لهم و التسليم لإرادتهم من دونهم سخطوا عليهم و عاقبوهم بما أجرموا و تمردوا.

و علی هذا القياس يجب إرضاء الرب أو الأرباب الذين يرجع إليهم أمر الكون و ولايه النظام الجاری فيه فيجب إرضاؤه و إخماد نار غضبه بالخضوع له و التقرب إليه بتقديم القرابين و التضحيه و سائر أنحاء العباده فهكذا كانوا يعتقدون و هو مبنی علی الظن.

لكن مسأله نزول العـذاب علی الاسـتنكاف عن عباده الله تعالی و الاسـتكبار عن التسـليم و الخضوع لساحه الربوبيه مسأله حقيقيه يقينيه فـإن من النواميس الكليه الجاريه فی الكون لزوم خضوع الضـعيف للقوی و المتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك فی الله الواحد القهار الذی إليه مصير الأمور.

و قد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون و ربط بعضها ببعض ثم أجری الحوادث علی نظام الأسباب و علی ذلك يجری كل شیء فی نظـام وجوده فلو انحرف عمـا يخطه له سائر الأسـباب من الخط أدی ذلك إلی اختلال نظامها و كان ذلك منازعه منه لها و عند ذلك ينتهض سائر الأسـباب الكونيه من أجزاء الوجود لتعديل أمره و إرجاعه إلی خط يلائمها تدفع بذلك الشـر عن نفسـها فإن اسـتقام هـذا الجزء المنحرف عن خطه المخطوط له فهو و إلا حطمتها حاطمات الأسـباب و نازلات النوائب و البلايا،و هذا أيضـا من النواميس الكليه.

و الإنسان الذی هو أحد أجزاء الكون له فی حياته خط خطه له الصـنع و الإيجاد فإن سـلكه هداه إلی سعادته و وافق بذلك سائر أجزاء الكون و فتحت له أبواب السـماء ببركاتها و سـمحت له الأرض بكنوز خيراتها،و هـذا هو الإسـلام الـذی هو الدين عند الله تعالی المدعو إليه بدعوه نوح و من بعده من الأنبياء و الرسل(ع).

و إن تخطاه و انحرف عنه فقد نازع أسباب الكون و أجزاء الوجود فی نظامها الجاری و زاحمها فی شئون حياتها فليتوقع مر البلاء و لينتظر العذاب و العناء فإن استقام فی أمره و خضع لإراده الله سبحانه و هی ما تحطمه من الأسباب العامه فمن

المرجو أن تتجدد له النعمه بعد النقمه و إلا فهو الهلاک و الفناء و إن الله لغنی عن العالمین،و قد تقدم هذا البحث فی بعض أجزاء الکتاب السابقه.

قوله تعالی:« فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا » إلی آخر الآیه،الفاء فی صدر الآیه لتفریع جوابهم عن قول نوح(ع)،و فیه إشاره إلی أنهم بادروه بالرد و الإنکار من دون أن یفکروا فی أنفسهم فیختاروا ما هو أصلح لهم.

و المجیبون هم الملأ من قومه و الأشراف و الکبراء الذین کفروا به و لم یتعرضوا فی جوابهم لما ألقی إلیهم من حجه التوحید بل إنما اشتغلوا بنفی رسالته و الاستکبار عن طاعته فإن قوله:« إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ »إلی آخر الآیتین،کان مشتملا علی دعوی الرساله و ملوحا إلی وجوب الاتباع و قد صرح به فیما حکی عنه فی موضع آخر،قال تعالی :«قٰالَ یٰا قَوْمِ إِنِّی لَکُمْ نَذِیرٌ مُبِینٌ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِیعُونِ:» نوح:-۳.

و محصل ما نقله الله تعالی من جوابهم هو أنه لا دلیل علی لزوم اتباعک بل الدلیل علی خلافه فهو فی الحقیقه حجتان منظومتان علی طریق الإضراب و الترقی و لذلک أخر قولهم:« بَلْ نَظُنُّکُمْ کٰاذِبِینَ ».

و الحجه الأولی التی مدلولها عدم الدلیل علی وجوب اتباعه مبینه بطرق ثلاث هی قوله:« مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً »إلخ،و قوله:« وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ »إلخ،و قوله:

« وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا ».إلخ.

و الحجه بجمیع أجزائها مبنیه علی إنکار ما وراء الحس کما سنبین و لذلک کرروا فیه قولهم:ما نراک و نری.

فقوله:« مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا »أول جوابهم عما یدعیه نوح(ع)من الرساله،و قد تمسکوا فیه بالمماثله کما هو دأب سائر الأمم مع أنبیائهم علی ما حکاه الله تعالی فی کتابه و تقریره:أنک مثلنا فی البشریه و لو کنت رسولا إلینا من عند الله لم تکن کذلک و لا نشاهد منک إلا أنک بشر مثلنا،و إذ کنت بشرا مثلنا لم یکن هناک موجب لاتباعک.

ففی الکلام تکذیب لرسالته(ع)بأنه لیس إلا بشرا مثلهم ثم استنتاج من ذلک أنه لا دلیل علی لزوم اتباعه،و الدلیل علی ما ذکرنا قول نوح(ع)فیما سیحکیه الله تعالی من کلامه:« یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی »إلخ.

و قد اشتبه الأمر علی بعض المفسرین فقرر قولهم:« مٰا نَرٰاکَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا » بأنهم ساووه بأنفسهم فی الزنه الاجتماعیه و استنتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له، قال فی تفسیر الآیه:أجابوه بأربع حجج داحضه.إحداها:أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم فی الجمله،و هذا یدل علی أنه(ع)کان من طبقتهم أو ما یقرب منها فی بیته و فی شخصه و هکذا کان کل رسول من وسط قومه،و وجه الجواب أن المساواه تنافی دعوی تفوق أحد المتساویین علی الآخر بجعل أحدهما تابعا طائعا و الآخر متبوعا مطاعا لأنه ترجیح بغیر مرجح.انتهی.

و لو کان المعنی ما ذکره لکان من حق الکلام أن یقال:أنت مثلنا أو نراک مثلنا دون أن یقال:ما نراک إلا بشرا مثلنا فیذکر أنه بشر و لا حاجه إلی الإشاره إلی بشریته،و لکان معنی الکلام عائدا إلی المراد من قولهم بعد:و ما نری لکم علینا من فضل،و کان فضلا من الکلام.

و من العجب استفادته من الکلام مساواته(ع)لهم فی البیت و الشخصیه ثم قوله:«و هکذا کان کل رسول من وسط قومه»و فی الرسل مثل إبراهیم و سلیمان و أیوب(ع).

و قوله:« وَ مٰا نَرٰاکَ اتَّبَعَکَ إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ »قال فی المفردات،: الرذل -بفتح الراء-و الرذال-بکسرها-المرغوب عنه لرداءته قال تعالی:« وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلیٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ »و قال:« إِلاَّ الَّذِینَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِیَ الرَّأْیِ »و قال:« قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَکَ وَ اتَّبَعَکَ الْأَرْذَلُونَ »جمع الأرذل.

و قال فی المجمع،: الرذل الخسیس الحقیر من کل شیء و الجمع أرذل ثم یجمع علی أراذل کقولک:کلب و أکلب و أکالب،و یجوز أن یکون جمع الأرذل فیکون مثل أکابر جمع أکبر.

و قال:و الرأی الرؤیه من قوله:« یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ رَأْیَ الْعَیْنِ »أی رؤیه العین

و الرأی أیضا ما یراه الإنسان فی الأمر و جمعه آراء.انتهی.

و قال فی المفردات،:و قوله:« بٰادِیَ الرَّأْیِ »أی ما یبدأ من الرأی و هو الرأی الفطیر،و قرئ: بادی بغیر همزه أی الذی یظهر من الرأی و لم یترو فیه.انتهی.

و قوله:« بٰادِیَ الرَّأْیِ »یحتمل أن یکون قیدا لقوله:« هُمْ أَرٰاذِلُنٰا »أی کونهم أراذل و سفله فینا معلوم فی ظاهر الرأی و النظر أو فی أول نظره.

و یحتمل کونه قیدا لقوله:« اِتَّبَعَکَ أی اتبعوک فی ظاهر الرأی أو فی أوله من غیر تعمق و تفکر و لو تفکروا قلیلا و قلبوا أمرک ظهرا لبطن ما اتبعوک، و هذا الاحتمال لا یستغنی عن تکرار الفعل ثانیا و التقدیر:اتبعوک بادی الأمر و إلا اختل المعنی لو لم یتکرر و قیل:ما نراک اتبعک فی بادی الرأی إلا الذین هم أراذلنا.

و بالجمله معنی الآیه:أنا نشاهد أن متبعیک هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناک ساویناهم و دخلنا فی زمرتهم و هذا ینافی شرافتنا و یحط قدرنا فی المجتمع،و فی الکلام إیماء إلی بطلان رسالته(ع)بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو کان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولوا القوه و الطول فلو استنکفوا عنه أو اتبعه الأخساء و الضعفاء کالعبید و المساکین و الفقراء ممن لا حظ له من مال أو جاه و لا مکانه له عند العامه فلا خیر فیه.

و قوله:« وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا مِنْ فَضْلٍ »المراد نفی مطلق الفضل من متاع دنیوی یختصون بالتنعم به أو شیء من الأمور الغیبیه کعلم الغیب أو التأید بقوه ملکوتیه و ذلک لکون النکره-فضل-واقعه فی سیاق النفی فتفید العموم.

و قد أشرکوا أتباع نوح(ع)و المؤمنین به منهم فی دعوته إذ قالوا:« وَ مٰا نَریٰ لَکُمْ عَلَیْنٰا »و لم یقولوا:«و لا نری لک»لأنهم کانوا یحثونهم و یرغبونهم فی اتباع ما اتبعوه من الطریقه.

و المعنی أن دعوتکم إیانا-و عندنا ما نتمتع به من مزایا الحیاه الدنیا کالمال و البنین و العلم و القوه-إنما یستقیم و یؤثر أثره لو کان لکم شیء من الفضل تفضلون به علینا من زینه الحیاه الدنیا أو علم من الغیب أو قوه من الملکوت حتی یوجب

ذلک خضوعا منا لکم و لا نری شیئا من ذلک عندکم فأی موجب یوجب علینا اتباعکم؟.

و إنما عممنا الفضل فی کلامه للفضل من حیث الجهات المادیه و غیره کعلم الغیب و القوه الملکوتیه خلافا لأکثر المفسرین حیث فسروا الفضل بالفضل المادی کالمال و الکثره و غیرهما،لما یستفاد من کلامهم من العموم لوقوع النکره فی سیاق النفی.

مضافا إلی أن ما یحاذی قولهم هذا من جواب نوح(ع)یدل علی ذلک و هو قوله:« وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ »إلخ علی ما سیأتی.

و قوله تعالی:« بَلْ نَظُنُّکُمْ کٰاذِبِینَ »إضراب فی الاحتجاج کما تقدمت الإشاره إلیه فمحصله أنا لا نری معکم أمرا یوجب اتباعنا لکم بل هناک أمر یوجب عدم الاتباع و هو أنا نظنکم کاذبین.

و معناه علی ما یعطیه السیاق-و الله أعلم-أنه لما لم یکن عندکم ما یشاهد معه صحه دعوتکم و أنکم تلحون علینا بالسمع و الطاعه و أنتم صفر الأیدی من مزایا الحیاه من مال و جاه و هذه الحال تستدعی الظن بأنکم کاذبون فی دعواکم تریدون بها نیل ما بأیدینا من أمانی الحیاه بهذه الوسیله و بالجمله هذه أماره توجب عاده الظن بأنها أکذوبه یتوسل بها إلی اقتناء الأموال و القبض علی ثروه الناس و الاستعلاء علیهم بالحکم و الرئاسه،و هذا کما حکی الله سبحانه عنهم فی مثل القصه إذ قال :«فَقٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ:» المؤمنون:- ۲۴.و بهذا یظهر وجه تعلیقهم الکذب بالظن دون الجزم،و أن المراد بالکذب الکذب المخبری دون الخبری.

قوله تعالی:« قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی »إلی آخر الآیه بیان لما أجاب به نوح(ع)عن حجتهم إلی تمام أربع آیات،و التعمیه الإخفاء فمعنی عمیت علیکم بالبناء للمفعول أخفیت علیکم من ناحیه جهلکم و کراهتکم للحق.و قرئ عمیت بالتخفیف و البناء للفاعل أی خفیت علیکم تلک الرحمه.

لما کانت حجتهم مبنیه علی الحس و نفی ما وراءه و قد استنتجوا منها أولا

عدم الدليل على وجوب طاعته و اتباعه ثم أضربوا عنه بالترقى إلى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم أجابهم(ع) بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته و ما يتبعه،و نفى ما حاولوا إثباته باتهامه و اتهام أتباعه بالكذب غير أنه استعطفهم بخطاب يا قوم-بالإضافه إلى ضمير التكلم-مره بعد مره ليجلبهم إليه فيقع نصحه موقع القبول منهم.

و قد أبدع الآيات الكريمه فى تقرير حجته(ع)فى جوابهم فقطعت حجتهم فصلا فصلا و أجابت عن كل فصل بوجهيه أعنى من جهه إنتاجه أن لا دليل على اتباعه(ع)و أن الدليل على خلافه و ذلك قوله:« يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ »إلخ،و قوله:« وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا »إلخ،و قوله:« وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللّهِ »إلخ،ثم أخذت من كل حجه سابقه شيئا يجرى مجرى التلخيص فإضافته إلى الحجه اللاحقه بادئه به فامتزجت الحجه بالحجه على ما لكل منها من الاستقلال و التمام.

فتمت الحجج ثلاثا كل واحده منها مبدوءه بالخطاب و هى قوله:« يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ »إلخ،و قوله:« وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً »إلخ،و قوله:

« وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ »إلخ،فتدبر فيها.

فقوله:« قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّي »جواب عن قولهم:

« ما نَراكَ إِلاّ بَشَراً مِثْلَنا »يريدون به أنه ليس معه إلا البشريه التى يماثلهم فيها و يماثلونه فبأى شىء يدعى وجوب اتباعهم له؟بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرساله أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفى رسالته و سندهم فى ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرساله و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فى دعوى الرساله و هو الآيه المعجزه الداله على صدق الرسول فى دعوى الرساله فإن الرساله نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاريه لا طريق إلى العلم بتحققه إلا بوقوع أمر غيبى آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فى دعواه الرساله،و لذلك أشار(ع)بقوله:« يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَهٍ مِنْ

رَبِّی

»إلی أن معه بینه من الله و آیه معجزه تدل علی صدقه فی دعواه.

و من هنا یظهر أن المراد بالبینه الآیه المعجزه التی تدل علی ثبوت الرساله لأن ذلک هو الذی یعطیه السیاق فلا یعبأ بما ذکره بعض المفسرین أن المراد بالبینه فی الآیه العلم الضروری الذی یعلم به النبی أنه نبی و ذلک لکونه معنی أجنبیا عن السیاق.

و قوله:« وَ آتانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ »الظاهر أنه(ع)یشیر به إلی ما آتاه الله تعالی من الکتاب و العلم،و قد تکرر فی القرآن الکریم تسمیه الکتاب و کذا تسمیه العلم بالله و آیاته رحمه قال تعالی :«وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً:» هود:-۱۷،و قال :«وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً:» النحل:-۸۹،و قال :«فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا:» الکهف:-۶۵،و قال :«رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً:» آل عمران:-۸.

و أما قوله:« فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فالظاهر أن ضمیره راجع إلی الرحمه،و المراد أن ما عندی من العلم و المعرفه أخفاها علیکم جهلکم و کراهتکم للحق بعد ما ذکرتکم به و بثثته فیکم.

و قوله:« أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ » الإلزام جعل الشیء مع الشیء بحیث لا یفارقه و لا ینفک منه،و المراد بإلزامهم الرحمه و هم لها کارهون إجبارهم علی الإیمان بالله و آیاته و التلبس بما یستدعیه المعارف الإلهیه من النور و البصیره.

و معنی الآیه-و الله أعلم-أخبرونی إن کانت عندی آیه معجزه تصدق رسالتی مع کونی بشرا مثلکم و کانت عندی ما تحتاج إلیه الرساله من کتاب و علم یهدیکم الحق لکن لم یلبث دون أن أخفاه علیکم عنادکم و استکبارکم أ یجب علینا عندئذ أن نجبرکم علیها؟أی عندی جمیع ما یحتاج إلیه رسول من الله فی رسالته و قد أوقفتکم علیه لکنکم لا تؤمنون به طغیانا و استکبارا و لیس علی أن أجبرکم علیها،إذ لا إجبار فی دین الله سبحانه.

ففی الکلام تعریض لهم أنه قد تمت علیهم الحجه و بانت لهم الحقیقه فلم یؤمنوا

لكنهم مع ذلك يريدون أمرا يؤمنون لأجله و ليس إلا الإجبار و الإلزام على كراهيه، فهم فى قولهم:لا نراك إلا بشرا مثلنا،لا يريدون إلا الإجبار،و لا إجبار فى دين الله.

و الآيه،من جمله الآيات النافيه للإكراه فى الدين تدل على أن ذلك من الأحكام الدينيه المشرعه فى أقدم الشرائع و هى شريعه نوح(ع)و هو باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ.

و قد ظهر مما تقدم أن الآيه،أعنى قوله:« يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ »إلخ، جواب عن قولهم:« مٰا نَرٰاكَ إِلاّٰ بَشَراً مِثْلَنٰا »و يظهر بذلك فساد قول بعضهم:

إنه جواب عن قولهم:« بَلْ نَظُنُّكُمْ كٰاذِبِينَ »و قول آخرين:إنه جواب عن قولهم:

« مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ »و قول طائفه أخرى أنه جواب عن قولهم:« وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ »و لا نطيل الكلام بالتعرض لتوضيحها و ردها.

قوله تعالى:« وَ يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مٰالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ »يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب و لازمه أن تكون دعوته طريقا إلى جلب أموالهم و أخذ ما فى أيديهم طمعا فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئا من أموالهم لم يكن لهم أن يتهموه بذلك.

قوله تعالى:« وَ مٰا أَنَا بِطٰارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ لٰكِنِّي أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ »جواب عن قولهم:« وَ مٰا نَرٰاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرٰاذِلُنٰا بٰادِيَ الرَّأْيِ »و قد بدل لفظه الأراذل-و هى لفظه إرزاء و تحقير-من قوله:الذين آمنوا تعظيما لأمر إيمانهم و إشاره إلى ارتباطهم بربهم.

نفى فى جوابه أن يكون يطردهم و علل ذلك بقوله:« إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ » إيذانا بأن لهم يوما يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير أو شر فحسابهم على ربهم و ليس لغيره من الأمر شیء،فليس على نوح(ع)أن يحاسبهم فيجازيهم بشیء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء و المساكين و الضعفاء أن يطردوا من مجتمع الخير و يسلبوا النعمه و الشرافه و الكرامه.

فظهر أن المراد بقوله:« إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ »الإيمان إلى محاسبه الله سبحانه

ص :۲۰۷

إياهم يوم يرجعون فيه إليه فيلاقونه كما وقع فى نظير هذا المعنى فى قوله تعالى :

«وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مٰا عَلَيْكَ مِنْ حِسٰابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مٰا مِنْ حِسٰابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظّٰالِمِينَ:» الأنعام:-۵۷.

و أما قول من قال:إن معنى قوله:« إِنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ »إنه لا يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازى من ظلمهم و طردهم،أو أنهم ملاقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل و كيف يجوز طردهم و هم لا يستحقون ذلك،فبعيد عن الفهم.على أن أول المعنيين يجعل الآيه التاليه أعنى قوله:« وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ »الآيه زائده مستغنى عنها كما هو ظاهر.

و ظهر أيضا أن المراد بقوله:« وَ لٰكِنِّي أَرٰاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ »جهلهم بأمر المعاد و أن الحساب و الجزاء إلى الله لا إلى غيره،و أما ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهاله المضاده للعقل و الحلم أى تسفهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقه الامتياز بين إنسان و إنسان باتباع الحق و عمل البر و التحلى بالفضائل لا بالمال و الجاه كما تظنون فهو معنى بعيد عن السياق.

قوله تعالى:« وَ يٰا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ » النصر مضمن معنى المنع أو الإنجاء و نحوهما و المعنى من يمنعنى أو من ينجينى من عذاب الله إن طردتهم أ فلا تتذكرون أنه ظلم،و الله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم و ينتقم منه،و العقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوى بين الظالم و المظلوم،و لا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوؤه و يشفى به غليل صدر المظلوم و الله عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى:« وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ »جواب عن قولهم:« وَ مٰا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ »يرد عليهم قولهم بأنى لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعون منى أن أدعيه بما أنى أدعى الرساله فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمه الإلهيه فيستقل بإغناء الفقير و شفاء العليل و إحياء الموتى و التصرف فى السماء و الأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء و كيف شاء.

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه إلى نفسه، و يدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجمله يستكثر من الخيرات و يصان من المكاره.

و أن يرتفع عن درجه البشريه إلى مقام الملكيه أى يكون ملكا منزها من ألواث الطبيعه و مبرى من حوائج البشريه و نقائصها فلا يأكل و لا يشرب و لا ينكح و لا يقع فى تعب اكتساب الرزق و اقتناء لوازم الحياه و أمتعتها.

فهذه هى جهات الفضل التى تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها،و قد أخطأتم فليس للرسول إلا الرساله و إنى لست أدعى شيئا من ذلك فلا أقول لكم عندى خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إنى ملك،و بالجمله لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعونه حتى تكذبونى بفقده،و إنما أقول إنى على بينه من ربى تصدق رسالتى و آتانى رحمه من عنده.

و المراد بقوله:« خَزائِنُ اللّهِ »جميع الذخائر و الكنوز الغيبيه التى ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون إليه فى وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تتميم نقائصهم و تكميلها.

فهاتيک هى التى تزعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلكون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبى ص و قد حكاه الله تعالى إذ يقول :«وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِكَهِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِى السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّکَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً:» إسراء:-٩٣.

و إنما قال:« وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ »و لم يقل:و لا أقول إنى أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به و لا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل:لا أقول

إنی أعلم الغیب نافیا لوجوده عند القائل بل یحتاج إلی أن یقال:لا أعلم الغیب لیفید النفی بخلاف قوله:« لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ »و قوله:« وَ لاٰ أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ »،و لم یکرر قوله:« لَکُمْ »لحصول الکفایه بالواحده.

و قد أمر الله سبحانه نبیه محمد ص أن یخاطب قومه بما خاطب به نوح (ع)قومه ثم ذیله بما یظهر به المراد إذ قال :«قُلْ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ إِنِّی مَلَکٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ أَ فَلاٰ تَتَفَکَّرُونَ:» الأنعام:-۵۰.

انظر إلی قوله:« لاٰ أَقُولُ لَکُمْ »إلخ،ثم إلی قوله:« إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ »ثم إلی قوله:« قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمیٰ وَ الْبَصِیرُ »إلخ،فهو ینفی أولا الفضل الذی یتوقعه عامه الناس من نبیهم ثم یثبت للرسول الرساله فحسب ثم یبادر إلی إثبات الفضل من جهه أخری غیر الجهه التی یتوقعها الناس و هو أنه بصیر بإبصار الله تعالی و أن غیره بالنسبه إلیه کالأعمی بالنسبه إلی البصیر و هذا هو الموجب لاتباعهم له کما یتبع الأعمی البصیر،و هو المجوز له أن یدعوهم إلی اتباعه.

(کلام فی قدره الأنبیاء و الأولیاء فلسفی قرآنی)

الناس فی جهل بمقام ربهم و غفله عن معنی إحاطته و هیمنته فهم مع ما تهدیهم الفطره الإنسانیه إلی وجوده و أحدیته یسوقهم الابتلاء بعالم الماده و الطبیعه و التوغل فی الأحکام و القوانین الطبیعیه ثم السنن و النوامیس الاجتماعیه و الأنس بالکثره و البینونه إلی قیاس العالم الربوبی بما ألفوا من عالم الماده فالله سبحانه عندهم مع خلقه کجبار من جبابره البشر مع عبیده و رعیته.

فهناک فرد من الإنسان نسمیه مثلا ملکا أو جبارا دونه وزراء و أمراء و الجندیون و الجلاوزه یجرون ما یأمر به أو ینهی أنه و له عطایا و مواهب لمن شاء و إراده و کراهه و أخذ و رد و قبض و إطلاق و رحمه و سخط و قضاء و نسخ إلی غیر ذلک.

و کل من الملک و خدمه و أیادیه العماله و رعایاه و ما یدور بأیدیهم من النعم و أمتعه الحیاه أمر موجود محدود مستقل الوجود منفصله عن غیره إنما یرتبط بعضهم ببعض بأحکام و قوانین و سنن اصطلاحیه لا موطن لها سوی ذهن الذاهن و اعتقاد المعتقد.

و قد طبقوا العالم الربوبی أعنی ما یخبر به النبوه من مقام الرب تعالی و صفاته و أفعاله و ملائکته و کتبه و رسله علی هذا النظام فهو تعالی یرید و یکره و یعطی و یمنع و یدبر نظام الخلقه کما یفعل ذلک الواحد منا المسمی ملکا،و هو محدود الوجود منعزل الکون و کل من ملائکته و سائر خلیقته مستقل الوجود یملک ما عنده من الوجود و النعم الموهوبه دون الله سبحانه،و قد کان تعالی فی أزل الزمان وحده لا شیء معه من خلقه ثم أبدع فی جانب الأبد الخلق فکانوا معه.

فقد أثبتوا-کما تری-موجودا محدودا منطبق الوجود علی الزمان غیر أن وجوده الزمانی دائمی،و له قدره علی کل شیء،و علم بکل شیء،و إراده لا تنکسر و قضاء لا ترد،یستقل بما عنده من الصفات و الأعمال کما یستقل الواحد منا فیملک ما عنده من الحیاه و العلم و القدره و غیر ذلک فحیاته حیاه له و لیست لله،و علمه علمه لا علم الله،و قدرته قدرته لا قدره الله و هکذا،و إنما یقال لوجودنا أو حیاتنا أو علمنا أو قدرتنا أنها لله کما یقال لما عند الرعیه من النعمه أنها للملک بمعنی أنها کانت عنده فأخرجها من عنده و وضعها عندنا نتصرف فیها فجمیع ذلک-کما تری-یقوم علی أساس المحدودیه و الانعزال.

لکن البراهین الیقینیه تقضی بفساد ذلک کله فإنها تحکم بسریان الفقر و الحاجه إلی الموجودات الممکنه فی ذواتها و آثار ذواتها و إذا کانت الحاجه إلیه تعالی فی مقام الذات استحال الاستقلال عنه و الانعزال منه علی الإطلاق إذ لو فرض استقلال لشیء منه تعالی فی وجوده أو شیء من آثار وجوده-بأی وجه فرض فی حدوث أو بقاء- استغنی عنه من تلک الجهه و هو محال.

فکل ممکن غیر مستقل فی شیء من ذاته و آثار ذاته،و الله سبحانه هو الذی یستقل فی ذاته و هو الغنی الذی لا یفتقر فی شیء و لا یفقد شیئا من الوجود و کمال

الوجود كالحياه و القدره و العلم فلا حد له يتحدد به.و قد تقدم بعض التوضيح لهذه المسأله فی ذيل تفسير قوله تعالی :«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَهٍ:» المائده:-٧٣.

و علی ما تقدم كان ما للممكن من الوجود أو الحياه أو القدره أو العلم متعلق الوجود به تعالی غير مستقل منه بوجه،و لا فرق فی ذلك بين القليل و الكثير ما كانت خصيصه عدم الاستقلال محفوظه فيه فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شیء أو قدره علی كل شیء أو حياه دائمه ما دام غير مستقل الوجود عن الله سبحانه و لا منعزل الكون منه كما لا مانع من تحقق الممكن مع وجود موقت ذی أمد أو علم أو قدره متعلقين ببعض الأشياء دون بعض.نعم فرض الاستقلال يبطل الحاجه الإمكانيه و لا فرق فيه بين الكثير و القليل كما عرفت،هذا من جهه العقل.

و أما من جهه النقل فالكتاب الإلهی و إن كان ناطقا باختصاص بعض الصفات و الأفعال به تعالی كالعلم بالمغيبات و الإحياء و الإماته و الخلق كما فی قوله :«وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ:» الأنعام:-٥٩، و قوله :«وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا:» النجم:-۴۴:«و قوله اَللَّهُ يَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا:» الزمر:-۴٢،و قوله :

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَیْءٍ:» الزمر:-۶٢،إلی غير ذلك من الآيات لكنها جميعا مفسره بآيات أخر كقوله :«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَی غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَی مِنْ رَسُولٍ:» الجن:-٢٧،و قوله :«قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ:» الم السجده:-١١،و قوله عن عيسی(ع) :«وَ أُحْيِ الْمَوْتَی بِإِذْنِ اللَّهِ:» آل عمران:-۴٩،و قوله :«وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَهِ الطَّيْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِی:» المائده:-١١٠ إلی غير ذلك من الآيات.

و انضمام الآيات إلی الآيات لا يدع شكا فی أن المراد بالآيات النافيه اختصاص هذه الأمور به تعالی بنحو الأصاله و الاستقلال و المراد بالآيات المثبته إمكان تحققها فی غيره تعالی بنحو التبعيه و عدم الاستقلال.

فمن أثبت شيئا من العلم المكنون أو القدره الغيبيه أعنی العلم من غير طريق الفكر و القدره من غير مجراها العادی الطبيعی لغيره تعالی من أنبيائه و أوليائه

کما وقع کثیرا فی الأخبار و الآثار و نفی معه الأصاله و الاستقلال بأن یکون العلم و القدره مثلا له تعالی و إنما ظهر ما ظهر منه بالتوسیط و وقع ما وقع منه بإفاضته وجوده فلا حجر علیه.

و من أثبت شیئا من ذلک علی نحو الأصاله و الاستقلال طبق ما یثبته الفهم العامی و إن أسنده إلی الله سبحانه و فیض رحمته لم یخل من غلو و کان مشمولا لمثل قوله :«لاَ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لاَ تَقُولُوا عَلَی اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ:» النساء:-١٧١.

[بیان]

قوله تعالی:« وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّٰهُ خَیْراً اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا فِی أَنْفُسِهِمْ إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّٰالِمِینَ »قال فی المفردات،: زریت علیه عبته و أزریت به قصرت به و کذلک ازدریت به و أصله افتعلت قال:تزدری أعینکم أی تستقلهم تقدیره تزدریهم أعینهم أی تستقلهم و تستهین بهم.انتهی.

و هذا الفصل من کلامه(ع)إشاره إلی ما کان یعتقده الملأ الذین کفروا من قومه و بنوا علیه سنه الأشرافیه و طریقه السیاده،و هو أن أفراد الإنسان تنقسم إلی قسمین الأقویاء و الضعفاء،أما الأقویاء فهم أولوا الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العده،و أما الضعفاء فهم الباقون.و الأقویاء هم الساده فی المجتمع الإنسانی لهم النعمه و الکرامه،و لأجلهم انعقاد المجتمع،و غیرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحی منافعهم کالرعیه بالنسبه إلی کرسی الحکومه المستبده،و العبید بالنسبه إلی الموالی،و الخدم و العمله بالنسبه إلی المخدومین و النساء بالنسبه إلی الرجال،و بالأخره کل ضعیف بالنسبه إلی القوی المستعلی علیه.

و بالجمله کان معتقدهم أن الضعیف فی المجتمع إنسان منحط أو حیوان فی صوره إنسان إنما یرد داخل المجتمع و یشارکهم فی الحیاه لیستفید الشریف من عمله و ینتفع من کد یمینه لحیاته من غیر عکس بل هو محروم من الکرامه مطرود عن حظیره الشرافه آیس من الرحمه و العنایه.

فهذا هو الذی کانوا یرونه و کان هو المعتمد علیه فی مجتمعهم،و قد رد نوح (ع)ذلک إلیهم بقوله:« وَ لاَ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّٰهُ خَیْراً ».

ثم بین خطأهم فی معتقدهم بقوله:« اَللّهُ أَعْلَمُ بِما فِی أَنْفُسِهِمْ »أی إن أعینکم إنما تزدریهم و تستحقرهم و تستهین أمرهم لما تحس ظاهر ضعفهم و هوانهم،و لیس هو الملاک فی إحراز الخیر و نیل الکرامه بل الملاک فی ذلک و خاصه الکرامات و المثوبات الإلهیه أمر النفس و تحلیها بحلی الفضیله و المنقبه المعنویه،و لا طریق لی و لا لکم إلی العلم ببواطن النفوس و خبایا القلوب إلا لله سبحانه فلیس لی و لا لکم أن نحکم بحرمانهم من الخیر و السعاده.

ثم بین بقوله:« إِنِّی إِذاً لَمِنَ الظّالِمِینَ »السبب فی تحاشیه عن هذا القول و معناه أنه قول بغیر علم،و تحریم الخیر علی من یمکن أن یستحقه جزافا من غیر دلیل ظلم لا ینبغی أن یرومه الإنسان فیدخل بذلک فی زمره الظالمین.

و هذا المعنی هو الذی یشیر تعالی إلیه فیما یحکیه من کلام أهل الأعراف یوم القیامه خطابا لهؤلاء الطاغین إذ یقول :«وَ نادی أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً یَعْرِفُونَهُمْ بِسِیماهُمْ قالُوا ما أَغْنی عَنْکُمْ جَمْعُکُمْ وَ ما کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ أَ هؤُلاءِ الَّذِینَ أَقْسَمْتُمْ لا یَنالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَهٍ:» الأعراف:-۴۹.

و فی الکلام أعنی قول نوح(ع):« وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ »إلخ، تعریض لهم أنهم کما کانوا یحرمون علی ضعفاء المجتمع المزایا الحیویه الاجتماعیه کذلک کانوا یحرمون علیهم الکرامه الدینیه و یقولون:إنهم لا یسعدون بدین و إنما یسعد به أشراف المجتمع و أقویاؤهم،و فیه أیضا تعریض بأنهم ظالمون.

و إنما عقب نوح(ع)قوله:« وَ لاٰ أَقُولُ لَکُمْ عِنْدِی خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَیْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّی مَلَکٌ »و هو ینفی فیه جهات الامتیاز التی کانوا یتوقعونها فی الرسول عن نفسه،بقوله:« وَ لاٰ أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَنْ یُؤْتِیَهُمُ اللّهُ خَیْراً »إلخ، مع أنه راجع إلی الضعفاء الذین آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به فی قولهم:

« وَ ما نَری لَکُمْ عَلَیْنا مِنْ فَضْلٍ ».

و توضیحه أن معنی قولهم هذا أن اتباعنا لک و لمن آمن بک من هؤلاء الأراذل إنما یستقیم لفضل یتم لکم علینا و لا نری لکم علینا من فضل أما أنت فلیس معک ما یختص به الرسول من قدره ملکوتیه أو علم بالغیب أو أن تکون

ملكـا منزها من ألواث الماده و الطبيعه،و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الإنسانيه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه:أما أنا فلا أدعى شيئا مما تتوقعون من رسالتى فليست للرسول إلا الرساله و أما هؤلاء الضـعفاء الـذين لهم هوان عنـدكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسـهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضـلا فهو أعلم بأنفسـهم،و ملاك الكرامه الـدينيه و الرحمه الإلـهيه زكاء النفس و سـلامه القلب دون الظاهر الـذى تزدريه أعينكم فلست أقول:لن يؤتيهم الله خيرا،فإنه ظلم يـدخلنى فى زمره الظالمين.

قوله تعالى:« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »كلام ألقوه إلى نوح(ع)بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطـال مـا دعـا إليه من الحق،و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم:« بِمَا تَعِدُنَا » مـا أنـذرهم به فى أول دعوته من عذاب يوم أليم.

و قـد أورد الله سـبحانه قولهم هـذا فصـلا من غير تفريع لأنـهم إنمـا قـالوه بعـد ما لبث فيهم أمـدا بعيـدا يـدعوهم إلى التوحيـد و يخاصـمهم و يحاجهم بفنون الخصام و الحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم و أنار الحق لهم كما يدل عليه قوله تعالى فيما يحكى عنه(ع)فى دعـائه :«قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَ نَهَاراً –Xإلى أن قالX– ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً:» نوح:- ۹ و فى سوره العنكبوت :«فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً:» العنكبوت:-۱۴.

فهـذا الـذى أورده الله من حجـاجه قومه و جوابهم فى شـكل محـاوره واحـده إنما وقع فى مآت من السـنين،و هو كثير النظير فى القرآن الكريم و لا بدع فيه فإن الذى يقتص ذلك هو الله سـبحانه المحيط بالدهر و بكل ما فيه و الذى يسـمعها بالوحى هو النبى ص و قد أوتى من سعه النظر ما يجتمع عنده أشتات الأمم و أطراف الزمان.

و المعنى-و الله أعلم-يا نوح قـد جادلتنا فأكثرت جـدالنا حتى سـئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعـدنا من العـذاب،و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل يؤيسونه من أنفسهم فى الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل

الداعی الآیس من السمع و الطاعه و هو الشر الذی یهددهم به و یذکره وراء نصحه.

قوله تعالی:« قٰالَ إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ »لما کان قولهم:« فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا »إلخ،طلبا منه أن یأتیهم بالعذاب و لیس ذلک إلیه فإنما هو رسول،أجاب عن اقتراحهم هذا أیضا-فی سیاق قصر القلب-أن الإتیان بالعذاب لیس إلی بل إنما هو إلی الله فهو الذی یملک أمرکم فیأتیکم بالعذاب الذی وعدتکموه بأمره فهو ربکم و إلیه مرجع أمرکم کله،و لا یرجع إلی من أمر التدبیر شیء حتی أن وعدی إیاکم بالعذاب و اقتراحکم علی بطلبه لا یؤثر فی ساحه کبریائه شیئا فإن یشأ یأتکم به و أن لم یشأ فلا.

و من هنا یظهر أن قوله(ع):« إِنْ شٰاءَ »من ألطف القیود فی هذا المقام أفید به حق التنزیه و هو أن الله سبحانه لا یحکم فیه شیء و لا یقهره قاهر یفعل ما یشاء و لا یفعل ما یشاء غیره نظیر ما سیأتی فی آخر السوره من الاستثناء فی قوله :

«خٰالِدِینَ فِیهٰا مٰا دٰامَتِ السَّمٰاوٰاتُ وَ الْأَرْضُ إِلاّٰ مٰا شٰاءَ رَبُّکَ عَطٰاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ:» هود:-۱۰۸.

و قوله:« وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ »تنزیه آخر لله سبحانه و هو مع ذلک جواب عن الأمر التعجیزی الذی ألقوه إلیه(ع)فإن ظاهره أنهم لا یعبئون بما هددهم به من العذاب کأنهم معجزون لا یقدر علیهم.

قوله تعالی:« وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ إِنْ کٰانَ اللّٰهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ »إلخ،قال فی المفردات،: النصح تجری فعل أو قول فیه صلاح صاحبه -قال-و هو من قولهم نصحت له الود أی أخلصته و ناصح العسل خالصه أو من قولهم:نصحت الجلد خطته و الناصح الخیاط و النصاح الخیط.

و قال أیضا: الغی جهل من اعتقاد فاسد،و ذلک أن الجهل قد یکون من الإنسان غیر معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا،و قد یکون من اعتقاد شیء فاسد، و هذا النحو الثانی یقال له غی قال تعالی: مٰا ضَلَّ صٰاحِبُکُمْ وَ مٰا غَویٰ ،و قال:

وَ إِخْوٰانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ .انتهی.

و علی هذا فالفرق بین الإغواء و الإضلال أن الإضلال إخراج من الطریق مع

بقاء المقصد فی ذکر الضال،و الإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذکره لاشتغاله بغیره جهلا.

و الإراده و المشیه کالمترادفتین،و هی من الله سبحانه تسبیب الأسباب المؤدیه لوجود شیء بالضروره فکون الشیء مرادا له تعالی أنه تمم أسباب وجوده و أکملها فهو کائن لا محاله،و أما أصل السببیه الجاریه فهی مراده بنفسها و لذا قیل:خلق الله الأشیاء بالمشیه و المشیه بنفسها.

و بالجمله قوله:« وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی »إلخ،کأحد شقی التردید و الشق الآخر قوله:« وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ »کأنه(ع)یقول:أمرکم إلی الله إن شاء أن یعذبکم أتاکم بالعذاب و لا یدفع عذابه و لا یقهر مشیته شیء فلا أنتم معجزوه،و لا نصحی ینفعکم إن أردت أن أنصح لکم بعد ما أراد الله أن یغویکم لتکفروا به فیحق علیکم کلمه العذاب،و قید نصحه بالشرط لأنهم لم یکونوا یسلمون له أنه ینصحهم.

و الإغواء کالإضلال و إن لم یجز نسبته إلیه تعالی إذا کان إغواء ابتدائیا لکنه جائز إذا کان بعنوان المجازاه کان یعصی الإنسان و یستوجب به الغوایه فیمنعه الله أسباب التوفیق و یخلیه و نفسه فیغوی و یضل عن سبیل الحق قال تعالی :«یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً وَ مٰا یُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفٰاسِقِینَ:» البقره:-۲۶.

و فی الکلام إشاره إلی أن نزول عذاب الاستئصال علیهم مسبوق بالإغواء الإلهی کما یلوح إلیه قوله تعالی :«وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَهً أَمَرْنٰا مُتْرَفِیهٰا فَفَسَقُوا فِیهٰا فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِیراً:» إسراء:-۱۶،و قال :«وَ قَیَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَیَّنُوا لَهُمْ مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ:» حم السجده:-۲۵.

و قوله:« هُوَ رَبُّکُمْ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ »تعلیل لقوله:« وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی » إلخ،أو لقوله:« إِنَّمٰا یَأْتِیکُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شٰاءَ -إلی قوله- یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ » جمیعا و محصله أن أمر تدبیر العباد إلی الرب الذی إلیه یرجع الأمور،و الله سبحانه هو ربکم و إلیه ترجعون فلیس لی أن آتیکم بعذاب موعود،و لیس لکم أن تعجزوه إن شاء أن یأتیکم بالعذاب فأتاکم به لاستئصالکم و لیس لنصحی أن ینفعکم إن أراد هو أن یغویکم لیعذبکم.

و قد ذكروا فى قوله:« إِنْ كٰانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »وجوها من التأويل:

منها:أن المعنى يعاقبكم على كفركم،و قد سمى الله تعالى العذاب غيا فى قوله :«فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا:» مريم:-۵۹.

و منهـا:أن المراد إن كـان الله يريـد عقوبه إغوائكم الخلق و إضـلالكم إيـاهم و من عـاده العرب أن يسـمى العقوبه باسم الشـىء المعاقب عليه،و من هذا الباب قوله:

« اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »أى يعـاقبهم على اسـتهزائهم و قوله :«وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّٰهُ:» آل عمران:-۵۴ أى عـذبهم على مكرهم إلى غير ذلك.

و منها:أن الإغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم:

غوى الفصيل إذا فسد من كثره شرب اللبن.

و منهـا:أن قوم نوح كـانوا يعتقـدون أن الله تعالى يضل عباده عن الـدين،و أن ما هم عليه بإراده الله،و لو لا ذلك لغيره و أجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجب لقولهم و الإنكار لذلك أن نصحى لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون.

و أنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الكلام فى غنى من هذه التأويلات.

قـوله تعـالى:« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرٰامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ »أصـل الجرم -على مـا ذكره الراغب فى مفرداتـه-قطـع الثمره مـن الشـجره و أجرم أى صـار ذا جرم،و أسـتعير لكـل اكتسـاب مكروه فـالجرم بضم الجيم و فتحهـا بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصيه.

و الآيه،واقعه موقع الاعتراض،و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته على وثنيه قومه و خاصه ما أورده الله تعالى فى هـذه السوره من احتجاجه أشبه شىء بدعوه النبى ص،و احتجاجه على وثنيه أمته.

و إن شـئت زيـاده تصـديق فى ذلـك فـارجع إلى سوره الأنعام-و هى فى الحقيقه سوره الاحتجاج-و قابل ما حكاه الله تعالى عن نوح فى هـذه السوره ما أمر الله به النبى ص فى تلك السوره بقوله:« قُلْ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزٰائِنُ اللّٰهِ وَ لاٰ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاٰ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ -إلى أن قال -وَ لاٰ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاةِ

وَ الْعَشِيِّ -إلى أن قال -قُلْ لاّ أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ ».

و لك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه ع فى سوره نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج فى سوره الأنعام و فى هذه السوره فتشاهد صدق ما ادعيناه.

و لهذه المشابهه و المناسبه ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح(ع)فى إنذاره قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتهموا النبى ص و رموه بالافتراء على الله،و هو لا ينذرهم و لا يلقى إليهم من الحجج إلا كما أنذر به نوح(ع)و ألقاه من الحجج إلى قومه،و هذا كما ينذر رسول الملك قومه و المتمردين المستنكفين عن الطاعه و يلقى إليهم النصح و يتم عليهم الحجه فيرمونه بأنه مفتر على الملك و لا طاعه و لا وظيفه فيرجع إليهم بالنصح ثانيا،و يذكر لهم قصه رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هو لهم فلم يتبصروا به فهلكوا فحيثما يذكر لهم حججه و مواعظه يبعثه الوجد و الأسف إلى أن يتذكر رميهم إياه بالافتراء فيأسف لذلك قائلا:إنكم ترمونني بالافتراء و لم أذكر لكم إلا ما بثه هذا الرسول فى قومه من كلمه الحكمه و النصيحه لا جرم إن افتريته فعلى إجرامى و لا تقبلوا قولى غير أنى برىء من عملكم.

و قد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباراه ثانيا فى آخر السوره بعد إيراد قصص عده من الرسل حيث قال :«وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الرُّسُلِ مٰا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤٰادَكَ -Xإلى أن قالX- وَ قُلْ لِلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنّٰا عٰامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنّٰا مُنْتَظِرُونَ:» هود:-١٢٢.

و ذكر بعض المفسرين أن الآيه،من تمام القصه و الخطاب فيها لنوح،و المعنى أم يقول قوم نوح افتراه نوح قل يا نوح إن افتريته فعلى إجرامى و أنا برىء مما تجرمون،و على هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبه إلى الخطاب و هذا بعيد عن سياق الكلام غايته.

و فى قوله:« وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمّٰا تُجْرِمُونَ »إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلمات كما فى قوله:« فَعَلَيَّ إِجْرٰامِي »من إثبات الجرم و ذلك أن الذى

ذکر من حجج نوح إن کان من الافتراء کان کذبا من حیث إن نوحا(ع)لم یحتج بهذه الحجج و هی حقه،لکنها من حیث إنها حجج عقلیه قاطعه لا تقبل الکذب و هی تثبت لهؤلاء الکفار إجراما مستمرا فی رفض ما یهدیهم إلیه من الإیمان و العمل الصالح فهم فی خروجهم عن مقتضی هذه الحجج مجرمون قطعا،و النبی ص مجرم لا قطعا بل علی تقدیر أن یکون مفتریا و لیس بمفتر.

(بحث روائی)

فی تفسیر العیاشی،عن ابن أبی نصر البزنطی عن أبی الحسن الرضا(ع)قال:

قال الله فی نوح(ع) وَ لاٰ یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی-إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ-إِنْ کٰانَ اللّٰهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ »قال:الأمر إلی الله-یهدی و یضل.

أقول:قد مر بیانه

و فی تفسیر البرهان،": فی قوله تعالی:«أم یقولون افتراه»الآیه":،الشیبانی فی نهج البیان عن مقاتل قال":إن کفار مکه قالوا:إن محمدا افتری القرآن. قال":

و روی مثل ذلک عن أبی جعفر و أبی عبد الله(ع) .

[سوره هود (۱۱): الآیات ۳۶ الی ۴۹]

اشاره

وَ أُوحِیَ إِلیٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا کٰانُوا یَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اِصْنَعِ اَلْفُلْکَ بِأَعْیُنِنٰا وَ وَحْیِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی اَلَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ یَصْنَعُ اَلْفُلْکَ وَ کُلَّمٰا مَرَّ عَلَیْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ کَمٰا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ یَأْتِیهِ عَذٰابٌ یُخْزِیهِ وَ یَحِلُّ عَلَیْهِ عَذٰابٌ مُقِیمٌ (۳۹) حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ اَلتَّنُّورُ قُلْنَا اِحْمِلْ فِیهٰا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اِثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ اَلْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِیلٌ (۴۰) وَ قٰالَ اِرْکَبُوا فِیهٰا بِسْمِ اَللّٰهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۴۱) وَ هِیَ تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبٰالِ وَ نٰادیٰ نُوحٌ اِبْنَهُ وَ کٰانَ فِی مَعْزِلٍ یٰا بُنَیَّ اِرْکَبْ مَعَنٰا وَ لاٰ تَکُنْ مَعَ اَلْکٰافِرِینَ (۴۲) قٰالَ سَآوِی إِلیٰ جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ اَلْمٰاءِ قٰالَ لاٰ عٰاصِمَ اَلْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اَللّٰهِ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ وَ حٰالَ بَیْنَهُمَا اَلْمَوْجُ فَکٰانَ مِنَ اَلْمُغْرَقِینَ (۴۳) وَ قِیلَ یٰا أَرْضُ اِبْلَعِی مٰاءَکِ وَ یٰا سَمٰاءُ أَقْلِعِی وَ غِیضَ اَلْمٰاءُ وَ قُضِیَ اَلْأَمْرُ وَ اِسْتَوَتْ عَلَی اَلْجُودِیِّ وَ قِیلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۴۴) وَ نٰادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقٰالَ رَبِّ إِنَّ اِبْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ اَلْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ اَلْحٰاکِمِینَ (۴۵) قٰالَ یٰا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ اَلْجٰاهِلِینَ (۴۶) قٰالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّٰ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ اَلْخٰاسِرِینَ (۴۷) قِیلَ یٰا نُوحُ اِهْبِطْ بِسَلاٰمٍ مِنّٰا وَ بَرَکٰاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۴۸) تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَیْبِ نُوحِیهٰا إِلَیْکَ مٰا کُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا فَاصْبِرْ إِنَّ اَلْعٰاقِبَهَ لِلْمُتَّقِینَ (۴۹)

(بیان)

تتمه قصه نوح(ع)و هی تشتمل علی فصول کإخباره(ع)بنزول العذاب علی قومه،و أمره بصنع الفلک،و کیفیه نزول العذاب و هو الطوفان،و قصه ابنه الغریق،و قصه نجاته و نجاه من معه لکنها جمیعا ترجع من وجه إلی فصل واحد و هو فصل القضاء بینه(ع)و بین قومه.

قوله تعالی:« وَ أُوحِيَ إِلىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ » الابتئاس من البؤس و هو حزن مع استکانه.

و قوله:« لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ »إیئاس و إقناط له(ع)من إیمان الکفار من قومه بعد ذلک، و لذلک فرع علیه قوله:« فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ » لأن الداعی إلی أمر إنما یبتئس و یغتم من مخالفه المدعوین و تمردهم ما دام یرجو منهم الإیمان و الاستجابه لدعوته،و أما إذا یئس من إجابتهم فلا یهتم بهم و لا یتعب نفسه فی دعوتهم إلی السمع و الطاعه و الإلحاح علیهم بالإقبال إلیه و لو دعاهم بعدئذ فإنما یدعوهم لغرض آخر کإتمام الحجه و إبراز المعذره.

و علی هذا ففی قوله:« فَلاٰ تَبْتَئِسْ بِمٰا كٰانُوا يَفْعَلُونَ »تسلیه من الله لنوح(ع) و تطیب لنفسه الشریفه من جهه ما فی الکلام من الإشاره إلی حلول حین فصل القضاء بینه و بین قومه،و صیانه لنفسه من الوجد و الغم لما کان یشاهد من فعلهم به و بالمؤمنین به من قومهم من إیذائهم إیاهم فی دهر طویل(مما یقرب من ألف سنه) لبث فیه بینهم.

و یظهر من کلام بعضهم أنه استفاد من قوله:« لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ »أن من کفر منهم فلیس یؤمن بعد هذا الحین أبدا کما أن الذین آمنوا به ثابتون علی إیمانهم دائمون علیه و فیه أن العنایه فی الکلام إنما تعلقت ببیان عدم إیمان الکفار بعد ذلک فحسب و أما إیمان المؤمنین فلم یعن به إلا بمجرد التحقق سابقا و لا دلاله فی الاستثناء علی أزید من ذلک،و أما ثباتهم و دوامهم علی الإیمان فلا دلیل علیه.

و یستفاد من الآیه أولا:أن الکفار لا یعذبون ما کان الإیمان مرجوا منهم فإذا ثبتت فیهم ملکه الکفر و رجس الشرک حق علیهم کلمه العذاب.

و ثانیا:أن ما حکاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله :«وَ قٰالَ نُوحٌ رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبٰادَکَ وَ لاٰ یَلِدُوا إِلاّٰ فٰاجِراً کَفّٰاراً:» نوح:-۲۷ کان واقعا بین قوله:« أَنَّهُ لَنْ یُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِکَ إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ » إلخ،و بین قوله:« وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ -إلی قوله -إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ».

و ذلک لأنه-کما ذکر بعضهم-لا سبیل إلی العلم بعدم إیمان الکفار فی المستقبل من طریق العقل و إنما طریقه السمع بالوحی فهو(ع)علم أولا من وحیه تعالی إلیه أنه لن یؤمن من قومک إلا من قد آمن أن أحدا منهم لا یؤمن بعد ذلک و لا فی نسلهم من سیؤمن بالله ثم دعا علیهم بالعذاب و ذکر فی دعائه ما أوحی إلیه فلما استجاب الله دعوته و أراد إهلاکهم أمره(ع)باتخاذ السفینه و أخبره أنهم مغرقون.

قوله تعالی:« وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنٰا وَ وَحْیِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ » الفلک هی السفینه مفردها و جمعها واحد و الأعین جمع قله للعین و إنما جمع للدلاله علی کثره المراقبه و شدتها فإن الجمله کنایه عن المراقبه فی الصنع.

و ذکر الأعین قرینه علی أن المراد بالوحی لیس هو هذا الوحی أعنی قوله:

« وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ »إلخ،حتی یکون وحیا للحکم بل وحی فی مقام العمل و هو تسدید و هدایه عملیه بتأییده بروح القدس الذی یشیر إلیه أن افعل کذا و افعل کذا کما ذکره تعالی فی الأئمه من آل إبراهیم ع بقوله :«وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءَ الزَّکٰاهِ وَ کٰانُوا لَنٰا عٰابِدِینَ:» الأنبیاء:-۷۳،و قد تقدمت الإشاره إلیه فی المباحث السابقه و سیجیء إن شاء الله فی تفسیر الآیه.

و قوله:« وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا »أی لا تسألنی فی أمرهم شیئا تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحکم حتم و بذلک یظهر أن قوله:« إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »فی محل التعلیل لقوله:« وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی » إلخ،أو لمجموع قوله:« وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنٰا وَ وَحْیِنٰا وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا » و یظهر أیضا أن قوله:« وَ لاٰ تُخٰاطِبْنِی »إلخ،کنایه عن الشفاعه.

و المعنی:و اصنع السفینه تحت مراقبتنا الکامله و تعلیمنا إیاک و لا تسألنی صرف العذاب عن هؤلاء الذین ظلموا فإنهم مقضی علیهم الغرق قضاء حتم لا مرد له.

قوله تعالی:« وَ یَصْنَعُ الْفُلْکَ وَ کُلَّمٰا مَرَّ عَلَیْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ کَمٰا تَسْخَرُونَ »قال فی المجمع،: السخریه إظهار خلاف الإبطان علی وجه یفهم منه استضعاف العقل،و منه التسخیر لتذلیل یکون استضعافا بالقهر،و الفرق بین السخریه و اللعب أن فی السخریه خدیعه و استنقاصا و لا تکون إلا فی الحیوان و قد یکون اللعب بجماد،انتهی.

و قال الراغب فی المفردات،:سخرت منه و استسخرته للهزء منه قال تعالی:

« إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ کَمٰا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »« بَلْ عَجِبْتَ وَ یَسْخَرُونَ »و قیل:رجل سخر -بالضم فالفتح-لمن سخر و سخره-بالضم فالسکون-لمن یسخر منه،و السخریه-بالضم-و السخریه-بالکسر-لفعل الساخر،انتهی.

و قوله:« وَ یَصْنَعُ الْفُلْکَ »حکایه الحال الماضیه یمثل بها ما یجری علی نوح (ع)من إیذاء قومه و قیام طائفه منهم بعد طائفه علی إهانته و الاستهزاء به فی عمل السفینه و صبره علیه فی جنب الدعوه الإلهیه و إقامه الحجه علیهم من غیر أن یفشل و ینثنی.

و قوله:« کُلَّمٰا مَرَّ عَلَیْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ »حال من فاعل یصنع و الملأ هاهنا الجماعه الذین یعبأ بهم،و فی الکلام دلاله علی أنهم کانوا یأتونه و هو یصنع الفلک جماعه بعد جماعه بالمرور علیه ساخرین،و أنه(ع)کان یصنعها فی مرأی منهم و ممر عام.

و قوله:« قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ کَمٰا تَسْخَرُونَ »فی موضع الجواب لسؤال مقدر کان قائلا قال:فما ذا قال نوح(ع)؟فقیل:« قٰالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْکُمْ »و لذا فصل الکلام من غیر عطف.

و لم یقل(ع):إن تسخروا منی فإنی أسخر منکم لیدفع به عن نفسه و عن عصابه المؤمنین به و کأنه کان یستمد من أهله و اتباعه فی ذلک و کانوا یشارکونه فی

عمل السفينه و كانت السخريه تتناولهم جميعا فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحا و من معه فى عمل السفينه بسخريه نوح و رميه(ع)بالخبل و الجنون فيشمل هزؤهم نوحا و من معه و إن كانوا لم يذكروا فى هزئهم إلا نوحا فقط.

على أن الطبع و العاده يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضا كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشره بعضهم ببعض و إن كانت سخريتهم من أتباعه سخريه منه فى الحقيقه لأنه هو الأصل الذى تقوم به الدعوه،و لذا قيل:

« سَخِرُوا مِنْهُ »و لم يقل:سخروا منه و من المؤمنين.

و السخريه و إن كانت قبيحه و من الجهل إذا كانت ابتدائيه لكنها جائزه إذا كانت مجازاه و بعنوان المقابله و خاصه إذا كانت تترتب عليها فائده عقلائيه كإنفاذ العزيمه و إتمام الحجه قال تعالى :«فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ:» التوبه:-٧٩،و يدل على اعتبار المجازاه و المقابله بالمثل فى الآيه قوله:« كَمٰا تَسْخَرُونَ ».

قوله تعالى:« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ » السياق يقضى أن يكون قوله:« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »تفريعا على الجمله الشرطيه السابقه « إِنْ تَسْخَرُوا مِنّٰا فَإِنّٰا نَسْخَرُ مِنْكُمْ »و تكون الجمله المتفرعه هو متن السخريه التى أتى بها نوح(ع)و يكون قوله:« مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ »إلخ،متعلقا بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى:أن تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم:سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟نحن أو أنتم؟و هذه سخريه بقول حق.

و قوله:« مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ »المراد به عذاب الاستئصال فى الدنيا و هو الغرق الذى أخزاهم و أذلهم،و المراد بقوله:« وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذٰابٌ مُقِيمٌ »أى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق،هو عذاب النار فى الآخره،و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذى فى الدنيا و الثانى هو عذاب الآخره هو المقابله و تكرر العذاب-منكرا-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامه.

و ربما أخذ بعضهم قوله:« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »تاما من غير ذكر متعلق العلم و قوله:« مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ »إلخ،ابتداء كلام من نوح و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى:« حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ »إلى آخر الآيه،يقال:

فار القدر يفور فورا و فورانا إذا غلا و اشتد غليانه،و فارت النار إذا اشتعلت و ارتفع لهيبها،و التنور تنور الخبز،و هو مما اتفقت فيه اللغتان:العربيه و الفارسيه أو الكلمه فارسيه فى الأصل.

و فوران التنور نبع الماء و ارتفاعه منه،

و قد ورد فى الروايات: أن أول ما ابتداء الطوفان يومئذ-كان ذلك بتفجر الماء من تنور ،و على هذا فاللام فى التنور للعهد يشار بها إلى تنور معهود فى الخطاب،و يحتمل اللفظ أن يكون كنايه عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم:«حمى الوطيس»إذا اشتد الحرب.

فقوله:« حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ »:أى كان الأمر على ذلك حتى إذا جاء أمرنا أى تحقق الأمر الربوبى و تعلق بهم و فار الماء من التنور أو اشتد غضب الرب تعالى قلنا له كذا و كذا.

و فى التنور أقوال أخر بعيده من الفهم كقول من قال إن المراد به طلوع الفجر و كان عند ذلك أول ظهور الطوفان،و قول بعضهم:إن المراد به أعلى الأرض و أشرفها أى انفجر الماء من الأمكنه المرتفعه و نجود الأرض،و قول آخرين:

إن التنور وجه الأرض هذا.

و قوله:« قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ »أى أمرنا نوحا(ع)أن يحمل فى السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هى الذكر و الأنثى.

و قوله:« وَ أَهْلَكَ إِلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ »أى و احمل فيها أهلك و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم إلا من سبق عليه قولنا و تقدم عليه عهدنا أنه هالك،و كان هذا المستثنى زوجته الخائنه التى يذكرها الله

تعالی فی قوله :«ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما:» التحريم:-١٠.و ابن نوح الذی یذکره الله تعالی فی الآیات التالیه و کان نوح(ع)یری أن المستثنی هو امرأته فحسب حتی بین الله سبحانه أن ابنه لیس من أهله و أنه عمل غیر صالح فعند ذلک علم أنه من الذین ظلموا.

و قوله:« وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاّ قَلِيلٌ »أی و احمل فیها من آمن بک من قومک غیر أهلک لأن من آمن به من أهله أمر بحمله بقوله:« وَ أَهْلَكَ »و لم یؤمن به من القوم إلا قلیل.

فی قوله:« وَ ما آمَنَ مَعَهُ »دون أن یقال:و ما آمن به تلویح إلی أن المعنی:

و ما آمن بالله مع نوح إلا قلیل،و ذلک أنسب بالمقام و هو مقام ذکر من أنجاه الله من عذاب الغرق،و الملاک فیه هو الإیمان بالله و الخضوع لربوبیته،و کذا فی قوله:

« إِلاّ قَلِيلٌ »دون أن یقال إلا قلیل:منهم بلوغا فی استقلالهم إن من آمن کان قلیلا فی نفسه لا بالقیاس إلی القوم فقد کانوا فی نهایه القله.

قوله تعالی:« وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »قرئ مجراها بفتح المیم و هو مجری السفینه و سیرها، و مجراها بضم المیم و هو إجراء السفینه و سیاقها،و مرساها بضم المیم مصدر میمی مرادف الإرساء،و الإرساء الإثبات و الإیقاف،قال تعالی :«وَ الْجِبالَ أَرْساها:» النازعات:-٣٢.

و قوله:« وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها »معطوف علی قوله فی الآیه السابقه:« جاءَ أَمْرُنا » أی حتی إذا قال نوح إلخ،و خطابه لأهله و سائر المؤمنین أو لجمیع من فی السفینه.

و قوله:« بِسْمِ اللّهِ مَجْراها وَ مُرْساها »تسمیه منه(ع)یجلب به الخیر و البرکه لجری السفینه و إرسائها فإن فی تعلیق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور علی اسم الله تعالی و ربطه به صیانه له من الهلاک و الفساد و اتقاء من الضلال و الخسران لما أنه تعالی رفیع الدرجات منیع الجانب لا سبیل للدثور و الفناء و العی و العناء إلیه فما تعلق به مصون لا محاله من تطرق عارض السوء.

فهو(ع)یعلق جری السفینه و إرساءها باسم الله و هذان هما السببان

الظاهران فی نجاه السفینه و من فیها من الغرق،و إنما ینجح هذان السببان لو شملت العنایه الإلهیه من رکبها،و إنما تشمل العنایه بشمول المغفره الإلهیه لخطایا رکابها و الرحمه الإلهیه لهم لینجوا من الغرق و یعیشوا علی رسلهم فی الأرض،و لذلک علل (ع)تسمیته بقوله:« إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ »أی إنما أذکر اسم الله علی مجری سفینتی و مرساها لأنه ربی الغفور الرحیم،له أن یحفظ مجراها و مرساها من الاختلال و التخبط حتی ننجو بذلک من الغرق بمغفرته و رحمته.

و نوح(ع)أول إنسان حکی الله سبحانه عنه التسمیه باسمه الکریم فیما أوحاه من کتابه فهو(ع)أول فاتح فتح هذا الباب کما أنه أول من أقام الحجه علی التوحید،و أول من جاء بکتاب و شریعه و أول من انتهض لتعدیل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنسانی.

و ما قدمناه من معنی قوله:« بِسْمِ اللّهِ مَجْرٰاهٰا وَ مُرْسٰاهٰا »مبنی علی ما هو الظاهر من کون الجمله تسمیه من نوح(ع)و المجری و المرسی مصدرین میمیین و ربما احتمل کونه تسمیه ممن مع نوح بأمره أو کون مجراها و مرساها اسمین للزمان أو المکان فیختلف المعنی.

قال فی الکشاف،فی الآیه:یجوز أن یکون کلاما واحدا و کلامین:فالکلام الواحد أن یتصل باسم الله بارکبوا حالا من الواو بمعنی ارکبوا فیها مسمین الله أو قائلین بسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجری و المرسی للوقت و إما لأنهما مصدران کالإجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف کقولهم:خفوق النجم و مقدم الحاج،و یجوز أن یراد مکانا الإجراء و الإرساء،و انتصابهما بما فی بسم الله من معنی الفعل أو بما فیه من إراده القول.

و الکلامان أن یکون بسم الله مجراها و مرساها جمله من مبتدإ و خبر مقتضبه (۱)أی بسم الله إجراؤها و إرساؤها،یروی أنه کان إذا أراد أن تجری قال:بسم الله

۱- ۱) اقتضاب الکلام ارتجاله و المراد من کون الجمله مقتضبه کونها ابتدائیه أی کونها کلاما ابتدائیا من نوح مقطوعا عما قبله.

فجرت،و إذا أن ترسو قال:بسم الله فرست،و يجوز أن يقحم (۱).الاسم كقوله:ثم اسم السلام عليكما و يراد بالله إجراؤها و إرساءها.

قال:و قرئ مجراها و مرساها (۲)بفتح الميم من جرى و رسى إما مصدرين أو وقتين أو مكانين،و قرأ مجاهد:مجريها و مرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروری المحل صفتين لله.

قوله تعالى:« وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ »الضمير للسفينه،و الموج اسم جنس كتمر أو جمع موجه-على ما قيل-و هی قطعه عظیمه ترتفع عن جمله الماء و فی الآیه إشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل.

قوله تعالى:« وَ نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن أبيه و المؤمنين فی مكان لا يقرب منهم،و لذلك قال:« وَ نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ »و لم يقل:و قال نوح لابنه.

و المعنى:و نادى نوح ابنه و كان ابنه فی مكان منعزل بعيد منهم و قال فی ندائه:

يا بنی-بالتصغير و الإضافه دلاله على الإشفاق و الرحمه-اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم فی البلاء كما شاركتهم فی الصحبه و عدم ركوب السفينه، و لم يقل(ع):و لا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن إلا باللفظ،و لذلك دعاه إلى الركوب.

قوله تعالى:« قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ »إلخ،قال الراغب: المأوى مصدر أوى يأوى أويا و مأوى تقول:أوى إلى كذا:انضم إليه يأوى أويا و مأوى و آواه غيره يؤويه إيواء،انتهى.

و المعنى:قال ابن نوح مجيبا لأبيه رادا لأمره:سأنضم إلى جبل يعصمنی

---

۱ - ۱) التقحيم إدخال الكلمه بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف إليه و المراد كون الاسم معترضا بين«ثم»و«السلام»و كذا بين الباء و لفظ الجلاله فی قوله:بسم اللّه

۲- ۲) قراءه مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب إلى ابن محيصن.

و يقينى من الماء فلا أغرق،قال نوح:لا عاصم اليوم-و هو يوم اشتد غضب الله و قضى بالغرق لأهل الأرض إلا من التجأ منهم إلى الله-من الله لا جبل و لا غيره، و حال بين نوح و ابنه الموج فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموج بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و فى الكلام إشاره إلى أن أرضهم كانت أرضا جبليه لا مئونه زائده فى صعود الإنسان إلى بعض جبال كانت هناك.

قوله تعالى:« وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَ غِيضَ الْمَاءُ وَ قُضِىَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » البلع إجراء الشىء فى الحلق إلى الجوف،و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله،و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها و هو كالنشف يقال:غاضت الأرض الماء أى نقصته.

و الجودى مطلق الجبل و الأرض الصلبه،و قيل:هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى إلى أرمينيه و هى المسماه«آرارات».

و قوله:« وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِى »نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرح باسم قائله و هو الله عز اسمه للتعظيم،و الأمر تكوينى تحمله كلمه«كن»الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها،و أن تكف السماء عن أمطارها.

و فيه دلاله على أن الأرض و السماء كانتا مشتركتين فى إطغاء الماء بأمر الله كما يبينه قوله تعالى :«فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ:» القمر:-١٢.

و قوله:« وَ غِيضَ الْمَاءُ »أى نقص الماء و نشف عن ظاهر الأرض و انكشف البسيط،و ذلك إنما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات،و انتشاف ما على سائر البسيطه.

و قوله:« وَ قُضِىَ الْأَمْرُ »أى أنجز ما وعد لنوح(ع)من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى بغرقهم و تطهر الأرض منهم أى كان ما قيل له كن كما قيل

فقضاء الأمر كما يقال على جعل الحكم و إصداره كذلك يقال على إمضائه و إنفاذه و تحقيقه فى الخارج،غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و إنفاذه واحد،و إنما الاختلاف بحسب التعبير.

و قوله:« وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ »أى استقرت السفينه على الجبل أو على جبل الجودى المعهود،و هو إخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من أمر الطوفان.

و قوله:« وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ »أى قال الله عز اسمه:بعدا للقوم الظالمين أى ليبعدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته و طردهم عن دار كرامته،و الكلام فى ترك ذكر فاعل« قِيلَ »هاهنا كالكلام فيه فى« قِيلَ »السابق.

و الأمر أيضا فى قوله:« بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ »كالأمرين السابقين:« يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي »تكوينى فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدى إلى خزيهم فى الدنيا و خسرانهم فى الآخره،و إن كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعى لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهى بالإيمان و العمل،و كونه جزاء لهم على استكبارهم و استعلائهم على الله عز و جل.

و للصفح عن ذكر الفواعل فى قوله:« وَ قِيلَ يا أَرْضُ »إلخ،و قوله:« وَ قُضِيَ الْأَمْرُ »و قوله:« وَ قِيلَ بُعْداً »إلخ،فى الآيه وجه آخر مشترك و هو أن هذه الأمور العظيمه الهائله المدهشه لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذى لا شريك له فى أمره فلا يذهب الوهم إلى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر.

و لمثل هذه النكته حذف فاعل« غِيضَ الْماءُ »و هو الأرض،و فاعل« اِسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ »و هو السفينه،و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح،و لا الناجون بأنهم نوح(ع)و من معه فى السفينه فإن الآيه بلغت فى بلاغتها العجيبه من حيث سياق القصه مبلغا ليس فيه إلا سماء تنزل أمطارها،و أرض انفجرت بعيونها و انغمرت بالماء و سفينه تجرى فى أمواجه،و أمر مقضى،و قوم ظالمون هم قوم نوح و أمر إلهى بوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض،و لو استقر شىء و استوى فإنما هى السفينه تستقر على الأرض كما أنه لو قيل:يا أرض ابلعى ماءك و يا سماء أقلعى

و قیل:بعدا للقوم الظالمین فإنما القائل هو الله عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضی علیهم بالعذاب،و لو قیل:قضی الأمر فإنما القاضی هو الله سبحانه،و الأمر هو ما وعده نوحا و نهاه أن یراجعه فی ذلک و هو أنهم مغرقون،و لو قیل للسماء:أقلعی بعد ما قیل للأرض:ابلعی ماءک فإنما یراد إقلاعها و إمساکها ماءها.

ففی الآیه الکریمه اجتماع عجیب من أسباب الإیجاز و توافق لطیف فیما بینها کما أن الآیه واقفه علی موقف عجیب من بلاغه القرآن المعجزه یبهر العقول و یدهش الألباب و إن کانت الآیات القرآنیه کلها معجزه فی بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البیان فغاصوا لجی بحرها و أخرجوا ما استطاعوا نیله من لئالیها،و ما هو-و قد اعترفوا بذلک-إلا کغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالی:« وَ نٰادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقٰالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحٰاکِمِینَ »دعاء نوح(ع)لابنه الذی تخلف عن رکوب السفینه و قد کان آخر عهده به یوم رکب السفینه فوجده فی معزل فناداه و أمره برکوب السفینه فلم یأتمر ثم حال بینهما الموج فوجد نوح(ع)و هو یری أنه مؤمن بالله من أهله و قد وعده الله بإنجاء أهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء کما یدل علیه قوله تعالی:

« وَ نٰادیٰ نُوحٌ رَبَّهُ »و لم یقل:سأل أو قال أو دعا،و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذی اشتد به الضر و هاج به الوجد أمر طبعی.و الدعاء أعنی نداء نوح(ع)ربه فی ابنه و إن ذکر فی القصه بعد ذکر إنجاز غرق القوم و ظاهره کون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلک لکن مقتضی ظاهر الحال أن یکون النداء بعد حیلوله الموج بینهما و علی هذا فذکره بعد ذکر انقضاء الطوفان إنما هو لمکان العنایه ببیان جمیع ما فی القصه من الهیئه الهائله فی محل واحد لتکمیل تمثیل الواقعه ثم الأخذ ببیان بعض جهاته الباقیه.

و قد کان(ع)رسولا أحد الأنبیاء أولی العزم عالما بالله عارفا بمقام ربه بصیرا بموقف نفسه فی العبودیه، و الظرف ظهرت فیه آیه الربوبیه و القهر الإلهی

أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا و أهلها،و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد،فأخذ نوح(ع)يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ(ع)-على ما يقتضيه أدب النبوه-على أن يسأل ما يريده من نجاه ابنه بالتصريح،بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر،و ابتدر بذكر ما وعده الله من نجاه أهله حين أمره أن يجمع الناجين معه فى السفينه فقال له:« اِحْمِلْ فِيهٰا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ ».

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح(ع)مؤمنا لم يدعه البته إلى ركوب السفينه فهو(ع) الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله:« رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً »فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه إذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤديا إلى الكفر و إنما هى معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال(ع):« رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » فذكر وعد ربه و ضم إليه أن ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلاله« رَبِّ » على الاسترحام،و دلاله الإضافه فى« اِبْنِي »على الحجه فى قوله:« مِنْ أَهْلِي » و دلاله التأكيد بإن و لام الجنس فى قوله:« وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ »على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان:« إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي »« وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ »ينتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه(ع)لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديه فلا حكم إلا لله بل سلم الحكم الحق و القضاء الفصل إلى الله سبحانه فقال:« وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحٰاكِمِينَ ».

فالمعنى:رب إن ابنى من أهلى،و إن وعدك حق كل الحق،و إن ذلك يدل على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحق إليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه(ع)يستوضح ما هو حقيقه الأمر و لم يذكر نجاه ابنه و لا زاد على هذا الذى حكاه الله عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى:« قٰالَ يٰا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ فَلاٰ تَسْئَلْنِ

مٰا لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ

»إلخ.بين سبحانه لنوح(ع)وجه الصواب فيما ذكره بقوله:

« إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ »إلخ،و هو يستوجب به نجاه ابنه فقال تعالی:

« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِکَ »فارتفع بذلک أثر حجته.

و المراد بكونه ليس من أهله-و الله أعلم-أنه ليس من أهله الـذين وعده الله بنجاتهم لأن المراد بالأهل فی قوله:« وَ أَهْلَکَ إِلاّٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ »الأهـل الصالحون،و هو ليس بصالـح و إن كان ابنه و من أهله بمعنی الاختصاص،و لـذلک علل قوله:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِکَ »بقوله:« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ ».

فـإن قلت:لاـزم ذلک أن يكون امرأته الكافره من أهله لأنها إنما خرجت من الحكم بالاسـتثناء و هی داخله موضوعا فی قوله:« وَ أَهْلَکَ »و يكون ابنه ليس من أهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد.

قلت:المراد بالأهـل فی قوله:« وَ أَهْلَکَ إِلاّٰ مَنْ سَـبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ »هم الأهل بمعنی الاختصاص و بالمستثنی-من سبق عليه القول-غير الصالحين و مصـداقه امرأته و ابنه هـذا، و أما الأهل الواقع فی قوله هذا:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِکَ »فهم الصالحون من المختصـين به(ع)طبقـا لمـا وقع فی قوله:« رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی »فإنه (ع)لا يريـد بالأهل فی قوله هـذا غير الصالحين من أولی الاختصاص و إلا شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلک.

فهذا هو الظاهر من معنی الآيه،و يؤيده بعض ما ورد عن أئمه أهل البيت (ع)مما سيأتی فی البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و ذكروا فی تفسير الآيه معان أخر:

منهـا:أن المراد أنه ليس علی دينک فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله.و نسب إلی جماعه من المفسـرين.و فيه أنه فی نفسه معنی لاـ بـأس به إلاـ أنه غير مسـتفاد من سـياق الآـيه لأـن الله سـبحانه ينفی عنه الأـهليه بـالمعنی الـذی كان يثبتها له به نوح(ع)و لم يكن نوح يريـد بأهليته أنه مؤمن غير كافر بل إنما كان يريد أنه أهله بمعنی الاختصاص و الصـلاح و إن كان لازمه الإيمان.اللهم إلا أن يرجع إلی المعنی المتقدم.

و منها:أنه لم يكن ابنه على الحقيقه و إنما ولد على فراشه فقال نوح (ع):إنه ابنى على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك،و نبهه على خيانه امرأته.و ينسب إلى الحسن و مجاهد.

و فيه:أنه على ما فيه من نسبه العار و الشين إلى ساحه الأنبياء(ع)، و الذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم و ينزه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل،أنه ليس مما يدل عليه اللفظ بصراحه و لا ظهور فليس فى القصه إلا قوله:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ »و ليس بظاهر فيما تجرءوا عليه و قوله فى امرأه نوح :«امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كٰانَتٰا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبٰادِنٰا صٰالِحَيْنِ فَخٰانَتٰاهُمٰا:» التحريم:-١٠ و ليس إلا ظاهرا فى أنهما كانتا كافرتين تواليان أعداء زوجيهما و تسران إليهم بأسرارهما و تستنجدانهم عليهما.

و منها:أنه كان ابن امرأته(ع)و كان ربيبه لا ابنه من صلبه.و فيه أنه مما لا دليل عليه من جهه اللفظ.على أنه لا يلائم قوله فى تعليل أنه ليس من أهله:

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ »و لو كان كذلك كان من حق الكلام أن يقال:إنه ابن المرأه.

على أن من المستبعد جدا أن لا يكون نوح(ع)عالما بأنه ربيبه و ليس بابنه حتى يخاطب ربه بقوله:« إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي »أو يكون عالما بذلك و يتكلم بالمجاز و يحتج على ربه العليم الخبير بذلك فينبه أنه ليس ابنه و إنما هو ربيب.

و قوله:« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ »ظاهر السياق أن الضمير لابن نوح(ع) فيكون هو العمل غير الصالح،و عده عملا غير صالح نوع من المبالغه نحو زيد عدل أى ذو عدل،و قولها:فإنما هى إقبال و إدبار،أى ذات إقبال و إدبار.

فالمعنى:إن ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم.و يؤيد هذا المعنى قراءه من قرأ:« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صٰالِحٍ »بالفعل الماضى أى عمل عملا غير صالح.

و ذكر بعضهم:أن الضمير راجع إلى سؤال نوح(ع)المفهوم من قوله:

« رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي »أى إن سؤالك نجاه ابنك عمل غير صالح لأنه سؤال لما ليس لك به علم و لا ينبغى لنبى أن يخاطب ربه بمثل ذلك.

و هو من أسخف التفسير فإنه معنى لا يلائم شيئا من الجملتين المكتنفتين به لا قوله:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ »و لا قوله:« فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »و هو ظاهر،و لو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ »و يتصل بقول نوح(ع).

على أنك عرفت أن قول نوح(ع):« رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی »إلخ،لا يتضمن سؤالا و إنما كان يسوقه-لو جرى فی كلامه-إلى السؤال لكن العنايه الإلهيه حالت بينه و بين السؤال.

و قوله:« فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »كان قول نوح(ع):« رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ »فی مظنه أن يسوقه إلى سؤال نجاه ابنه و هو لا يعلم أنه ليس من أهله فأخذته العنايه الإلهيه،و حال التسديد الغيبی بينه و بين السؤال فأدركه النهی بقوله:« فَلاٰ تَسْئَلْنِ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »بتفريع النهی على ما تقدم أی فإذ ليس من أهلك لكونه عملا غير صالح و أنت لا سبيل لك إلى العلم بذلك فإياك أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم.

و النهی عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه(ع)لا مستقلا و لا فی ضمن قوله:« رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی »لأن النهی عن الشیء لا يستلزم الارتكاب قبلا، و قد قال تعالى :«لاٰ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجاً مِنْهُمْ:» الحجر:- ۸۸ فنهی النبی ص عن حب الدنيا و الافتتان بزينتها و حاشاه عن ذلك.

و إنما يفتقر النهی فی صحه تعلقه بفعل ما أن يكون فعلا اختياريا يمكن أن يبتلی به المكلف،و ما نهی عنه الأنبياء(ع)على هذه الصفه و إن كانوا ذوی عصمه إلهيه و تسديد غيبی،فإن من العصمه و التسديد أن يراقبهم الله سبحانه فی أعمالهم و كلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب و يدعوهم إلى السداد و التزام طريق العبوديه،قال تعالى :«وَ لَوْ لاٰ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْنٰاكَ ضِعْفَ الْحَيٰاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمٰاتِ ثُمَّ لاٰ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنٰا نَصِيراً:» إسراء:-۷۵ فأنبأ تعالى أنه هو الذی ثبته و لم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلا عن نفس الركون.

ص :۲۳۶

و قال تعالى وَ لَوْ لاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً:» النساء:-١١٣.

و من الدليل على أن النهى-« فَلا تَسْئَلْنِ »إلخ-نهى عما لم يقع بعد قول نوح(ع)بعد استماع هذا النهى:« رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ »و لو كان سأل شيئا لقيل:أعوذ بك من سؤالى ذلك ليفيد المصدر المضاف إلى المعمول التحقق و الارتكاب.

و من الدليل أيضا على أنه(ع)لم يسأل ذلك تعقيب قوله:« فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »بقوله:« إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ »فإن معناه: أني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين،و لو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنه سأل ما ليس له به علم.

فإن قلت:إنه تعالى قال:« أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ »أي ممن استقرت فيه صفه الجهل،و استقرارها إنما يكون بالتكرار لا بالمره و الدفعه،و بذلك يعلم أنه سأل ما سأل و تحقق منه الجهل مره و إنما وعظه الله تعالى بما وعظ لئلا يعود إلى مثله فيتكرر منه ذلك فيدخل في زمره الجاهلين.

قلت:زنه الفاعل كجاهل لا تدل على الاستقرار و التكرر و إنما تفيده الصفه المشبهه كجهول على ما ذكروه،و يشهد لذلك قوله تعالى في قصه البقره :«قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ:» البقره:-٦٧،و قوله في قصه يوسف :«وَ إِلاّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ:» يوسف:-٣٣ و قوله خطابا لنبيه(ص) :«وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ:» الأنعام:-٣٥.

و أيضا لو كان المراد من النهى عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع مره لكان الأنسب أن يصرح بالنهى عن العود إلى مثله دون النهى عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى :«إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ - Xإلى أن قالX- يَعِظُكُمُ اللّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً:» النور:-١٧.

قوله تعالی:« قَالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ »لما تبین لنوح(ع)أنه لو ساقه طبع الخطاب الذی خاطب به ربه إلی السؤال کان سائلا ما لیس له به علم و کان من الجاهلین و إن عنایه الله حالت بینه و بین الهلکه،شکر ربه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلک السؤال المخسر فقال:« رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ مٰا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ ».

و الکلام فی الاستعاذه مما لم یقع بعد من الأمور المهلکه و المعاصی الموبقه کالنهی عما لم یقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم لکلام فیه و قد أمر الله نبیه ص بالاستعاذه من الشیطان و هو معصوم لا سبیل للشیطان إلیه،قال تعالی :«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّٰاسِ - Xإلی أن قالX- مِنْ شَرِّ الْوَسْوٰاسِ الْخَنّٰاسِ الَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّٰاسِ:» الناس:-۵ و قال :«وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ:» المؤمنون:-۹۸ و الوحی مصون عن مس الشیاطین کما قال تعالی :«عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسٰالاٰتِ رَبِّهِمْ:» الجن:-۲۸.

و قوله:« وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ کلام صورته صوره التوبه و حقیقته الشکر علی ما أنعم الله علیه من التعلیم و التأدیب.

أما صوره توبته فإن فی ذلک رجوعا إلی ربه تعالی بالاستعاذه و لازمها طلب مغفره الله و رحمته أی ستره علی الإنسان ما فیه زلته و هلاکته و شمول عنایته لحاله و قد تقدم فی أواخر الجزء السادس من الکتاب بیان أن الذنب أعم من مخالفه الأمر التشریعی بل کل وبال و أثر سیئ الإنسان بوجه،و أن المغفره أعم من الستر علی المعصیه المعروفه عند المتشرعه بل کل ستر إلهی یسعد الإنسان و یجمع شمله.

و أما حقیقه الشکر فإن العنایه الإلهیه التی حالت بینه و بین السؤال الذی کان یوجب دخوله فی زمره الجاهلین و عصمته ببیان وجه الصواب کانت سترا إلهیا علی زله فی طریقه و رحمه و نعمه أنعم الله سبحانه بها علیه فقوله(ع):« وَ إِلاّ تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخٰاسِرِینَ »أی إن لم تعذنی من الزلات لخسرت،ثناء و شکر لصنعه الجمیل.

ص :۲۳۸

قوله تعالى:« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ »إلخ، السلام هو السلامه أو التحيه غير أن ذكر مس العذاب فى آخر الآيه يؤيد كون المراد به فى صدرها السلامه من العذاب و كذا تبديل البركه فى آخر الآيه إلى التمتع يدل على أن المراد بالبركات ليس مطلق النعم و أمتعه الحياه بل النعم من حيث تسوق الإنسان إلى الخير و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله:« قِيلَ -و لم يذكر القائل و هو الله سبحانه للتعظيم-يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ »معناه-و الله أعلم-يا نوح انزل مع سلامه من العذاب -الطوفان-و نعم ذوات بركات و خيرات نازله منا عليك أو أنزل بتحيه و بركات نازله منا عليك.

و قوله:« وَ عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ »معطوف على قوله:« عَلَيْكَ »و تنكير أمم يدل على تبعيضهم لأن من الأمم من يذكره تعالى بعد فى قوله:« وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ».

و الخطاب أعنى قوله تعالى:« يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ »إلى آخر الآيه بالنظر إلى ظرف صدوره و ليس وقتئذ متنفس على وجه الأرض من إنسان أو حيوان و قد أغرقوا جميعا و لم يبق منهم إلا جماعه قليله فى السفينه و قد رست و استوت على الجودى،و قد قضى أن ينزلوا إلى الأرض فيعمروها و يعيشوا فيها إلى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها إلى يوم القيامه نظير ما صدر من الخطاب الإلهى يوم أهبط آدم(ع)من الجنه إلى الأرض و قد حكاه الله تعالى فى موضع بقوله :«وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ -Xإلى أن قالX- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ:» البقره:-٣٩ و فى موضع آخر بقوله :«قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ:» الأعراف:-٢٥.

و هذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجه إلى نوح(ع) و من معه من المؤمنين-و إليهم ينتهى نسل البشر اليوم-متعلق بهم و بمن يلحق بهم

من ذراریهم إلی یوم القیامه،و هو یتضمن تقدیر حیاتهم الأرضیه و الإذن فی نزولهم إلیها و استقرارهم فیها و إیوائهم إیاها.

و قد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمین فعبر عن إذنه لطائفه منهم بالسلام و البرکات و هم نوح(ع)و أمم ممن معه،و لطائفه أخری بالتمتیع،و عقب التمتیع بمس العذاب لهم کما کلمتی السلام و البرکات لا تخلوان من بشری الخیر و السعاده بالنسبه إلی من تعلقتا به.

فقد بان من ذلک أن الخطاب بالهبوط فی هذه الآیه مع ما یرتبط به من سلام و برکات و تمتیع موجه إلی عامه البشر من حین هبوط أصحاب السفینه إلی یوم القیامه، و وزانه وزان خطاب الهبوط الموجه إلی آدم و زوجته(ع)،و فی هذا الخطاب إذن فی الحیاه الأرضیه و وعد لمن أطاع الله سبحانه و وعید لمن عصاه کما أن فی ذلک الخطاب ذلک طابق النعل بالنعل.

و ظهر بذلک أن المراد بقوله:« وَ عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ »الأمم الصالحون من أصحاب السفینه و من سیظهر من نسلهم من الصالحین،و الظاهر علی هذا أن یکون « مِمَّنْ »فی قوله« مِمَّنْ مَعَکَ »ابتدائیه لا بیانیه،و المعنی و علی أمم یبتدی تکونهم ممن معک،و هم أصحاب السفینه و الصالحون من نسلهم.

و ظاهر هذا المعنی أن یکون أصحاب السفینه کلهم سعداء ناجین،و الاعتبار یساعد ذلک فإنهم قد محصوا بالبلاء تمحیصا و آثروا ما عند الله من زلفی و قد صدق الله سبحانه إیمانهم مرتین فی أثناء القصه حیث قال عز من قائل :«إِلاّٰ مَنْ قَدْ آمَنَ:» آیه-۳۶ من السوره،و قال :«وَ مَنْ آمَنَ وَ مٰا آمَنَ مَعَهُ إِلاّٰ قَلِیلٌ:» .آیه-۴۰ من السوره و قوله:« وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ »کأنه مبتدأ لخبر محذوف و التقدیر:و ممن معک أمم أو و هناک أمم سنمتعهم إلخ،و قد أخرجهم الله سبحانه من زمره المخاطبین بخطاب الإذن فلم یقل:و متاع لأمم آخرین سیعذبون طردا لهم من موقف الکرامه،فأخبر أن هناک أمما آخرین سنمتعهم ثم نعذبهم و هم غیر مأذون لهم فی التصرف فی أمتعه الحیاه إذن کرامه و زلفی.

و فی الآیه جهات من تعظیم القائل لا تخفی کالبناء للمفعول فی« قِیلَ »و تخصیص نوح

(ع)بخطاب الهبوط و التكلم مع الغير فی قوله:« مِنّا فی موضعین و« سَنُمَتِّعُهُمْ » و غیر ذلک.

و ظهر أیضا:أن ما فسروا به قوله:« عَلیٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ »أن معناه:علی أمم من ذریه من معک لیس علی ما ینبغی مع ما فیه من خروج من معه من الخطاب و کذا قول من قال:یعنی بالأمم سائر الحیوان الذین کانوا معه لأن الله جعل فیهم البرکه.و فساده أظهر.

قوله تعالی:« تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهٰا إِلَیْکَ »أی هذه القصص أو هذه القصه من أنباء الغیب نوحیها إلیک.

و قوله:« مٰا کُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا »أی کانت و هی علی محوضه الصدق و الصحه مجهوله لک و لقومک من قبل هذا،و الذی عند أهل الکتاب منها محرف مقلوب عن وجه الصواب کما سیوافیک ما فی التوراه الحاضره من قصته(ع).

و قوله:« فَاصْبِرْ إِنَّ الْعٰاقِبَهَ لِلْمُتَّقِینَ »أمر منتزع عن تفصیل القصه أی إذا علمت ما آل إلیه أمر نوح(ع)و قومه من هلاک قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنین و قد ورثهم الله الأرض علی ما صبروا،و نصر نوحا علی أعدائه علی ما صبر فاصبر علی الحق فإن العاقبه للمتقین،و هم الصابرون فی جنب الله سبحانه.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور،أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساکر عن ابن عباس قال":

إن نوحا(ع)کان یضرب ثم یلف فی لبد-فیلقی فی بیته یرون أنه قد مات-ثم یخرج فیدعوهم حتی إذا أیس من إیمان قومه- جاءه رجل و معه ابنه و هو یتوکأ علی عصا فقال:یا بنی انظر هذا الشیخ لا یغرنک-قال:یا أبت أمکنی من العصا-ثم

أخذ العصا ثم قال:ضعنى فى الأرض-فوضعه فمشى إليه فضربه فشجه موضحه فى رأسه-و سالت الدماء.

قال نوح(ع):رب قد ترى ما يفعل بى عبادك-فإن يكن لك فى عبادك حاجه فاهدهم،و إن يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم-و أنت خير الحاكمين فأوحى الله إليه-و آيسه من إيمان قومه و أخبره-أنه لم يبق فى أصلاب الرجال و لا فى أرحام النساء مؤمن-قال:يا نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن-فلا تبتئس بما كانوا يفعلون يعنى لا تحزن عليهم-و اصنع الفلك.قال:يا رب و ما الفلك؟قال:

بيت من خشب يجرى على وجه الماء-فأغرق أهل معصيتى و أطهر أرضى منهم.

قال:يا رب و أين الماء؟قال:إنى على ما أشاء قدير.

و فى الكافى،بإسناده عن المفضل قال: كنت عند أبى عبد الله(ع)بالكوفه أيام قدم على أبى العباس-فلما انتهينا إلى الكناسه قال:هاهنا صلب عمى زيد رحمه الله-ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين و هو آخر السراجين-فنزل و قال:انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفه الأول-الذى كان خطه آدم و أنا أكره أن أدخله راكبا.قلت:فمن غيره عن خطته؟قال،أما أول ذلك فالطوفان فى زمن نوح-ثم غيره أصحاب كسرى و النعمان ثم غيره بعد زياد بن أبى سفيان-فقلت:

و كانت الكوفه و مسجدها فى زمن نوح؟فقال لى:نعم يا مفضل-و كان منزل نوح و قومه فى قريه على منزل من الفرات-مما يلى غربى الكوفه.

قال:و كان نوح رجلا نجارا فجعله الله عز و جل نبيا و انتجبه،و نوح أول من عمل سفينه تجرى على ظهر الماء.قال:و لبث نوح فى قومه ألف سنه إلا خمسين عاما-يدعوهم إلى الله عز و جل فيهزءون به و يسخرون منه-فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰافِرِينَ دَيّٰاراً- إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبٰادَكَ وَ لاٰ يَلِدُوا-إِلاّٰ فٰاجِراً كَفّٰاراً ،فأوحى الله عز و جل إلى نوح-أن اصنع سفينه و أوسعها و عجل عملها-فعمل نوح سفينه فى مسجد الكوفه بيده،فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها-

قال المفضل:ثم انقطع حديث أبى عبد الله(ع)عند زوال الشمس-فقام

أبو عبد الله(ع)فصلى الظهر و العصر-ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره- و أشار بيده إلى موضع دار الدارين-و هى موضع دار ابن حكيم و ذلك فرات اليوم- فقال:يا مفضل و هاهنا نصبت أصنام قوم نوح:يغوث و يعوق و نسر.ثم مضى حتى ركب دابته-.

فقلت:جعلت فداك فى كم عمل نوح سفينته؟قال فى:دورين.قلت:و كم الدوران؟قال:ثمانين (1)سنه.قلت:فإن العامه يقولون- عملها فى خمس مائه سنه؟ فقال:كلا.كيف؟و الله يقول:« وَ وَحْيِنا »قال:قلت:فأخبرنى عن قول الله عز و جل:« حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا وَ فٰارَ التَّنُّورُ »فأين كان موضعه؟و كيف كان؟ فقال:كان التنور فى بيت عجوز مؤمنه فى دبر قبله ميمنه المسجد.قلت له:فأين ذلك؟قال:موضع زاويه باب الفيل اليوم.ثم قلت له:و كان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟فقال نعم:إن الله عز و جل أحب أن يرى قوم نوح آيه- ثم إن الله تبارك و تعالى أرسل عليهم المطر-يفيض فيضا و العيون كلهن فيضا فغرقهم الله-و أنجى نوحا و من معه فى السفينه -الحديث.

أقول:و الروايه على طولها غير متعلقه بالتفسير غير أنا أوردناها لتكون كالأنموذجه من روايات كثيره وردت فى هذه المعانى من طرق الشيعه و أهل السنه و لتكون عونا لفهم قصص الآيات من طريق الروايات.

و فى الروايه استفاده التعجيل فى صنع السفينه من قوله تعالى:« وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنٰا وَ وَحْيِنٰا »الآيه،و فى الروايه نسبه زياد إلى أبى سفيان و لعل الوارد فى لفظ الإمام«زياد»فأضيف إليه«ابن أبى سفيان»فى لفظ بعض الرواه.

و فيه،بإسناده عن أبى رزين الأسدى عن أمير المؤمنين(ع)قال: إن نوحا (ع)لما فرغ من السفينه-و كان ميعاده فيما بينه و بين ربه فى إهلاك قومه-أن يفور التنور ففار التنور فى بيت امرأه-فقالت إن التنور قد فار فقام إليه فختمه-فقام الماء و أدخل من أراد أن يدخل-و أخرج من أراد أن يخرج-ثم جاء إلى

1- 1) ثمانون ظ.

خاتمه فنزعه،يقول الله عز و جل: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ- وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ- وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ -.

قال:و كان نجره فى وسط مسجدكم.و لقد نقص عن ذرعه سبعمائه ذراع.

أقول:و كون فوران التنور علامه له(ع)يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع فى عده من روايات الخاصه و العامه و سياق الآيه:« حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ »الآيه،لا يخلو من ظهور فى كونه ميعادا.

و فيه،بإسناده عن إسماعيل الجعفى عن أبى جعفر(ع)قال: كان شريعه نوح أن يعبد الله بالتوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد-و هى الفطره التى فطر الناس عليها-و أخذ الله ميثاقه على نوح و النبيين-أن يعبدوا الله تبارك و تعالى-و لا يشركوا به شيئا-و أمر بالصلاه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الحلال و الحرام،و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرائض مواريث-فهذه شريعته.فلبث فيهم نوح ألف سنه إلا خمسين عاما-يدعوهم سرا و علانيه فلما أبوا و عتوا قال:«رب إنى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ »فأوحى الله عز و جل إليه:« لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاّ مَنْ قَدْ آمَنَ -فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ »فذلك قول نوح:« وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً »فأوحى الله إليه:

« أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ .:

أقول:و رواه العياشى عن الجعفى مرسلا

و ظاهر الروايه أن له(ع)دعاءين على قومه أحدهما و هو أولهما قوله:«رب إنى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ »الواقع فى سوره القمر،و ثانيهما بعد ما أيأسه الله من إيمان قومه و هو قوله:« رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً » الواقع فى سوره نوح.

و فى معانى الأخبار،بإسناده عن حمران عن أبى جعفر(ع): فى قول الله عز و جل« وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاّ قَلِيلٌ »قال:كانوا ثمانيه:

أقول:و رواه العياشى أيضا عن حمران عنه(ع)،

و للناس فى عددهم أقوال أخر:سته أو سبعه أو عشره أو اثنان و سبعون أو ثمانون و لا دليل على شىء منها.

و فى العيون،بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروى قال:قال الرضا(ع):

لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح و ولده و من تبعه ثمانين نفسا-فبنى حيث نزل قريه فسماها قريه الثمانين.

أقول:و لا تنافى بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانيه من أهل نوح(ع) و قد عمر ما يقرب من ألف سنه يومئذ.

و فيه،بإسناده عن الحسن بن على الوشاء عن الرضا(ع)قال:سمعته يقول:

قال أبى:قال أبو عبد الله(ع): إن الله عز و جل قال لنوح:« إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ »لأنه كان مخالفا له،و جعل من اتبعه من أهله.

قال:و سألنى كيف يقرءون هذه الآيه فى ابن نوح؟فقلت:يقرؤها الناس على وجهين:إنه عمل غير صالح،و إنه عمل غير صالح.فقال:كذبوا هو ابنه و لكن الله نفاه عنه-حين خالفه فى دينه.

أقول:و لعله(ع)يشير بقوله: «و جعل من اتبعه من أهله»إلى قوله تعالى «فَنَجَّيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ:» الأنبياء-٧۶.فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه.

و كان المراد من قراءه الآيه تفسيرها و الراوى يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسر الآيه بأن المراد أن امرأه نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه و لذلك قرأ بعضهم:« و نادى نوح ابنها »أو« و نادى نوح ابنه »بفتح الهاء مخفف ابنها و نسبوا القراءتين إلى على و بعض الأئمه من ولده(ع).

قال فى الكشاف،:و قرأ على رضى الله عنه«ابنها»و الضمير لامرأته،و قرأ محمد بن على و عروه بن الزبير«ابنه»بفتح الهاء يريدان«ابنها»فاكتفيا بالفتحه عن الألف و به ينصر مذهب الحسن قال قتاده:سألته فقال:و الله ما كان ابنه فقلت:إن الله حكى عنه« إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي »و أنت تقول:لم يكن ابنه،و أهل الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه!فقال:و من يأخذ دينه من أهل الكتاب؟و استدل بقوله من أهلى و لم يقل:منى.انتهى.

و استدلاله بما استدل به سخيف فإن الله وعده بنجاه أهله و لم يعده بنجاه من

كان منه حتى يضطر إلى قول:إن ابنى منى عند سؤال نجاته،و قد تقدم بيان أن لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه.

و ما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراه ساكته عن قصه ابن نوح هذا الغريق.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف و أبو الشيخ عن على رضى الله عنه: أنه قرأ:«و نادى نوح ابنها».

و فيه،أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على: فى قوله:« وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ »قال هى بلغه طيئ-لم يكن ابنه و كان ابن امرأته.:

أقول:و رواه العياشى فى تفسيره عن محمد بن مسلم عنه(ع) .

و فى تفسير العياشى،عن موسى عن العلاء بن سيابه عن أبى عبد الله(ع): فى قول الله:« وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ »قال ليس بابنه-إنما هو ابن امرأته و هى لغه طيئ- يقولون لابن امرأته:ابنه. الحديث.

و فيه،عن زراره عن أبى جعفر(ع): فى قول نوح:« يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا » قال:ليس بابنه.قال:قلت:إن نوحا قال:يا بنى؟قال:فإن نوحا قال ذلك-و هو لا يعلم.

أقول:و المعتمد ما تقدم من روايه الوشاء عن الرضا(ع).

و فيه،عن إبراهيم بن أبى العلاء عن أحدهما(ع)قال: لما قال الله:

« يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ-وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي »قالت الأرض:إنما أمرت أن أبلع مائى أنا فقط،و لم أومر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها-و بقى ماء السماء فصير بحرا حول الدنيا.

و فيه،عن أبى بصير عن أبى الحسن موسى(ع):فى حديث ذكر فيه الجودى قال: و هو جبل بالموصل.

و فيه،عن المفضل بن عمر عن أبى عبد الله(ع): « اِسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ »هو

فرات الكوفه.

أقول:و يؤيد الروايه السابقه روايات أخر.

و فيه،عن عبد الحميد بن أبى الديلم عن أبى عبد الله(ع)قال: لما ركب نوح(ع)فى السفينه قيل:بعدا للقوم الظالمين.

و فى المجمع،": فى قوله تعالى:« قِيلَ يٰا أَرْضُ ابْلَعِي مٰاءَكِ »الآيه-قال:و يروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضه القرآن-فعكفوا على لباب البر و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوما-لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآيه-فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام،و لا يشبه كلام المخلوقين و تركوا-ما أخذوا فيه و افترقوا.

أبحاث حول قصه نوح فى فصول و هى أبحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه

١-الإشاره إلى قصته:

ذكر اسمه(ع)فى القرآن فى بضع و أربعين موضعا يشار فيها إلى شيء من قصته إجمالا أو تفصيلا،و لم تستوف قصته(ع) فى شيء منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخى بذكر نسبه و بيته و مولده و مسكنه و نشوئه و شغله و عمره و وفاته و مدفنه و سائر ما يتعلق بحياته الشخصيه لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتص تواريخ الناس من بر أو فاجر.

و إنما هو كتاب هدايه يصف للناس ما فيه سعادتهم،و يبين لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا فى حياتهم الدنيا و الآخره،و ربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء و الأمم لتظهر به سنه الله فى عباده،و يعتبر به من شملته العنايه و وفق للكرامه،و تتم به الحجه على الباقين.

و قد فصلت قصه نوح(ع)فى ست من السور القرآنيه و هى سوره الأعراف و سوره هود،و سوره المؤمنون،و سوره الشعراء،و سوره القمر،و سوره نوح

و أكثرها تفصيلا سوره هود التى ذكرت قصته(ع)فيها فى خمس و عشرين آيه (۲۵-۴۹).

۲-قصته(ع)فى القرآن:

بعثه و إرساله:

كان الناس بعد آدم(ع)يعيشون أمه واحده على بساطه و سذاجه،و هم على الفطره الإنسانيه حتى فشا فيهم روح الاستكبار و آل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجيا و اتخاذ بعضهم بعضا أربابا و هذه هى النواه الأصليه التى لو نشأت و اخضرت و أينعت لم تثمر إلا دين الوثنيه و الاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعيه باستخدام القوى للضعيف،و استرقاق العزيز و استدراره للذليل،و حدوث المنازعات و المشاجرات بين الناس.

فشاع فى زمن نوح(ع)الفساد فى الأرض،و أعرض الناس عن دين التوحيد و عن سنه العدل الاجتماعى و أقبلوا على عباده الأصنام،و قد سمى الله سبحانه منها ودا و سواعا و يغوث و يعوق و نسرا(سوره نوح).

و تباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال و الأولاد يضيعون حقوق الضعفاء و الجبابره يستضعفون من دونهم و يحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم(الأعراف هود-نوح).

فبعث الله نوحا(ع)و أرسله إليهم بالكتاب و الشريعه يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه و خلع الأنداد و المساواه فيما بينهم(البقره آيه ۲۱۳)بالتبشير و الإنذار.

دينه و شريعته(ع):

كان(ع)يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه و رفض الشركاء(كما يظهر من جميع قصصه القرآنيه)و الإسلام لله(كما يظهر من سورتى نوح و يونس و سوره آل عمران آيه ۱۹)و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر(كما يظهر من سوره هود آيه ۲۷)و الصلاه(كما يظهر من آيه ۱۰۳ من سوره النساء و آيه ۸ من سوره الشورى)

و المساواه و العداله و أن لا يقربوا الفواحش و المنكرات و صدق الحديث و الوفاء بالعهد(سوره الأنعام آیه ۱۵۱-۱۵۲)و هو(ع)أول من حكى عنه فى القرآن التسميه باسم الله فى الأمور الهامه(سوره هود آیه ۴۱).

اجتهاده(ع)فى دعوته:

و كان(ع)يدعو قومه إلى الإيمان بالله و آياته،و يبذل فى ذلك غايه وسعه فيندبهم إلى الحق ليلا و نهارا و إعلانا و إسرارا فلا يجيبونه إلا بالعناد و الاستكبار و كلما زاد فى دعائهم زادوا فى عتوهم و كفرهم،و لم يؤمن به غير أهله و عده قليله من غيرهم حتى أيس من إيمانهم و شكا ذلك إلى ربه و طلب منه النصر(سوره نوح و القمر و المؤمنون).

لبثه فى قومه:

لبث(ع)فى قومه ألف سنه إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء و السخريه و رميه بالجنون و أنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه(سوره العنكبوت)فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن و عزاه فيهم(سوره هود)فدعا عليهم بالتبار و الهلاك،و أن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم(سوره نوح)فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا و وحينا(سوره هود).

صنعه(ع)الفلك:

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه و تسديده فأخذ فى صنعها و كان القوم يمرون عليه طائفه بعد طائفه فيسخرون منه و هو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء،و يقول(ع): إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (سوره هود)و قد نصب الله لنزول العذاب علما و هو أن يفور الماء من التنور(سورتا هود و المؤمنون).

ص :۲۴۹

نزول العذاب و مجیء الطوفان:

حتی إذا تمت صنعه الفلک و جاء أمر الله و فار التنور أوحی الله تعالی إلیه أن یحمل فی السفینه من کل من الحیوان زوجین اثنین و أن یحمل أهله إلاـ من سبق علیه القول الإلـهی بالغرق و هو امرأته الخائنه و ابنه الذی تخلف عن رکوب السفینه،و أن یحمل الذین آمنوا(سورتا هود و المؤمنون)فلما حملهم و رکبوا جمیعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر و فجر الأرض عیونا فالتقی الماء علی أمر قد قدر(سوره القمر)و علاـ الماء و ارتفعت السفینه علیه و هی تسیر فی موج کالجبال (سوره هود)فأخذ الناس الطوفان و هم ظالمون و قد أمره الله تعالی إذا استوی هو و من معه علی الفلک أن یحمد الله علی ما نجاه من القوم الظالمین و أن یسأله البرکه فی نزوله فیقول: اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِینَ ،و یقول: رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلاً مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ .

قضاء الأمر و نزوله و من معه إلی الأرض:

فلما عم الطوفان و أغرق الناس(کما یظهر من سوره الصافات آیه ۷۷)أمر الله الأرض أن تبلع ماءها و السماء أن تقلع و غیض الماء و استوت السفینه علی جبل الجودی و قیل بعدا للقوم الظالمین،و أوحی إلی نوح(ع)أن اهبط إلی الأرض بسلام منا و برکات علیک و علی أمم ممن معک فلا یأخذهم بعد هذا طوفان عام، و منهم أمم سیمتعهم الله بأمتعه الحیاه ثم یمسهم عذاب ألیم فخرج هو و من معه و نزلوا الأرض یعبدون الله بالتوحید و الإسلام،و توارثت ذریته(ع)الأرض و جعل الله ذریته هم الباقین(سورتا هود و الصافات).

قصه ابن نوح الغریق:

کان نوح(ع)عند ما رکب السفینه لم یرکبها واحد من أبنائه،و کان لا یصدق أباه فی أن من تخلف عنها فهو غریق لا محاله فرآه أبوه و هو فی معزل فناداه:

یا بنی ارکب معنا و لا تکن مع الکافرین فرد علی أبیه قائلا:سآوی إلی جبل یعصمنی من الماء قال نوح(ع):لا عاصم الیوم من الله إلا من رحم-یرید أهل

السفينه-فلم يلتفت الابن إلى قوله و حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

و لم يكن نوح(ع)يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته و لو كان علم ذلك لم يحزنه أمره و هو القائل فى دعائه :«رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاّ فاجِراً كَفّاراً:» XالدعاءX نوح-٢٧ و هو القائل :«فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ:» الشعراء:-١١٨ و قد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه :«وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ:» هود:-٣٧.

فوجد نوح(ع)و حزن فنادى ربه من وجده قائلا:رب إن ابنى من أهلى و إن وعدك الحق وعدتنى بإنجاء أهلى و أنت أحكم الحاكمين لا تجور فى حكمك و لا تجهل فى قضائك،فما الذى جرى على ابنى؟فأخذته العنايه الإلهيه و حالت بينه و بين أن يصرح بالسؤال فى نجاه ابنه-و هو سؤال لما ليس له به علم-و أوحى الله إليه:يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فإياك أن تواجهنى فيه بسؤال النجاه فيكون سؤالا فيما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشف الأمر لنوح(ع)و التجأ إلى ربه تعالى قائلا رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم أسألك أن تشملنى بعنايتك و تستر على بمغفرتك،و تعطف على برحمتك،و لو لا ذلك لكنت من الخاسرين.

٣-خصائص نوح(ع):

هو(ع)أول أولى العزم ساده الأنبياء أرسله الله إلى عامه البشر بكتاب و شريعه فكتابه أول الكتب السماويه المشتمله على شرائع الله،و شريعته أول الشرائع الإلهيه.

و هو(ع)الأب الثانى للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهى أنسابهم و الجميع ذريته لقوله تعالى :«وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ:» الصافات:-٧٧ و هو(ع)أبو الأنبياء المذكورين فى القرآن ما عدا آدم و إدريس(ع)قال تعالى :«وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ:» الصافات:-٧٨.

و هو(ع)أول من فتح باب التشريع و أتى بكتاب و شريعه و كلم الناس

بمنطق العقل و طريق الاحتجاج مضافا إلى طريق الوحى فهو الأصل الـذى ينتهى إليه دين التوحيـد فى العالم فله المنه على جميع الموحـدين إلى يوم القيامه،و لـذلك خصه الله تعالى بسـلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل :«سَلاٰمٌ عَلىٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ:» الصافات:-٧٩.

و قـد اصـطفاه الله على العالمين(آل عمران آيه ٣٣)و عده من المحسنين(الأنعام ٨۴ الصافات ٨٠)و سماه عبدا شكورا(إسراء آيه ٣)و عده من عباده المؤمنين (الصافات ٨١)و سماه عبدا صالحا(التحريم ١٠).

و آخر ما نقل من دعائه قوله :«رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوٰالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ لاٰ تَزِدِ الظّٰالِمِینَ إِلاّٰ تَبٰاراً:» نوح:-٢٨

۴-قصته(ع)فى التوراه الحاضره:

و حدث (١)لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض و ولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات.

فاتخـذوا لأنفسـهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب لا يـدين روحى فى الإنسان إلى الأبد.لزيغانه هو بشـر و تكون أيامه مائه و عشـرين سـنه.كان فى الأرض طغاه فى تلك الأيام.و بعـد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس و ولـدن لهم أولادا هؤلاء هم الجبابره الذين منذ الدهر ذوو اسم.

و رأى الرب أن شـر الإنسان قـد كثر فى الأرض.و أن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شـرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأـرض.و تـأسف فى قلبه.فقـال الرب:أمحـو عـن وجـه الأـرض الإنسـان الـذى خلقته.الإنسـان مع بهـائم و دبابـات و طيـور السماء.لأنى حزنت أنى عملتهم.و أما نوح فوجد نعمه فى عين الرب.

هذه مواليد نوح.كان نوح رجلا بارا كاملا فى أجياله-و سار نوح مع الله.

و ولـد نوح ثلاـثه بنين ساما و حاما و يـافث.و فسـدت الأـرض أمـام الله و امتلأـت الأـرض ظلمـا.و رأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت.إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.

١- ١) الإصحاح السادس من سفر التكوين.

فقال الله لنوح نهايه كل بشر قد أتت أمامى.لأن الأرض امتلأت ظلما منهم.

فها أنا مهلكهم مع الأرض.اصنع لنفسک فلكا من خشب جفر،تجعل الفلک مساکن.و تطليه من داخل و من خارج بالقار.و هكذا تصنعه.ثلاث مائه ذراع يكون طول الفلک و خمسين ذراعا عرضه و ثلاثين ذراعا ارتفاعه.و تصنع كوا للفلک و تكمله إلى حد ذراع من فوق.و تضع باب الفلک فى جانبه.مساکن سفليه و متوسطه و علويه تجعله.فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلک كل جسد فيه روح حياه من تحت السماء.كل ما فى الأرض يموت.و لكن أقيم عهدى معک.

فتدخل الفلک أنت و بنوک و امرأتک و نساء بنيک معک.و من كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلک لاستبقائها معک.تكون ذكرا و أنثى.

من الطيور كأجناسها.و من البهائم كأجناسها و من كل دبابات الأرض كأجناسها.

اثنين من كل تدخل إليک لاستبقائها.و أنت فخذ لنفسک من كل طعام يؤكل و اجمعه عندک.فيكون لک و لها طعاما.ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله.

هكذا فعل.

و قال (۱)الرب لنوح:ادخل أنت و جميع بنيک إلى الفلک.لأنى إياک رأيت بارا لدى فى هذا الجيل.من جميع البهائم الطاهره تأخذ معک سبعه سبعه ذكرا و أنثى.و من البهائم التى ليست بطاهره اثنين ذكر و أنثى.و من طيور السماء أيضا سبعه سبعه ذكرا و أنثى.لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض.لأنى بعد سبعه أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليله.و أمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

و لما كان نوح ابن ستمائه سنه صار طوفان الماء على الأرض.فدخل نوح و بنوه و امرأته و نساء بنيه معه إلى الفلک من وجه مياه الطوفان.و من البهائم الطاهره و البهائم التى ليست بطاهره و من الطيور و كل ما يدب على الأرض.دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلک ذكر و أنثى.كما أمر الله نوحا.

ص :۲۵۳

۱- ۱) الإصحاح السابع من سفر التكوين.

و حدث بعد السبعه الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض.فى سنه ستمائه من حياه نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم و انفتحت طاقات السماء.و كان المطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليله.فى ذلك اليوم عينه دخل نوح و سام و حام و يافث بنو نوح و امرأه نوح و ثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك.هم و كل الوحوش كأجناسها و كل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها و كل الطيور كأجناسها كل عصفور ذى جناح.

و دخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياه.و الداخلات دخلت ذكرا و أنثى من كل ذى جسد كما أمره الله.و أغلق الرب عليه.

و كان الطوفان أربعين يوما على الأرض.و تكاثرت المياه و رفعت الفلك فارتفع عن الأرض.و تعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه.و تعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخه التى تحت كل السماء.خمسه عشره ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال.

فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور و البهائم و الوحوش و كل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض و جميع الناس.كل ما فى أنفه نسمه روح حياه من كل ما فى اليابسه مات.فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض.الناس و البهائم و الدبابات و طيور السماء فانمحت من الأرض.و تبقى نوح و الذين معه فى الفلك فقط.و تعاظمت المياه على الأرض مائه و خمسين يوما.

ثم (۱)ذكر الله نوحا و كل الوحوش و كل البهائم التى معه فى الفلك و أجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه.و انسدت ينابيع الغمر و طاقات السماء فامتنع المطر من السماء.و رجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا و بعد مائه و خمسين يوما نقصت المياه. و استقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط.و كانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر و فى العاشر فى أول الشهر ظهرت رءوس الجبال.

۱- ۱) الإصحاح الثامن سفر التكوين.

و حدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقه الفلك التى كان قد عملها.

و أرسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض.ثم أرسل الحمامه من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض.فلم تجد الحمامه مقرا لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض فمد يده و أخذها و أدخلها عنده إلى الفلك.فلبث أيضا سبعه أيام أخر و عاد فأرسل الحمامه من الفلك.فأتت إليه الحمامه عند المساء و إذا ورقه زيتون خضراء فى فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض.فلبث أيضا سبعه أيام أخر فأرسل الحمامه فلم يعد يرجع إليه أيضا.

و كان فى السنه الواحده و الستمائه فى الشهر الأول فى أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك و نظر فإذا وجه الأرض قد نشف.

و فى الشهر الثانى فى اليوم السابع و العشرين من الشهر جفت الأرض.

و كلم الله نوحا قائلا:اخرج من الفلك أنت و امرأتك و بنوك و نساء بنيك معك.و كل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد الطيور و البهائم و كل الدبابات التى تدب على الأرض أخرجها معك و لتتوالد فى الأرض و تثمر و تكثر على الأرض.

فخرج نوح و بنوه و امرأته و نساء بنيه معه،و كل الحيوانات و كل الدبابات و كل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.

و بنى نوح مذبحا للرب.و أخذ من كل البهائم الطاهره و من كل الطيور الطاهره و أصعد محرقات على المذبح.فتنسم الرب رائحه الرضا و قال الرب فى قلبه:لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته و لا أعود أيضا أميت كل حى كما فعلت.مده كل أيام الأرض زرع و حصاد و برد و حر و صيف و شتاء و نهار و ليل لا يزال.

و بارك الله (1)نوحا و بنيه و قال لهم أثمروا و أكثروا و املئوا الأرض و لتكن خشيتكم و رهبتكم على كل حيوانات الأرض و كل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض و كل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم.كل دابه حيه تكون لكم طعاما

١- ١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

كـالعشب الأخضـر دفعت إليكم الجميع.غير أن لحمـا بجنـابه دمه لاـ تأكلوه.و أطلب أنا دمكم لأنفسـكم فقط من يـد كل حيوان أطلبه و من يـد الإنسـان أطلب نفس الإنسـان من يـد الإنسـان أخيه.سافك دم الإنسان بالإنسان يسـفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان.فأثمروا أنتم و أكثروا و توالدوا فى الأرض و تكاثروا فيها.

و كلم الله نوحـا و بنيه معه قائلاـو هـا أنـا مقيم ميثـاقى معكم و مع نسـلكم من بعـدكم.و مع كل ذوات الأنفس الحيه التى معكم الطيور و البهائم و كل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض.أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسـد أيضا بمياه الطوفان و لا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض.و قال الله هـذه علامه الميثاق الـذى أنا واضـعه بينى و بينكم و بين كل ذوات الأنفس الحيه التى معكم إلى أجيال الدهر.وضـعت قوسى فى السحاب فتكون علامه ميثاق بينى و بين الأرض.فيكون متى أنشـر سـحابا على الأرض و تظهر القوس فى السـحاب.إنى أذكر ميثـاقى الـذى بينى و بينكم و بين كل نفس حيه فى كل جسد فلا يكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد.فمتى كانت القوس فى السـحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله و بين كل نفس حيه فى كل جسد على الأرض.

و قال الله لنوح:هذه علامه الميثاق الذى أنا أقمته بينى و بين كل ذى جسد على الأرض.

و كان بنو نوح الـذين خرجوا من الفلك ساما و حاما و يافث و حام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثه هم بنو نوح و من هؤلاء تشـعبت كل الأرض.

و ابتـدأ نوح يكون فلاحـا و غرس كرمـا.و شـرب من الخمر فسـكر و تعرى داخـل خبائه.فأبصـر حام أبو كنعان عوره أبيه و أخبر أخويه خارجا.فأخـذ سـام و يافث الرداء و وضـعاه على أكتافهما و مشـيا إلى الوراء و سترا عوره أبيهما و وجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عوره أبيهما.

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصـغير.فقال:ملعون كنعان عبـد العبيد يكون لإخوته.و قال:مبارك الرب إله سام و ليكن كنعان عبدا لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام و ليكن كنعان عبدا لهم.

و عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائه و خمسين سنه.فكانت كل أيام نوح تسع مائه و خمسين سنه و مات.انتهى ما قصدنا إيراده.

و هو-كما ترى-يخالف ما جاء فى القرآن الكريم من وجوه:

منها:أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأه نوح بل صرح بدخولها الفلك و نجاتها مع بعلها،و قد اعتذر عنه بعض:أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما و نجت الأخرى.

و منها:أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق و قد قصه القرآن.

و منها:أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح و أهله بل اقتصر عليه و على بنيه و امرأته و نساء بنيه.

و منها:أنه ذكر فيه جمله عمر نوح تسع مائه و خمسين سنه،و ظاهر الكتاب العزيز أنها المده التى لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان.قال تعالى :

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ:» العنكبوت:-١۴.

و منها:ما ذكر فيه من حديث قوس قزح و قصه إرسال الغراب و الحمامه للاستخبار و خصوصيات السفينه من عرضها و طولها و ارتفاعها و طبقاتها الثلاث و مده الطوفان و ارتفاع الماء و غير ذلك فهى خصوصيات لم تذكر فى القرآن الكريم و بعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس،و قد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعانى فى قصه نوح(ع) فى لسان الصحابه و التابعين،و أكثرها بالإسرائيليات أشبه.

۵-ما جاء فى أمر الطوفان فى أخبار الأمم و أساطيرهم:

قال صاحب المنار فى تفسيره،:قد ورد فى تواريخ الأمم القديمه ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلا و منها المخالف له إلا قليلا.

و أقرب الروايات إليه روايه الكلدانيين،و هم الذين وقع الطوفان فى بلادهم

فقد نقل عنهم«برهوشع»و«يوسيفوس»أن«زيزستروس»رأى فى الحلم بعد موت والده«أوتيرت»أن المياه ستطغى و تغرق جميع البشر،و أمره ببناء سفينه يعتصم فيها هو و أهل بيته و خاصه أصدقائه ففعل.و هو يوافق سفر التكوين فى أنه كان فى الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها و أكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان.

و قد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الأجر نقشت فيها هذه الروايه بالحروف المسماريه فى عصر آشور بانيبال من نحو ستمائه و ستين سنه قبل ميلاد المسيح،و أنها منقوله من كتابه قديمه من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهى أقدم من سفر التكوين.

و روى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون و هو أن كهنه المصريين قالوا لسولون-الحكيم اليونانى-إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض فهلك البشر مرارا بطرق مختلفه فلم يبق للجيل الجديد شىء من آثار من قبله و معارفهم.

و أورد«مانيتون»خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذى كان بعد ميناس الأول،و هذا أقدم من تاريخ التوراه أيضا،و روى عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الأرض كلها إلا«دوكاليون»و امرأته«بيرا»فقد نجوا منه.

و روى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد و الشرور بفعل أهريمن إله الشر،و قالوا:إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز(زول كوفه)إذ كانت تخبز خبزها فيه،و لكن المجوس أنكروا عموم الطوفان و قالوا:إنه كان خاصا بإقليم العراق و انتهى إلى حدود كردستان.

و كذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات فى شكل خرافى آخرها أن ملكهم نجا هو و امرأته فى سفينه عظيمه أمره بصنعها إلهه فشنو و سدها بالدسر حتى استوت على جبل جيمافات-هملايا-و لكن البراهمه كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها،و روى تعدد الطوفان عن اليابان و الصين و عن البرازيل و المكسيك و غيرهما،و كل هذه الروايات تتفق فى أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم و شرورهم.انتهى.

و قد (۱)وقع فی«أوستا»و هو کتاب المجوس المقدس أن«أهورا مزدا» أوحی إلی«إیما»(و تعتقد المجوس أنه جمشید الملک)أنه سیقع طوفان یغرق الأرض،و أمره أن یبنی حائطا مرتفعا غایته یحفظ من فی داخله من الغرق،و أن یجمع فی داخله جماعه من الرجال و النساء صالحه للنسل،و یدخل فیه من کل جنس من أجناس الحیوان زوجین اثنین،و یبنی فی داخل السور بیوتا و قبابا فی طبقات مختلفه یسکنها الناس المجتمعون هناک و یأوی إلیها الدواب و الطیور،و أن یغرس فی داخله ما ینفع فی حیاه الناس من الأشجار المثمره،و یحرث ما یرتزق به الناس من الحبوب الکریمه فیحتفظ بذلک ما به حیاه الدنیا و عمارتها.

و فی تاریخ الأدب الهندی (۲)فی قصه الطوفان:أنه بینما کان«مانو» (هو ابن الإله عند الوثنیین)یغسل یدیه إذ جاءت فی یده سمکه،و مما اندهش به أن السمکه کلمته و طلبت إنقاذها من الهلاک و وعدته جزاء علیه أنها ستنقذ «مانو»فی المستقبل من خطر عظیم،و الخطر العظیم المحدق الذی أنبأت به السمکه کان طوفانا سیجرف جمیع المخلوقات و علی ذلک حفظ«مانو»السمکه فی المرتبان.

فلما کبرت أخبرت«مانو»عن السنه التی سیأتی فیها الطوفان ثم أشارت علی مانو أن یصنع سفینه کبیره و یدخل فیها عند طوفان الماء قائله:أنا أنقذک من الطوفان،فمانو صنع السفینه و السمکه کبرت أکثر من سعه المرتبان لذلک ألقاها فی البحر.

ثم جاء الطوفان کما أنبأت السمکه،و حین دخل«مانو»السفینه عامت السمکه إلیه فربط السفینه بقرن علی رأسها فجرتها إلی الجبال الشمالیه،و هنا ربط مانو السفینه بشجره،و عند ما تراجع الماء و جف بقی مانو وحده.انتهی.

۶-هل کانت نبوته ع عامه للبشر؟

مسأله اختلفت فیها آراء العلماء.فالمعروف عند الشیعه عموم رسالته،و قد ورد من طرق أهل البیت(ع)

ص:۲۵۹

۱- ۱) ترجمه کتاب أوستا بالفرنسیه المطبوعه بباریس.

۲- ۲) علی ما فی قصص الأنبیاء لعبد الوهاب النجار.

ما یدل علیه، و علی أن أولی العزم من الأنبیاء و هم نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و محمد(ص)کانوا مبعوثین إلی الناس کافه.

و أما أهل السنه فمنهم من قال بعموم رسالته مستندا إلی ظاهر الآیات الناطقه بشمول الطوفان لأهل الأرض کلهم کقوله :«رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً:» نوح:-۲۶ و قوله :«لاٰ عٰاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ:» هود:-۴۳، و قوله :«وَ جَعَلْنٰا ذُرِّیَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِینَ:» الصافات-۷۷،و ما ورد فی الصحیح من حدیث الشفاعه أن نوحا أول رسول أرسله الله إلی أهل الأرض و لازمه کونه مبعوثا إلیهم کافه.

و منهم من أنکر ذلک مستندا إلی

ما ورد فی الصحیح عن النبی ص:

«و کان کل نبی یبعث إلی قومه خاصه-و بعثت إلی الناس کافه »و أجابوا عن الآیات أنها قابله للتأویل فمن الجائز أن یکون المراد بالأرض هی التی کانوا یسکنونها و هی وطنهم کقول فرعون لموسی و هارون :«وَ تَکُونَ لَکُمَا الْکِبْرِیٰاءُ فِی الْأَرْضِ:» یونس:-۷۸.

فمعنی الآیه الأولی:لا تذر علی هذه الأرض من کافری قومی دیارا،و کذا المراد بالثانیه:لا عاصم الیوم لقومی من أمر الله،و المراد بالثالثه:و جعلنا ذریته هم الباقین من قومه.

و الحق أن البحث لم یستوف حقه فی کلامهم،و الذی ینبغی أن یقال:إن النبوه إنما ظهرت فی المجتمع الإنسانی عن حاجه واقعیه إلیها و رابطه حقیقیه بین الناس و بین ربهم و هی تعتمد علی حقیقه تکوینیه لا اعتباریه جزافیه فإن من القوانین الحقیقیه الحاکمه فی نظام الکون ناموس تکمیل الأنواع و هدایتها إلی غایاتها الوجودیه، و قد قال تعالی :«الَّذِی خَلَقَ فَسَوّٰی وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدیٰ:» الأعلی:-۳،و قال :

«الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ:» طه:-۵۰.

فکل نوع من أنواع الکون متوجه منذ أول تکونه إلی کمال وجوده و غایه خلقه الذی فیه خیره و سعادته،و النوع الإنسانی أحد هذه الأنواع غیر مستثنی من بینها فله کمال و سعاده یسیر إلیها و یتوجه نحوها أفراده فرادی و مجتمعین.

و من الضـروری عنـدنا أن هذا الکمال لا یتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحیویه و کثره الأعمال التی یجب أن یقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملی الذی یبعثه إلی الاسـتفاده من کل ما یمکنه الاسـتفاده منه و استخدام الجماد و أصناف النبات و الحیوان فی سبیل منافعه یبعثه إلی الانتفاع بأعمال غیره من بنی نوعه.

غیر أن الأفراد أمثال و فی کل واحـد منهم من العقل العملی و الشـعور الخاص الإنسانی ما فی الآخر و یبعثه من الانتفاع إلی مثل مـا یبعث إلیه الآـخر مـا عنـده من العقـل العملی،و اضـطرهم ذلک إلی الاجتماع التعاونی بأن یعمل الکل للکل و ینتفع من عمل الغیر بمثل ما ینتفع الغیر من عمله فیتسخر کل لغیره بمقدار ما یسخره کما قال تعال :«نَحْنُ قَسَمْنا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا:» الزخرف:-۳۲.

و هـذا الـذی ذکرنـاه من بنـاء الإنسـان علی الاجتماع التعاونی اضـطراری له ألزمه علیه حاجه الحیاه و قوه الرقباء فهو فی الحقیقه مـدنی تعـاونی بـالطبع الثـانی و إلاـ فطبعه الأـولی أن ینتفع بکـل ما یتیسـر له الانتفاع حتی أعمال أبناء نوعه،و لـذلک مهما قوی الإنسـان و اسـتغنی و استضـعف غیره عـدا علیه و أخـذ یسترق النـاس و یسـتثمرهم من غیر عوض قـال تعـالی :«إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ کَفّارٌ:» إبراهیم:-۳۴ و قال :«إِنَّ الْإِنْسانَ لَیَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی إِنَّ إِلی رَبِّکَ الرُّجْعی:» العلق:-۸.

و من الضـروری أن الاجتماع التعاونی بین الأفراد لا یتم إلا بقوانین یحکم فیها و حفاظ تقوم بها،و هذا مما اسـتمرت سـیره النوع علیه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانیه کاملا کان أو ناقصا،راقیا کان أو منحطا إلا و یجری فیه رسوم و سنن جریانا کلیا أو أکثریا،و التاریخ و التجربه و المشاهـده أعـدل شاهد فی تصدیقه و هذه الرسوم و السـنن و إن شـئت فسـمها القوانین هی مواد و قضایا فکریه تطبق علیها أعمال الناس تطبیقا کلیا أو أکثریا فی المجتمع فینتج سـعادتهم حقیقه أو ظنا فهی أمور متخلله بین کمال الإنسان و نقصه،و أشـیاء متوسـطه بین الإنسـان و هـو فی أول نشـأته و بینه و هو مسـتکمل فی حیـاته عـائش فی مجتمعه تهـدی الإنسان إلی غایه وجوده فافهم ذلک.

و قد علم أن من الواجب فی عنایه الله أن یهدی الإنسان إلی سعاده حیاته و کمال

وجوده على حد ما يهدى سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقه و الفطره إلى ما فيه خيره و سعادته و هو الذى يبعثها إليه نظام الكون و الجهازات التى جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه و يميز خيره من شره و سعادته من شقائه كما قال تعالى :«وَ نَفْسٍ وَ مٰا سَوّٰاهٰا فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهٰا وَ قَدْ خٰابَ مَنْ دَسّٰاهٰا:» الشمس:-١٠.

يهديه بواجب عنايته إلى أصول و قوانين اعتقاديه و عمليه يتم له بتطبيق شئون حياته عليها كماله و سعادته فإن العنايه الإلهيه بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهدايه كما توجب الهدايه التكوينيه المحضه.

و لا يكفى فى ذلك ما جهز به الإنسان من العقل-و هو هاهنا العملى منه- فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام و يدعو إلى الاختلاف،و من المحال أن يفعل شىء من القوى الفعاله فعلين متقابلين و يفيد أثرين متناقضين،على أن المتخلفين من هذه القوانين و المجرمين بأنواع الجرائم المفسده للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به.

فظهر أن هناك طريقا آخر لتعليم الإنسان شريعه الحق و منهج الكمال و السعاده غير طريق التفكر و التعقل و هو طريق الوحى،و هو نوع تكليم إلهى يعلم الإنسان ما يفوز بالعمل به و الاعتقاد له فى حياته الدنيويه و الأخرويه.

فإن قلت:الأمر سواء فإن شرع النبوه لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لأتى به فإن العالم الإنسانى لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل،و لم يقدر الوحى أن يدير المجتمع الإنسانى و يركبه صراط الحق فما هى الحاجه إليه؟ قلت:لهذا البحث جهتان:جهه أن العنايه الإلهيه من واجبها أن تهدى المجتمع الإنسانى إلى تعاليم تسعده و تكمله لو عمل بها و هى الهدايه بالوحى و لا يكفى فيها العقل،و جهه أن الواقع فى الخارج و المتحقق بالفعل ما هو؟و إنما نبحث فى المقام من الجهه الأولى دون الثانيه،و لا يضر بها أن هذه الطريقه لم تجر بين الناس إلى هذه الغايه إلا قليلا.و ذلك كما أن العنايه الإلهيه تهدى أنواع النبات و الحيوان إلى كمال خلقها و غايه وجودها و مع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول

إلى غايته النوعيه و يفسد و يموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعى.

و بالجمله فطريق النبوه مما لا مناص منه فى تربيه النوع بالنظر إلى العنايه الإلهيه و إلا لم تتم الحجه بمجرد العقل لأن له شغلا غير الشغل و هو دعوه الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه،و لو دعاه إلى شىء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فافهم ذلك و أحسن التدبر فى قوله تعالى :«إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ وَ عِيسىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰارُونَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً:» النساء:-۱۶۵.

فمن الواجب فى العنايه أن ينزل الله على المجتمع الإنسانى دينا يدينون به و شريعه يأخذون بها فى حياتهم الاجتماعيه دون أن يخص بها قوما و يترك الآخرين سدى لا عنايه بهم،و لازمه الضرورى أن يكون أول شريعه نزلت عليهم شريعه عامه.

و قد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعه بقوله عز من قائل :«كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّٰاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ:» البقره:-۲۱۳،فبين أن الناس كانوا أول ما نشئوا و تكاثروا على فطره ساذجه لا يظهر فيهم أثر الاختلافات و المنازعات الحيويه ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعه و كتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه،و يحسم ماده الخصومه و النزاع.

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد ص :«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ وَ مٰا وَصَّيْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ:» الشورى:-۱۳.

و مقام الامتنان يقضى بأن الشرائع الإلهيه المنزله على البشر هى هذه التى ذكرت لا غير،و أول ما ذكر من الشريعه هى شريعه نوح،و لو لم يكن عامه للبشر كلهم و خاصه فى زمنه(ع)لكان هناك إما نبى آخر ذو شريعه أخرى لغير قوم نوح و لم يذكر فى الآيه و لا فى موضع آخر من كلامه تعالى،و إما إهمال سائر الناس غير

قومه(ع)فی زمنه و بعده إلی حین.

فقد بان أن نبوه نوح(ع)کانت عامه،و أن له کتابا و هو المشتمل علی شریعته الرافعه للاختلاف،و أن کتابه أول الکتب السماویه المشتمله علی الشریعه، و أن قوله تعالی فی الآیه السابقه« وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتٰابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النّٰاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ »هو کتابه أو کتابه و کتاب غیره من أولی العزم:إبراهیم و موسی و عیسی و محمد ص.

و ظهر أیضا أن ما یدل من الروایات علی عدم عموم دعوته(ع)مخالف للکتاب

و فی حدیث الرضا(ع): أن أولی العزم من الأنبیاء خمسه-لکل منهم شریعه و کتاب و نبوتهم عامه لجمیع من سواهم-نبیا أو غیر نبی ،و قد تقدم الحدیث فی ذیل قوله تعالی :«کٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً:» البقره-۲۱۳،فی الجزء الثانی من الکتاب.

۷-هل الطوفان کانت عامه لجمیع الأرض؟

اشاره

تبین الجواب عن هذا السؤال فی الفصل السابق فإن عموم دعوته(ع)یقضی بعموم العذاب،و هو نعم القرینه علی أن المراد بسائر الآیات الداله بظاهرها علی العموم ذلک کقوله تعالی حکایه عن نوح(ع) :«رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکٰافِرِینَ دَیّٰاراً:» نوح-۲۶،و قوله حکایه عنه :«لاٰ عٰاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ:» هود:-۴۳،و قوله :

«وَ جَعَلْنٰا ذُرِّیَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِینَ:» الصافات:-۷۷.

و من الشواهد من کلامه تعالی علی عموم الطوفان ما ذکر فی موضعین من کلامه تعالی أنه أمر نوحا أن یحمل من کل زوجین اثنین فمن الواضح أنه لو کان الطوفان خاصا بصقع من أصقاع الأرض و ناحیه من نواحیها کالعراق-کما قیل-لم یکن أی حاجه إلی أن یحمل فی السفینه من کل جنس من أجناس الحیوان زوجین اثنین.

و هو ظاهر.

و اختار بعضهم کون الطوفان خاصا بأرض قوم نوح(ع)قال صاحب المنار فی تفسیره،:أما قوله فی نوح(ع)بعد ذکر تنجیته و أهله:« وَ جَعَلْنٰا ذُرِّیَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِینَ »فالحصر فیهم یجوز أن یکون إضافیا أی الباقین دون غیرهم من قومه، و أما

قوله:« وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لاٰ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّاراً »فليس نصا فى أن المراد بالأرض هذه الكره كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء و الأقوام و فى أخبارهم أن تذكر الأرض و يراد بها أرضهم و وطنهم كقوله تعالى حكايه عن خطاب فرعون لموسى و هارون:« وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ »يعنى أرض مصر،و قوله:

« وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا »فالمراد بها مكه،و قوله:

« وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ »و المراد بها الأرض التى كانت وطنهم،و الشواهد عليه كثيره.

و لكن ظواهر الآيات تدل بمعونه القرائن و التقاليد الموروثه عن أهل الكتاب على أنه لم يكن فى الأرض كلها فى زمن نوح إلا قومه و أنهم هلكوا كلهم بالطوفان و لم يبق بعده فيها غير ذريته،و هذا يقتضى أن يكون الطوفان فى البقعه التى كانوا فيها من الأرض سهلها و جبلها لا فى الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسه منها فى ذلك الزمن صغيره لقرب العهد بالتكوين و بوجود البشر عليها فإن علماء التكوين و طبقات الأرض-الجيولوجيه-يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كره ناريه ملتهبه ثم صارت كره مائيه ثم ظهرت فيها اليابسه بالتدريج.

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنا نجد بعض الأصداف و الأسماك المتحجره فى أعالى الجبال و هذه الأشياء مما لا تتكون إلا فى البحر فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها مره من المرات،و لن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض هذا.

و رد عليه بأن وجود الأصداف و الحيوانات البحريه فى قلل الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكون الجبال و غيرها من اليابسه فى الماء كما قلنا آنفا فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدوده لا يكفى لحدوث ما ذكر فيها.

ثم قال ما ملخصه:أن هذه المسائل التاريخيه ليست من مقاصد القرآن و لذلك لم يبينها بنص قطعى فنحن نقول بما تقدم أنه ظاهر النصوص و لا نتخذه عقيده دينيه قطعيه فإن أثبت علم الجيولوجيه خلافه لا يضرنا لأنه لا ينقض نصا

قطعيا عندنا.انتهى.

أقول:أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل، و أما قوله فى رد قولهم بوجود الأصداف و الأسماك فى قلل الجبال:إن صعود الماء إليها فى أيام معدوده لا يكفى فى حدوثها!ففيه أن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمه إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخه فى أيام معدوده غير عزيز.

و بعد ذلك كله قد فاته ما ينص عليه الآيات أنه(ع)أمر أن يحمل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص فى أن الطوفان عم البقاع اليابسه من الأرض جميعا أو معظمها الذى هو بمنزله الجميع.

فالحق أن ظاهر القرآن الكريم-ظهورا لا ينكر-أن الطوفان كان عاما للأرض،و أن من كان عليها من البشر أغرقوا جميعا و لم يقم لهذا الحين حجه قطعيه تصرفها عن هذا الظهور.

[بحث جيولوجى ملحق بهذا الفصل فى فصول]

و قد كنت سألت صديقى الفاضل الدكتور سحابى المحترم أستاذ الجيولوجيا بكليه طهران أن يفيدنى بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجيه فى أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلى فأجابنى بإيفاد مقال محصله ما يأتى مفصلا فى فصول:

۱-الأراضى الرسوبيه:

تطلق الأراضى الرسوبيه فى الجيولوجيا على الطبقات الأرضيه التى كونتها رسوبات المياه الجاريه على سطح الأرض كالبطائح و المسيلات التى غطتها الرمال و دقاق الحصى.

نعرف الأراضى الرسوبيه بما تراكم فيها من الرمال و دقاق الحصى الكرويه المدوره فإنها كانت فى الأصل قطعات من الحجاره حاده الأطراف و الزوايا حولتها إلى هذه الحاله الاصطكاكات الواقعه بينها فى المياه الجاريه و السيول العظيمه ثم إن الماء حملها و بسطها على الأرض فى غايات قريبه أو بعيده بالرسوب.

و ليست تنحصر الأراضى الرسوبيه فى البطائح فغالب الأراضى الترابيه من

هذا القبيل تخالطها أو تكونها رمال بالغه فی الدقه،و قد حملها لدقتها و خفتها إليها جريان المياه و السيول.

نجد الأراضی الرسوبيه و قد غطتها طبقات مختلفه من الرمل و التراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب و نظم،و ذلك-أولا-أماره أن تلك الطبقات لم تتكون فی زمان واحد بعينه و-ثانيا-أن مسير المياه و السيول أو شده جريانها قد تغير بحسب اختلاف الأزمنه.

و يتضح بذلك أن الأراضی الرسوبيه كانت مجاری و مسائل فی الأزمنه السابقه لمياه و سيول هامه و إن كانت اليوم فی معزل من ذلك.

و هذه الأراضی التی تحكی عن جريان مياه كثيره جدا و سيلان سيول هائله عظيمه توجد فی أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضی طهران و قزوين و سمنان و سبزوار و يزد و تبريز و كرمان و شيراز و غيرها،و منها مركز بين النهرين و جنوبه،و ما وراء النهر،و صحراء الشام،و الهند،و جنوب فرنسا، و شرقی الصين،و مصر،و أكثر قطعات أمريكا،و تبلغ صخامه الطبقه الرسوبيه فی بعض الأماكن إلی مئات الأمتار كما أنها فی أرض طهران تجاوز أربعمائه مترا.

و ينتج مما مر أولا:أن سطح الأرض فی عهد ليس بذاك البعيد(علی ما سيأتی توضيحه)كان مجری سيول هائله عظيمه ربما غطت معظم بقاعها.

و ثانيا:أن الطغيان و الطوفان-بالنظر إلی صخامه القشر الرسوبی فی بعض الأماكن-لم يحدث مره واحده و لا فی سنه أو سنين معدوده بل دام أو تكرر فی مئات من السنين كلما حدث مره كون طبقه رسوبيه ثم إذا انقطع غطتها طبقه ترابيه ثم إذا عاد كون أخری و هكذا و كذلك اختلاف الطبقات الرسوبيه فی دقه رمالها و عدمها يدل علی اختلاف السيلان بالشده و الضعف.

۲-الطبقات الرسوبيه أحدث القشور و الطبقات الجيولوجيه:

ترسب الطبقات الرسوبيه عاده رسوبا أفقيا و لكن ربما وقعت أجزاؤها المتراكمه تحت ضغطات جانبيه قويه شديده علی ما بها من الدفع من فوق و من تحت فتخرج بذلك

تـدريجا عن الأـفقيه إلى التـدوير و الاـلتواء،و هـذا غير ظـاهر الأـثر فى الأـزمنه القصـيره المحـدوده لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السـنين ظهر الأثر و تكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتويه بعض تلالها فى بعض و ترتفع بقللها من سطوح البحار.

و يسـتنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبيه و القشور الأفقيه الباقيه على حالها من أحدث الطبقات المتكونه على البسـيط،و الدلائل الفنيه الموجوده تدل على أن عمرها لا يجاوز عشره آلاف إلى خمس عشره ألف سنه من زماننا هذا(۱). (۱)

۳-انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها:

كأن تكون القشور الرسوبيه الجديده عاملا فى انبساط أكثر بحار الكره و اتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها و غطت أكثر سواحلها و عملت جزائر فى السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها.

فمن ذلك جزيره بريطانيه انقطعت فى هـذا الحين من فرنسا و انفصـلت من أوربا بالكليه،و كانت أوربا من ناحيه جنوبها و إفريقا من ناحيه شـمالها مرتبطتين برابط برى إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط(مديترانه)و تكون بذلك شبه جزيره إيطاليا و شـبه جزيره تونس من شـمالها الشرقى و جزائر صقليه و سردينيا و غيرها و كانت جزائر أندونيسيا من ناحيه جاوا و سوماترا إلى جنوبى جزيره اليابان متصـله بآسيا من جهه الجنوب الشرقى إلى هذا الحين فانفصلت و تحولت إلى صورتها الفعليه،و كذا انقطاع أمريكا الشماليه من جهه شمالها عن شمال أوربا أحد الآثار الباقيه من هذا العهد عهد الطوفان.

و للحركـات و التحولاـت الأرضـيه الـداخليه آثـار فى سـير هـذه المياه و اسـتقرارها فى البقاع الخافضه المنحـدره و لـذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحليه المغموره بماء البحار فى حين كان الطوفان مستوليا على أكثر البسيط يكون بحيرات

۱- ۱) و يستثنى من ذلك بعض ما فى أطراف بالتيك و سائر المناطق الشماليه من طبقات رسوبيه أفقيه باقيه على حالها من أقدم العهود الجيولوجيه لجهات مذكوره فى محلها.

و یوسع بحارا،و من هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبیه انکشف عنها ماء الخلیج(۱). (۱)

۴-العوامل المؤثره فی ازدیاد المیاه و غزاره عملها فی عهد الطوفان:

الشواهد الجیولوجیه التی أشرنا إلی بعضها تؤید أن النزولات الجویه کانت غیر عادیه فی أوائل الدور الحاضر من أدوار الحیاه الإنسانیه و هو عهد الطوفان،و قد کان ذلک عن تغیرات جویه هامه خارقه للعاده قطعا.فکان الهواء حارا فی هذه الدوره نسبه لکن کان ذلک مسبوقا ببرد شدید و قد غطی معظم النصف الشمالی من الکره الثلج و الجمد و الجلید فمن المحتمل قویا أن المتراکم من جمد الدوره السابقه علیه کان باقیا لم یذب بعد فی النجود فی أکثر بقاع المنطقه المعتدله الشمالیه.

فعمل الحراره فی سطح الأرض فی دورتین متوالیتین علی ما به من متراکم الجمد و الجلید یوجب تغیرا شدیدا فی الجو و انقلابا عظیما مؤثرا فی ارتفاع بخار الماء إلیه و تراکمه فیه تراکما هائلا غیر عادی و تعقبه نزولات شدیده و أمطار غزیره غیر معهوده.

نزول هذه الأمطار الغزیره الهاطله ثم استدامتها النزول علی الارتفاعات و النجود و خاصه علی سلاسل الجبال الجدیده الحدوث فی جنوب آسیا و مغربها و جنوب أوربا و شمال إفریقا کجبال (۲)ألبرز و هیمالیا و آلب و فی مغرب أمریکا عقب جریان سیول عظیمه هائله علیها تنحت الصخور و تحفر الأرض و تقلع أحجارا و تحملها إلی الأراضی و البقاع المنحدره و تحدث أودیه جدیده و تعمق أخری قدیمه و توسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجاره و الحصی و الرمل تجاهها قشورا رسوبیه جدیده.

و مما کان یمد الطوفان السماوی فی شده عمله و یزید حجم السیول الجاریه أن حفر الأودیه الجدیده کان یکشف عن ذخائر مائیه فی بطن الأرض هی منابع

۱- ۱) و قد کانت مدینه شوش و قصر الکرخه فی زمن الملوک الهخامنشیه بإیران علی ساحل البحر و کانت السفن الشراعیه الجاریه فی خلیج فارس تلقی مراسیها أمام القصر.

۲- ۲) فهی أقل عمرا من سائر جبال الأرض لم تعمر أکثر من ملیونی سنه و لذلک کانت أشهق جبال الأرض و أعلی قللا من غیرها لقله ما ورد علیها من أسباب النحت کالأمطار و الریاح.

الآبـار و العيون الجـاريه فيزيل القشور الحافظه لها المانعه من سـيلانها فيفجر العيون و يجريها مع السـيول المطريه،و يزيـد فى قوه تخريبها و يعينها فى إغراق ما على الأرض من سهل و جبل و غمره.

غير أن الذخائر الأرضـيه متناهيه محدوده تنفد بالسـيلان و بنفادها و إمساك السـماء عن الإمطار ينقضـى الطوفان و تنحدر المياه إلى البحار و الأراضى المنخفضه و إلى بعض الخلاء و السرب الموجود فى داخل الأرض الذى أفرغته السيول بالتفجير و المص.

۵-نتيجه البحث:

و على ما قدمناه من البحث الكلى يمكن أن ينطبق ما قصه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع فى زمن نوح(ع)كقوله تعالى :

«فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ:» القمر:-١٢،و قوله :«حَتّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ:» هود:-۴٠،و قوله :

«وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ:»

.هود:-۴۴ انتهى.

و مما يناسب هـذا المقام ما نشـره بعض جرائد (١)طهران فى هـذه الأيام و ملخصه:أن جماعه من رجال العلم من أمريكا بهـدايه من بعض رجال الجند التركى عثروا فى بعض قلل جبل آراراط فى شرقى تركيا فى مرتفع ١۴٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطى القياس أنها قطعات متلاشيه من سفينه قديمه وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمه ٢۵٠٠ قبل الميلاد.

و القياس يعطى أنها قطعات من سـفينه يعادل حجمه ثلثى حجم مركـب «كوئين مارى»الإنجليزيه التى طولها ١٠١٩ قدما و عرضها ١١٨ قـدما،و قـد حملت الأخشـاب إلى سانفرانسيسـكو لتحقيق أمرهـا و أنهـا هل تقبل الانطباق على ما تعتقـده أرباب النحل من سفينه نوح؟(ع).

٨-عمره(ع)الطويل:

القرآن الكريم يدل على أنه(ع)عمر طويلا،

١- ١) جريده كيهان المنتشره أول سبتامبر ١٩۶٢ المطابق لغره ربيع الأول ١٣٨٢ الهجريه القمريه عن لندن.آسوشتيدبرس.

و أنه دعا قومه ألف سنه إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه،و قد استبعده بعض الباحثين لما أن الأعمار الإنسانيه لا تتجاوز فى الأغلب المائه أو المائه و العشرين سنه حتى ذكر بعضهم أن القدماء كانوا يعدون كل شهر من الشهور سنه فالألف سنه إلا خمسين عاما يعدل ثمانين سنه إلا عشره شهور.و هو بعيد غايته.

و ذكر بعضهم أن طول عمره(ع)كان كرامه له خارقه للعاده،قال الثعلبى فى قصص الأنبياء فى خصائصه(ع):و كان أطول الأنبياء عمرا و قيل له أكبر الأنبياء و شيخ المرسلين،و جعل معجزته فى نفسه لأنه عمر ألف سنه و لم ينقص له سن و لم تنقص له قوه.انتهى.

و الحق أنه لم يقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمر الإنسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب فى الاعتبار أن يعمر البشر الأولى بأزيد من الأعمار الطبيعيه اليوم بكثير لما كان لهم من بساطه العيش و قله الهموم و قله الأمراض المسلطه علينا اليوم و غير ذلك من الأسباب الهادمه للحياه،و نحن كلما وجدنا معمرا عمر مائه و عشرين إلى مائه و ستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقى بعض الأعمار فى السابقين إلى مئات من السنين.

على أن الاعتراض على كتاب الله فى مثل عمر نوح(ع)و هو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقه للعاده شيئا كثيرا لعجيب.و قد تقدم كلام فى المعجزه فى الجزء الأول من الكتاب.

۹-أين هو جبل الجودى:

ذكروا أنه بديار بكر من موصل فى جبال تتصل بجبال أرمينيه،و قد سماه فى التوراه آراراط.قال فى القاموس:و الجودى جبل بالجزيره استوت عليه سفينه نوح(ع)،و يسمى فى التوراه«آراراط»انتهى، و قال فى مراصد الاطلاع؛:الجودى مشدده جبل مطل على جزيره ابن عمر فى شرقى دجله من أعمال الموصل استوت عليه سفينه نوح لما نضب الماء.

[۱۰-شبهه و جوابها]

۱۰-ربما قيل:هب أنه أغرق قوم نوح بذنبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذى على الأرض حيث هلكت بطاغيه المياه؟و هذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك و لو كان عاما عقوبه و انتقاما،و الحوادث العامه التى تهلك الألوف ثم الألوف

مثل الزلازل و الطوفانات و الوباء و الطاعون كثير الوقوع فی الدهر،و لله فيما يقضی حكم.

(كلام فی عباده الأصنام فی فصول)

١-الإنسان و اطمئنانه إلی الحس:

الإنسان يجری فی حياته الاجتماعيه علی اعتبار قانون العليه و المعلوليه الكلی و سائر القوانين الكليه التی أخذها من هذا النظام العام المشهود،و هو علی خلاف ما نشاهده من أعمال سائر الحيوان و أفعاله يجری فی التفكر و الاستدلال أعنی القياس و الاستنتاج إلی غايات بعيده.

و هو مع ذلك لا يستقر فی فحصه و بحثه علی قرار دون أن يحكم فی عله هذا العالم المشهود الذی هو أحد أجزائه بشیء من الإثبات و النفی لما يری أن سعاده حياته التی لا بغيه عنده أحب منها تختلف علی تقديری إثبات هذه العله الفاعله المسماه بالإله عز اسمه و نفيه اختلافا جوهريا فمن البين أن لا مضاهاه بين حياه الإنسان المتأله الذی يثبت للعالم إلها حيا عليما قديرا لا مناص عن الخضوع لعظمته و كبريائه و الجری علی ما يحبه و يرضاه،و بين حياه الإنسان الذی يری العالم سدی لا مبدأ له و لا غايه،و ليس فيه للإنسان إلا الحياه المحدوده التی تفنی بالموت و تبطل بالفوت، و لا موقف للإنسانيه فيه إلا ما للحيوان العجم من موقف الشهوه و الغضب و بغيه البطن و الفرج.

فهذه نزعه فكريه أولی للإنسان إلی الحكم بأنه:هل للوجود من إله؟و تتلوه نزعه ثانيه و هی القضاء الفطری بالإثبات،و الحكم بأن للعالم إلها خلق كل شیء بقدرته و أجری النظام العام بربوبيته فهدی كل شیء إلی غايته و كمال وجوده بمشيته و سيعود كل إلی ربه كما بدئ.هذا.

ثم إن مزاوله الإنسان للحس و المحسوس مدی حياته و انكبابه علی الماده و إخلاده إلی الأرض عوده أن يمثل كل ما يعقله و يتصوره تمثيلا حسيا و إن كان مما لا طريق للحس و الخيال إليه البته كالكليات و الحقائق المنزهه عن الماده علی أن الإنسان إنما ينتقل إلی المعقولات من طريق الإحساس و التخيل فهو أنيس الحس

و أليف الخيال.

و قد قضت هذه العاده اللازمه على الإنسان أن يصور لربه صوره خياليه على حسب ما يألفه من الأمور الماديه المحسوسه حتى أن أكثر الموحدين ممن يرى تنزه ساحه رب العالمين تعالى و تقدس عن الجسميه و عوارضها يثبت فى ذهنه له تعالى صوره مبهمه خياليه معتزله للعالم تبادر ذهنه إذا توجه إليه فى مسأله أو حدث عنه بحديث غير أن التعليم الدينى أصلح ذلك بما قرر من الجمع بين النفى و الإثبات و المقارنه بين التشبيه و التنزيه يقول الموحد المسلم:أنه تعالى شىء ليس كمثله شىء له قدره لا كقدره خلقه،و علم لا كالعلوم و على هذا القياس.

و قل إن يتفق لإنسان أن يتوجه إلى ساحه العزه و الكبرياء و نفسه خاليه عن هذه المحاكاه،و ما أشذ أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلق القلب بمن دونه،و لا ممسوس بالتسويلات الشيطانيه،قال تعالى :«سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ:» الصافات:-١٦٠،و قال حكايه عن إبليس :

«قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ:» ص:-٨٣.

و بالجمله الإنسان شديد الولع بتخيل الأمور غير المحسوسه فى صوره الأمور المحسوسه فإذا سمع أن وراء الطبيعه الجسميه ما هو أقوى و أقدر و أعظم و أرفع من الطبيعه و أنه فعال فيها محيط بها أقدم منها مدبر لها حاكم فيها لا يوجد شىء إلا بأمره و لا يتحول عن حال إلى حال إلا بإرادته و مشيته لم يتلق من جميع ذلك إلا ما يضاهى أوصاف الجسمانيات و ما يتحصل من قياس بعضها إلى بعض.

و كثيرا ما حكاه فى نفسه بصوره إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبر أمر العالم بالتفكر و يتممه بالإراده و المشيه و الأمر و النهى،و قد صرحت التوراه الموجوده بأن الله سبحانه كذلك،و أنه تعالى خلق الإنسان على صورته، و ظاهر الأناجيل أيضا ذلك.

فقد تحصل أن الأقرب إلى طبع الإنسان و خاصه الإنسان الأولى الساذج أن يصنع لربه المنزه عن الشبه و المثل صوره يضاهى بها الذوات الجسمانيه و تناسب

الأوصـاف و النعوت التى يصـفها بهـا كمـا يمثـل الثـالوث بإنسان ذو وجوه ثلاثه كأن كلا من النعوت العامه وجه للرب يواجه به خلقه.

٢-الإقبال إلى الله بالعباده:

إذا قضـى الإنسان أن للعالم إلها خلقه بعلمه و قدرته لم يكن له بد من أن يخضع له خضوع عباده اتباعا للناموس العالم الكونى و هو خضوع الضـعيف للقوى و مطاوعه العاجز للقادر،و تسـليم الصـغير الحقير للعظيم الكبير فإنه ناموس عام جار فى الكون حاكم فى جميع أجزاء الوجود،و به يؤثر الأسباب فى مسبباتها و تتأثر المسببات عن أسبابها.

و إذا ظهر النـاموس المـذكور لـذوات الشـعور و الإـراده من الحيـوان كـان مبـدأ للخضوع و المطـاوعه من الضـعيف للقوى كما نشاهده من حال الحيوانات العجم إذا شعر الضعيف منها بقوه القوى آئسا من الظهور عليه و القدره على مقاومته.

و ظهوره فى العـالم الإنسانى أوسع و أبين من سائر الحيوان لما فى هـذا النوع من عمق الإدراك و خصـيصه الفكر فهو متفنن فى إجرائـه فى غـالب مقاصـده و أعمـاله جلبـا للنفـع أو دفعـا للضـرر كخضـوع الرعيه للسـلطان و الفقير للغنى و المرءوس للرئيس و المأمور للآمر و الخادم للمخدوم و المتعلم للعالم و المحب للمحبوب و المحتاج للمستغنى و العبد للسيد و المربوب للرب.

و جميع هذه الخضوعات من نوع واحد و هو تذلل و هوان نفسانى قبال عزه و قهر مشهود،و العمل البدنى الذى يظهر هذا التذلل و الهوان هى العبـاده أيـا مـا كانت؟و ممن و لمن تحققت؟و لا فرق فى ذلك بين الخضوع للرب تعالى و بينه إذا تحقق من العبد بالنسبه إلى مولاه أو من الرعيه بالنسبه إلى السلطان أو من المحتاج بالنسبه إلى المستغنى أو غير ذلك فالجميع عباده.

و على أى حال لا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع لاستناده إلى قضاء فطرى ليس للإنسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبين له أن الذى كان يظنه قويا و يستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنه بل هما سواء مثلا.

و من هنا ما نرى أن الإسـلام لم ينه عن اتخاذ آلهه دون الله و عبادتهم إلا بعد ما بين للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم،و أن العزه و القوه لله جميعا قال

تعالی :«إِنَّ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ عِبادٌ أَمْثالُکَمْ:» الأعراف:-۱۹۴ و قال :

«وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی الْهُدی لا یَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ وَ هُمْ لا یُبْصِرُونَ:» الأعراف:-۱۹۸ و قال تعالی :«قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ:» آل عمران:-۶۴ ختم الآیه بحدیث التسلیم لله تعالی بعد ما دعاهم إلی ترک عباده غیر الله تعالی من الآلهه و رفض الخضوع لسائر المخلوقین المماثلین لهم و قال تعالی :«أَنَّ الْقُوَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً:» البقره:-۱۶۵، و قال :«فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِیعاً:» النساء:-۱۳۹ و قال :«ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ:» الم السجده:-۴ إلی غیر ذلک من الآیات.

فلیس عند غیره تعالی ما یدعو إلی الخضوع له فلا یسوغ الخضوع لأحد ممن دونه إلا أن یئول إلی الخضوع لله و یرجع تعزیره أو تعظیمه و ولایته إلی ناحیته قال تعالی :«الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ -Xإلی أن قالX- فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ:» الأعراف:- ۱۵۷،و قال :«إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا -Xإلی قولهX- وَ هُمْ راکِعُونَ:» المائده:-۵۵،و قال :«وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ:» التوبه:-۷۱،و قال :«وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ:» الحج:-۳۲،فلا خضوع فی الإسلام لأحد دون الله إلا ما یرجع إلیه تعالی و یقصد به.

۳-کیف نشأت الوثنیه؟

و بما ذا بدأت؟اتضح فی الفصل المتقدم أن الإنسان فی مزله من تجسیم الأمور المعنویه و سبک غیر المحسوس فی قالب المحسوس بالتمثیل و التصویر و هو مع ذلک مفطور للخضوع أمام أی قوه فائقه قاهره و الاعتناء بشأنها.

و لذا کانت روح الشرک و الوثنیه ساریه فی المجتمع الإنسانی سرایه تکاد لا تقبل التحرز و الاجتناب حتی فی المجتمعات الراقیه الحاضره و حتی فی المجتمعات المبنیه علی أساس رفض الدین فتری فیها من النصب و تماثیل الرجال و تعظیمها

و احترامها و البلوغ فی الخضوع لها ما یمثل لک وثنیه العهود الأولی و الإنسان الأولی.

علی أن الیوم من الوثنیه علی ظهر الأرض ما یبلغ مئات الملایین قاطنین فی شرقها و غربها.

و من هنا یتأید بحسب الاعتبار أن تکون الوثنیه مبتدئه بین الناس باتخاذ تماثیل الرجال العظماء و نصب أصنامهم و خاصه بعد الموت لیکون فی ذلک ذکری لهم،و قد ورد فی روایات أئمه أهل البیت ما یؤید ذلک

ففی تفسیر القمی،مضمرا و فی علل الشرائع،مسندا عن الصادق(ع): فی قوله تعالی:« وَ قٰالُوا لاٰ تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ »الآیه،قال:کانوا یعبدون الله عز و جل فماتوا-فضج قومهم و شق ذلک علیهم-فجاءهم إبلیس لعنه الله و قال لهم:أتخذ لکم أصناما علی صورهم-فتنظرون إلیهم و تأنسون بهم و تعبدون الله،فأعد لهم أصناما علی مثالهم فکانوا یعبدون الله عز و جل-و ینظرون إلی تلک الأصنام،فلما جاءهم الشتاء و الأمطار أدخلوا الأصنام البیوت-.

فلم یزالوا یعبدون الله عز و جل حتی هلک ذلک القرن-و نشأ أولادهم فقالوا:

إن آباءنا کانوا یعبدون هؤلاء-فعبدوهم من دون الله عز و جل فذلک قول الله تبارک و تعالی:« وَ لاٰ تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لاٰ سُوٰاعاً »الآیه.

و کان رب البیت فی الروم و الیونان القدیمین- علی ما یذکره التاریخ-یعبد فی بیته فإذا مات اتخذ له صنم یعبده أهل بیته،و کان کثیر من الملوک و العظماء معبودین فی قومهم،و قد ذکر القرآن الکریم منهم نمرود الملک المعاصر لإبراهیم(ع) الذی حاجه فی ربه،و فرعون موسی.

و هو ذا یوجد فی بیوت الأصنام الموجوده الیوم و کذا بین الآثار العتیقه المحفوظه عنهم أصنام کثیر من عظماء رجال الدین کصنم بوذا و أصنام کثیر من البراهمه و غیرهم.

و اتخاذهم أصنام الموتی و عبادتهم لها من الشواهد علی أنهم کانوا یرون أنهم لا یبطلون بالموت و أن أرواحهم باقیه بعده،لها من العنایه و الأثر ما کان فی حال حیاتهم بل هی بعد الموت أقوی وجودا و أنفذ إراده و أشد تأثیرا لما أنها خلصت من

شوب الماده و نجت من التأثرات الجسمانيه و الانفعالات الجرمانيه،و كان فرعون موسى يعبد أصناما له و هو إله و معبود فی قومه،قال تعالی :«وَ قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسیٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ:» الأعراف:-١٢٧.

۴-اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع و غيرهم:

كان اتخاذ تماثيل الرجال هو الذی نبه الناس علی اتخاذ صنم الإله إلا أنه لم يعهد منهم أن يتخذوا تمثالا لله سبحانه المتعالی أن يحيط به حد أو يناله وهم،و كأن هذا هو الذی صرفهم عن اتخاذ صنمه بل تفرقوا فی ذلك فأخذ كل ما يهمه من جهات التدبير المشهود فی العالم فتوسلوا إلی عباده الله بعباده من وكله إلی الله علی تدبير تلك الجهه المعنی بها بزعمهم.

فالقاطنون فی سواحل البحار عبدوا رب البحر لينعم عليهم بفوائدها و يسلموا من الطوفان و الطغيان،و سكان الأوديه رب الوادی،و أهل الحرب رب الحرب،و هكذا.

و لم يلبثوا دون أن اتخذ كل منهم ما يهواه من إله فيما يتوهمه من الصوره و الشكل،و مما يختاره من فلز أو خشب أو حجاره أو غير ذلك حتی روی أن بنی حنيفه من اليمامه اتخذوا لهم صنما من أقط ثم أصابهم جدب و شملهم الجوع فهجموا عليه فأكلوه.

و كان الرجل إذا وجد شجره حسنه أو حجرا حسنا و هواه عبده،و كانوا يذبحون غنما أو ينحرون إبلا فيلطخونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاءوا بها إليه فمسحوها به،و كانوا يتخذون كثيرا من الأشجار أربابا فيتبركون بها من غير أن يمسوها بقطع أو كسر و يتقربون إليها بالقرابين و يأتون إليها بالنذورات و الهدايا.

و ساقهم هذا الهرج إلی أن ذهبوا فی أمر الأصنام مذاهب شتی لا يكاد يضبطها ضابط،و لا يحيط بها إحصاء غير أن الغالب فی معتقداتهم أنهم يتخذونها شفعاء يستشفعون بها إلی الله سبحانه ليجلب إليهم الخير و يدفع عنهم الشر،و ربما أخذها بعض عامتهم معبوده لنفسها مستقله بالألوهيه من غير أن تكون شفعاء و ربما كانوا يتخذونها شفعاء و يقدمونها أو يفضلونها علی الله سبحانه كما يحكيه القرآن فی قوله تعالی :«فَمٰا كٰانَ لِشُرَكٰائِهِمْ فَلاٰ يَصِلُ إِلَی اللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلیٰ شُرَكٰائِهِمْ:»

الآيه،الأنعام:-۱۳۶.

و كان بعضهم يعبد الملائكه و آخرون يعبدون الجن،و قوم يعبدون الكواكب الثابته كشعرى،و طائفه تتخذ بعض السيارات إلها-و قد أشير إلى جميع ذلك فى الكتاب الإلهى-كل ذلك طمعا فى خيرها أو خوفا من شرها.

و قل أن يتخذ إله من دون الله و لا يتخذ له صنم يتوجه إليه فى العبادات به بل كانوا إذا اتخذوا شيئا من الأشياء إلها شفيعا عملوا له صنما من خشب أو حجر أو فلز،و مثلوا به ما يتوهمونه عليه من صوره الحياه فيسوونه فى صوره إنسان أو حيوان و إن كان صاحب الصنم على غير الهيئه التى حكوه بها كالكواكب الثابته و السياره و إله العلم و الحب و الرزق و الحرب و نحوها.

و كان الوجه فى اتخاذ أصنام الشركاء قولهم:إن الإله لتعاليه عن الصوره المحسوسه كأرباب الأنواع و سائر الآلهه غير الماديه أو لعدم ثباته على حاله الظهور كالكوكب الذى يتحول من طلوع إلى غروب يصعب التوجه إليه كلما أريد بالتوجه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله فى صفاته و نعوته فيصمد إليه بوسيلته كلما أريد.

۵-الوثنيه الصابئه.

الوثنيه و إن رجعت-بالتقريب-إلى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء إلى الله و عباده أصنامها و تماثيلها،و لعلها استولت على الأرض و شملت العالم البشرى مرارا كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصره لنوح و إبراهيم و موسى (ع)إلا أن اختلاف المنتحلين بها بلغ من التشتت و اتباع الأهواء و الخرافات مبلغا كان حصر المذاهب الناشئه فيها كالمحال و أكثرها لا تبتنى على أصول متقرره و قواعد منتظمه متلائمه.

و مما يمكن أن يعد منها مذهبا قريبا من الانتظام و التحصل مذهب الصابئه و الوثنيه البرهميه و البوذيه:

أما الوثنيه الصابئه فهى تبتنى على ربط الكون و الفساد و حوادث العالم الأرضى إلى الأجرام العلويه كالشمس و القمر و عطارد و الزهره و مريخ و المشترى و زحل و أنها بما لها من الروحانيات المتعلقه بها هى المدبره للنظام المشهود يدبر كل منها ما يتعلق به من الحوادث على ما يصفه فن أحكام النجوم،و يتكرر بتكرر دوراتها الأدوار

و الأكوار من غير أن تقف أو تنتهى إلى أمد.

فهى وسائط بين الله سبحانه و بين هذا العالم المشهود تقرب عبادتها الإنسان منه تعالى ثم من الواجب أن يتخذ لها أصنام و تماثيل فيتقرب إليها بعباده تلك الأصنام و التماثيل.

و ذكر المورخون أن الذى أسس بنيانها و هذب أصولها و فروعها هو«يوذاسف» المنجم ظهر بأرض الهند فى زمن طهمورث ملك إيران،و دعا إلى مذهب الصابئه فاتبعه خلق كثير،و شاع مذهبه فى أقطار الأرض كالروم و اليونان و بابل و غيرها، و بنيت لها هياكل و معابد مشتمله على أصنام الكواكب،و لهم أحكام و شرائع و ذبائح و قرابين يتولاها كهنتهم.و ربما ينسب إليهم ذبح الناس.

و هؤلاء يوحدون الله فى ألوهيته لا فى عبادته،و ينزهونه عن النقائص و القبائح، و يصفونه بالنفى لا بالإثبات كقولهم لا يعجز و لا يجهل و لا يموت و لا يظلم و لا يجور، و يسمون ذلك بالأسماء الحسنى مجازا و ليسوا بقائلين باسم حقيقه و قد قدمنا شيئا من تاريخهم فى تفسير قوله تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصّابِئِينَ:» الآيه،البقره:-۶۲ فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

۶-الوثنيه البرهميه:

و البرهميه-على ما تقدم-من مذاهب الوثنيه المتأصله، و لعلها أقدمها بين الناس فإن المدنيه الهنديه من أقدم المدنيات الإنسانيه لا يضبط بدء تاريخى لها على التحقيق،و لا يضبط بدء تاريخى لوثنيه الهند غير أن بعض المورخين كالمسعودى و غيره ذكروا أن برهمن اسم أول ملوك الهند الذى عمر بلادها و أسس قواعد المدنيه فيها و بسط العدل بين أهلها.

و لعل البرهميه نشأت بعده باسمه فكثيرا ما كانت الأمم الماضيه يعبدون ملوكهم و الأعاظم من أقوامهم لاعتقادهم أنهم ذوو سلطه غيبيه و أن اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور،و يؤيده بعض التأييد أن الظاهر من«ويدا»و هو كتابهم المقدس أنه مجموع من رسائل و مقالات شتى ألف كل شطر منها بعض رجال الدين فى أزمنه مختلفه ورثوها من بعدهم فجمعت و ألفت كتابا يشير إلى دين ذى نظام و قد صرح به علماء سانسكريت و لازم ذلك أن يكون البرهميه كغيرها من مذاهب الوثنيه مبتدئه

من أفكار عاميه غير قيمه،متطوره فى مراحل التكامل حتى بلغت حظها من الكمال.

ذكر البستانى فى دائره المعارف ما ملخصه:

برهم (بفتحتين فسكون أو بفتح الباء و الهاء و سكون الراء)هو المعبود الأول و الأكبر عند الهنود و هو عندهم أصل كل الموجودات واحد غير متغير و غير مدرك أزلى مطلق سابق كل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعه واحده بقوله:

أوم أى كن.

و حكايه برهم تشبه من كل وجه حكايه«اى بوذه»فليس الفرق إلا فى الاسم و الصفات و كثيرا ما يجعلون نفس برهم اسما للأقانيم الثلاثه المؤلف منها ثالوث الهنود، و هى:«برهما و وشنو و سيوا»و يقال لعبده برهم:البرهميون أو البراهمه.

و أما برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع فى أعماله(بدليل زياده الألف فى آخره و هو من اصطلاحاتهم)و هو الأقنوم الأول من الثالوث الهندى أى إن برهم ينبثق فى نفسه فى ثلاثه أقانيم كل مره فى أقنوم فالأقنوم الأول الذى يظهر به أول مره هو برهما،و الثانى وشنو،و الثالث سيوا.

فلما انبثق برهما لبث مده طويله جالسا على سدره تسمى بالهنديه«كمالا» و بالسنسكريتيه بدما،و كان ينظر من كل جهه،و كان له أربعه رءوس بثمانى أعين فلم ير إلا فضاء واسعا مظلما مملوء ماء فارتاع لذلك و لم يقدر أن يدرك سر أصله فلبث ساكتا أبكم غارقا فى التأملات.

فمضت على ذلك أجيال و إذا بصوت قد طرق أذنيه بغته و نبهه من سباته و أشار عليه أن يفزع إلى«باغادان»و هو لقب برهم فظهر برهم بصوره رجل له ألف رأس فسجد له برهما و جعل يسبحه فانشرح صدر باغادان و أبدع النور و كشف الظلمات،و أظهر لعبده حاله كينونته و الكائنات بصور جراثيم متخدره و أعطاه القوه لإخراجها من هذا الخمول.

فبقى برهما يتأمل فى ذلك مائه سنه إلهيه و هى عباره عن سته و ثلاثين ألف سنه شمسيه ثم ابتدأ بالعمل فأبدع أولا سبع السماوات المسماه عندهم«سورغه»

و أنارها بالأجرام المسماه«ديقانه»ثم أبدع«مريثلوكا»أى مقر الموت ثم الأرض و قمرها،ثم المساكن السبعه السفلى المسماه بتاله،و أنارها بثمانيه جواهر موضوعه على رءوس ثمانى حيات.

فالسماوات السبع و المساكن السفلى السبعه هى العوالم الأربعه عشر فى الميثولوجيا الهنديه.

ثم خلق الأزواج السبعه لكى تعينه فى أعماله فامتنع من مساعدته عشره منها و هى«مونى»و الريشه التسعه التى منها«ناريدا أو نوردام»و اقتصرت على التأملات الدنيويه فتزوج حينئذ أخته«ساراسواتى»و أولدها مائه ولد،و كان البكر اسمه«دكشا»فولد لدكشا خمسون بنتا فتزوجت ثلاث عشره منهن«كاسيابا» الذى يسمونه أحيانا برهمان الأول،و هو الذى ولد لبرهما ولدا يسمى مارتشى».

و ولدت إحدى البنات المذكورات و اسمها«أديتى»الأرواح المنيره المسماه «ديقانه»و هى التى تفعل الخير و تسكن السماوات،و أما أختها«ديتى»فولدت جمهورا غفيرا من الأرواح الشريره المسماه«داتينه»أو«أسوره»و هى سكان الظلام و فاعله كل شر فى العالم.

و كانت الأرض إلى ذلك الوقت خاليه من السكان فقال بعضهم:إن برهما أخرج من نفسه«مانوسويامبوقا»الذى يقول الآخرون: إنه سابق له و إنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوجه«ساتاروبا»و قال لهما أن يكثرا و ينميا.

و قال آخرون:إن برهما ولد أربعه أولاد و هم برهمان و كشتريا و قايسيا و سودارا فالأول خرج من فمه،و الثانى من ذراعه اليمنى،و الثالث من فخذه اليمنى و الرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لأربع فرق أصليه.

و تزوج الثلاثه الأخيرون بثلاث نساء منه أيضا خرجت واحده من ذراعه اليمنى و الثانيه من فخذه اليسرى،و الثالثه من رجله اليسرى،و سمين باسم بعولتهن بزياده علامه التأنيث و هى«نى»،و تزوج برهمان أيضا زوجه من أبيه،و لكن كانت من نسل الأسوره الشريره،فهذا ما فى الفيداس عن كيفيه خلق العالم.

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبه وشنو الأقنوم

الثانی و سیوا الأقنوم الثالث و ذلک أنه انتفخ بالکبریاء و العجب،و ظن نفسه نظیر العلی فسقط فی ناراک أی الجحیم،و لم ینل العفو إلا بشرط أن یتجسد مره فی کل من الأجیال الأربعه،فتجسد أول مره بصوره غراب شاعر اسمه«کاکابوسندا» و فی الثانیه بصوره«بارباقلمیکی»فکان أولا-لصا ثم رجلا عبوسا رزینا نادما ثم ترجمانا مشهورا للفیداس و مؤلفا للرامیانا،و فی المره الثالثه بصوره«قیاسا»و هو شاعر و مؤلف«المهابارانا»و البغاقه و عده بورانات،و فی المره الرابعه و هو العصر الحالی المسمی«کالی یوغ»بصوره«کالیداسا»الشاعر التشخیصی العظیم و مؤلف «ساکنتالا»و منقح مؤلفات«قلمیکی».

ثم إن برهما ظهر فی ثلاث أحوال ففی،الحال الأولی کان الواحد الصمد و الکل الأعظم العلی،و فی الحال الثانیه ظهر منبثقا من الأول أی شارعا فی العمل و فی الحال الثالثه ظهر متجسدا بصوره إنسان و حکیم.

و لیس لبرهما عباده عامه فی الهند،و له هناک هیکل واحد فقط غیر أن البراهمه یجعلونه موضوع عبادتهم،و یدعونه مساء و صباحا، و هم یرمون الماء ثلاث مرات براحه أیدیهم علی الأرض و نحو الشمس،و یجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقدیمهم له زهره،و فی تقدیس النار یقدمون له سمنا مصفی کما یقدمون لإله النار، و هذا التقدیس أهم و أقدس من کل ما سواه.و اسمه هوم أو هوما و رغیب.

و یمثل برهما بصوره رجل ذی لحیه طویله بإحدی یدیه سلسله الکائنات و بالأخری الإناء الذی فیه ماء الحیاه السماوی راکبا الهمسا و هو الطیر الإلهی الذی یشبه اللقلق و النسر.

و أما برهمان فهو ابن برهما البکر أخرجه من فیه کما تقدم،و جعل نصیبه أربعه الکتب المقدسه المسماه«فیداس»کنایه عن الکلمات الأربع التی نطق بها بأفواهه الأربعه.

فلما أراد برهمان أن یتزوج نظیر إخوته قال له برهما:إنک ولدت للدرس و الصلاه فیجب أن تبتعد عن العلاقات الجسدیه فلم یقتنع برهمان بقول أبیه فغضب برهما و زوجه بواحده من جنیات الشر المسماه أسوره،و من هذا ولد البراهمه و هم

الکهنه المقدسون الذین خصوا بتفسیر الفیداس،و کانوا یتولون أمر کل التقدمات التی یقدمها الهنود للآلهه.

و ولد کشتریا صنف الحربیین من البراهمه،و قایسیا صنف أهل الزراعه منهم،و سودرا صنف العبید،فالبراهمه أربعه أصناف،انتهی ملخصا من دائره المعارف للبستانی.

و ذکر غیره أن البرهمیه منقسمه إلی طبقات أربع هم البراهمه(علماء المذهب) و الحربیون و الزراع و التجار،و لا یعبأ بغیرهم کالنساء و العبید،و قد نقلنا فی ذیل قوله تعالی :«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ:» XالآیهX،المائده:-۱۰۵ فی الجزء السادس من الکتاب فی بحث علمی عن کتاب ما للهند من مقوله لأبی ریحان البیرونی شیئا من وظائف البراهمه و عباداتهم،و کذا عن الملل و النحل للشهرستانی شطرا من شرائع الصابئین.

و المذاهب الوثنیه الهندیه و کان الصابئین مثلهم أیضا مطبقون علی القول بالتناسخ و هو أن العوالم غیر متناهیه من ناحیتی الأزل و الأبد و لکل منها حظا من البقاء مؤجلا فإذا انقضی أمد بقائه بطلت صورته و تولد منه عالم آخر یعیش فیموت فیحدث ثالث و هکذا،و النفوس الإنسانیه المتعلقه بالأبدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدأ حیاه جدیده لها فإنها تتعلق بأبدان أخر تعیش فیها عیشه سعیده إن کسبت فی بدنها السابق فضائل نفسانیه و عملت عملا صالحا،و عیشه شقیه إن تلبست بالرذائل و اقترفت السیئات إلا الکاملون فی معرفه البرهم(الله سبحانه)فإنهم أحیاء بحیاه الأبد آمنون من التولد الثانی خارجون عن سلطان التناسخ.

۷-الوثنیه البوذیه:

و قد أصلحت الوثنیه البرهمیه (۱)بالبوذیه منسوبه إلی بوذا«سقیامونی»المتوفی سنه خمس مائه و ثلاث و أربعین قبل المسیح علی ما نقل عن التاریخ السیلانی و قیل غیر ذلک حتی إن الاختلاف فی ذلک ینسحب إلی ألفی سنه،و لذلک ربما ظن أنه شخص

۱- ۱) ملخص ما فی دائره المعارف للبستانی.

خرافی لا حقیقه له لکن الحفریات الأخیره التی وقعت فی غایا الحدیثه و آثارا أخری فی بطنه دلت علی صحه وجوده،و قد انکشفت بها آثار أخری من تاریخ حیاته و تعالیمه التی ألقاها إلی تلامذته و أتباعه.

و کان بوذا من بیت الملک ابن ملک یدعی«سوذودانا»فعزفت نفسه الدنیا و شهواتها و اعتزل الناس فی شبابه و لبث فی بعض الغابات الموحشه سنین من عمره مکبا علی التزهد و الارتیاض حتی تنورت نفسه بالمعرفه فخرج إلی الناس و هو ابن ست و ثلاثین سنه علی ما قیل فدعاهم إلی التخلص عن الشقاء و الآلام و الفوز بالراحه الکبری و الحیاه السماویه الأبدیه السرمدیه،و وعظهم و حثهم علی التمسک بذیل شریعته بالتخلق بالأخلاق الکریمه و رفض الشهوات و اجتناب الرذائل.

و کان بوذا-علی ما نقل-یقول عن نفسه من دون کبریاء برهمیه:«أنا (۱)متسول،و لا توجد إلا شریعه واحده للجمیع و هی العقاب الشدید للمجرمین و الثواب العظیم للصالحین،و شریعتی شریعه نعمه للجمیع،و فیها کالسماء مکان للرجال و النساء و الصبیان و البنات و الأغنیاء و الفقراء علی أنه یعسر علی الغنی أن یسلک طریقها».

و کان تعلیمه علی ما عند البوذیین:أن الطبیعه ذات فراغ و أنها وهمیه خداعه و أن العدم یوجد فی کل مکان و کل زمان،و هو مملوء من الغش،و نفس هذا العدم یزیل کل الحواجز بین أصناف الناس و جنسیاتهم و أحوالهم الدنیویه،و یجعل أحقر الدیدان إخوه للبوذیین.

و هم یعتقدون أن آخر عباره نطق بها سقیامونی هی«کل مرکب فان» و الغایه القصوی عندهم هی نجاه النفس من کل ألم و غرور،و أن دور التناسخ الذی لا نهایه له ینتهی أو ینقطع بمنع النفس أن تولد ثانیه،و یتوصل إلی ذلک بتطهیرها حتی من رغبه الوجود.

فهذه القواعد الأساسیه للبوذیه موجوده صریحا فی أقدم تعلیمها المدرج فی

۱- ۱) أی تصیبنی التسویلات و الوساوس النفسانیه و فی کلامه هذا نسخ لحکم الطبقات فی الشریعه البرهمیه القاضی بتفاوت الناس فی التشرف بالسعاده الدینیه و تحریم بعضهم کالنساء و الصبیان منها.

«الأريانی ستیانس» و هی أربع حقائق سامیه تنسب إلی سقیامونی ذکرها فی عظته الأولی التی قام بها فی غابه تعرف بغابه الغزال بالقرب من بنارس.

و تلک الحقائق الأربع تتعلق بالألم و أصله و ملاشاته و بالطریقه المؤدیه إلی الملاشاه فالألم هو الولاده و السن و المرض و الموت و مصادفه المکروه و مفارقه المحبوب و العجز عما یرام،و أسباب الألم الشهوات النفسانیه و الجسدیه و الأهواء،و ملاشاه جمیع هذه الأسباب هی الحقیقه الثالثه،و لطریقه الملاشاه أیضا ثمانیه أقسام و هی:نظر صحیح و حس صحیح،و نطق صحیح،و فعل صحیح،و مرکز صحیح،و جد صحیح و ذکر صحیح،و تأمل صحیح،فهذه صوره الإیمان عندهم و قد وجدت محفوره علی أبنیه کثیره و مدونه فی عده کتب.

و أما خلاصه الأدب البوذی فهی اجتناب کل شیء ردی،و عمل کل شیء صالح و تهذیب العقل.

فهذا هو الذی سلموه من تعلیم بوذا و ما عداه من العبادات و الذبائح و الکهنوت و الفلسفه و الأسرار أمور أضیفت إلیه بکرور الأیام و مرور الدهور،و هی تشتمل علی أقاویل و آراء عجیبه فی خلق العالم و نظمه و غیر ذلک.

و مما یقال إن بوذا لم یتکلم عن الإله قط،غیر أن ذلک لم یکن لإعراض منه عن مبدإ الوجود و لا لإنکار بل لأن الرجل کان یبذل کل جهده فی تجهیز الناس بالزهد عن زهره الحیاه الدنیا و تنفیرهم عن هذه الدار الغاره.

۸-وثنیه العرب.

و هم أول من عارضهم الإسلام بالدعوه إلی التوحید من عبده الأوثان،کان معظم العرب فی عهد الجاهلیه بدویین و أهل الحضاره منهم کالیمن فی طبع البداوه یحکم فیهم من السنن و الآداب رسوم مختلطه مختلفه مأخوذه من جیرانهم الأقویاء کالفرس و الروم و مصر و الحبشه و الهند،و منها السنن الدینیه.

و کان أسلافهم الأقدمون و هم العرب العاربه و منهم عاد إرم و ثمود علی دین الوثنیه کما یحکیه الله سبحانه فی کتابه عن قوم هود و صالح و عن أصحاب مدین و عن أهل سبإ فی قصه سلیمان و الهدهد،حتی أن جاء إبراهیم(ع)بابنه إسماعیل و أمه هاجر إلی أرض مکه و هی واد غیر ذی زرع و بها قبیله جرهم،و أسکنهما

هنـاک فنشـأ إسـماعیل(ع)و بنیت بلـده مکه،و بنی إبراهیم(ع)الکعبه الـبیت الحرام و دعـا النـاس إلی دینه الحنیف و هو الإسـلام فاستجیب له فی الحجاز و ما والاها و شرع لهم الحج کما یدل علی جمله ذلک قول الله تعالی له فیما یحکیه القرآن :

«وَ أَذِّنْ فِی النّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالاً وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ:»، الحج:-٢٧.

ثم تهـود بعض الأـعراب لمعاشـره کـانت بینهم و بین الیهود النـازلین بالحجـاز، و تسـربت النصـرانیه إلی بعض أقطـار الجزیره،و المجوسیه إلی بعضها الآخر.

ثم وقعت وقـائع بین آل إسـماعیل و جرهم بمکه حتی آل إلی غلبه آل إسـماعیل و إجلاـء جرهم منها و اسـتولی عمرو بن لحی علی مکه و ما والاها.

ثم إنه مرض مرضـا شدیـدا فقیـل له:إن البلقـاء من أرض الشـام حمه لو اسـتحممت بها برأت فقصـدها و اسـتحم بها فبرأ،و رأی هناک قوما یعبدون الأصـنام فسألهم عنها فقالوا:هذه أرباب اتخذناها علی شـکل الهیاکل العلویه و الأشخاص البشریه نستنصر بها فننصـر و نستسقی بها فنسقی فأعجبه ذلک فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إلیه هبل فرجع إلی مکه و وضعه علی الکعبه،و کان معه إساف و نائله و هما صـنمان علی شـکل زوجین-کما فی الملل و النحل-أو شابین-کما فی غیره-فدعا الناس إلی عباده الأصنام و روج ذلک بین قومه فعادوا یعبدونها بعد إسلامهم و قد کانوا یسمون حنفاء لاتباعهم مله إبراهیم(ع)فبقی علیهم الاسم و هجرهم المعنی و صار الحنفاء اسما للوثنیین (١)منهم.

و کـان ممـا یقربهم إلی الوثنیه أن الکعبه المشـرفه کـان یعظمهـا الیهود و النصاری و المجوس و الوثنیه جمیعا فکان لا یظعن من مکه ظاعن إلا حمل معه شیئا من حجاره الحرم تبرکا و صبابه،و حیثما حلوا وضعوه و طافوا به تیمنا و حبا للکعبه و الحرم.

و عن هـذه الأسـباب شاعت الوثنیه بین العرب عاربهم و مسـتعربهم و لم یبق من أهل التوحیـد بینهم إلا آحاد لا یذکرون،و کان من الأصنام المعروفه بینهم هبل و إساف و نائله،و هی التی أتی بها عمرو بن لحی و دعا إلیها الناس،و اللات و العزی

١- ١) و لعل هذا هو الوجه فی إصرار القرآن علی توصیف إبراهیم بالحنیف و الإسلام بالحنیفیه.

و مناه و ود و سواع و یغوث و یعوق و نسر،و قد ذکرت هذه الثمان فی القرآن و نسبت الخمس الأواخر منها إلی قوم نوح.

و روی فی الکافی،بإسناده إلی عبد الرحمن بن الأشل بیاع الأنماط عن الصادق (ع): أن یغوث کان موضوعا قباله باب الکعبه،و کان یعوق عن یمین الکعبه و نسر عن یسارها.

و فی الروایه أیضا: أن هبل کان علی سطح الکعبه-و إساف و نائله علی الصفا و المروه.

و فی تفسیر القمی،قال": کانت ود لکلب،و کانت سواع لهذیل و یغوث لمراد،و کانت یعوق لهمدان،و کانت نسر لحصین.

و کانت فی الوثنیه التی عندهم آثار من وثنیه الصابئه کالغسل من الجنابه و غیره.

و فیها آثار من البرهمیه کالقول بالأنواء و القول بالدهر کما تقدم عن وثنیه بوذه قال تعالی :«وَ قٰالُوا مٰا هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا یُهْلِکُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ:» الجاثیه:-۲۴ و إن ذکر بعضهم أنه قول المادیین المنکرین لوجود الصانع.

و فیها شیء من الدین الحنیف و هو إسلام إبراهیم(ع)کالختنه و الحج إلا أنهم خلطوه بسنن وثنیه کالتمسح بالأصنام التی حول الکعبه و الطواف عریانا،و التلبیه بقولهم:لبیک لبیک اللهم لبیک لا شریک لک،إلا شریک هو لک،تملکه و ما ملک.

و عندهم أمور أخر اختلقوه من عند أنفسهم کالقول بالبحیره و السائبه و الوصیله و الحام و القول بالصدی و الهام و الأنصاب و الأزلام و أمور أخر مذکوره فی التواریخ و قد تقدم تفسیر البحیره و السائبه و الوصیله و الحام فی سوره المائده فی ذیل آیه ۱۰۳ و کذا ذکر الأزلام و الأنصاب فی ذیل آیه ۳ و آیه ۹۰.

۹-دفاع الإسلام عن التوحید و منازلته الوثنیه.

لم تزل الدعوه الإلهیه تخاصم الوثنیه و تقاومه و تندب إلی التوحید کما ذکره الله فی کتابه فیما یقصه من دعوه الأنبیاء و الرسل کنوح و هود و صالح و إبراهیم و شعیب و موسی(ع)،و أشیر إلی ذلک فی قصص عیسی و لوط و یونس(ع).

و قد أجمل القول فی ذلک فی قوله تعالی :«وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ

إِلاّ نُوحِی إِلَیْهِ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ:» الأنبیاء:-۲۵.

و قد بدأ النبی محمد ص فی دعوته العامه بدعاء الوثنیین من قومه إلی التوحید بالحکمه و الموعظه و الجدال بالتی هی أحسن فلم یجیبوه إلا بالاستهزاء و الأذی و فتنه من آمن به منهم و تعذیبه أشد العذاب حتی اضطر جمع من المسلمین إلی ترک مکه و الهجره إلی الحبشه،ثم مکروا لقتله(ص) فهاجر إلی المدینه ثم هاجر إلیها بعده عده من المؤمنین.

و لم یلبثوا حتی تعلقوا به بالقتال،و قاتلوه ببدر و أحد و الخندق و فی غزوات أخری کثیره حتی أظهره الله تعالی علیهم بفتح مکه فظهر(ص)البیت و الحرم من أوثانهم،و کسر الأصنام المنصوبه حول الکعبه المشرفه،و کان هبل منصوبا علی سطح الکعبه فأصعد علیا(ع)إلیه فرماه إلی الأرض و کان-علی ما یقال-أعظم أصنامهم فدفن-علی ما ذکروه-فی عتبه باب المسجد.

و الإسلام شدید العنایه بحسم ماده الوثنیه و تخلیه القلوب عن الخواطر الداعیه إلیها و صرف النفوس حتی عن الحومان حولها و الإشراف علیها،و ذلک مشهود مما ندب إلیه من المعارف الأصلیه و الأخلاق الکریمه و الأحکام الشرعیه فتراه یعد الاعتقاد الحق أنه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنی یملک کل شیء،له الوجود الأصیل الذی یستقل بذاته و هو الغنی عن العالمین،و کل ما هو غیره منه یبتدئ و إلیه یعود،و إلیه یفتقر فی جمیع شئون ذاته حدوثا و بقاء فمن أسند إلی شیء شیئا من الاستقلال بالقیاس إلیه تعالی-لا بالقیاس إلی غیره-فی شیء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهو مشرک بحسبه.

و تراه یأمر بالتوکل علی الله،و الثقه بالله،و الدخول تحت ولایه الله،و الحب فی الله،و البغض فی الله،و إخلاص العمل لله،و ینهی عن الاعتماد بغیر الله،و الرکون إلی غیره،و الاطمئنان إلی الأسباب الظاهره و رجاء من دونه،و العجب و الکبر إلی غیر ذلک مما یوجب إعطاء الاستقلال لغیره و الشرک به.

و تراه ینهی عن السجده لغیره تعالی،و ینهی عن اتخاذ التماثیل ذوات الأظلال و عن تصویر ذوی الأرواح،و ینهی عن طاعه غیر الله و الإصغاء إلیه فیما یأمر و ینهی إلا ما رجع إلی طاعه الله کطاعه الأنبیاء و أئمه الدین،و ینهی عن البدعه و اتباعها و عن اتباع خطوات الشیطان.

و الأخبار المأثوره عن النبی ص و عن أئمه أهل البیت(ع)متظافره فی أن الشرک ینقسم إلی جلی و خفی،و أن الشرک ذو مراتب کثیره لا یسلم من جمیعها إلا المخلصون،و أنه أخفی من دبیب النمل علی الصفا فی اللیله الظلماء،

و قد روی فی الکافی،عن الصادق(ع): فی قوله تعالی :«یَوْمَ لاٰ یَنْفَعُ مٰالٌ وَ لاٰ بَنُونَ- إِلاّٰ مَنْ أَتَی اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ:» الشعراء:-۸۹،القلب السلیم الذی یلقی ربه-لیس فیه أحد سواه، قال:و کل قلب فیه شرک أو شک فهو ساقط-و إنما أرادوا بالزهد فی الدنیا لتفرغ قلوبهم للآخره.

و ورد أیضا: أن عبادته تعالی طمعا فی الجنه عباده الأجراء،و عبادته خوفا من النار عباده العبید،و حق العباده أن یعبد تعالی حبا له-و تلک عباده الکرام، و هذا مقام مکنون-لاٰ یمسه إلا المطهرون و قد تقدمت عده من هذه الروایات فی بعض الأبحاث السابقه من الکتاب.

۱۰-بناء سیره النبی علی التوحید و نفی الشرکاء:

أجمل تعالی سیرته (ص)التی أمره باتخاذها و السیر بها فی المجتمع البشری فی قوله :«قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ:» آل عمران:-۶۴،و قال تعالی یشیر إلی ما داخل دینهم من عقائد الوثنیه :«قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا کَثِیراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِیلِ:» المائده-۷۷.

و قال أیضا یذم أهل الکتاب :«اتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ سُبْحٰانَهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ:» التوبه:-۳۱.

و کان(ص)قد سوی بین الناس فی إجراء الأحکام و الحدود و قارب بین طبقات المجتمع کالحاکم و المحکوم،و الرئیس و المرءوس،و الخادم و المخدوم،و الغنی و الفقیر،و الرجل و المرأه،و الشریف و الوضیع فلا کرامه و لا فخر و لا تحکم لأحد علی أحد إلا کرامه التقوی و الحساب إلی الله و الحکم إلیه.

و كان(ص)يقسم بالسويه،و ينهى عن تظاهر القوى بقوته بما يتأثر و ينكسر به قلب الضعيف المهين كتظاهر الأغنياء بزينتهم على الفقير المسكين،و الحكام و الرؤساء بشوكتهم على الرعيه.

و كان(ص)يعيش كأحد من الناس لا يمتاز منهم فى مأكل أو مشرب أو ملبس أو مجلس أو مشيه أو غير ذلك،و قد تقدم جوامع سيرته فى آخر الجزء السادس من هذا الكتاب.

(كلام آخر ملحق بالكلام السابق) [فى فصول]

اشاره

نزن فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه إلى تعاليم ويدا،و أوستا،و التوراه، و الإنجيل على نحو الإجمال و الكليه فى فصول و هذا بحث تحليلى شريف.

١-التناسخ عند الوثنيين:

من الأصول الأوليه التى تبتنى عليها البرهميه و مثلها البوذيه و الصابئيه هو التناسخ و هو أن العالم محكوم بالكون و الفساد دائما فهذا العالم المشهود لنا و كذا ما فيه من الأجزاء مكون عن عالم مثله سابق عليه و هكذا إلى غير النهايه،و سيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاؤه و يتكون منه عالم آخر و هكذا إلى غير النهايه، و الإنسان يعيش فى كل من هذه العوالم على ما اكتسبه فى عالم يسبقه فمن عمل صالحا و اكتسب ملكه حسنه فستتعلق نفسه بعد مفارقه البدن بالموت ببدن سعيد و يعيش على السعاده،و هو ثوابه،و من أخلد إلى الأرض و اتبع هواه فسوف يعيش بعد الموت فى بدن شقى و يقاسى فيه أنواع العذاب إلا من عرف البرهم و اتحد به فإنه ينجو من الولاده الثانيه و يعود ذاتا أزليه أبديه هى عين البهاء و السرور و الحياه و القدره و العلم لا سبيل للفناء و البطلان إليها.

و لذلك كان من الواجب الدينى على الإنسان أن يؤمن بالبرهم(و هو الله أصل كل شىء)و يتقرب إليه بالقرابين و العبادات،و يتحلى بالأخلاق الكريمه و الأعمال الصالحه فإن عزفت نفسه الدنيا و تخلق بكرائم الأخلاق و تحلى بصوالح الأعمال و عرف البرهم بمعرفه نفسه صار برهمنا و اتحد بالبرهم و صار هو هو،و هو السعاده

ص: ٢٩٠

الکبری و الحیاه البحته،و إلا فلیؤمن بالبرهم و لیعمل صالحا حتی یسعد فی حیاته التالیه و هی آخرته.

لکن البرهم لما کان ذاتا مطلقه محیطا بکل شیء غیر محاط لشیء کان أعلی و أجل من أن یعرفه الإنسان إلا بنوع من نفی النقائص أو یناله بعباده أو قربان فمن الواجب علینا أن نتقرب بالعباده إلی أولیائه و أقویاء خلقه حتی یکونوا شفعاء لنا عنده،و هؤلاء هم الآلهه الذین یعبدون من دون الله بعباده أصنامهم،و هم علی کثرتهم إما من الملائکه أو من الجن أو من أرواح المکملین من البراهمه،و إنما یعبد الجن خوفا من شرهم،و غیرهم طمعا فی رحمتهم و خوفا من سخطهم و منهم الأزواج و البنون و البنات لله تعالی.

فهذه جمل ما تتضمنه البرهمیه و یعلمه علماء المذهب من البراهمه.

لکن الذی یتحصل من أوبانیشاد» (۱)و هو القسم الرابع من کتاب«ویدا» المقدس ربما لم یوافق ما تقدم من کلیات عقائدهم و إن أوله علماء المذهب من البراهمه.

فإن الباحث الناقد یجد أن رسائل«أوبانیشاد»المعلمه للمعارف الإلهیه و إن کانت تصف العالم الألوهی و الشئون المتعلقه به من الأسماء و الصفات و الأفعال من إبداء و إعاده و خلق و رزق و إحیاء و أماته و غیر ذلک بما یوصف به الأمور الجسمانیه المادیه کالانقسام و التبعض و السکون و الحرکه و الانتقال و الحلول و الاتحاد و العظم و الصغر و سائر الأحوال الجسمانیه المادیه إلا أنها تصرح فی مواضع منها أن برهم (۲)ذات مطلقه متعالیه من أن یحیط به حد له الأسماء الحسنی و الصفات العلیا من حیاه و علم و قدره،منزه عن نعوت النقص و أعراض الماده و الجسم لیس کمثله شیء.

و تصرح (۳)بأنه تعالی إحدی الذات لم یولد من شیء و لم یلد شیئا و لیس له

۱- ۱) أوبانیشاد لکتب«ویدا»المقدسه و هی رسائل متفرقه مأثوره من کبار رجال الدین من عرفائهم القدماء الأقدمین تحتوی جمل ما حصلوه من المعارف الإلهیه بالکشف و یعتبرها البراهمه وحیا سماویا.

۲- ۲) هذا کثر الورود یعثر علیه الراجع فی أغلب فصول أوبانیشاد.

۳- ۳) «لم یولد منه شیء و لم یتولد من شیء و لیس کفؤا أحد»أوبانیشاد(شیت استر)ادهیا السادس آیه ۸(السر الأکبر).

كفو و مثل البته.

و تصرح (۱)بأن الحق أن لا يعبد غيره تعالى و لا يتقرب إلى غيره بقربان بل الحرى بالعباده هو وحده لا شريک له.

و تصرح (۲)کثیرا بالقيامه و أنه الأجل الذى ينتهى إليه الخلقه،و تصف ثواب الأعمال و عقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعين حمله على التناسخ.

و لا خبر فى هذه الأبحاث الإلهيه المورده فيها عن الأوثان و الأصنام و توجيه العبادات و تقديم القرابين إليها.

و هذه التى نقلناها من«أوبانیشاد»- و ما تركناه أكثر-حقائق ساميه و معارف حقه تطمئن إليها الفطره الإنسانيه السليمه،و هى-كما ترى-تنفى جميع أصول الوثنيه الموردة فى أول البحث.

و الذى يهدى إليه عميق النظر أنها كانت حقائق عاليه كشفها آحاد من أهل ولايه الله ثم أخبروا بما وجدوا بعض تلامذتهم الآخذين منهم غير أنهم تكلموا غالبا بالرمز و استعملوا فى تعاليمهم الأمثال.

ثم جعل ما أخذ من هؤلاء أساسا تبتنى عليه سنه الحياه التى هى الدين المجتمع عليه عامه الناس،و هى معارف دقيقه لا يحتملها إلا الآحاد من أهل المعرفه لارتفاع سطحها عن الحس و الخيال اللذين هما حظ العامه من الإدراک و كمال صعوبه إدراكها على العقول الراجله غير المتدربه فى المعارف الحقه.

و اختصاص نيلها بالأقلين من الناس و حرمان الأكثرين من ذلک و هى دين إنسانى أول المحذور فإن الفطره أنشأت العالم الإنسانى مغروزه على الاجتماع المدنى، و انفصال بعضهم عن بعض فى سنه الحياه و هى الدين إلغاء لسنه الفطره و طريقه الخلقه.

على أن فى ذلک تركا لطريق العقل و هو أحد الطرق الثلاث الوحى و الكشف

---

۱ - ۱) قال شبت استر:«اعمل الصالحات لتلک الذات النورانيه إلى أى ملک أقدم القربان و أترک تلک الذات الظاهره؟»أوبانیشاد شیت استر.ادهیا الرابع آیه ۱۳.

۲- ۲) و هذا كثير الورود فى فصول أوبانیشاد يعثر عليه المراجع.

و العقـل،و أعمهـا و أهمهـا بالنظر إلى حياه الإنسان الـدنيويه فالوحى لا يناله إلا أهل العصـمه من الأنبياء المكرمين،و الكشف لا يكرم به إلاـ الآحـاد من أهـل الإخلاـص و اليقين،و الناس حتى أهل الوحى و الكشف فى حاجه مبرمه إلى تعاطى الحجه العقليه فى جميع شـئون الحيـاه الـدنيويه و لاـ غنى لهـا عن ذلـك،و فى إهمـال هـذا الطريق تسـليط التقليـد الإجبارى على جميع شـئون المجتمع الحيويه من اعتقادات و أخلاق و أعمال،و فى ذلك سقوط الإنسانيه.

على أن فى ذلك إنفاذا لسـنه الاسـتعباد فى المجتمع الإنسانى و يشـهد بـذلك التجارب التاريخى المديد فى الأمم البشـريه التى عاشت فى دين الوثنيه أو جرت فيهم سنن الاستعباد باتخاذ أرباب من دون الله.

٢-سريان هذه المحاذير إلى سائر الأديان:

الأديان العامه الآخر على ما فيها من القول بتوحيد الألوهيه لم تسلم من شرك العباده فساقهم ذلك إلى الابتلاء بعين ما ابتليت به الوثنيه البرهميه من المحاذير التى أهمها الثلاثه المتقدمه.

أما البوذيه و الصابئه فذلك فيهم ظاهر و التاريخ يشهد بذلك،و قد تقدم شيء مما يتعلق بعقائدهم و أعمالهم.

و أمـا المجوس فهم يوحـدون«أهورا مزدا»بالأـلوهيه لكنهم يخضـعون بالتقـديس ليزدان و أهريمن و الملاـئكه الموكلين بشـئون الربوبيه و للشـمس و النـار و غير ذلـك، و التاريـخ يقص ما كانت تجرى فيهم من سـنه الاسـتعباد و اختلاف الطبقات و التـدبر و الاعتبار يقضـى أنه إنما تسـرب ذلك كله إليهم من ناحيه تحريف الدين الأصيل، و قد ورد عن النبى ص فيهم:«أنه كان لهم نبى فقتلوه و كتاب فأحرقوه».

و أمـا اليهود فـالقرآن يقص كثيرا من أعمـالهم و تحريفهم كتـاب الله و اتخاذهم العلماء أربابا من دون الله،و ما ابتلاهم الله به من انتكاس الفطره و رداءه السليقه.

و أمـا النصـارى فقـد فصـلنا القول فيمـا انحرفوا فيه من النظر و العمل فى الجزء الثالث من الكتاب فراجع و إن شـئت فطبق مفتتح إنجيل يوحنا و رسائل بولس على سائر الأناجيل و تممه بمراجعه تاريخ الكنيسه فالكلام فى ذلك طويل.

فالبحث العميق فی ذلک کله ینتج أن المصائب العامه فی المجتمعات الدینیه فی العالم الإنسانی من مواریث الوثنیه الأولی التی أخذت المعارف الإلهیه و الحقائق العالیه الحقه مکشوفه القناع مهتوکه الستر فجعلتها أساس السنن الدینیه،و حملتها علی الأفهام العامه التی لا تأنس إلا بالحس و المحسوس فأنتج ذلک ما أنتج.

۳-إصلاح الإسلام لهذه المفاسد:

أما الإسلام فإنه أصلح هذه المفاسد إذ قلب هذه المعارف العالیه فی قالب البیان الساذج الذی یصلح لهضم الأفهام الساذجه و العقول العادیه فصارت تلامسها من وراء حجاب و تتناولها ملفوفه محفوفه،و هذا هو الذی یصلح به حال العامه و أما الخاصه فإنهم ینالونها مسفره مکشوفه فی جمالها الرائع و حسنها البدیع آمنین مطمئنین و هم فی زمره الذین أنعم الله علیهم من النبیین و الصدیقین و الشهداء و الصالحین و حسن أولئک رفیقا،قال الله تعالی :«وَ الْکِتابِ الْمُبِینِ إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ:» الزخرف:-۴، و قال :«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ لا یَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ:» الواقعه:-۷۹،

و قال النبی ص:

«إنا معاشر الأنبیاء-أمرنا أن نکلم الناس علی قدر عقولهم ».

و عالج غائله الشرک و الوثنیه فی مرحله التوحید بنفی الاستقلال فی الذات و الصفات عن کل شیء إلا الله سبحانه فهو تعالی القیوم علی کل شیء،و رکز الأفهام فی معرفه الألوهیه بین التشبیه و التنزیه فوصفه تعالی بأن له حیاه لکن لا کحیاتنا،و علما لا کعلمنا،و قدره لا کقدرتنا و سمعا لا کسمعنا،و بصرا لا کبصرنا،و بالجمله لیس کمثله شیء و أنه أکبر من أن یوصف،و أمر الناس مع ذلک أن لا یقولوا فی ذلک قولا إلا عن علم،و لا یرکنوا إلی اعتقاد إلا عن حجه عقلیه یهضمها عقولهم و أفهامهم.

فوفق بذلک أولا لعرض الدین علی العامه و الخاصه شرعا سواء،و ثانیا أن یعمل العقل السلیم من غیر أن یترک هذه الموهبه الإلهیه سدی لا ینتفع بها،و ثالثا أن قرب بین الطبقات المختلفه فی المجتمع الإنسانی غایه ما یمکن فیها من التقریب من غیر أن ینعم علی هذا و یحرم ذاک أو یقدم واحدا و یؤخر آخر قال تعالی :«إِنَّ

هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ:» الأنبياء:-٩٢ و قال :«يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ:» الحجرات:-١٣.

و هذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول فى أطرافه فى أبحاث متفرقه تقدمت فى هذا الكتاب و الله المستعان.

[۴-إشكال الاستشفاع و التبرك فى الإسلام]

۴-ربما يظن أن ما ورد فى الأدعيه من الاستشفاع بالنبى و آله المعصومين (ص)و مسألته تعالى بحقهم و زياره قبورهم و تقبيلها و التبرك بتربتهم و تعظيم آثارهم من الشرك المنهى عنه و هو الشرك الوثنى محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادى فيه إعطاء تأثير ربوبى لغيره تعالى و هو شرك و أصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم فى أوثانهم:إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله.و قولهم:إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، و لا فرق فى عباده غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابره أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهى عنه.

و قد فاتهم أولا أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غير مادى فى غيره تعالى ضرورى لا سبيل إلى إنكاره،و قد أسند تعالى فى كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره و نفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العليه و المعلوليه العام الذى هو الركن فى جميع أدله التوحيد،و فيه هدم بنيان التوحيد.نعم المنفى من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال فى التأثير و لا كلام لأحد فيه، و أما نفى مطلق التأثير ففيه إنكار بديهه العقل و الخروج عن الفطره الإنسانيه.

و من يستشفع بأهل الشفاعه الذين ذكرهم الله فى مثل قوله :«وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ:» الزخرف:-٨۶ و قوله :

«وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ:» الأنبياء:-٢٨.

أو يسأل الله بجاههم و يقسمه بحقهم الذى جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا :

«وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنٰا لِعِبٰادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنٰا لَهُمُ الْغٰالِبُونَ:» الصافات:-١٧٣ و قوله :«إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا:» المؤمن:-٥١.

أو يعظمهم و يظهر حبهم بزياره قبورهم و تقبيلها و التبرك بتربتهم بما أنهم آيات

الله و شعائره تمسكا بمثل قوله تعالى :«وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ:» الحج:-٣٢،و آيه القربى و غير ذلك من كتاب و سنه.

فهو فى جميع ذلك يبتغى بهم إلى الله الوسيله و قد قال تعالى :«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ:» المائده:-٣٥ فشرع به ابتغاء الوسيله،و جعلهم بما شرع من حبهم و تعزيرهم و تعظيمهم وسائل إليه،و لا معنى لإيجاب حب شىء و تعظيمه و تحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم و تعظيم أمرهم و ما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل و الاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير و العباده البته.

و ثانيا:أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله،و بين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع و التقرب بهم إليه ففى الصوره الأولى إعطاء الاستقلال و إخلاص العباده لغيره تعالى و هو الشرک فى العبوديه و العباده، و فى الصوره الثانيه يتمحض الاستقلال لله تعالى و يختص العباده به وحده لا شريک له.

و إنما ذم تعالى المشركين لقولهم:«إنما نعبدهم لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللّهِ زُلْفى »حيث أعطوهم الاستقلال و قصدوهم بالعباده دون الله سبحانه،و لو قالوا:إنما نعبد الله وحده و نرجو مع ذلک أن يشفع لنا ملائكته أو رسله و أولياؤه بإذنه أو نتوسل إلى الله بتعظيم شعائره و حب أوليائه،لما كفروا بذلک بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبه فى الإسلام هى وجهه و ليست بمعبوده،و إنما يعبد بالتوجه إليها الله.

و ليت شعرى ما ذا يقول هؤلاء فى الحجر الأسود و ما شرع فى الإسلام من استلامه و تقبيله؟و كذا فى الكعبه؟فهل ذلک كله من الشرک المستثنى من حكم الحرمه؟فالحكم حكم ضرورى عقلى لا يقبل تخصصا و لا استثناء،أو أن ذلک من عباده الله محضا و للحجر حكم الطريق و الجهه،و حينئذ فما الفرق بينه و بين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال و تمحيض العباده،و مطلقات تعظيم شعائر الله و تعزير النبى ص و حبه و مودته و حب أهل بيته و مودتهم و غير ذلک فى محلها.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۵۰ الی ۶۰]

اشاره

وَ إِلیٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ (۵۰) یٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِیَ
إِلاّٰ عَلَی اَلَّذِی فَطَرَنِی أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ یٰا قَوْمِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُرْسِلِ اَلسَّمٰاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرٰاراً وَ یَزِدْکُمْ قُوَّةً إِلیٰ
قُوَّتِکُمْ وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِینَ (۵۲) قٰالُوا یٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَیِّنَةٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِکِی آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِکَ وَ مٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ (۵۳) إِنْ
نَقُولُ إِلاَّ اِعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ قٰالَ إِنِّی أُشْهِدُ اَللّٰهَ وَ اِشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لاٰ
تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اَللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ مٰا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّٰ هُوَ آخِذٌ بِنٰاصِیَتِهٰا إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ
أَبْلَغْتُکُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَیْئاً إِنَّ رَبِّی عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۵۷) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا
نَجَّیْنٰا هُوداً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ نَجَّیْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِیظٍ (۵۸) وَ تِلْکَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اِتَّبَعُوا
أَمْرَ کُلِّ جَبّٰارٍ عَنِیدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا لَعْنَةً وَ یَوْمَ اَلْقِیٰامَةِ أَلاٰ إِنَّ عٰاداً کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

(بيان)

تذكر الآيات قصه هود النبى و قومه و هم عاد الأولى،و هو(ع)أول نبى يذكره الله تعالى فى كتابه بعد نوح(ع)،و يشكر مسعاه فى إقامه الدعوه الحقه و الانتهاض على الوثنيه، و يعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود،قال تعالى فى عده مواضع من كلامه:« قَوْمِ نُوحٍ وَ عٰادٍ وَ ثَمُودَ ».

قوله تعالى:« وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً »كان أخاهم فى النسب لكونه منهم و أفراد القبيله يسمون إخوه لانتسابهم جميعا إلى أب القبيله،و الجمله معطوفه على قوله تعالى سابقا:« نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ »و التقدير:«و لقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا»و لعل حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول فى المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل:« وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ »إلخ،و لم يقل:و هودا إلى عاد مثلا كما قال:« نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ »لأن دلاله الظرف أعنى:« إِلىٰ عٰادٍ »على تقدير الإرسال أظهر و أوضح.

قوله تعالى:« قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ » الكلام وارد مورد الجواب كان السامع لما سمع قوله:« وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً » قال:فما ذا قال لهم؟فقيل:« قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ »إلخ،و لذا جىء بالفصل من غير عطف.

و قوله:« اُعْبُدُوا اللّٰهَ »فى مقام الحصر أى اعبدوه و لا تعبدوا غيره من آلهه اتخذتموها أربابا من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى.و الدليل على الحصر المذكور قوله بعد:« مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُفْتَرُونَ »حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهه يعبدونها افتراء على الله بالشركه و الشفاعه.

قوله تعالى:« يٰا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً »إلى آخر الآيه،قال فى المجمع، الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر،و منه فطر الله الخلق لأنه بمنزله ما شق منه فظهر.انتهى، و قال الراغب:أصل الفطر الشق طولا يقال:

فطر فلان كذا فطرا و أفطر هو فطورا و انفطر انفطارا-إلى أن قال-و فطر الله

الخلق و هو إيجاد الشیء و إبداعه علی هیئه مترشحه لفعل من الأفعال فقوله: فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها إشاره منه تعالی إلی ما فطر أی أبدع و رکز فی الناس من معرفته،و فطره الله هی ما رکز فیه من قوته علی معرفه الإیمان و هو المشار إلیه بقوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَیَقُولُنَّ اللّهُ .انتهی.

و الظاهر أن الفطر هو الإیجاد عن عدم بحت،و الخصوصیه المفهومه من مثل قوله:« فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها »إنما نشأت من بناء النوع الذی تشتمل علیه فطره و هی فعله،و علی هذا فتفسیر بعضهم الفطره بالخلقه بعید من الصواب، و إنما الخلق هو إیجاد الصوره عن ماده علی طریق جمع الأجزاء،قال تعالی :«وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَهِ الطَّیْرِ:» المائده:-۱۱۰.

و الکلام مسوق لرفع التهمه و العبث و المعنی یا قوم لا أسألکم علی ما أدعوکم أجرا و جزاء حتی تتهمونی أنی أستدر به نفعا یعود إلی و إن أضر بکم،و لست أدعوکم من غیر جزاء مطلوب حتی یکون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذی أوجدنی و أبدعنی أ فلا تعقلون عنی ما أقوله لکم حتی یتضح لکم أنی ناصح لکم فی دعوتی،ما أرید إلا أن أحملکم علی الحق.

قوله تعالی:« وَ یا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیْکُمْ مِدْراراً »إلی آخر الآیه تقدم الکلام فی معنی قوله:« اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ » فی صدر السوره.

و قوله:« یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیْکُمْ مِدْراراً »فی موقع الجزاء لقوله:« اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ »إلخ،أی إن تستغفروه و تتوبوا إلیه یرسل السماء علیکم مدرارا،و المراد بالسماء السحاب فإن کل ما علا و أظل فهو سماء،و قیل المطر و هو شائع فی الاستعمال، و المدرار مبالغه من الدر،و أصل الدر اللبن ثم أستعیر للمطر و لکل فائده و نفع فإرسال السماء مدرارا إرسال سحب تمطر أمطارا متتابعه نافعه تحیی بها الأرض و ینبت الزرع و العشب،و تنضر بها الجنات و البساتین.

و قوله:« وَ یَزِدْکُمْ قُوَّهً إِلی قُوَّتِکُمْ »قیل المراد بها زیاده قوه الإیمان علی قوه الأبدان و قد کان القوم أولی قوه و شده فی أبدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت

قوه الإیمان علی قوه أبدانهم و قیل المراد بها قوه الأبدان کما قال نوح لقومه :

«اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کٰانَ غَفّٰاراً یُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرٰاراً وَ یُمْدِدْکُمْ بِأَمْوٰالٍ وَ بَنِینَ:» نوح:-۱۲ و لعل التعمیم أولی.

و قوله:« وَ لاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِینَ »بمنزله التفسیر لقوله:« اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ »أی إن عبادتکم لما اتخذتموه من الآلهه دون الله إجرام منکم و معصیه توجب نزول السخط الإلهی علیکم فاستغفروا الله من إجرامکم و ارجعوا إلیه بالإیمان حتی یرحمکم بإرسال سحب هاطله ممطره و زیاده قوه إلی قوتکم.

و فی الآیه«أولا»إشعار أو دلاله علی أنهم کانوا مبتلین بإمساک السماء و الجدب و السنه کما ربما أومأ إلیه قوله:« یُرْسِلِ السَّمٰاءَ »و کذا قولهم علی ما حکاه الله تعالی فی موضع آخر :«فَلَمّٰا رَأَوْهُ عٰارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قٰالُوا هٰذٰا عٰارِضٌ مُمْطِرُنٰا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِیحٌ فِیهٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ:» الأحقاف:-۲۴.

و ثانیا:أن هناک ارتباطا تاما بین الأعمال الإنسانیه و بین الحوادث الکونیه التی تمسه فالأعمال الصالحه توجب فیضان الخیرات و نزول البرکات،و الأعمال الطالحه تستدعی تتابع البلایا و المحن،و تجلب النقمه و الشقوه و الهلکه کما یشیر إلیه قوله تعالی :«وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ:» XالآیهXالأعراف:-۹۶،و قد تقدم تفصیل الکلام فیه فی بیان الآیات ۹۴-۱۰۲ من سوره الأعراف فی الجزء الثامن من الکتاب،و فی أحکام الأعمال فی الجزء الثانی منه.

قوله تعالی:« قٰالُوا یٰا هُودُ مٰا جِئْتَنٰا بِبَیِّنَهٍ وَ مٰا نَحْنُ بِتٰارِکِی آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِکَ وَ مٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ »سألهم هود فی قوله:« یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ »إلی آخر الآیات الثلاث أمرین هما أن یترکوا آلهتهم و یعودوا إلی عباده الله وحده و أن یؤمنوا به و یطیعوه فیما ینصح لهم فردوا علیه القول بما فی هذه الآیه إجمالا و تفصیلا:

أما إجمالا فبقولهم:« مٰا جِئْتَنٰا بِبَیِّنَهٍ »یعنون أن دعوتک خالیه عن الحجه و الآیه المعجزه و لا موجب للإصغاء إلی ما هذا شأنه.

و أما تفصیلا فقد أجابوا عن دعوته إیاهم إلی رفض الشرکاء بقولهم:« وَ مٰا

نَحْنُ بِتٰارِکِی آلِهَتِنٰا عَنْ قَوْلِکَ

»و عن دعوته إیاهم إلی الإیمان و الطاعه بقولهم:« وَ مٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ »فآیسوه فی کلتا المسألتین.

ثـم ذکروا له مـا ارتـأوا فیه من الرأی لییأس من إجـابتهم بـالمره فقـالوا: « إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ »و الاعتراء الاعتراض و الإصابه یقولون:إنما نعتقـد فی أمرک أن بعض آلهتنا أصابک بسوء کالخبل و الجنون لشـتمک إیاها و ذکرک لها بسوء فذهب بذلک عقلک فلا یعبأ بما تفوهت به فی صوره الدعوه.

قوله تعـالی:« قٰالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللّٰهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ »أجاب هود(ع)عن قولهم بإظهار البراءه من شرکائهم من دون الله ثم التحدی علیهم بأن یکیدوا به جمیعا و لا ینظروه.

فقوله:« أَنِّی بَرِیءٌ مِمّٰا تُشْرِکُونَ مِنْ دُونِهِ »إنشاء و لیس بإخبار کما هو المناسب لمقام التبری،و لا ینافی ذلک کونه بریئا من أول أمره فإن التبرز بالبراءه لا ینافی تحققها من قبل،و قوله:« فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ »أمر و نهی تعجیزیان.

و إنمـا أجـاب(ع)بمـا أجـاب لیشاهـد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه(ع)بسوء مع تبرزه بالبراءه،و لو کانت آلهه ذات علم و قـدره لقهرته و انتقمت منه لنفسـها کمـا ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء و هـذه حجه بینه علی أنها لیست بآلهه و علی أنها لم تعتره بسوء کما ادعوه،ثم یشاهـدوا من أنفسـهم أنهم لا یقـدرون علیه بقتل أو تنکیل مع کونهم ذوی شده و قوه لا یعادلهم غیرهم فی الشده و البطش،و لو لا أنه نبی من عند الله صادق فی ما یقوله مصون من عند ربه لقدروا علیه بکل ما أرادوه من عذاب أو دفع.

و من هنـا یظهر وجه إشـهاده(ع)فی تبریه ربه سـبحانه و قومه أمـا إشـهاده الله فلیکون تبریه علی حقیقته و عن ظهر القلب من غیر تزویق و نفاق،و أما إشـهاده إیاهم فلیعلموا به ثم یشاهدوا ما یجری علیه الأمر من سـکوت آلهتهم و عجز أنفسهم من الانتقام منه و من تنکیله.

و ظهر أیضا صـحه ما احتمله بعضهـم أن هذا التعجیز هو معجزه هود(ع) و ذلک أن ظاهر الجواب أن یقطع به ما ذکر من الرد فی صوره الحجه،و فیها

قولهم:« مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ »و من المستبعد جدا أن يهمل النبى هود(ع)فى دعوته و حجته التعرض للجواب عنه مع كون هذا التحدى و التعجيز صالحا فى نفسه لأن يتخذ آيه معجزه كما أن التبرى من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهه من دون الله و عن أن بعض آلهتهم لم يعتره بسوء.

فالحق أن قوله:« إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا »إلى آخر الآيتين مشتمل على حجه عقليه على بطلان ألوهيه الشركاء،و على آيه معجزه لصحه رساله هود(ع).

و فى قوله:« جَمِيعاً »إشاره إلى أن مراده تعجيزهم و تعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتم دلاله على كونه على الحق و كونهم على الباطل.

قوله تعالى:« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ »إلى آخر الآيه.لما كان الأمر الذى فى صوره التعجيز صالحا لأن يكون بداعى إظهار عجز الخصم و عدم قدرته،و صالحا لأن يصدر بداعى أن الآمر لا يخاف الخصم و إن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويفه و إكراهه على الطاعه و حمله على ما يريد منه كقول السحره لفرعون :«فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا:» طه:-٧٢.

و كان قوله:« فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ »محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنه لا يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا،عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله:« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ »فذكر أنه متوكل فى أمره على الله الذى هو يدبر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله:« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »فذكر أنه ناجح فى توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنه واحده هى نصره الحق و إظهاره على الباطل إذا تقابلا و تغالبا.

فتبريه من أصنامهم و تعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله:« فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ »ثم لبثه بينهم فى عافيه و سلامه لا يمسونه بسوء و لا يستطيعون أن ينالوه بشر آيه معجزه و حجه سماويه على أنه رسول الله إليهم.

و قوله:« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » الدابه كل ما يدب فى الأرض من أصناف الحيوان،و الأخذ بالناصيه كنايه عن كمال

السلطه و نهایه القدره،و کونه تعالی علی صراط مستقیم هو کون سنته فی الخلیقه واحده ثابته غیر متغیره و هو تدبیر الأمور علی منهاج العدل و الحکمه فهو یحق الحق و یبطل الباطل إذا تعارضا.

فالمعنی أنی توکلت علی الله ربی و ربکم فی نجاه حجتی التی ألقیتها إلیکم و هو التبرز بالبراءه من آلهتکم و أنکم و آلهتکم لا تضروننی شیئا فإنه المالک ذو السلطنه علی و علیکم و علی کل دابه،و سنته العادله ثابته غیر متغیره فسوف ینصر دینه و یحفظنی من شرکم.

و لم یقل:«إن ربی و ربکم علی صراط مستقیم»علی وزان قوله:« عَلَى اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ »فإنه فی مقام الدعاء لنفسه علی قومه یتوقع أن یحفظه الله من شرهم، و هو یأخذه تعالی ربا بخلاف القوم فکان الأنسب أن یعده ربا لنفسه و یستمسک برابطه العبودیه التی بینه و بین ربه حتی ینجح طلبته،و هذا بخلاف مقام قوله:

« تَوَکَّلْتُ عَلَى اللّٰهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ »فإنه یرید هناک بیان عموم السلطه و الإحاطه.

قوله تعالی:« فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ »و هذه الجمله من کلامه(ع)ناظر إلی قولهم فی آخر جدالهم:« إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرٰاکَ بَعْضُ آلِهَتِنٰا بِسُوءٍ »الدال علی أنهم قاطعون علی أن لا یؤمنوا به و دائمون علی الجحد،و المعنی إن تتولوا و تعرضوا عن الإیمان بی و الإطاعه لأمری فقد أبلغتکم رساله ربی و تمت علیکم الحجه و لزمتکم البلیه.

قوله تعالی:« وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَیْئاً إِنَّ رَبِّی عَلىٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ »هذا وعید و إخبار بالتبعه التی یستتبعها إجرامهم،فإنه کان وعدهم إن یستغفروا الله و یتوبوا إلیه أن یرسل السماء علیهم مدرارا و یزید قوه إلی قوتهم، و نهاهم أن یتولوا مجرمین ففیه العذاب الشدید.

و قوله:« وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ »أی یجعل قوما غیرکم خلفاء فی الأرض مکانکم فإن الإنسان خلیفه منه فی الأرض کما قال تعالی :«إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً:» البقره:-۳۰،و قد کان(ع)بین لهم أنهم خلفاء فی الأرض من بعد قوم نوح کما قال تعالی حکایه عن قوله لقومه :«وَ اذْکُرُوا إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ

نُوحٍ وَ زٰادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً:» XالآيهX،الأعراف:-۶۹.

و ظاهر السياق أن الجمله الخبريه معطوفه على أخرى مقدره،و التقدير:

و سيذهب بكم ربى و يستخلف قوما غيركم على حد قوله :«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مٰا يَشٰاءُ:» الأنعام:-۱۳۳.

و قوله:« وَ لاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً »ظاهر السياق أنه تتمه لما قبله أي لا تقدرون على إضراره بشىء من الفوت و غيره إن أراد أن يهلككم و لا أن تعذيبكم و إهلاككم يفوت منه شيئا مما يريده فإن ربى على كل شىء حفيظ لا يعزب عن علمه عازب و لا يفوت من قدرته فائت،و للمفسرين فى الآيه وجوه أخر بعيده عن الصواب أعرضنا عنها.

قوله تعالى:« وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ »المراد بمجىء الأمر نزول العذاب و بوجه أدق صدور الأمر الإلهى الذى يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالى :«وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَهٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ فَإِذٰا جٰاءَ أَمْرُ اللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنٰالِكَ الْمُبْطِلُونَ:» المؤمن:-۷۸.

و قوله:« بِرَحْمَهٍ مِنّٰا »الظاهر أن المراد بها الرحمه الخاصه بالمؤمنين المستوجبه نصرهم فى دينهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهى و عذاب الاستئصال،قال تعالى :

«إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ:» المؤمن:-۵۱.

و قوله:« وَ نَجَّيْنٰاهُمْ مِنْ عَذٰابٍ غَلِيظٍ »ظاهر السياق أنه العذاب الذى شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبه إلى ما قبله،و قيل:المراد به عذاب الآخره و ليس بشىء.

قوله تعالى:« وَ تِلْكَ عٰادٌ جَحَدُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبّٰارٍ عَنِيدٍ »الآيه و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصه عاد فأول التلخيصين قوله:« وَ تِلْكَ عٰادٌ -إلى قوله- وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ »يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمه و الموعظه و الآيه المعجزه التى أبانت لهم طريق الرشد و ميزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل الله و هو ظاهر قوله فى موضع آخر :«كَذَّبَتْ عٰادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لاٰ تَتَّقُونَ:» الشعراء:-١٢۴. و يشعر به أيضا قوله :

«وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ:» الأحقاف:-٢١،و من الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا إليهم فيما بين هود و نوح(ع)لم يذكروا فى الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و اتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو إليه،و الجبار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق،فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعه الجبابره.

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله: « وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ » أى و أتبعهم الله فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من الرحمه،و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقبهم فلحق بهم،أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنوا سنه الإشراك و الكفر لمن بعدهم،قال تعالى :«وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ:» يس:-١٢.

و قيل:المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، و من أدرك آثارهم،و كل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامه فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامه يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآيه:« وَ أُتْبِعُوا »بقوله:« وَ أُتْبِعُوا »لطف ظاهر.

قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ قَوْمِ هُودٍ »أى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا إليه لخص به

التلخيص الأول فقوله:« أَلاٰ إِنَّ عٰاداً »إلـخ،يحاذى به وصف حالهم المـذكور فى قوله:« وَ تِلْکَ عٰادٌ جَحَدُوا »إلخ،و قوله:« أَلاٰ بُعْداً لِعٰادٍ »إلخ،يحاذى به قوله:« وَ أُتْبِعُوا فِی هٰذِهِ الدُّنْيٰا لَعْنَةً »إلخ.

و يتأيـد من هـذه الجمله أن المراد بـاللعنه السـابقه اللعنه الإلـهيه دون لعن النـاس، و الأنسب به أحـد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثه السابقه و خاصه الوجه الثانى دون الوجه الثالث.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى،عن أبى عمرو السعدى قال:قال على بن أبى طالب(ع):

فى قـوله:« إِنَّ رَبِّی عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ »يعنى أنـه على حـق يجزى بالإحسـان إحسانـا، و بالسـيئ سـيئا، و يعفـو عمـن يشـاء و يغفر،سبحانه و تعالى.

أقول:و قد تقدم توضيحه،

و قـد ورد فى الروايه عنهم(ع): أن عـادا كـانت بلادهم فى البـاديه،و كـان لهم زرع و نخيـل كثيره،و لهم أعمار طويله و أجساد طويله فعبـدوا الأصـنام،و بعث الله إليهم هودا يـدعوهم إلى الإسـلام و خلع الأنـداد- فـأبوا و لم يؤمنوا بهود و آذوه-فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا. الحديث.

و روى إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنه عن الضحاك أيضا قال":

أمسك عن عاد القطر ثلاث سـنين-فقال لهم هود:« اِسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ-يُرْسِلِ السَّمٰاءَ عَلَيْکُمْ مِدْرٰاراً »فأبوا إلا تماديا ،و قد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشاره إليه.

و اعلم أن الروايات فى قصه هود و عاد كثيره إلا أنها تشتمل على أمور لا سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب و لا إلى تأييدها بالاعتبار و لذلک طوينا ذكرها.

و ورد أيضا أخبار أخر من طرق الشـيعه و أهل السـنه فى وصف جنه عاد التى تنسب إلى شـداد الملك و هى المذكوره فى قوله تعالى :«إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی الْبِلاٰدِ:» الفجر:-٨،و سيأتى الكلام عليها إن شاء الله تعالى فى تفسير سوره الفجر.

(كلام فی قصه هود)

۱-عاد قوم هود:

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيره انقطعت أخبارهم و انمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمئن إليها و ليس فی التوراه الموجوده منهم ذكر.

و الذی يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عادا-و ربما يسميهم عادا الأولی(النجم:۵۰)و فيه إشاره إلی أن هناک عادا ثانيه-كانوا قوما يسكنون الأحقاف (۱)من شبه جزيره العرب»الأحقاف:۲۱)بعد قوم نوح(الأعراف:۶۹).

كانت لهم أجساد طويله(القمر:۲۰،الحاقه:۷)و كانوا ذوی بسطه فی الخلق(الأعراف:۶۹)أولی قوه و بطش شديد(حم السجده:۱۵،الشعراء:

۱۳۰)و كان لهم تقدم و رقی فی المدنيه و الحضاره،لهم بلاد عامره و أراض خصبه ذات جنات و نخيل و زروع و مقام كريم(الشعراء و غيرها)،و ناهيک فی رقيهم و عظيم مدنيتهم قوله تعالی فی وصفهم :«أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعٰادٍ إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی الْبِلاٰدِ:» الفجر:-۸.

لم يزل القوم يتنعمون بنعمه الله حتی غيروا ما بأنفسهم فتعرقت فيهم الوثنيه و بنوا بكل ريع آيه يعبثون و اتخذوا مصانع لعلهم يخلدون و أطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هودا يدعوهم إلی الحق و يرشدهم إلی أن يعبدوا الله و يرفضوا الأوثان،و يعملوا بالعدل و الرحمه(الشعراء:۱۳۰)فبالغ فی وعظهم و بث النصيحه فيهم،و أنار الطريق و أوضح السبيل،و قطع عليهم العذر فقابلوه بالآباء و الامتناع،و واجهوه بالجحد و الإنكار و لم يؤمن به إلا شرذمه منهم قليلون و أصر جمهورهم علی البغی و العناد،و رموه بالسفه و الجنون،و ألحوا عليه بأن ينزل

۱- ۱) الأحقاف جمع حقف و الرمل المعوج،و الأحقاف المذكور فی الكتاب العزيز واد بين عمان و أرض مهره و قيل من عمان إلی حضرموت و هی و مال مشرفه علی البحر بالشحر و قال الضحاک:الأحقاف جبل بالشام(المراصد).

علیهم العذاب الذی کان ینذرهم و یتوعدهم به قال :«إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ أُبَلِّغُکُمْ مٰا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لٰکِنِّی أَرٰاکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ :الأحقاف:-٢٣.

فأنزل الله علیهم العذاب و أرسل إلیهم الریح العقیم ما تذر من شیء أتت علیه إلا جعلته کالرمیم(الذاریات:۴۲)ریحا صرصرا فی أیام نحسات سبع لیال و ثمانیه أیام حسوما فتری القوم فیها صرعی کأنهم أعجاز نخل خاویه(الحاقه:٧)و کانت تنزع الناس کأنهم أعجاز نخل منقعر(القمر:٢٠).

و کانوا بادئ ما رأوه عارضا مستقبل أودیتهم استبشروا و قالوا:عارض ممطرنا و قد أخطئوا بل کان هو الذی استعجلوا به ریح فیها عذاب ألیم تدمر کل شیء بأمر ربها فأصبحوا لا یری إلا مساکنهم(الأحقاف:٢۵)فأهلکهم الله عن آخرهم و أنجی هودا و الذین آمنوا معه برحمه منه(هود:۵٨).

٢-شخصیه هود المعنویه:

و أما هود(ع)فهو من قوم عاد و ثانی الأنبیاء الذین انتهضوا للدفاع عن الحق و دحض الوثنیه ممن ذکر الله قصته و ما قاساه من المحنه و الأذی فی جنب الله سبحانه، و أثنی علیه بما أثنی علی رسله الکرام و أشرکه بهم فی جمیل الذکر علیه سلام الله.

[سوره هود (١١): الآیات ۶١ الی ۶٨]

اشاره

وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ وَ اِسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِیبٌ مُجِیبٌ (۶١) قٰالُوا یٰا صٰالِحُ قَدْ کُنْتَ فِینٰا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذٰا أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا وَ إِنَّنٰا لَفِی شَکٍّ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَیْهِ مُرِیبٍ (۶٢) قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتٰانِی مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ یَنْصُرُنِی مِنَ اَللّٰهِ إِنْ عَصَیْتُهُ فَمٰا تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ (۶٣) وَ یٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَةُ اَللّٰهِ لَکُمْ آیَةً فَذَرُوهٰا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اَللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذٰابٌ قَرِیبٌ (۶۴) فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَةَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ (۶۵) فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا صٰالِحاً وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ اَلْقَوِیُّ اَلْعَزِیزُ (۶۶) وَ أَخَذَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا اَلصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (۶٧) کَأَنْ لَمْ یَغْنَوْا فِیهٰا أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ کَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ (۶٨)

(بیان)

تذکر الآیات الکریمه قصه صالح النبی(ع)و قومه و هم ثمود،و هو(ع) ثالث الأنبیاء القائمین بدعوه التوحید الناهضین علی الوثنیه.دعا ثمود إلی التوحید و تحمل الأذی و المحنه فی جنب الله حتی قضی بینه و بین قومه بهلاکهم و نجاته و نجاه من معه من المؤمنین.

قوله تعالی:« وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ »تقدم الکلام فی نظیره الآیه فی قصه هود.

قوله تعالی:« هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا »إلی آخر الآیه.

قال الراغب الإنشاء إیجاد الشیء و تربیته و أکثر ما یقال ذلک فی الحیوان قال:

« هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ ».انتهی،و قال: العماره ضد الخراب یقال:عمر أرضه یعمرها عماره قال:« وَ عِمٰارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ »یقال:

عمرته فعمر فهو معمور قال:« وَ عَمَرُوهٰا أَکْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا »« وَ الْبَیْتِ الْمَعْمُورِ » و أعمرته الأرض و استعمرته إذا فوضت إلیه العماره قال:« وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیهٰا »

انتهى، فالعماره تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقبه منها كعماره الدار للسكنى و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحديقه لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و الاستعمار هو طلب العماره بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامره تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

و على ما مر يكون معنى قوله:« هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا » -و الكلام يفيد الحصر-أنه تعالى هو الذى أوجد على المواد الأرضيه هذه الحقيقه المسماه بالإنسان ثم كملها بالتربيه شيئا فشيئا و أفطره على أن يتصرف فى الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها فى حياته، و يرفع بها ما يتنبه له من الحاجه و النقيصه أى إنكم لا تفتقرون فى وجودكم و بقائكم إلا إليه تعالى و تقدس.

فقول صالح:« هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهٰا »فى مقام التعليل و حجه يستدل بها على ما ألقاه إليهم من الدعوه بقوله:« يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ »و لذلك جىء بالفصل كأنه قيل له:لم نعبده وحده؟فقال:

لأنه هو الذى أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها.

و ذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان و يتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون-على مزعمتهم-إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم و أرفع و أبعد من أن تناله عباده أو ترتفع إليه مسأله،و لا بد للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفه التى فوض إليه أمر هذا العالم الأرضى و تدبير النظام الجارى فيه و نتقرب بالتضرع إليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات،و لا يسخط علينا و نأمن بذلك الشرور،و هذا الإله الرب بالحقيقه شفيعنا عند الله لأنه إله الآلهه و رب الأرباب،و إليه يرجع الأمر كله.

فدين الوثنيه مبنى على انقطاع النسبه بين الله سبحانه و بين الإنسان و استقرارها بينه و بين تلك الوسائط الشريفه التى يتوجهون إليها مع استقلال هذه الوسائط فى التأثير،و شفاعتها عند الله.

و لما كان الله تعالى هو الذى أنشأ الإنسان من الأرض و استعمره فيها فهو تعالى ذو نسبه إلى الإنسان قريب منه،و لا استقلال لشىء من هذه الأسباب التى

نظمها و أجراها فی هذا العالم حتی یرجی منها خیر بالإرضاء أو یترقب شر بالإسخاط.

فالله سبحانه هو الذی یجب أن یعبد فیرجی بذلک رضاه،و یتقی بذلک سخطه لمکان أنه هو الخالق للإنسان و لکل شیء المدبر أمره و أمر کل شیء فقوله:

« هُوَ أَنْشَأَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِيهٰا »مسوق لتعلیل سابقه و الاحتجاج علیه من طریق إثبات النسبه بینه تعالی و بین الإنسان و نفی الاستقلال من الأسباب.

و لذلک عقبه بقوله:« فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »علی وجه التفریع أی فإذا کان الله تعالی هو الذی یجب علیکم أن تعبدوه و تترکوا غیره لکونه هو خالقکم المدبر لأمر حیاتکم فاسألوه أن یغفر لکم معصیتکم بعباده غیره،و ارجعوا إلیه بالإیمان به و عبادته.إنه قریب مجیب.

و قد علل قوله:« فَاسْتَغْفِرُوهُ »إلخ،بقوله:« إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ » لأنه استنتج من حجته المذکوره أنه تعالی یقوم بإیجاد الإنسان و تربیته و تدبیر أمر حیاته،و أنه لا استقلال لشیء من الأسباب العماله فی الکون بل الله تعالی هو الذی یسوق هذا إلی هنا،و یصرف ذاک عن هناک فهو تعالی الحائل بین الإنسان و بین حوائجه و جمیع الأسباب العماله فیها،القریب منه لا کما یزعمون أنه لا یدرکه فهم و لا یناله عباده و قربان،و إذا کان قریبا فهو مجیب،و إذا کان قریبا مجیبا و هو الله لا إله غیره فمن الواجب أن یستغفروه ثم یتوبوا إلیه.

قوله تعالی:« قٰالُوا يٰا صٰالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينٰا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذٰا أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا »إلخ،الرجاء إنما یتعلق بالإنسان لا من جهه ذاته بل من جهه أفعاله و آثاره،و لا یرجی منها إلا الخیر و النفع فکونه مرجوا هو أن یوجد ذا رشد و کمال فی شخصه و بیته فیستهل منه الخیر و یترقب منه النفع،و قوله:« قَدْ كُنْتَ فِينٰا » دلیل علی کونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم:« يٰا صٰالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينٰا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذٰا »معناه أن ثمود کانت ترجو منک أن تکون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتک مجتمعهم و تحمل الأمه علی صراط الترقی و التعالی لما کانت تشاهد فیک من أمارات الرشد و الکمال لکنهم یئسوا منک و من رزانه رأیک الیوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

و قولهم:« أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا »استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه،و الاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامه سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه،و استمرار إقامه السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت،و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و الدليل على ما ذكرنا قوله:« أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا »الدال على معنى العباده المستمره باتصال عباده الأبناء بعباده الآباء و لم يقل:أ تنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؟و الفرق بين التعبيرين من جهه المعنى واضح.

و من هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار و غيره قوله:« أَنْ نَعْبُدَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا »بقولهم:«أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا»من الخطإ.

و قوله:« وَ إِنَّنٰا لَفِي شَكٍّ مِمّٰا تَدْعُونٰا إِلَيْهِ مُرِيبٍ »حجه ثانيه لهم فى رد دعوه صالح(ع)،و حجتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآيه و محصلها أن ما تدعو إليه من رفض عباده الأصنام بدعه منكره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنيان مليتهم،و تميت ذكرهم فعلينا أن نرده،و الثانيه أنك لم تأت بحجه بينه على ما تدعو إليه تورث اليقين و تميط الشك عنا فنحن فى شك مريب مما تدعونا إليه و ليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شك منا فيه.

و الإرابه الاتهام و إساءه الظن يقال:رابنى منه كذا إذا أوجب فيه الشك و أرابنى كذا إرابه إذا حملك على اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالى:« قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّي وَ آتٰانِي مِنْهُ رَحْمَهً » إلى آخر الآيه.المراد بالبينه الآيه المعجزه و بالرحمه النبوه،و قد تقدم الكلام فى نظير الآيه من قصه نوح(ع)فى السوره.

و قوله:« فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّٰهِ إِنْ عَصَيْتُهُ »جواب الشرط،و حاصل المعنى:

أخبرونى إن كنت مؤيدا بآيه معجزه تنبئ عن صحه دعوتى و أعطانى الله الرساله فأمرنى بتبليغ رسالته فمن ينجنى من الله و يدفع عنى إن أطعتكم فيما تسألون و وافقتكم فيما تريدونه منى و هو ترك الدعوه.

ص :٣١٢

ففی الکلام جواب عن کلتا حجتیهم و اعتذار عما لاموه علیه من الدعوه المبتدعه.

و قوله:« فَمٰا تَزِیدُونَنِی غَیْرَ تَخْسِیرٍ »تفریع علی قوله السابق الذی ذکره فی مقام دحض الحجتین و الاعتذار عن مخالفتهم و القیام بدعوتهم إلی خلاف سنتهم القومیه فالمعنی فما تزیدوننی فی حرصکم علی ترک الدعوه و الرجوع إلیکم و اللحوق بکم غیر أن تخسرونی فما مخالفه الحق إلا خساره.

و قیل:المراد أنکم ما تزیدوننی فی قولکم: أَ تَنْهٰانٰا أَنْ نَعْبُدَ مٰا یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا ؟ غیر نسبتی إیاکم إلی الخساره.و قیل:المعنی ما تزیدوننی إلا بصیره فی خسارتکم و الوجه الأول أوجه.

قوله تعالی:« وَ یٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَهُ اللّٰهِ لَکُمْ آیَهً فَذَرُوهٰا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذٰابٌ قَرِیبٌ »إضافه الناقه إلی الله إضافه تشریف کبیت الله و کتابه الله.و کانت الناقه آیه معجزه له(ع)تؤید نبوته،و قد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله،و قال لهم:أنها تأکل فی أرض الله محرره، و حذرهم أن یمسوها بسوء أی یصیبوها بضرب أو جرح أو قتل.و أخبرهم أنهم إن فعلوا ذلک أخذهم عذاب قریب معجل،و هذا معنی الآیه.

قوله تعالی:« فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ » عقر الناقه نحرها،و الدار هی المکان الذی یبنیه الإنسان فیسکن فیه و یأوی إلیه هو و أهله،و المراد بها فی الآیه المدینه سمیت دارا لأنها تجمع أهلها کما تجمع الدار أهلها،و قیل المراد بالدار الدنیا،و هو بعید.

و المراد بتمتعهم فی مدینتهم العیش و التنعم بالحیاه لأن الحیاه الدنیا متاع یتمتع به،أو الالتذاذ بأنواع النعم التی هیئوها فیها من مناظر ذات بهجه و الأثاث و المأکول و المشروب و الاسترسال فی أهواء أنفسهم.

و قوله:« ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ »الإشاره إلی قوله:« تَمَتَّعُوا »إلخ،و« وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ »بیان له.

قوله تعالی:« فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا صٰالِحاً »إلی آخر الآیه.أما قوله:« فَلَمّٰا

جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا صٰالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا

»فقد تقدم الكلام فى مثله فى قصه هود.

و أما قوله:« وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ »فمعطوف على محذوف و التقدير نجيناهم من العذاب و من خزى يومئذ،و الخزى العيب الذى تظهر فضيحته و يستحيى من إظهاره أو أن التقدير:نجيناهم من القوم و من خزى يومئذ على حد قوله:« وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ ».

و قوله:« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ »فى موضع التعليل لمضمون صدر الآيه و فيه التفات من التكلم بالغير إلى الغيبه،و قد تقدم نظيره فى آخر قصه هود فى قوله:« أَلاٰ إِنَّ عٰاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ »و الوجه فيه ذكر صفه الربوبيه ليدل به على خروجهم من زى العبوديه و كفرهم بالربوبيه و كفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالى:« وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ »يقال:

جثم جثوما إذا وقع على وجهه،و الباقى ظاهر.

قوله تعالى:« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا »غنى بالمكان أى أقام فيه و الضمير راجع إلى الديار.

قوله تعالى:« أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ »الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصه فالجمله الأولى تلخيص ما انتهى إليه أمر ثمود و دعوه صالح (ع)،و الثانيه تلخيص ما جازاهم الله به،و قد تقدم نظيره الآيه فى آخر قصه هود.

(بحث روائى)

فى الكافى،مسندا عن أبى بصير عن أبى عبد الله(ع)قال: قلت له:« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ- فَقٰالُوا أَ بَشَراً مِنّٰا وٰاحِداً نَتَّبِعُهُ-إِنّٰا إِذاً لَفِي ضَلاٰلٍ وَ سُعُرٍ »قال:هذا فيما كذبوا صالحا،و ما أهلك الله عز و جل قوما قط-حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم-.

فبعث الله إليهم صالحا فلم يجيبوه و عتوا عليه،و قالوا لن نؤمن لك حتى

تخرج إلينا من هذه الصخره ناقه عشراء-و كانت الصخره يعظمونها و يعبدونها-و يذبحون عندها فى رأس كل سنه و يجتمعون عندها،فقالوا:إن كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك-حتى يخرج لنا من هذه الصخره الصماء ناقه عشراء-فأخرجها الله كما طلبوا منه-.

ثم أوحى الله تبارك و تعالى إليه أن يا صالح قل لهم:إن الله قد جعل لهذه الناقه لها شرب يوم و لكم شرب يوم-فكانت الناقه إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم- فيحبسونها فلا يبقى صغير و كبير-إلا شرب من لبنها يومهم ذلك-فإذا كان الليل و أصبحوا غدوا إلى مائهم-فشربوا منه ذلك اليوم و لم تشرب الناقه ذلك اليوم- فمكثوا بذلك ما شاء الله-.

ثم إنهم عتوا على الله و مشى بعضهم إلى بعض قال:اعقروا هذه الناقه و استريحوا منها-لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم و لها شرب يوم.ثم قالوا:من الذى يلى قتلها و نجعل له جعلا ما أحب؟فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا-لا يعرف له أب يقال له:قدار-شقى من الأشقياء مشئوم عليهم فجعلوا له جعلا-.

فلما توجهت الناقه إلى الماء الذى كانت ترده تركها-حتى شربت و أقبلت راجعه فقعد لها فى طريقها-فضربها بالسيف ضربه فلم يعمل شيئا-فضربها ضربه أخرى فقتلها- و خرت على الأرض على جنبها،و هرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل-فرغا ثلاث مرات إلى السماء،و أقبل قوم صالح-فلم يبق منهم أحد إلا شركه فى ضربته، و اقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير و لا كبير-إلا أكل منها-.

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم و قال:يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أ عصيتم أمر ربكم؟فأوحى الله تبارك و تعالى إلى صالح(ع):إن قومك قد طغوا و بغوا و قتلوا ناقه-بعثها الله إليهم حجه عليهم و لم يكن لهم فيها ضرر-و كان لهم أعظم المنفعه فقل لهم:إنى مرسل إليهم عذابى إلى ثلاثه أيام-فإن هم تابوا و رجعوا قبلت توبتهم و صددت عنهم،و إن هم لم يتوبوا و لم يرجعوا-بعثت إليهم عذابى فى اليوم الثالث-.

فأتاهم صالح و قال:يا قوم إنى رسول ربكم إليكم-و هو يقول لكم:إن تبتم و رجعتم و استغفرتم-غفرت لكم و تبت عليكم،فلما قال لهم ذلك[قالوا ظ]كانوا

أعتى ما قالوا و أخبث-و قالوا:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين-.

قال:يا قوم إنكم تصبحون غدا و وجوهكم مصفره،و اليوم الثانى وجوهكم محمره و اليوم الثالث وجوهكم مسوده-فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفره- فمشى بعضهم إلى بعض و قالوا:قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاه منهم:لا نسمع قول صالح و لا نقبل قوله و إن كان عظيما.فلما كان اليوم الثانى أصبحت وجوههم محمره-فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا:يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح-فقال العتاه منهم لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح-و لا تركنا آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها- و لم يتوبوا و لم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث-أصبحوا و وجوههم مسوده-فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا:يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاه منهم:قد أتانا ما قال لنا صالح-.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل-فصرخ لهم صرخه خرقت تلك الصرخه أسماعهم-و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم-و قد كانوا فى تلك الثلاثه الأيام قد تحنطوا- و تكفنوا و علموا أن العذاب نازل بهم-فماتوا جميعا فى طرفه عين:صغيرهم و كبيرهم-فلم يبق لهم ناعقه و لا راعيه و لا شىء إلا أهلكه الله-فأصبحوا فى ديارهم و مضاجعهم موتى- فأرسل الله إليهم مع الصيحه النار من السماء-فأحرقهم أجمعين،و كانت هذه قصتهم.

أقول:و اشتمال الحديث على أمور خارقه للعاده كشرب الناس جميعا من لبن الناقه و كذا تغير ألوان وجوههم يوما فيوما لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز،و قد نص القرآن الكريم بذلك،و بأنها كانت لها شرب يوم و لأهل المدينه كلهم شرب يوم معلوم.

و أما كون الصيحه من جبرئيل فلا ينافى كونها صاعقه سماويه نازله عليهم إماتتهم بصوتها و أحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبه حادث من الحوادث الكونيه خارق للعاده أو جار عليها إلى ملك روحانى إذا كان هو فى مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونيه من الموت و الحياه و الرزق و غيرها منسوبه إلى الملائكه العماله.

و قوله(ع):إنهم قد كانوا فى الثلاثه الأيام قد تحنطوا و تكفنوا كأنه كنايه عن تهيئهم للموت.

و قـد وقع فی بعض الروایـات فی وصف النـاقه أنه کـانت بین جنبیهـا مسـافه میل و هو مما یوهن الروایه لا لاسـتحاله وقوعه فإن ذلک ممکن الدفع من جهه أن کینونتها کانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبه بین أعضائها حینئذ یوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما یقرب من ثلاـثه أمیـال و لا یتصور مع ذلک أن یتمکن واحـد من الناس من قتله بسـیفه و لم یقع ذلک عن إعجاز من عاقر الناقه قطعا،و مع ذلک لا یخلو قوله تعالی:

« لَهٰا شِرْبٌ وَ لَکُمْ شِرْبُ یَوْمٍ مَعْلُومٍ »من دلاله أو إشعار علی کون جثتها عظیمه جدا.

(کلام فی قصه صالح فی فصول)

۱-ثمود قوم صالح(ع):

ثمود قوم من العرب العاربه کانوا یسکنون وادی القری بین المدینه و الشام،و هم من بشر ما قبل التاریخ لا یضبط التاریخ إلا شیئا یسیرا من أخبارهم،و لقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد علی ما یذکر من جزئیات قصصهم.

و الـذی یقصه کتـاب الله من أخبارهم أنهم کانوا أمه من العرب علی ما یـدل علیه اسم نبیهم و قـد کان منهم(هود:۶۱)نشئوا بعد قوم عاد و لهم حضاره و مدنیه یعمرون الأرض و یتخذون من سهولها قصورا و ینحتون من الجبال بیوتا آمنین الأعراف:۷۴)و من شغلهم الفلاحه بإجراء العیون و إنشاء الجنات و النخیل و الحرث(الشعراء:۱۴۸).

کانت ثمود تعیش علی سنه الشعوب و القبائل یحکم فیهم سادتهم و شیوخهم و قد کانت فی المدینه التی بعث فیها صالح تسعه رهط یفسدون فی الأرض و لا یصلحون (النمل:۴۸)فطغوا فی الأرض و عبدوا الأصنام و أفرطوا عتوا و ظلما.

۲-بعثه صالح(ع):

لما نسیت ثمود ربها و أسرفوا فی أمرهم أرسل الله إلیهم صالحا النبی(ع)و کان من بیت الشرف و الفخار معروفا بالعقل و الکفایه (هود ۶۲-النمل ۴۹)فدعاهم إلی توحید الله سـبحانه و أن یترکوا عباده الأصنام و أن یسیروا فی مجتمعهم بالعدل و الإحسان،و لا یعلوا فی الأرض و لا یسرفوا و لا یطغوا و أنذرهم بالعذاب»هود-الشعراء-الشمس و غیرها).

ص: ۳۱۷

فقام(ع)بالدعوه إلی دین الله بالحکمه و الموعظه الحسنه و صبر علی الأذی فی جنب الله فلم یؤمن به إلا جماعه قلیله من ضعفائهم(الأعراف:۷۵) و أما الطغاه المستکبرون و عامه من تبعهم فأصروا علی کفرهم و استذلوا الذین آمنوا به و رموه بالسفاهه و السحر(الأعراف ۶۶-الشعراء ۱۵۳-النمل ۴۷).

و طلبوا منه البینه علی مقاله،و سألوه آیه معجزه تدل علی صدقه فی دعوی الرساله،و اقترحوا له أن یخرج لهم من صخر الجبل ناقه فأتاهم بناقه علی ما وصفوها به،و قال لهم:إن الله یأمرکم أن تشربوا من عین مائکم یوما و تکفوا عنها یوما فتشربها الناقه فلها شرب یوم و لکم شرب یوم معلوم،و أن تذروها تأکل فی أرض الله کیف شاءت و لا تمسوها بسوء فیأخذکم عذاب قریب(الأعراف ۷۲-هود ۶۴- الشعراء ۱۵۶).

و کان الأمر علی ذلک حینا ثم إنهم طغوا و مکروا و بعثوا أشقاهم لقتل الناقه فعقرها،و قالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن کنت من الصادقین.قال صالح(ع):

تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ:

(هود-۶۵).

ثم مکرت شعوب المدینه و أرهاطها بصالح و تقاسموا بینهم لنبیتنه و أهله ثم نقولن لولیه ما شهدنا مهلک أهله و إنا لصادقون،و مکروا مکرا و مکر الله مکرا و هم لا یشعرون(النمل ۵۰) فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَهُ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ :الذاریات-۴۴ و الرجفه و الصیحه فأصبحوا فی دارهم جاثمین فتولی عنهم و قال یا قوم لقد أبلغتکم رساله ربی و نصحت لکم و لکن لا تحبون الناصحین(الأعراف ۷۹-هود ۶۷) و أنجی الله الذین آمنوا و کانوا یتقون(حم السجده ۱۸)و نادی بعدهم المنادی الإلهی:

ألا إن ثمود کفروا ربهم ألا بعدا لثمود.

۳-شخصیه صالح(ع):

لم یرد لهذا النبی الصالح فی التوراه الحاضره ذکر.کان(ع)من قوم ثمود ثالث الأنبیاء المذکورین فی القرآن بالقیام بأمر الله و النهضه للتوحید علی الوثنیه یذکره الله تعالی بعد نوح و هود،و یحمده و یثنی علیه بما أثنی به علی أنبیائه و رسله،و قد اختاره و فضله کسائرهم علی العالمین(ع).

[سوره هود (۱۱): الآیات ۶۹ الی ۷۶]

اشاره

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِیمَ بِالْبُشْری قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِیذٍ (۶۹) فَلَمّا رَأی أَیْدِیَهُمْ لا تَصِلُ إِلَیْهِ نَکِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَهً قالُوا لا تَخَفْ إِنّا أُرْسِلْنا إِلی قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَهٌ فَضَحِکَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ یَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ یا وَیْلَتی أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِی شَیْخاً إِنَّ هذا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اَللّهِ رَحْمَتُ اَللّهِ وَ بَرَکاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ اَلْبَیْتِ إِنَّهُ حَمِیدٌ مَجِیدٌ (۷۳) فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِیمَ اَلرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ اَلْبُشْری یُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْراهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوّاهٌ مُنِیبٌ (۷۵) یا إِبْراهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

(بیان)

تتضمن الآیات قصه بشری إبراهیم(ع)بالولد،و أنها کالتوطئه لما سیذکر بعده من قصه ذهاب الملائکه إلی لوط النبی(ع)لإهلاک قومه فإن تلک القصه ذیل هذه القصه و فی آخر قصه البشری ما یتبین به وجه قصه الإهلاک و هو قوله:

« إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ »الآیه.

قوله تعالی:« وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِیمَ بِالْبُشْری »إلی آخر الآیه البشری هی البشاره،و العجل ولد البقره،و الحنیذ فعیل بمعنی المفعول أی المحنوذ و هو

اللحم المشوی علی حجاره محماه بالنار کما أن القدید هو المشوی علی حجاره محماه بالشمس علی ما ذکره بعض اللغویین،و ذکر بعضهم أنه المشوی الذی یقطر ماء و سمنا،و قیل:هو مطلق المشوی،و قوله تعالی فی سوره الذاریات فی القصه:

« فَرٰاغَ إِلیٰ أَهْلِهِ فَجٰاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ »لا یخلو من تأیید ما للمعنی الثانی.

و قوله:« وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِیمَ بِالْبُشْریٰ »معطوف علی قوله سابقا:

« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ »قال فی المجمع،:و إنما دخلت اللام لتأکید الخبر و معنی قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبیاء یتوقع قصه بعد قصه،و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع فی حال توقع.انتهی.

و الرسل هم الملائکه المرسلون إلی إبراهیم للبشاره و إلی لوط لإهلاک قومه و قد اختلفت کلمات المفسرین فی عددهم مع القطع بکونهم فوق الاثنین لدلاله لفظ الجمع-الرسل-علی ذلک،و فی بعض الروایات عن أئمه أهل البیت(ع) أنهم کانوا أربعه من الملائکه الکرام،و سیأتی نقلها إن شاء الله فی البحث الروائی.

و البشری التی جاءت بها الرسل إبراهیم(ع)لم یذکر بلفظها فی القصه، و التی ذکرت فیها منها هی البشاره لامرأته،و إنما ذکرت بشاره إبراهیم نفسه فی غیر هذا المورد کسورتی الحجر و الذاریات،و لم یصرح فیهما باسم من بشر به إبراهیم أ هو إسحاق أم إسماعیل(ع)أو أنهم بشروه بکلیهما؟و ظاهر سیاق القصه فی هذه السوره أنها البشاره بإسحاق، و سیأتی البحث المستوفی عن ذلک فی آخر القصه.

و قوله:« قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ »أی تسالموا هم و إبراهیم فقالوا:سلاما أی سلمنا علیک سلاما،و قال إبراهیم:سلام أی علیکم سلام.

و السلام الواقع فی تحیه إبراهیم(ع)نکره و وقوعه نکره فی مقام التحیه دلیل علی أن المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخیم و مزید التکریم و التقدیر:علیکم سلام زاک طیب أو ما فی معناه،و لذا ذکر بعض المفسرین:أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حیاهم بأحسن تحیتهم فبالغ فی إکرامهم ظنا منه أنهم ضیف.

و قوله:« فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ »أى ما أبطأ فى أن قدم إليهم عجلا مشويا يقطر ماء و سمنا و أسرع فى ذلك.

قوله تعالى:« فَلَمَّا رَأىٰ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » عدم وصول أيديهم إليه كنايه عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم إلى الطعام،و ذلك أماره العداوه و إضمار الشر، و نكرهم و أنكرهم بمعنى واحد و إنما كان أنكرهم لإنكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبى،قال الراغب: الوجس الصوت الخفى،و التوجس التسمع،و الإيجاس وجود ذلك النفس قال:و أوجس منهم خيفه،و الواجس قالوا:

هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر.انتهى.فالجمله من الكنايه كان لطروق الخيفه-و هو النوع من الخوف- و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبى،و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمنوه و طيبوا نفسه بقولهم:« لاٰ تَخَفْ إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ ».

و معنى الآيه أن إبراهيم(ع)لما قدم إليهم العجل المشوى رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل-و ذلك أماره الشر-استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطييبا لنفسه:لاٰ تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكه الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه،و أنهم مرسلون لخطب جليل.

و نسبه استشعار الخوف إلى إبراهيم(ع) لاٰ ينافى ما كان عليه من مقام النبوه الملازم للعصمه الإلهيه من المعصيه و الرذائل الخلقيه فإن مطلق الخوف و هو تأثر النفس عن مشاهده المكروه التى تبعثها إلى التحذر منه و المبادره إلى دفعه ليس من الرذائل،و إنما الرذيله هى التأثر الذى يستوجب بطلان مقاومه النفس و ظهور العى و الفزع و الذهول عن التدبير لدفع المكروه و هو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثر عن مشاهده المكروه مطلقا و هو المسمى تهورا ليس من الفضيله فى شىء.

و ذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانيه التى تظهر فى النفوس

و منها التأثر و الانفعال عنـد مشاهـده المكروه و الشـر كالشوق و الميل و الحب و غير ذلك عنـد مشاهـده المحبوب و الخير عبثا باطلا فإن جلب الخير و النفع و دفع الشر و الضـرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها و عليه يـدور رحى الوجود فى نظامه العام.

و لمـا كـان هـذا النوع المسـمى بالإنسان إنما يسـير فى مسـير بقائه بالشـعور و الإراده كان عمل الجلب و الـدفع فيه مترشـحا عن شعوره و إرادته،و لا يتم إلا عن تأثر نفسانى يسمى فى جانب الحب ميلا و شهوه و فى جانب البغض و الكراهه خوفا و وجلا.

ثم لما كانت هـذه الأحوال النفسانيه الباطنه ربما ساقت الإنسان إلى أحـد جانبى الإفراط و التفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغى و هو فضـيله الشجاعه كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغى على ما ينبغى و هو فضـيله العفه و همـا حـدا الاعتـدال بين الإفراط و التفريط،و أما انتفاء التأثر بأن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكه الصـريحه فى باب الـدفع و هو التهور،أولا تنزع نفسه إلى شـىء مطلوب قط فى باب الجلب و الشـهوه و هو الخمول و كذا بلوغ التأثر من القوه إلى حيث ينسـى الإنسـان نفسه و يـذهل عن واجب رأيه و تـدبيره فيجزع عن كـل شـبح يتراءى له فى باب الـدفع و هو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه و تشتهيه كالبهيمه على عليقها فى باب الشهوه و هو الشره فجميع هذه من الرذائل.

و الذى آثر الله سـبحانه به أنبياءه من العصـمه إنما يثبت فى نفوسـهم فضيله الشجاعه دون التهور،و ليست الشجاعه تقابل الخوف الـذى هو مطلق التأثر عن مشاهـده المكروه،و هو الـذى يـدعو النفس إلى القيام بواجب الـدفع،و إنما تقابل الجبن الذى هو بلوغ التأثر النفسانى إلى حيث يبطل الرأى و التدبير و يستتبع العى و الانهزام.

قـال تعالى :«الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ اللّٰهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ:» الأحزاب:-۳۹،و قال مخاطبا لموسى(ع) :«لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلىٰ:» طه:

-۶۸،و قال حكايه عن قول شعيب له(ع) :«لاٰ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

الظّالِمِينَ:» القصص:-٢٥،و قال مخاطبا لنبيه(ص) :«وَ إِمّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ:» الأنفال:-٥٨.

و الخليل(ع)هو النبى الكريم الـذى قام بالـدعوه الحقه إذ لا يـذكر اسم الله وحده،و نازع وثنيه قومه فحاج أباه آزر و قومه و حاج الملك الجبار نمرود و كان يدعى الألوهيه،و كسر أصنام القوم حتى ألقوه فى النار فأنجاه الله من النار فلم يجبنه شىء من تلك المهاول،و لا هزمه فى جهاده فى سبيل الله هازم،و مثل هـذا النبى على ما له من الموقف الروحى إن خاف من شىء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر-على اختلاف تعبير الآيات-فإنما يخافه خوف حزم و لا يخافه خوف جبن،و إذا خاف من شىء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف لله لا لهوى من نفسه.

قوله تعالى:« وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ » ضحكت من الضحك بفتح الضاد أى حاضت،و يؤيده تفريع البشاره عليه فى قوله عقيبه:« فَبَشَّرْناها »إلخ،و يكون ضحكها أماره تقرب البشرى إلى القبول،و آيه تهيئ نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به،و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز،و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن إبراهيم(ع)كان يكلمهم و يكلمونه فى أمر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر إلى ما يجرى بين الضيفان و بين إبراهيم و ما كان يخطر ببالها شىء دون ذلك ففاجأها أنها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و أكثر المفسرين أخذوا الكلمه من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا فى توجيه سببه،و أقرب الوجوه هو أن يقال:إنها كانت قائمه هناك و قد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل و هو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكه مكرمون نزلوا ببيتهم و أن لا شر فى ذلك يتوجه إليهم سرت و فرحت فضحكت فبشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب.

و هناك وجوه أخر ذكروها خاليه عن الدليل كقولهم إنها ضحكت تعجبا من غفله قوم لوط،و قولهم:إنها ضحكت تعجبا من امتناع الضيوف من الأكل

و الحال أنها تخدمهم بنفسها،و قولهم:إنها كانت أشارت إلى إبراهيم أن يضم إليه لوطا لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب و الهلاك فلما سمعت من الملائكه قولهم:

إنا أرسلنا إلى قوم لوط سرت و ضحكت لإصابتها فى الرأى،و قولهم:إنها ضحكت تعجبا مما بشروها به من الولد و هى عجوز عقيم،و على هذا ففى الكلام تقديم و تأخير و التقدير:فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فضحكت.

و قوله:« فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ »إسحاق هو ابنها من إبراهيم،و يعقوب هو ابن إسحاق(ع)فالمراد أن الملائكه بشروها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد.هذا على قراءه يعقوب بالفتح و هو منزوع الخافض و قرئ برفع يعقوب و هو بيان لتتمه البشاره،و الأولى أرجح.

و كان فى هذا التعبير:« وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ »إشاره إلى وجه تسميه يعقوب(ع)بهذا الاسم،و هو أنه كان يعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذكر فيها أنه وراءه،و يكون فيها تخطئه لما فى التوراه من السبب فى تسميه يعقوب به.

قال فى التوراه الحاضره:و كان إسحاق ابن أربعين سنه لما اتخذ لنفسه زوجه «رفقه»بنت بنوئيل الأرامى أخت لابان الأرامى من فدان الأرام،و صلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا فاستجاب له الرب فحبلت رفقه امرأته و تزاحم الولدان فى بطنها فقالت:إن كان هكذا فلما ذا أنا،فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب:فى بطنك أمتان،و من أحشائك يفترق شعبان:شعب يقوى على شعب،و كبير يستعبد لصغير.

فلما كملت أيامها لتلد إذا فى بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروه شعر فدعى اسمه عيسو،و بعد ذلك خرج أخوه و يده قابضه بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب.انتهى موضع الحاجه و هذا من لطائف القرآن الكريم.

قوله تعالى:« قٰالَتْ يٰا وَيْلَتىٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » الويل القبح و كل مساءه توجب التحسر من هلكه أو مصيبه أو فجيعه،أو فضيحه و نداؤه كنايه عن حضوره و حلوله يقال:يا ويلى أى حضرنى و حل بى ما

ص:۳۲۴

فيه تحسری،و يا ويلتا بزياده التاء عند النداء مثل يا أبتا.

و العجوز الشيخه من النساء،و البعل زوج المرأه و الأصل فی معناه القائم بالأمر المستغنی عن الغير يقال للنخل الذی يستغنی بماء السماء عن سقی الأنهار و العيون بعل، و يقال للصاحب و للرب:بعل.و منه بعلبک لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

و العجيب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهده ما لا يعلم سببه،و لذا يكثر فی الأمور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها:

« يَا وَيْلَتَىٰ أَ أَلِدُ »إلخ،وارد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائكه تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم و شيخ هرم بالغين فی الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار و الشين عند الناس فيضحكون منهما و يهزءون بهما و ذلک فضيحه.

قوله تعالی:« قَالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » المجد هو الكرم و المجيد الكريم كثير النوال و قد تقدم معنى بقيه مفردات الآيه.

و قولهم:« أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ »استفهام إنكاری أنكرت الملائكه تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب و استغراب الأمر،و الأمر المنسوب إلى الله سبحانه و هو الذی يفعل ما يشاء و هو على كل شیء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمه و مواهب عاليه يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه أخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

و لهذا الذی ذكرنا قالت الملائكه لها فی إنكار ما رأوا من تعجبها أولا:

« أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ »فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلک كل استعجاب و استغراب لأن ساحه الألوهيه لا يشق شیء عليها و هو الخالق لكل شیء.

و ثانيا:« رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »فنبهوها بذلک أن الله أنزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت،و ألزمهم ذلک فليس من البعيد أن يكون من ذلک تولد مولود من والدين فی غير سنهما العادی المألوف لذلک.

ص :۳۲۵

و قوله:« إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »فی مقام التعلیل لقوله:« رَحْمَتُ اللّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكَمْ أَهْلَ الْبَيْتِ »أی إنه تعالی مصدر کل فعل محمود و منشأ کل کرم و جود یفیض من رحمته و برکاته علی من یشاء من عباده.

قوله تعالی:« فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ » الروع الخوف و الرعب و المجادله فی الأصل الإلحاح فی البحث و المساءله للغلبه فی الرأی،و المعنی أنه لما ذهب عن إبراهیم ما اعتراه من الخیفه بتبین أن النازلین به لا یریدون به سوءا و لا یضمرون له شرا.و جاءته البشری بأن الله سیرزقه و زوجه إسحاق و من وراء إسحاق یعقوب أخذ یجادل الملائکه فی قوم لوط یرید بذلک أن یصرف عنهم العذاب.

فقوله:« يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ »لحکایه الحال الماضیه أو بتقدیر فعل ماض قبله و تقدیره:أخذ یجادلنا إلخ،لأن الأصل فی جواب لما أن یکون فعلا ماضیا.

و یظهر من الآیه أن الملائکه أخبروه أولا:بأنهم مرسلون إلی قوم لوط ثم ألقوا إلیه البشاره ثم جری بینهم الکلام فی خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهیم(ع) یجادلهم لیصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم،و العذاب نازل لا مرد له.

و الذی ذکره الله من مجادلته(ع)الملائکه هو قوله فی موضع آخر :«وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ:» العنکبوت:- ۳۲.

قوله تعالی:« إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ » الحلیم هو الذی لا یعاجل العقوبه و الانتقام،و الأواه کثیر التأوه مما یصیبه أو یشاهده من السوء،و المنیب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع فی کل أمر إلی الله.

و الآیه مسوقه لتعلیل قوله فی الآیه السابقه:« يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ »و فیه مدح بالغ لإبراهیم(ع)و بیان أنه إنما کان یجادل فیهم لأنه کان حلیما لا یعاجل نزول العذاب علی الظالمین رجاء أن یأخذهم التوفیق فیصلحوا و یستقیموا،و کان

كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاک بهم مراجعا إلى الله فی نجاتهم.لا أنه (ع)کان یکره عذاب الظالمین و ینتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلک.

قوله تعالى:« یٰا إِبْرٰاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ »هذا حکایه قول الملائکه لإبراهیم(ع)و بذلک قطعوا علیه جداله فانقطع حیث علم أن الإلحاح فی صرف العذاب عنهم لن یثمر ثمرا فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله.فقولهم:« یٰا إِبْرٰاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا »أی انصرف عن هذا الجدال و لا تطمع فی نجاتهم فإنه طمع فیما لا مطمع فیه.

و قولهم:« إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّکَ »أی بلغ أمره مبلغا لا یدفع بدافع و لا یتبدل بمبدل و یؤیده قوله فی الجمله التالیه:« وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ »فإن ظاهره المستقبل و لو کان الأمر صادرا لم یتخلف القضاء عن المقضی البته و یؤیده أیضا قوله فی ما سیأتی من آیات قصه قوم لوط :«فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا:» إلخ،آیه-۸۲ من السوره.

و قولهم:« وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذٰابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ »أی غیر مدفوع عنهم بدافع فلله الحکم لا معقب لحکمه،و الجمله بیان لما أمر به جیء بها تأکیدا للجمله السابقه و المقام مقام التأکید،و لذلک جیء فی الجمله الأولى بضمیر الشأن و قد المفید للتحقیق، و صدرت الجملتان معا بأن،و أضافوا الأمر إلى رب إبراهیم(ع)دون أمر الله لیعینهم ذلک على انقطاعه عن الجدال.

(بحث روائی)

فی الکافی،بإسناده عن أبی یزید الحمار عن أبی عبد الله(ع) قال: إن الله بعث أربعه أملاک فی إهلاک قوم لوط:جبرئیل و میکائیل و إسرافیل و کروبیل- فمروا بإبراهیم فسلموا علیه و هم معتمون فلم یعرفهم،و رأى هیئه حسنه فقال:

لا یخدم هؤلاء إلا أنا بنفسی-و کان صاحب ضیافه فشوى لهم عجلا سمینا-حتى أنضجه فقربه إلیهم فلما وضع بین أیدیهم-رأى أیدیهم لا تصل إلیه فنکرهم-و أوجس منهم خیفه فلما رأى ذلک جبرئیل-حسر العمامه عن وجهه فعرفه إبراهیم فقال:أنت هو؟

قال:نعم فمرت به امرأته-فبشرها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فقالت:

ما قال الله عز و جل و أجابوها بما فى الكتاب-.

فقال لهم إبراهيم:لما ذا جئتم؟فقالوا فى إهلاك قوم لوط.قال:إن كان فيها مائه من المؤمنين أ تهلكونها؟قال جبرئيل:لا.قال:و إن كان فيهم خمسون؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم ثلاثون؟قال:لا.قال:و إن كان فيهم عشرون؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم عشره؟قال:لا.قال:و إن كان فيهم خمسه؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم واحد؟قال:لا.قال:فإن فيها لوطا.قالوا:

نحن أعلم بمن فيها-لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين-ثم مضوا.

قال:و قال الحسن بن على:لا أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول الله عز و جل:« يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ » الحديث و له تتمه ستوافيك فى قصه لوط.

أقول:و قوله:«لا أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم» يمكن استفادته من قوله تعالى:« إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّٰاهٌ مُنِيبٌ »فإنه أنسب بكون غرضه استبقاء القوم لا استبقاء نبى الله لوط.على أن قوله:« يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ »و قوله:« إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذٰابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ »إنما يناسب استبقاء القوم.

و فى تفسير العياشى،عن عبد الله بن سنان قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول:

جاء بعجل حنيذ مشويا نضيجا.

و فى معانى الأخبار،بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز و جل: فَضَحِكَتْ-فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ قال:حاضت.

و فى الدر المنثور،أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال": لما رأى إبراهيم أنه لا تصل إلى العجل أيديهم-نكرهم و خافهم،و إنما كان خوف إبراهيم أنهم كانوا فى ذلك الزمان-إذا هم أحدهم بامرئ سوء لم يأكل عنده-يقول:إذا أكرمت بطعامه حرم على أذاه،فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوء فاضطربت مفاصله-.

و امرأته ساره قائمه تخدمهم،و كان إذا أراد أن يكرم ضيفا أقام ساره-

ليخدمهم فضحكت ساره،و إنما ضحكت أنها قالت:يا إبراهيم و ما تخاف؟إنهم ثلاثه نفر و أنت و أهلك و غلمانک.قال لها جبرئيل:أيتها الضاحكه-أما إنک ستلدين غلاما يقال له:إسحاق-و من ورائه غلام يقال له:يعقوب-فأقبلت فی صره فصكت وجهها فأقبلت والهه تقول:وا ويلتاه و وضعت يدها على وجهها استحياء- فذلک قوله:فصكت وجهها،و قالت:أ ألد و أنا عجوز و هذا بعلی شيخا-.

قال:لما بشر إبراهيم يقول الله:فلما ذهب عن إبراهيم الروع و جاءته البشرى بإسحاق-يجادلنا فی قوم لوط،و كان جداله أنه قال:يا جبرئيل أين تريدون؟و إلى من بعثتم؟قال:إلى قوم لوط و قد أمرنا بعذابهم-.

فقال إبراهيم إن فيها لوطا.قالوا:نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا امرأته،و كانت فيما زعموا تسمى والقه.فقال إبراهيم:إن كان فيهم مائه مؤمن أ تعذبونهم؟قال جبرئيل:لا.قال:فإن كان فيهم تسعون مؤمنون تعذبونهم؟ قال جبرئيل:لا.قال:فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون-تعذبونهم؟قال جبرئيل:

لا-حتى انتهى فی العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل:لا.فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمنا واحدا-قال:إن فيها لوطا.قالوا نحن أعلم بمن فيها-لننجينه و أهله إلا امرأته.

أقول:و فی متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول إبراهيم:إن فيها لوطا أولا و ثانيا لكن المراد واضح.

و فی تفسير العياشی،عن أبی حمزه الثمالی عن أبی جعفر(ع)قال: إن الله تبارک و تعالى لما قضى عذاب قوم لوط و قدره-أحب أن يعوض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم-يسلی به مصابه بهلاک قوم لوط-.

قال:فبعث الله رسلا إلى إبراهيم يبشرونه بإسماعيل.قال:فدخلوا عليه ليلا ففزع منهم-و خاف أن يكونوا سراقا-فلما رأته الرسل فزعا مذعورا قالوا:

سلاما. قال:سلام إنا منكم وجلون.قالوا لا توجل إنا نبشرک بغلام عليم.قال أبو جعفر(ع):و الغلام العليم إسماعيل من هاجر-فقال إبراهيم للرسل:أ بشرتمونی- على أن مسنی الكبر فبم تبشرون.قالوا:بشرناک بالحق فلا تكن من القانطين.

قال إبراهيم للرسل:فما خطبكم بعد البشاره؟قالوا:إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط-إنهم كانوا قوما فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين،قال أبو جعفر (ع):قال إبراهيم:إن فيها لوطا.قالوا:نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله-إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين-.

فلما عذبهم الله أرسل الله إلى إبراهيم رسلا-يبشرونه بإسحاق و يعزونه بهلاك قوم لوط،و ذلك قوله: وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ -قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ قوم منكرون- فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ -يعنى زكيا مشويا نضيجا-فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفه-قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط و امرأته قائمه.قال أبو جعفر(ع):إنما عنوا ساره قائمه-فبشروها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب-فضحكت يعنى فعجبت من قولهم.

أقول:و الروايه-كما ترى-تجعل قصه البشاره قصتين:البشاره بإسماعيل و البشاره بإسحاق و قد ولد بعد إسماعيل بسنين.ثم تحمل آيات سوره الحجر-و لم يذكر فيها تقديم العجل المشوى إلى الضيوف-على البشرى بإسماعيل و لما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك،و تحمل آيات سورتى الذاريات و هود-و قد اختلطتا فى الروايه- على البشرى لساره بإسحاق و يعقوب،و أنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم و أخبروه بوقوع العذاب و بشروه البشاره الثانيه.

أما آيات سوره الحجر فإنها فى نفسها تحتمل الحمل على البشاره بإسماعيل و كذا الآيات الواقعه فى سوره الذاريات تحتمل أن تقص عما بعد هلاك قوم لوط و تكون البشرى بإسحاق و يعقوب عند ذلك.

و أما آيات سوره هود فإنها صريحه فى البشرى بإسحاق و يعقوب،و لكن ما فى ذيلها من قوله:« يُجٰادِلُنٰا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّٰاهٌ مُنِيبٌ »إلى آخر الآيات تأبى أن تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط،و إن كان ما فى صدرها من قوله:« إِنّٰا أُرْسِلْنٰا إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ »لا يأبى وحده الحمل على ما بعد الهلاك،و كذا جمله« إِنَّهُ قَدْ جٰاءَ أَمْرُ رَبِّكَ »لو لا ما يحفها من قيود الكلام.

و بالجمله مفاد الآيات فى سوره هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم

لوط،و عند ذلک کان جدال إبراهیم(ع)،و مقتضی ذلک أن تکون ما وقع من القصه فی سوره الذاریات هی الواقعه قبل هلاک القوم لا بعد الهلاک،و کذا کون ما وقع من القصه فی سوره الحجر و فیه التصریح بکونه قبل هلاکهم و فیه جدال إبراهیم(ع)خالیا عن بشری إسحاق و یعقوب لا بشری إسماعیل.

و الحاصل أن اشتمال آیات هود علی بشری إسحاق و جدال إبراهیم(ع) الظاهر فی کونها قبل هلاک قوم لوط یوجب أن یکون المذکور من البشری فی جمیع السور الثلاث:هود و الحجر و الذاریات قصه واحده هی قصه البشری بإسحاق قبل وقوع العذاب،و هذا مما یوهن الروایه جدا.

و فی الروایه شیء آخر و هو أنها أخذت الضحک بمعنی العجب و أخذت قوله:

« فَضَحِکَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ »من التقدیم و التأخیر،و أن التقدیر:فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق یعقوب فضحکت»و هو خلاف الظاهر من غیر نکته ظاهره.

و فی تفسیر العیاشی،أیضا عن الفضل بن أبی قره قال:سمعت أبا عبد الله(ع) یقول: أوحی الله إلی إبراهیم أنه سیلد لک-فقال لساره فقالت:أ ألد و أنا عجوز؟ فأوحی الله إلیه:أنها ستلد-و یعذب أولادها أربعمائه سنه بردها الکلام علی-.

قال:فلما طال علی بنی إسرائیل العذاب-ضجوا و بکوا إلی الله أربعین صباحا- فأوحی الله إلی موسی و هارون أن یخلصهم من فرعون-فحط عنهم سبعین و مائه سنه.

قال:و قال أبو عبد الله(ع):هکذا أنتم.لو فعلتم فرج الله عنا فأما إذا لم تکونوا-فإن الأمر ینتهی إلی منتهاه.

أقول:وجود الرابطه بین أحوال الإنسان و ملکاته و بین خصوصیات ترکیب بدنه مما لا شک فیه فلکل من جانبی الربط استدعاء و تأثیر خاص فی الآخره ثم النطفه مأخوذه من الماده البدنیه حامله لما فی البدن من الخصوصیات المادیه و الروحیه طبعا فمن الجائز أن یرث الأخلاف بعض خصوصیات أخلاق أسلافهم المادیه و الروحیه.

و قد تقدم کرارا فی المباحث السابقه أن بین صفات الإنسان الروحیه و أعماله

و بین الحوادث الخارجیه خیرا و شرا رابطه تامه کما یشیر إلیه قوله تعالی :«وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ:» الأعراف:-۹۶، و قوله :«وَ مٰا أَصٰابَکُمْ مِنْ مُصِیبَهٍ فَبِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِیکُمْ:» الشوری:-۳۰.

فمن الجائز أن یصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانیه عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفه من الصفات فضیله أو رذیله ثم یظهر أثره الجمیل أو وباله السیئ فی أعقابه،و الملاک فی ذلک نوع من الوراثه کما مر،و قد تقدم فی ذیل قوله تعالی :«وَ لْیَخْشَ الَّذِینَ لَوْ تَرَکُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّیَّهً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَیْهِمْ:» النساء:-۹ کلام فی هذا المعنی فی الجزء الرابع من الکتاب.

و فیه،عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبی جعفر(ع)و عن عبد الرحمن عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله:« إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوّٰاهٌ مُنِیبٌ »قال:دعاء:

أقول:و روی فی الکافی،عن زراره عن أبی جعفر(ع)مثله .

و فیه،عن أبی بصیر عن أحدهما(ع)قال: إن إبراهیم جادل فی قوم لوط و قال:إن فیها لوطا.قالوا:نحن أعلم بمن فیها-فزاده إبراهیم فقال جبرئیل:

یا إبراهیم أعرض عن هذا-أنه قد جاء أمر ربک-و إنهم آتیهم عذاب غیر مردود.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن الأنباری فی کتاب الوقف و الابتداء عن حسان بن أبجر قال": کنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذیل-فقال له ابن عباس:

ما فعل فلان؟قال:مات و ترک أربعه من الولد و ثلاثه من الوراء.فقال ابن عباس:

« فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ-وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ یَعْقُوبَ »قال:ولد الولد.

(کلام فی قصه البشری)

قصه البشری و سماها الله تعالی حدیث ضیف إبراهیم(ع)وقعت فی خمس من السور القرآنیه کلها مکیه و هی علی ترتیب القرآن سوره هود و الحجر و العنکبوت و الصافات و الذاریات.

فالأولی ما فی سوره هود ۶۹-۷۶ قوله تعالی:«و لقد جاءت رسلنا إبراهیم

بالبشری قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنیذ.فلما رأی أیدیهم لا تصل إلیه نکرهم و أوجس منهم خیفه قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلی قوم لوط.

و امرأته قائمه فضحکت فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق یعقوب.قالت یا ویلتی أ ألد و أنا عجوز و هذا بعلی شیخا إن هذا لشیء عجیب.قالوا أ تعجبین من أمر الله رحمه الله و برکاته علیکم أهل البیت إنه حمید مجید.فلما ذهب عن إبراهیم الروع و جاءته البشری یجادلنا فی قوم لوط.إن إبراهیم لحلیم أواه منیب.یا إبراهیم أعرض عن هذا أنه قد جاء أمر ربک و إنهم آتیهم عذاب غیر مردود».

و الثانیه ما فی سوره الحجر:۵۱-۶۰ قوله تعالی:«و نبئهم عن ضیف إبراهیم.إذ دخلوا علیه فقالوا سلاما قال إنا منکم وجلون.

قالوا لا توجل إنا نبشرک بغلام علیم.قال أ بشرتمونی علی أن مسنی الکبر فبم تبشرون.قالوا بشرناک بالحق فلا تکن من القانطین.قال و من یقنط من رحمه ربه إلا الضالون.قال فما خطبکم أیها المرسلون.قالوا إنا أرسلنا إلی قوم مجرمین.إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعین.إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرین».

و الثالثه ما فی سوره العنکبوت:۳۱-۳۲ قوله تعالی:«و لما جاءت رسلنا إبراهیم بالبشری قالوا إنا مهلکوا أهل هذه القریه إن أهلها کانوا ظالمین.

قال إن فیها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فیها لننجینه و أهله إلا امرأته کانت من الغابرین».

و الرابعه ما فی سوره الصافات:۹۹-۱۱۳ قوله تعالی:«و قال إنی ذاهب إلی ربی سیهدین.رب هب لی من الصالحین.فبشرناه بغلام حلیم.فلما بلغ معه السعی قال یا بنی إنی أری فی المنام أنی أذبحک فانظر ما ذا تری قال یا أبت افعل ما تؤمر ستجدنی إن شاء الله من الصابرین.فلما أسلما و تله للجبین.و نادیناه أن یا إبراهیم قد صدقت الرؤیا إنا کذلک نجزی المحسنین.إن هذا لهو البلاء المبین.

و فدیناه بذبح عظیم.و ترکنا علیه فی الآخرین.سلام علی إبراهیم کذلک نجزی المحسنین.إنه من عبادنا المؤمنین.و بشرناه بإسحاق نبیا من الصالحین.و بارکنا علیه و علی إسحاق و من ذریتهما محسن و ظالم لنفسه مبین».

و الخامسه ما فی سوره الذاریات ۲۴-۳۰ قوله تعالی:«هل أتاک حدیث ضیف إبراهیم المکرمین.إذ دخلوا علیه فقالوا سلاما قال سلام قوم منکرون فراغ إلی أهله فجاء بعجل سمین.فقربه إلیهم قال أ لا تأکلون.فأوجس منهم خیفه قالوا لا تخف و بشروه بغلام علیم فأقبلت امرأته فی صره فصکت وجهها و قالت عجوز عقیم.قالوا کذلک قال ربک إنه هو الحکیم العلیم».

و یقع البحث فی قصه البشری من وجوه:

أحدها:أنها هل هی بشری واحده و هی المشتمله علی بشری إبراهیم و ساره بإسحاق و یعقوب و قد وقعت قبیل هلاک قوم لوط أو أنها قصتان:إحداهما تشتمل علی البشری بإسماعیل و الأخری تتضمن البشری بإسحاق و یعقوب.

ربما رجح الثانی بناء علی أن ما وقع من القصه فی سوره الذاریات صریح فی تقدیم العجل المشوی،و أن إبراهیم خافهم لما امتنعوا من الأکل ثم بشروه و امرأته العجوز العقیم و هی ساره أم إسحاق قطعا،و ذیل الآیات ظاهر فی کون ذلک بعد إهلاک قوم لوط حیث یقول الملائکه: إِنّا أُرْسِلْنا إِلیٰ قَوْمٍ مُجْرِمِینَ -إلی أن قالوا- فَأَخْرَجْنا مَنْ کانَ فِیها مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فَما وَجَدْنا فِیها غَیْرَ بَیْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ وَ تَرَکْنا فِیها آیَهً لِلَّذِینَ یَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِیمَ »الآیات و نظیر ذلک ما فی سوره هود و قد قال فیها الملائکه لإزاله الروع عن إبراهیم ابتداء: إِنّا أُرْسِلْنا إِلیٰ قَوْمِ لُوطٍ .

و أما ما فی سوره الحجر فلیس یتضمن حدیث تقدیم العجل المشوی بل ظاهره أن إبراهیم و أهله خافوهم لدی دخولهم علیه فأسکنوا رعبه بالبشاره کما یقول تعالی:

« إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنّا مِنْکُمْ وَجِلُونَ قالُوا لاٰ تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُکَ بِغُلاٰمٍ عَلِیمٍ »و ذیل الآیات ظاهر فی کون ذلک قبل هلاک لوط.

و نظیره ما فی سوره العنکبوت من القصه و هی أظهر فی کون ذلک قبل الهلاک و یتضمن جدال إبراهیم فی قوم لوط،و قد تقدمت فی البحث الروائی السابق حدیث العیاشی فی هذا المعنی.

لکن الحق أن الآیات فی جمیع السور الأربع سوره هود و الحجر و العنکبوت و الذاریات إنما تقص قصه البشاره بإسحاق و یعقوب دون إسماعیل.

و أما ما فی ذیل آیات الـذاریات من قوله:« قَالُوا إِنَّا أَرْسِلْنَا الظاهر فی المضـی و الفراغ عن الأمر فنظیره واقع فی آیات الحجر مع تسلیمهم أنها تقص ما قبل الفراغ.

علی أن قول الملائکه المرسلین و هم بعد فی الطریق:« إِنَّا أُرْسِلْنَا »لا مانع منه بحسب اللغه و العرف.

و أما قوله:« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »إلی آخر الآیات فهو من کلامه تعالی و لیس من تتمه کلام الملائکه لإبراهیم کما یدل علیه سیاق القصص الوارده فی سوره الذاریات.

و أما ذکر الوجل فی آیات الحجر فی أول القصه بخلاف سورتی الـذاریات و هود فالوجه فیه عـدم ذکر تقـدیم العجل المشوی فی آیـات الحجر بخلافهما،علی أن الارتباط التام بین أجزاء قصه مما یجوز أن یقـدم بعضـها علی بعض حینا و یعکس الأمر حینا آخر کما أنه تعالی یـذکر إنکار إبراهیم فی آیات الـذاریات فی صـدر القصه بعد سـلامهم و فی سوره هود فی وسط القصه بعد امتناعهم من الأکل،و هذا کثیر الورود فی نظم القرآن.

علی أن آیات هود صریحه فی البشـری بإسـحاق و یعقوب و هی تتضـمن جدال إبراهیم فی قوم لوط فی سیاق لا یشک معه أنه کان قبل هلاک لوط،و لازمه کون بشری إسحاق قبله لا بعده.

علی أن من المتفق علیه أن إسـماعیل کان أکبر سـنا من إسحاق و بین ولادتیهما سنون،و لو کانت هؤلاء الملائکه بشروا إبراهیم بإسـماعیل فی مسیرهم إلی هلاک قوم لوط قبیل الهلاک و بشـروه بإسـحاق فی منصـرفهم عن هلاکهم بعیـده کان الفصل بین البشـریین یومـا أو یومین فیکون الفصـل بین البشـری بإسـحاق و بین ولادته سـنون من الزمان و البشـری لا تطلق إلا علی الإخبار بالجمیل إذا کان مشرفا علی الوقوع إلا إذا کانت هناک عنایه خاصه و أما الإخبار بمطلق الجمیل فهو وعد و نحو ذلک.

و ثانیها أنه هل هناک بشـری بإسـماعیل؟و الحق أن ما ذکرت من البشـری فی صدر آیات الصافات إنما هی بشـری بإسماعیل و هی غیر ما ذکرت فی ذیل الآیات من البشری بإسحاق صریحا فإن سیاق الآیات فی ذیل قوله:« فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ »

ثم استیناف البشاره بإسحاق فی قوله أخیرا:« وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِیًّا مِنَ اَلصّٰالِحِینَ » لا یدع ریبا لمرتاب أن الغلام الحلیم الذی بشر به أولا غیر إسحاق الذی بشر به ثانیا،و لیس إلا إسماعیل.

و ذکر الطبری فی تاریخه أن المراد بالبشاره الأولی فی هذه السوره أیضا البشاره بإسحاق قیاسا علی ذکر من البشاره فی سائر السور،و هو کما تری.و قد تقدم کلام فی هذا المعنی فی قصص إبراهیم(ع)فی الجزء السابع من الکتاب.

و ثالثها:البحث فی القصه من جهه تطبیق ما فی التوراه الحاضره منها علی ما استفید من القرآن الکریم،و سیوافیک ذلک عند الکلام علی قصه لوط(ع)فی ذیل الآیات التالیه.

و رابعها:البحث فیها من جهه جدال إبراهیم الملائکه و قد وقع فیها مثل قوله:

« یُجٰادِلُنٰا فِی قَوْمِ لُوطٍ »و قوله:« یٰا إِبْرٰاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذٰا ».

و قد تقدم أن سیاق الآیات و خاصه قوله:« إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوّٰاهٌ مُنِیبٌ » لا یدل إلا علی نعته بالجمیل فلم یکن جداله إلا حرصا منه فی نجاه عباد الله رجاء أن یهتدوا إلی صراط الإیمان.

[سوره هود (۱۱): الآیات ۷۷ الی ۸۳]

اشاره

وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا یَوْمٌ عَصِیبٌ (۷۷) وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَ مِنْ قَبْلُ کٰانُوا یَعْمَلُونَ اَلسَّیِّئٰاتِ قٰالَ یٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ (۷۸) قٰالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِیدُ (۷۹) قٰالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلیٰ رُکْنٍ شَدِیدٍ (۸۰) قٰالُوا یٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّیْلِ وَ لاٰ یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ إِلاَّ اِمْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِیبُهٰا مٰا أَصٰابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ اَلصُّبْحُ أَ لَیْسَ اَلصُّبْحُ بِقَرِیبٍ (۸۱) فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِیَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَیْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّیلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ وَ مٰا هِیَ مِنَ اَلظّٰالِمِینَ بِبَعِیدٍ (۸۳)

(بیان)

الآیات تذکر عذاب قوم لوط،و هی من وجه تتمه الآیات السابقه التی قصت نزول الملائکه و دخولهم علی إبراهیم(ع)و تبشیره بإسحاق فإنما کانت کالتوطئه لقصه عذاب قوم لوط.

قوله تعالی:« وَ لَمّٰا جٰاءَتْ رُسُلُنٰا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضٰاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قٰالَ هٰذٰا یَوْمٌ عَصِیبٌ »یقال: ساءه الأمر مساءه أی أوقع علیه السوء،و سیء بالأمر بالبناء للمجهول أی أوقع علیه من ناحیته و بسببه.

و الذرع مقایسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم کانوا یقیسون بها،و یطلق علی نفس المقیاس أیضا، و یقال:ضاق بالأمر ذرعا و هو کنایه عن انسداد طریق الحیله و العجز عن الاهتداء إلی مخلص ینجو به الإنسان من النائبه کالذی یذرع ما لا ینطبق علیه ذرعه.

و العصیب فعیل بمعنی المفعول من العصب بمعنی الشد و الیوم العصیب هو الیوم الذی شد بالبلاء شدا لا یقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ینفک عن بعض.

و المعنی لما جاءت رسلنا لوطا و هم الملائکه النازلون بإبراهیم(ع)ساء مجیئهم لوطا،و عجز عن الاحتیال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا علیه فی صور غلمان

ص: ۳۳۷

مرد صبيحى المنظر و كـان قومه ذوى حرص شديـد على إتيـان الفحشـاء مـا كان من المترقب أن يعرضوا عنهم و يتركوهم على حالهم،و لذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال:« هٰذٰا يَوْمٌ عَصِيبٌ »أى شديد ملتف بعض شره ببعض.

قوله تعـالى:« وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ » قـال الراغب:يقـال: هرع و أهرع سـاقه سوقـا بعنف و تخويف،انتهى.و عن كتاب العين، الإهراع السوق الحثيث،انتهى.

و قوله:« وَ مِنْ قَبْلُ كٰانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ »أى و من قبل ذلك كانوا يقترفون المعاصـى و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقـاع الفحشاء معتادين بـذلك لا ينصـرفون عنه بصارف،و لا يحجبهم عن ذلك اسـتحياء أو استشـناع،و لا ينزجرون بموعظه أو ملامه أو مذمه لأن العاده تسهل كل صعب و تزين كل قبيح و وقيح.

و الجمله كـالمعترضه بين قوله:« وَ جٰاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ »و قوله:« قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِى »إلـخ،و هى نافعه فى مضـمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضـح أن الذى كان يهرعهم و يسوقهم إلى لوط(ع)هو أنهم كانوا يعملون السـيئات و صاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلك إلى المجىء إليه و قصد السوء بأضيافه.

و أمـا فيمـا بعـدها فإنها تفيـد أنهم لرسوخ الملكه و اسـتقرار العاده سـلبوا سـمع القبول و أن يزجرهـم زاجر من عظه أو نصـيحه،و لذلك بدأ لوط فى تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى »إلخ.

قوله تعالى:« قٰالَ يٰا قَوْمِ هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ »إلى آخر الآيه،لما رآهم تجمعوا على الشـر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظه أو أغلاظ فى الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجحه لهم بأنهن أطهر لهم.

و إنما المراد بصـيغه التفضيل-أطهر-مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب بقذاره،و المراد هى طهاره محضا، و هو استعمال شائع،قال تعالى :«مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ:» الجمعه:-١١،و قال «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ:» النساء:-١٢٨.و تفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

و تقييد قوله:« هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِي »بقوله:« هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ »شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسهن عن نكاح لا عن سفاح و حاشا مقام نبى الله عن ذلك، و ذلك لأن السفاح لا طهاره فيه أصلا و قد قال تعالى :«وَ لاٰ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰاءَ سَبِيلاً:» إسراء:-٣٢،و قال :«وَ لاٰ تَقْرَبُوا الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ:» الأنعام:-١٥١،و قد تقدم فى تفسير هذه الآيه أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامه المشرعه فى جميع الشرائع الإلهيه النازله على أنبيائه.

و من هنا يظهر فساد قول من يقول:إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح.و لست أدرى ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها؟و ما معنى قوله حينئذ:

« فَاتَّقُوا اللّٰهَ »؟و لو كان يريد دفع الفضيحه و العار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله:

« وَ لاٰ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ».

و ربما قيل:إن المراد بقوله:« هٰؤُلاٰءِ بَنٰاتِي »الإشاره إلى نساء القوم لأن النبى أبو أمته فنساؤهم بناته كما أن رجالهم بنوه،يريد أن قصد الإناث و هو سبيل فطرى خير لكم و أطهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء.

و هو تحكم لا دليل عليه من جهه اللفظ البته،و أما كونهم كفارا و بناته مسلمات و لا يجوز إنكاح المسلمه من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعه إبراهيم حتى يتبعه لوط(ع)فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنه بالكافر جائزا فى شرعه كما أنه كان جائزا فى صدر الإسلام،و قد زوج النبى ص بنته من أبى العاص بن الربيع و هو كافر قبل الهجره ثم نسخ ذلك.

على أن قولهم فى جوابه:« لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ »لا يلائم كون المراد بالبنات فى كلامه إنما هى نساؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نسائهم بناته إلا أن يكون المراد التهكم و لا قرينه عليه.

لا يقال تعبيره(ع)بالبنات و ليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع.

لأنا نقول:لا دليل على ذلك من كلامه تعالى و لا وقع ذلك فى نقل يعتمد عليه،نعم وقع فى التوراه الحاضره أنه كان للوط بنتان فقط.و لا اعتماد على ما تتضمنه.

و قـوله:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی »بیـان للمطلوب،و قوله:« وَ لاٰ تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی »عطف تفسیری لقوله:« فَاتَّقُوا اللّٰهَ »فإنه(ع)إنما کان یطلب منهم أن لا یتعرضوا لضـیفه لتقوی الله لا لهوی نفسه و عصبیه جاهلیه منه، و لم یکن عنده فرق بین ضیفه و غیرهم فیما کان یردعهم،و قد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنیع و ألح علی ذلک سنین متمادیه.

و إنمـا علق الردع علی معنی الضـیافه و إضـافه الضـیف إلی نفسه و ذکر الخزی الوارد علیه من التعرض لهم کـل ذلک رجاء أن یهیج صـفه الفتوه و الکرامه فیهم و لذلک عقب ذلک بالاستغاثه و الاستنصار بقوله:« أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ »لعله یجد فیهم ذا رشـد إنسـانی فینتصـر له و ینجیه و ضـیوفه من أیـدی أولئـک الظـالمین لکن القوم کـانوا کما قال الله تعالی :«لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ:» الحجر:-۷۲ و لم یؤثر ذلک فیهم أثرا و لم ینتهوا عن قوله بل أجابوا بما أیأسوه به من أی إلحاح فی ذلک.

قوله تعـالی:« قٰالُوا لَقَـدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِیـدُ » هـذا جواب القوم عما دعاهم إلیه لوط من النکاح المباح أجابوا بنفی أن یکون لهم فی بناته من حق و أنه یعلم ذلک و یعلم ما هو بغیتهم فی هذا الهجوم و ما ذا یریدون.

و قـد قیـل فی معنی نفیهم الحق:إن معنـاه مـا لنا فی بناتک من حاجه و ما لیس للإنسان فیه حاجه فکأنه لا حق له فیه ففی الکلام نوع استعاره.

و قیـل:إن المراد لیس لنا فی بناتک من حق لأنا لا نتزوجهن و من لم یتزوج بامرأه فلا حق له فیها فالمراد بنفی الحق نفی سـببه و هو الازدواج.

و قیل:المراد بالحق هو الحظ و النصیب دون الحق الشرعی أو العرفی أی لا رغبه لنا فیهن لأنهن نساء و لا میل لنا إلیهن.

و الذی یجب الالتفات إلیه أنهم لم یقولوا:ما لنا فی بناتک من حق بل قالوا:

« لَقَـدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِی بَنٰاتِکَ مِنْ حَقٍّ »فلم یجیبوا عنه بـذلک بل بعلمه بـذلک و بین القولین فرق فالظاهر أنهم ذکروه بما کان یعلم من السـنه القومیه الجـاریه بینهم،و هو المنع من التعرض لنسـاء النـاس و خـاصه بالقهر و الغلبه أو ترک إتیان النساء بالمره و اسـتباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم،و قد کان لوط یردعهم عن سـنتهم ذلک إذ یقول لهم :«إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَـهْوَهً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ:» الأعراف:-۸۱

«أَ تَأْتُونَ الذُّكْرٰانَ مِنَ الْعٰالَمِينَ وَ تَذَرُونَ مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ:» شعراء- ۶۵« أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نٰادِيكُمُ الْمُنْكَرَ:» العنكبوت- ۲۹، و لا شك أن السنه القوميه الجاريه على فعل شيء يثبت حقا فيه،و الجاريه على تركه ينفي الحق.

و بالجمله هم يلفتون نظره(ع)إلى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنه القوميه و ما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا و لعل هذا أحسن الوجوه،و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالى:« قٰالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »يقال:

أوى إلى كذا يأوى أويا و مأوى أي انضم إليه،و آواه إليه يؤويه إيواء أي ضمه إليه.و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر أنه لما وعظهم لوط(ع)بالأمر بتقوى الله و تهييج فتوتهم في حفظ موقعه و رعايه حرمته في عدم التعرض لضيفه بما يجلب إليه العار و الخزي،و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أيأسوه بقولهم:« لَقَدْ عَلِمْتَ مٰا لَنٰا فِي بَنٰاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مٰا نُرِيدُ »لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث و الحزن في صوره التمني فتمنى أن يكون له منهم قوه يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين- و هو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته-أو يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم إليهم فيدفعهم بهم.

فقوله:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أي ليت لي قدره بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إلي يقوم بنصرتي فأدفعكم به،و قوله:« أَوْ آوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »أي أو كنت أنضم إلى ركن شديد أي عشيره منيعه يمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

و قيل:إن معنى قوله:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »أتمنى أن يكون لي منعه و قدره و جماعه أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي.و فيه أن فيه تبديل قوله:« بِكُمْ » إلى قولنا:بهم عليكم.و هو كما ترى.

و قيل:إن معنى« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »لو قويت عليكم بنفسي.و فيه أنه أبعد

من لفظ الآیه.

و قیل:إن الخطاب فی الآیه للأضیاف دون القوم،و معنی الآیه أنه قال لأضیافه:أتمنی أن یکون لی بسببکم قوه ألقاهم بها.و فیه أن الانتقال من خطاب القوم إلی خطاب الأضیاف و لا دلیل من اللفظ ظاهرا یدل علیه إبهام و تعقید من غیر موجب،و کلامه تعالی أجل من ذلک.

قوله تعالی:« قَالُوا یَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ »إلی آخر الآیه عدم وصولهم إلیه کنایه عن عدم قدرتهم علی ما یریدون،و المعنی لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائکه مخاطبین للوط:إنا رسل ربک فأظهروا له أنهم ملائکه و عرفوه أنهم مرسلون من عند الله،و طیبوا نفسه أن القوم لن یصلوا إلیه و لن یقدروا أن یصیبوا منه ما یریدون فکان ما ذکره الله تعالی فی موضع آخر من کلامه :«وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَیْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْیُنَهُمْ:» القمر:-۳۷،فأذهب الله بأبصار الذین تابعوا علی الشر و ازدحموا علی بابه فصاروا عمیانا یتخبطون.

و قوله:« فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ وَ لاَ یَلْتَفِتْ مِنْکُمْ أَحَدٌ » الإسراء و السری بالضم السیر باللیل فیکون قوله:« بِقِطْعٍ مِنَ اللَّیْلِ »نوع توضیح له،و الباء للمصاحبه أو بمعنی فی.و القطع من الشیء طائفه منه و بعضه،و الالتفات افتعال من اللفت،قال الراغب:یقال:لفته عن کذا صرفه عنه،قال تعالی:« قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا »أی تصرفنا،و منه التفت فلان إذا عدل عن قبله بوجهه،و امرأه لفوت تلفت من زوجها إلی ولدها من غیره.انتهی.

و القول دستور من الملائکه للوط(ع)إرشادا له إلی النجاه من العذاب النازل بالقوم صبیحه لیلتهم هاتیک،و فیه معنی الاستعجال کما یشعر به قوله بعد:

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ».

و المعنی أنا مرسلون لعذاب القوم و هلاکهم فانج أنت بنفسک و أهلک و سیروا أنت و أهلک بقطع من هذا اللیل و أخرجوا من دیارهم فإنهم هالکون بعذاب الله صبیحه لیلتهم هذه،و لا کثیر وقت بینک و بین الصبح و لا ینظر أحدکم إلی وراء.

و ما ذکره بعضهم أن المراد بالالتفات الالتفات إلی مال أو متاع فی المدینه یأخذه معه أو الالتفات بمعنی التخلف عن السری مما لا یلتفت إلیه.

و قوله:« إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ »ظاهر السياق أنه استثناء من قوله:« بِأَهْلِكَ »لا من قوله:« أَحَدٌ »و فى قوله:« إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ »بيان السبب لاستثنائها،و قال تعالى فى غير هذا الموضع :«إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ:» الحجر:-۶۰.

و قوله:« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »أى موعد هلاكهم الصبح و هو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق،كما قال تعالى فى موضع آخر :

«فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ:» الحجر:-۷۳.

و الجمله الأولى تعليل لقوله:« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » و فيه نوع استعجال كما تقدم،و يؤكده قوله:« أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »و من الجائز أن يكون لوط(ع)يستعجلهم فى عذاب القوم فيجيبوه بقولهم:« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »أى إن من المقدر أن يهلكوا بالصبح و ليس موعدا بعيدا أو يكون الجمله الأولى استعجالا من الملائكه،و الثانيه تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون إليه،و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه :«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبٰارَهُمْ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ:» الحجر:-۶۵،و ظاهره أن الملائكه لم يذكروا له المقصد و أحالوا ذلك إلى ما سيأتيه من الدلاله بالوحى الإلهى.

قوله تعالى:« فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا جَعَلْنٰا عٰالِيَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهٰا حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ »ضمائر التأنيث الثلاث راجعه إلى أرض القوم أو القريه أو بلادهم المعلومه من السياق،و السجيل على ما فى المجمع،بمعنى السجين و هو النار،و قال الراغب: السجين حجر و طين مختلط،و أصله فيما قيل فارسى معرب،انتهى.يشير إلى ما قيل إن أصله سنك كل،و قيل:إنه مأخوذ من السجل بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك،و قيل:مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرب المفيد معنى الحجر و الطين،و السجل بمعنى الكتاب أيضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسع فسمى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس،

و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب،و التسويم جعل الشيء ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى:و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعذابهم و هو كلمه « كُنْ »التى أشار إليها فى قوله :«إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ-كُنْ:» يس:-٨٣جعلنا عالى أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجيل منضود معلمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و ذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم و الإمطار بالسجيل عذب به الغائبون منهم.و قيل:إن القريه هى التى أمطرت حين رفعها جبرئيل ليخسفها.و قيل:

إنما أمطرت عليهم الحجاره بعد ما قلبت قريتهم تغليظا فى العقوبه.و الأقوال جميعا من التحكم من غير دليل من اللفظ.

و فى قوله تعالى فى غير هذا الموضع :«فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ:» الحجر:- ٧٣،فقد كان هناك قلب و صيحه و إمطار بالحجاره و من الممكن أن يكون ذلك بحدوث بركان من البراكين بالقرب من بلادهم و تحدث به زلزله فى أرضهم و انفجار أرضى بصيحه توجب قلب مدنهم،و يمطر البركان عليهم من قطعات الحجاره التى يثيرها و يرميها،و الله أعلم.

قوله تعالى:« وَ ما هِيَ مِنَ الظّالِمِينَ بِبَعِيدٍ »قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل مكه أو المشركون من قوم النبى ص و الكلام مسوق للتهديد،و المعنى و ليست هذه الحجاره من ظالمى مكه ببعيد أو المعنى:ليست هذه القرى المخسوفه من ظالمى قومك ببعيد فإنه فى طريقهم بين مكه و الشام،كما قال تعالى فى موضع آخر :

«وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ:» الحجر:-٧٦،و قال :«وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ:» الصافات:-١٣٨.

و يؤيده العدول من سياق التكلم إلى الغيبه فى قوله:« مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ » فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا:مسومه عندنا إلى هذا التعبير ليتعرض لقومه(ص) بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسهم ليكون أقوى تأثيرا فى الحجاج عليهم.

و ربما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين و المراد أنه ليست الحجاره أی أمطارها من عند الله من معشر الظالمين و منهم قوم لوط الظالمون ببعيد، و يكون وجه الالتفات فی قوله:« عِنْدَ رَبِّكَ »أيضا التعريض لقوم النبی الظالمين المشركين.

(بحث روائی)

فی الكافی،بإسناده عن زكريا بن محمد[عن أبيه]عن عمرو عن أبی جعفر (ع)قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله-فطلبهم إبليس الطلب الشديد، و كان من فضلهم و خيرتهم أنهم إذا خرجوا إلی العمل-خرجوا بأجمعهم و تبقی النساء خلفهم-فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا-خرب إبليس ما يعملون-.

فقالوا بعضهم لبعض:تعالوا نرصد هذا الذی يخرب متاعنا-فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان-فقالوا له:أنت الذی تخرب متاعنا مره بعد أخری،فاجتمع رأيهم علی أن يقتلوه فبيتوه عند رجل-فلما كان الليل صاح له فقال له:ما لك؟فقال فإن:أبی ينومنی علی بطنه فقال له:تعال فنم علی بطنی-.

قال:فلم يزل يدلك الرجل-حتی علمه أن يفعل بنفسه فأولا علمه إبليس- و الثانی علمه هو ثم انسل يفر منهم،فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام- و يعجبهم منه و هم لا يعرفونه-فوضعوا أيديهم فيه حتی اكتفی الرجال بعضهم ببعض- ثم جعلوا يرصدون ماره الطريق فيفعلون بهم-حتی تنكب مدينتهم الناس ثم تركوا نسائهم-و أقبلوا علی الغلمان-.

فلما رأی أنه قد أحكم أمره فی الرجال جاء إلی النساء- فصير نفسه امرأه فقال لهن:إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض؟قلن:نعم رأينا ذلك و كل ذلك يعظهم لوط و يوصيهم-و إبليس يغويهم حتی استغنی النساء بالنساء-.

فلما كملت عليهم الحجه بعث الله-جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل فی زی غلمان- عليهم أقبيه فمروا بلوط و هو يحرث.قال:أين تريدون؟ما رأيت أجمل منكم قط.فقالوا:إنا رسل سيدنا إلی رب هذه البلده.قال:أ و لم يبلغ سيدكم ما يفعل

أهل هذه القريه؟إنهم و الله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم.قالوا:

أمرنا سيدنا أن نمر وسطها.قال:فلى إليكم حاجه.قالوا:و ما هى؟قال:

تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام-.

قال:فجلسوا.قال:فبعث ابنته.قال:فجيئى لهم بخبز و جيئى لهم بماء فى القرعه-و جيئى لهم بعباء يتغطون بها من البرد-فلما أن ذهبت الابنه أقبل المطر و الوادى فقال لوط:الساعه تذهب بالصبيان الوادى قال:قوموا حتى نمضى، و جعل لوط يمشى فى أصل الحائط،و جعل جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل يمشون وسط الطريق.قال:يا بنى امشوا هاهنا فقالوا-أمرنا سيدنا أن نمر فى وسطها و كان لوط يستغنم الظلام-.

و مر إبليس فأخذ من حجر امرأه صبيا فطرحه فى البئر-فتصايح أهل المدينه كلهم على باب لوط-فلما أن نظروا إلى الغلمان فى منزل لوط قالوا:يا لوط قد دخلت فى عملنا؟فقال:هؤلاء ضيفى-فلا تفضحون فى ضيفى.قالوا:هم ثلاثه خذ واحدا و أعطنا اثنين.قال:و أدخلهم الحجره و قال:لو أن لى أهل بيت تمنعونى منكم-.

قال:و تدافعوا على الباب-و كسروا باب لوط و طرحوا لوطا-فقال له جبرئيل:إنا رسل ربك لن يصلوا إليك-فأخذ كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم و قال:شاهت الوجوه فعمى أهل المدينه كلهم فقال لهم لوط:يا رسل ربى فما أمركم ربى فيهم؟قالوا:أمرنا أن نأخذهم بالسحر.قال:فلى إليكم حاجه.قالوا:

و ما حاجتك؟قال:تأخذوهم الساعه فإنى أخاف أن يبدو لربى فيهم.فقالوا:

يا لوط إن موعدهم الصبح أ ليس الصبح بقريب-لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك و امض و دع امرأتك-.

فقال أبو جعفر(ع):رحم الله لوطا-لو علم من معه فى الحجره لعلم أنه منصور حيث يقول:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »أى ركن أشد من جبرئيل معه فى الحجره؟فقال عز و جل لمحمد ص:« وَ مٰا هِيَ مِنَ الظّٰالِمِينَ بِبَعِيدٍ »من ظالمى أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط،و قال رسول الله ص:من ألح فى وطى الرجال لم يمت-حتى يدعو الرجال إلى نفسه.

أقول:و الروايه لا تخلو من تشويش ما في اللفظ،و قد ذكر فيها الملائكه المرسلون ثلاثه،و في بعض الروايات-كالروايه المذكوره في الباب السابق عن أبي يزيد الحمار عن أبي عبد الله(ع)-أنهم كانوا أربعه بزياده كروبيل،و في بعض الروايات من طرق أهل السنه أنهم كانوا ثلاثه و هم جبرئيل و ميكائيل و رفائيل، و الظاهر من الروايه أنها تأخذ قول لوط:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »إلخ خطابا منه للملائكه لا للقوم،و قد تقدمت الإشاره إليه في بيان الآيات.

و قوله(ع):رحم الله لوطا لو علم«إلخ»في معنى قول النبي ص-على ما روى عنه-رحم الله لوطا إن كان ليأوي إلى ركن شديد.

و قوله(ع):فقال عز و جل لمحمد ص إلخ إشاره إلى ما تقدم من احتمال كون الآيه،مسوقا لتهديد قريش.

و في تفسير القمي،بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله(ع): في قوله:

« وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ »قال:ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط-إلا رماه الله جندله من تلك الحجاره تكون منيته فيه-و لكن الخلق لا يرونه.

أقول:

و روى في الكافي،بإسناده عن ميمون البان عنه(ع)مثله.و فيه:

من بات مصرا على اللواط لم يمت-حتى يرميه الله بحجاره تكون فيه منيته-و لا يراه أحد ،و في الحديثين إشعار بكون قوله:« وَ ما هِيَ مِنَ الظّالِمِينَ بِبَعِيدٍ »غير خاص بقريش،و إشعار بكون العذاب المذكور روحانيا غير مادي.

و في الكافي،بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله(ع): في قول لوط:

« هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ »قال:عرض عليهم التزويج.

و في التهذيب عن الرضا(ع):عن إتيان الرجل المرأه من خلفها فقال:

أحلتها آيه من كتاب الله عز و جل:قول لوط: « هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ »قد علم أنهم لا يريدون الفرج.

و في الدر المنثور،أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال:

عشيره الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته-إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحده،و كفوا عنه أيدي كثيره مع مودتهم و حفاظتهم و نصرتهم-حتى لربما غضب

الرجل للرجل و ما يعرفه إلا بحسبه-و سأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآيه:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ».

قال على رضى الله عنه:و الركن الشديد العشيره-فلم يكن للوط عشيره- فوالذى لا إله غيره ما بعث الله نبيا بعد لوط-إلا فى ثروه من قومه.

أقول:و آخر الروايه مروى من طرق أهل السنه و الشيعه.

و فى الكافى،-فى حديث أبى يزيد الحمار عن أبى جعفر(ع)المنقول فى البحث الروائى السابق-قال: فأتوا يعنى الملائكه لوطا و هو فى زراعه قرب القريه-فسلموا عليه و هم معتمون فلما رأى هيئه حسنه-عليهم ثياب بيض و عمائم بيض قال لهم:

المنزل فقالوا:نعم فتقدمهم و مشوا خلفه-فندم على عرضه المنزل عليهم فقال:أى شىء صنعت؟آتى بهم قومى و أنا أعرفهم؟فقال:إنكم لتأتون شرارا من خلق الله.

قال جبرئيل:لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات.فقال جبرئيل:هذه واحده فمشى ساعه ثم التفت إليهم فقال:إنكم لتأتون شرارا من خلق الله فقال جبرئيل:هذه ثنتان.ثم مشى فلما بلغ باب المدينه التفت إليهم ثم قال:إنكم لتأتون شرارا من خلق الله.فقال جبرئيل:هذه الثالثه-ثم دخل و دخلوا معه حتى دخل منزله-.

فلما رأتهم امرأته رأت هيئه حسنه فصعدت فوق السطح-فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان-أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب-فنزلت إليهم فقالت:عندنا قوم ما رأيت قط قوما أحسن منهم هيئه-فجاءوا إلى الباب ليدخلوا-.

فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم:يا قوم اتقوا الله و لا تخزون فى ضيفى-أ ليس منكم رجل رشيد؟ثم قال:هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا:

ما لنا فى بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد،فقال لهم:لو أن لى بكم قوه أو آوى إلى ركن شديد،فقال جبرئيل:لو يعلم أى قوه له-.

فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال:يا لوط دعهم يدخلون فلما دخلوا-أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم-و هو قول الله عز و جل:

« فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ »ثم ناداه جبرئيل فقال له:إنا رسل ربك لن يصلوا إليك- فأسر

بأهلک بقطع من اللیل.و قال له جبرئیل:إنا بعثنا فی إهلاکهم فقال:یا جبرئیل عجل فقال:إن موعدهم الصبح أ لیس الصبح بقریب-.

فأمره یتحمل و من معه إلا امرأته-ثم اقتلعها یعنی المدینه جبرئیل بجناحه من سبع أرضین-ثم رفعها حتی سمع أهل السماء الدنیا نباح الکلاب-و صراخ الدیوک ثم قلبها و أمطر علیها-و علی من حول المدینه بحجاره من سجیل.

أقول:و ما اشتمل علیه آخر الروایه من اقتلاعها من سبع أرضین ثم رفعها إلی حیث سمع أهل السماء الدنیا نباح کلابهم و صراخ دیوکهم أمر خارق للعاده،و هو و إن کان لا یستبعد من قدره الله سبحانه لکنه مما لا یکفی فی ثبوته أمثال هذه الروایه و هی من الآحاد.

علی أن السنه الإلهیه جاریه علی أن تقتفی فی الکرامات و المعجزات الحکمه و أی حکمه فی رفعهم إلی هذا الحد و لا أثر له فی عذابهم و لا فی تشدیده؟ و قول بعض أهل الکلام:من الجائز أن یکون هذا الفعال العجیب الخارق للعاده لطفا من الله لیکون الإخبار بذلک من طریق المعصومین مقربا للمؤمنین إلی الطاعه مبعدا لهم من المعصیه کلام مدخول فإن خلق الأمور العظیمه المعجبه و الحوادث الخارقه للعاده لیتأکد بها إیمان المؤمنین و یعتبر بها المعتبرون و إن کان لا یخلو من لطف إلا أنه إنما یکون لطفا فیما کان بلوغه لهم من طریق الحس أو أی طریق علمی آخر،و أما روایه واحده أو ضعیفه و هی خالیه عن الحجیه لا یعبأ بها فلا معنی لإیجاد الأمور الخارقه و الحوادث العجیبه لأجل حصول اعتبار أو مخافه من طریقها،و لا وجه لتشدید عذاب قوم لیعتبر به قوم آخرون إلا فی سنه الجهال من طغاه البشر و جبابرتهم.

قال صاحب المنار فی تفسیره:و فی خرافات المفسرین المرویه عن الإسرائیلیات أن جبرئیل قلعها من تخوم الأرض بجناحه و صعد بها إلی عنان السماء حتی سمع أهل السماء أصوات الکلاب و الدجاج فیها ثم قلبها قلبا مستویا فجعل عالیها سافلها.

و هذا تصور مبنی علی اعتقاد متصوره إن الأجرام السماویه المأهوله بالسکان مما یمکن أن یقرب منهم سکان الأرض و ما فیها من الحیوان و یبقون أحیاء.و قد ثبت بالمشاهده و الاختبار الفعلی فی هذه الأیام التی یکتب هذا فیها أن الطیارات

و المناطید التی تخلق فی الجو تصل إلی حیث یخف ضغط الهواء و یستحیل حیاه الناس فیها،و هم یصنعون أنواعا منها یصنعون فیها من أکسجین الهواء ما یکفی استنشاقه و تنفسه للحیاه فی طبقات الجو العلیا و یصعدون فیها.

و قد أشیر فی الکتاب العزیز إلی ما یکون للتصعید فی جو السماء من التأثیر فی ضیق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالی:« فَمَنْ یُرِدِ اللّهُ أَنْ یَهْدِیَهُ یَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ یُرِدْ أَنْ یُضِلَّهُ یَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَیِّقاً حَرَجاً کَأَنَّمٰا یَصَّعَّدُ فِی السَّمٰاءِ ».

فإن قیل:إن هذا الفعل المروی عن جبرئیل من الممکنات العقلیه و کان وقوعه من خوارق العادات فلا یصح أن یجعل تصدیقه موقوفا علی ما عرف من سنن الکائنات.

قلت:نعم و لکن الشرط الأول لقبول الروایه فی أمر جاء علی غیر السنن و النوامیس التی أقام الله بها نظام العالم من عمران و خراب أن تکون الروایه عن وحی إلهی نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحیح متصل الإسناد لا شذوذ فیه و لا عله علی الأقل،و لم یذکر فی کتاب الله تعالی،و لم یرد فیه حدیث مرفوع إلی نبیه ص،و لا تظهر حکمه الله فیه،و إنما روی عن بعض التابعین دون الصحابه.و لا شک أنه من الإسرائیلیات.

و مما قالوه فیها:أن عدد أهلها کان أربعه آلاف ألف و بلاد فلسطین کلها لا تسع هذا العدد فأین کان هؤلاء الملایین یسکنون من تلک القری الأربع؟انتهی.

و الذی ذکره أن الحدیث إنما روی عن التابعین دون الصحابه فإنه أن هذا المعنی مروی عن ابن عباس و عن الحذیفه بن الیمان،

ففی روایه ابن عباس-کما فی الدر المنثور،عن إسحاق بن بشر و ابن عساکر من طریق جویبر و مقاتل عن الضحاک عنه-": «فلما کان عند وجه الصبح عمد جبریل إلی قری لوط-بما فیها من رجالها و نسائها و ثمارها و طیرها-فحواها و طواها ثم قلعها من تخوم الثری-ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلی السماء الدنیا-فسمع سکان سماء الدنیا أصوات الکلاب و الطیر- و النساء و الرجال من تحت جناح جبرئیل-ثم أرسلها منکوسه ثم أتبعها بالحجاره، و کانت الحجاره للرعاه و التجار-و من کان خارجا عن مدائنهم »الحدیث.

و فی روایه حذیفه بن الیمان-علی ما فی الدر المنثور،عن عبد الرزاق و ابن جریر

و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عنه-": «فاسـتأذن جبرئيـل فى هلاكهم-فأذن له فاحتمل الأرض التى كانوا عليها،و أهوى بها حتى سمع أهل سـماء الـدنيا صـغاء كلابهم-و أوقـد تحتهم نارا ثم قلبها بهم-فسـمعت امرأه لوط الوجبه و هى معهم-فالتفتت فأصابها العذاب، و تبعت سفارهم الحجاره »الحديث.

و أما من التابعين فقـد روى هـذا المعنى عن سـعيد بن جبير و مجاهد و أبى صالح و محمد بن كعب القرظى و عن السدى ما هو أغلـظ من ذلـك قـال": «لمـا أصـبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سـبع أرضـين-فحملها حتى بلغ السـماء الـدنيا-ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض »الحديث.

و أما ما ذكره من أنه«يشترط فى قبول الروايه أن تكون منقوله بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه و لاـ عله»فمسأله أصوليه، و الـذى اسـتقر عليه النظر اليوم فى المسـأله أن الخبر إن كان متواترا أو محفوفا بقرينه قطعيه فلا ريب فى حجيتهـا،و أمـا غير ذلـك فلاـ حجيه فيه إلاـ الأخبـار الوارده فى الأحكـام الشـرعيه الفرعيه إذا كـان الخبر موثوق الصـدور بالظن النوعى فإن لها حجيه.

و ذلك أن الحجيه الشـرعيه من الاعتبارات العقلائيه فتتبع وجود أثر شـرعى فى المورد يقبل الجعل و الاعتبار الشـرعى و القضايا التـاريخيه و الأـمور الاعتقاديه لا معنى لجعل الحجيه فيها لعـدم أثر شـرعى و لا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علما و تعبيد النـاس بـذلك،و الموضوعـات الخارجيه و إن أمكن أن يتحقق فيها أثر شـرعى إلا أن آثارها جزئيه و الجعل الشـرعى لا ينال إلا الكليات و ليطلب تفصيل القول فى المسأله من علم الأصول.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن أبى بن كعب قال:قال رسول الله ص: رحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد.

أقول:مقتضـى المقـام الـذى كان يجارى فيه لوط قومه و يأمرهم بتقوى الله و الاجتناب عن الفجور،و ظاهر سـياق الآيات الحاكيه للمشاجره بينه و بين قومه أن لوطا إنما كان يتمنى أنصارا أولى رشـد من بين قومه أو من غيرهم فقوله:« أَوْ آوِي إِلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »يريد به أنصارا من غير القوم من عشيره أو أخلاء و أصدقاء فى الله

ینصرونه فی الدفع عن أضیافه هذا و الرکن الشدید معه فی داره و هم جبرئیل و میکائیل و إسرافیل و لذلک لبوه من غیر فصل و قالوا: یا لُوطُ إِنّا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ .

و لم یکن لیغفل فی حال من تلک الأحوال عن ربه و أن کل النصر من عنده حتی ینساه و یتمنی ناصرا غیره،و حاشا مقام هذا النبی الکریم عن مثل هذا الجهل المذموم و قد قال الله تعالی فی حقه :«آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً -Xإلی أن قالX- وَ أَدْخَلْناهُ فِی رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصّالِحِینَ:» الأنبیاء:-۷۵.

فقول النبی ص:«إن کان لیأوی إلی رکن شدید»معناه أن معه جبرئیل و سائر الملائکه و هو لا یعلم بذلک،و لیس معناه أن معه الله سبحانه و هو جاهل بمقام ربه.

فما فی بعض الروایات الناقله للفظه رسول الله ص من الإشعار بأن مراده بالرکن الشدید هو الله سبحانه دون الملائکه إنما نشأ عن فهم بعض رواه الحدیث کما

عن أبی هریره قال:قال رسول الله ص: رحم الله لوطا-کان یأوی إلی رکن شدید یعنی الله تعالی. الحدیث.

و کما عنه من طریق آخر قال:إن النبی ص قال: «یغفر الله للوط-إن کان لیأوی إلی رکن شدید »و لعل فیه نقلا بالمعنی و أن النبی ص قال:رحم الله لوطا فغیره الراوی إلی قوله:یغفر الله للوط المشعر بکون لوط أهمل أدبا من آداب العبودیه أو أذنب ذنبا بجهله مقام ربه و نسیانه ما لم یکن له أن ینساه.

(کلام فی قصه لوط و قومه فی فصول)

۱-قصته و قصه قومه فی القرآن:

کان لوط(ع)من کلدان فی أرض بابل و من السابقین الأولین ممن آمن بإبراهیم(ع)آمن به و قال :«إِنِّی مُهاجِرٌ إِلی رَبِّی :العنکبوت-۲۶ فنجاه الله مع إبراهیم إلی الأرض المقدسه أرض فلسطین (الأنبیاء:۷۱) فنزل فی بعض بلادها(و هی مدینه سدوم علی ما فی التواریخ و التوراه و بعض الروایات).

و کـان أهـل المـدينه و مـا والاهـا مـن المـدائن و قـد ســماها الله فی کلامـه بالمؤتفکـات (التـوبه ٧٠)یعبدون الأصـنام،و یأتون بالفاحشه:اللواط،و هم أول قوم شاع فیهم ذلک(الأعراف:٨٠)حتی کانوا یأتون به فی نوادیهم من غیر إنکار (العنکبوت:٢٩)و لم یزل تشیع الفاحشه فیهم حتی عادت سنه قومیه ابتلت به عامتهم و ترکوا النساء و قطعوا السبیل(العنکبوت:٢٩).

فأرسل الله لوطا إلیهم(الشعراء:١۶٢)فـدعاهم إلی تقوی الله و ترک الفحشـاء و الرجوع إلی طریق الفطره و أنـذرهم و خوفهم فلم یزدهم إلا عتوا و لم یکن جوابهم إلا أن قالوا ائتنا بعـذاب الله إن کنت من الصادقین،و هددوه بالإخراج من بلدتهم و قالوا له:لئن لم تنته لتکونن من المخرجین(الشعراء:١۶٧)و قالوا أخرجوا آل لوط من قریتکم إنهم أناس یتطهرون(النمل:۵۶).

٢-عاقبه أمرهم:

لم یزل لوط(ع)یـدعوهم إلی سبیـل الله و ملازمه سـنه الفطره و ترک الفحشاء و هم یصـرون علی عمل الخبائث حتی اسـتقر بهم الطغیان و حقت علیهم کلمه العـذاب فبعث الله رسـلا من الملائکه المکرمین لإهلاکهم فنزلوا أولا علی إبراهیم(ع) و أخبروه بما أمرهم الله به من إهلاـک قوم لوط فجـادلهم إبراهیم(ع) لعله یرد بـذلک عنهم العـذاب،و ذکرهم بأن فیهم لوطا فردوا علیه بأنهم أعلم بموقع لوط و أهله،و أنه قد جاء أمر الله و أن القوم آتیهم عذاب غیر مردود(العنکبوت:

٣٢-هود:٧۶).

فمضوا إلی لوط فی صور غلمـان مرد و دخلوا علیه ضـیفا فشق ذلـک علی لوط و ضـاق بهم ذرعـا لمـا کـان یعلم من قومه أنهم سیتعرضـون لهم و أنهم غیر تـارکیهم البته فلم یلبث دون أن سـمع القـوم بـذلک و أقبلوا یهرعون إلیه و هم یستبشـرون و هجموا علی داره فخرج إلیهم و بالغ فی وعظهم و اسـتثاره فتوتهم و رشـدهم حتی عرض علیهم بناته و قال: یا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اللّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی ثم استغاث و قال: أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ فردوا علیه أنه لیس لهم فی بناته إربه و أنهم غیر تارکی أضیافه البته حتی أیس لوط و قالَ:لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّهً أَوْ آوِی إِلی رُکْنٍ شَدِیدٍ :(هود:-٨٠).

قالت الملائكه عند ذلك یا لوط:إنا رسل ربک طب نفسا إن القوم لن یصلوا إلیک فطمسوا أعین القوم فعادوا عمیانا یتخبطون و تفرقوا(القمر:۳۷).

ثم أمروا لوطا(ع)أن یسری بأهله من لیلته بقطع من اللیل و یتبع أدبارهم و لا یلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصیبها ما أصابهم،و أخبروه أنهم سیهلکون القوم مصبحین(هود:۸۱-الحجر:۶۶).

فأخذت الصیحه القوم مشرقین،و أرسل الله علیهم حجاره من طین مسومه عند ربک للمسرفین،و قلب مدائنهم علیهم فجعل عالیها سافلها و أخرج من کان فیها من المؤمنین فلم یجد فیها غیر بیت من المسلمین و هو بیت لوط و ترک فیها آیه للذین یخافون العذاب الألیم(الذاریات:۳۷-و غیرها).

و فی اختصاص الإیمان و الإسلام بیت لوط(ع)،و شمول العذاب لمدائنهم دلاله-أولا-علی أن القوم کانوا کفارا غیر مؤمنین و-ثانیا-علی أن الفحشاء ما کانت شائعه فیما بین الرجال منهم فحسب إذ لو کان الأمر علی ذلک و النساء بریئات منها و کان لوط یدعو الناس إلی الرجوع إلی سبیل الفطره و سنه الخلقه التی هی مواصله الرجال و النساء لاتبعته عده من النساء و اجتمعن حوله و آمن به طبعا، و لم یذکر من ذلک شیء فی کلامه سبحانه.

و فی ذلک تصدیق ما تقدم فی الأخبار المأثوره أن الفحشاء شاعت بینهم، و اکتفی الرجال بالرجال باللواط،و النساء بالنساء بالسحق.

۳-شخصیه لوط المعنویه:

کان(ع)رسولا من الله إلی أهل المؤتفکات و هی مدینه سدوم و ما والاها من المدائن-و یقال:کانت أربع مدائن:سدوم و عموره و صوغر و صبوییم و قد أشرکه فی جمیع المقامات الروحیه التی وصف بها أنبیاءه الکرام.

و مما وصفه به خاصه ما فی قوله :«وَ لُوطاً آتَیْنٰاهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّیْنٰاهُ مِنَ الْقَرْیَهِ الَّتِی کٰانَتْ تَعْمَلُ الْخَبٰائِثَ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فٰاسِقِینَ وَ أَدْخَلْنٰاهُ فِی رَحْمَتِنٰا إِنَّهُ مِنَ الصّٰالِحِینَ:» الأنبیاء:-۷۵.

۴-لوط و قومه فی التوراه:

ذکرت (۱)التوراه أن لوطا کان ابن أخی

۱- ۱) الصحاح الحادی عشر و الثانی عشر من سفر التکوین.

أبرام-إبراهيم-هاران بن تارخ و كان هو و أبرام فی بيت تارخ فی أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصدا أرض الكنعانيين فأقام بلده حاران و معه أبرام و لوط و مات هناك.

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران و معه لوط و لهما مال كثير و غلمان اكتسبا ذلك فی حاران فأتی أرض كنعان،و كان يرتحل أبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب،ثم أتی مصر،ثم صعد من هناك جنوبا نحو بيت إيل فأقام هناك.

و لوط السائر مع أبرام أيضا كان له غنم و بقر و خيام و لم يحتملهما الأرض أن يسكنا و وقعت مخاصمه بين رعاه مواشيهما فتفرقا فأحذرا من وقوع النزاع و التشاجر فاختار لوط دائره الأردن و سكن فی مدن الدائره و نقل خيامه إلی سدوم، و كان أهل سدوم أشرارا و خطاه لدی الرب جدا،و نقل أبرام خيامه و أقام عند بلوطات ممرا التی فی حبرون.

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم و عموره و أدمه و صبوييم،و صوغر من جانب و أربعه من جيرانهم من جانب،انهزم فيها ملك سدوم و من معه من الملوك، و أخذ العدو جميع أملاك سدوم و عموره و جميع أطعمتهم،و أسر لوط فيمن أسر و سبی جميع أمواله،و انتهی الخبر إلی أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان،و كانوا يزيدون علی ثلاث مائه فحاربهم و هزمهم،و أنجی لوطا و جميع أمواله من الأسر و السبی،و رده إلی مكانه الذی كان مقيما(فيه ملخص ما فی التوراه من صدر قصه لوط).

قالت التوراه (1)و ظهر له-لأبرام-الرب عند بلوطات ممرا و هو جالس فی باب الخيمه وقت حر النهار.فرفع عينيه و نظر و إذا ثلاثه رجال واقفون لديه.

فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمه و سجد إلی الأرض.و قال:يا سيد إن كنت قد وجدت نعمه فی عينيك فلا تتجاوز عبدك.ليؤخذ قليل ماء و اغسلوا أرجلكم و اتكئوا تحت هذه الشجره.فأخذ كسره خبز فتسندون قلوبكم ثم

١- ١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين.

تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم.فقالوا:هكذا نفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمه إلى ساره و قال:أسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميدا اعجنى و اصنعى خبز مله،ثم ركض إبراهيم إلى البقر و أخذ عجلا رخصا و جيدا و أعطاه للغلام فأسرع ليعمله.ثم أخذ زبدا و لبنا و العجل الذى عمله و وضعها قدامهم.

و إذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجره أكلوا.

و قالوا له:أين ساره امرأتك،فقال:ها هى فى الخيمه،فقال:إنى أرجع إليك نحو زمان الحياه و يكون لساره امرأتك ابن.و كانت ساره سامعه فى باب الخيمه و هو وراءه.و كان إبراهيم و ساره شيخين متقدمين فى الأيام.و قد انقطع أن يكون لساره عاده كالنساء.فضحكت ساره فى باطنها قائله:أ بعد فنائى يكون لى تنعم و سيدى قد شاخ؟فقال الرب لإبراهيم:لما ذا ضحكت ساره قائله:

أ فبالحقيقه ألد و أنا قد شخت؟هل يستحيل على الرب شىء؟فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياه و يكون لساره ابن،فأنكرت ساره قائله:لم أضحك،لأنها خافت.

فقال:لا بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك و تطلعوا نحو سدوم،و كان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم.فقال الرب:هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟و إبراهيم يكون أمه كبيره و قويه و يتبارك به جميع أمم الأرض.لأنى عرفته لكى يوصى بنيه و بيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برا و عدلا لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به.

فقال الرب:إن صراخ سدوم و عموره قد كثر و خطيئتهم قد عظمت جدا.

أنزل و أرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلى و إلا فأعلم.و انصرف الرجال من هناك و ذهبوا نحو سدوم.و أما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب.

فتقدم إبراهيم و قال:أ فتهلك البار مع الأثيم؟عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينه.أ فتهلك المكان و لا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم،حاشاك.

أ ديان كل الأرض لا يصنع عدلا؟فقال الرب:إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينه فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم.

فأجاب إبراهيم و قال:إنى قد شرعت أكلم المولى و أنا تراب و رماد ربما نقص

الخمسون بارا خمسه أ تهلك كل المـدينه بالخمسه؟فقال الرب:لا أهلك إن وجـدت هناك خمسه و أربعين.فعاد يكلمه أيضا و قال:عسى أن يوجد هناك أربعون،فقال:

لا ـ أفعـل من أجـل الأربعين.فقـال:لا ـ يسـخط المولى فـأتكلم عسـى أن يوجـد هنـاك ثلاثون.فقـال:لا ـ أفعـل إن وجـدت هناك ثلاثين.فقال:إنى قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون،فقال:لا أهلك من أجل العشرين.

فقال:لا يسخط المولى فأتكلم هذه المره فقط عسى أن يوجد هناك عشره، فقال:لا أهلك من أجل العشره.و ذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم و رجع إبراهيم إلى مكانه.

فجاء (۱)الملأـ كـان إلى سـدوم مسـاء و كـان لوط جالسـا فى باب سـدوم فلما رآهما لوط قام لاسـتقبالهما و سـجد بوجهه إلى الأرض.و قال:يا سـيدى ميلا إلى بيت عبـدكما و بيتا و اغسـلا أرجلكما ثم تبكران و تـذهبان فى طريقكما،فقالا:لا بل فى الساحه نبيت،فألح عليهما جدا،فمالا إليه و دخلا بيته،فصنع لهما ضيافه و خبزا فطيرا فأكلا.

و قبـل ما اضـطجعا أحاط بالبيت رجال المـدينه رجال سـدوم من الحـدث إلى الشـيخ كل الشـعب من أقصاها فنادوا لوطا و قالوا له:أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليله؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما.فخرج إليهم لوط إلى الباب و أغلق الباب وراءه.و قال:

لا ـ تفعلوا شـرا يا إخوتى.هو ذا لى ابنتان لم يعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم.و أما هـذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى.

فقـالوا:ابعـد إلى هنـاك.ثم قـالوا:جاء هـذا الإنسان ليتغرب و هو يحكم حكما.الآن نفعل بك شـرا أكثر منهما.فألحوا على الرجل لوط جـدا و تقـدموا ليكسـروا الباب فمـد الرجلان أيديهما و أدخلا لوطا إليهما إلى البيت و أغلقا الباب و أما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

۱- ۱) الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين.

و قال الرجلان للوط:من لک أیضا هاهنا أصهارک و بنوک و بناتک و کل من لک فی المدینه أخرج من المکان لأننا مهلکان هذا المکان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلکهم.فخرج لوط و کلم أصهاره الآخذین بناته و قال:قوموا اخرجوا من هذا المکان لأن الرب مهلک المدینه،فکان کمازح فی أعین أصهاره.

و لما طلع الفجر کان الملأ کان یعجلان لوطا قائلین:قم خذ امرأتک و ابنتیک الموجودتین لئلا تهلک بإثم المدینه.و لما توانی أمسک الرجلان بیده و بید امرأته و بید ابنتیه لشفقه الرب علیه و أخرجاه وضعاه خارج المدینه.

و کان لما أخرجاهم إلی خارج أنه قال:اهرب لحیاتک.لا تنظر إلی ورائک و لا تقف فی کل الدائره.اهرب إلی الجبل لئلا تهلک فقال لهما لوط:لا یا سید هو ذا عبدک قد وجد نعمه فی عینیک و عظمت لطفک الذی صنعت إلی باستبقاء نفسی.و أنا لا أقدر أن أهرب إلی الجبل لعل الشر یدرکنی فأموت.هو ذا المدینه هذه قریبه للهرب إلیها.و هی صغیره أهرب إلی هناک أ لیست هی صغیره فتحیا نفسی.فقال له:إنی قد رفعت وجهک فی هذا الأمر أیضا أن لا أقلب المدینه التی تکلمت عنها.أسرع اهرب إلی هناک لأنی لا أستطیع أن أفعل شیئا حتی تجیء إلی هناک-لذلک دعی اسم المدینه صوغر.

و إذا أشرقت الشمس علی الأرض دخل لوط إلی صوغر فأمطر الرب علی سدوم و عموره کبریتا و نارا من عند الرب من السماء.و قلب تلک المدن و کل الدائره و جمیع سکان المدن و نبات الأرض.و نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

و بکر إبراهیم فی الغد إلی المکان الذی وقف فیه أمام الرب و تطلع نحو سدوم و عموره و نحو کل أرض الدائره.و نظر و إذا دخان الأرض یصعد کدخان الأتون.و حدث لما أخرب الله مدن الدائره أن الله ذکر إبراهیم.و أرسل لوطا من وسط الانقلاب حین قلب المدن التی سکن فیها لوط.

و صعد لوط من صوغر و سکن فی الجبل و ابنتاه معه لأنه خاف أن یسکن فی صوغر فسکن فی المغاره هو و ابنتاه.و قالت البکر للصغیره:أبونا قد شاخ و لیس فی الأرض رجل لیدخل علینا کعاده کل الأرض هلم نسقی أبانا خمرا و نضطجع معه فنحیی من أبینا نسلا.فسقتا أباهما خمرا فی تلک اللیله.و دخلت البکر و اضطجعت

مع أبيها و لم يعلم باضطجاعها و لا بقيامها و حدث في الغد أن البكر قالت للصغيره إني قد اضطجعت البارحه مع أبي.نسقيه خمرا الليله أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا.فسقتا أباهما خمرا في تلك الليله أيضا.و قامت الصغيره و اضطجعت معه.و لم يعلم باضطجاعها و لا بقيامها.فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

فولدت البكر ابنا و دعت اسمه موآب و هو أبو الموآبيين إلى اليوم و الصغيره أيضا ولدت ابنا و دعت اسمه بن عمي و هو أبو بني عمون إلى اليوم.انتهى.

هذا ما قصته التوراه في لوط و قومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصه و من وجوه غيرها.

ففيها كون الملك المرسل للبشرى و العذاب ملكين اثنين.و قد عبر القرآن بالرسل-بلفظ الجمع و أقله ثلاثه-.

و فيها أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه و قدمه إليهم،و القرآن ينفي ذلك و يقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل إليه.

و فيها:إثبات بنتين للوط،و القرآن يعبر بلفظ البنات.و فيها كيفيه إخراج الملائكه لوطا و كيفيه تعذيب القوم و صيروره المرأه عمودا من ملح و غير ذلك.

و فيها نسبه التجسم صريحه إلى الله سبحانه،و ما ذكرته من قصه لوط مع بنتيه أخيرا،و القرآن ينزه ساحه الحق سبحانه عن التجسم و يبرئ أنبياءه و رسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحه قدسهم.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۸۴ الى ۹۵]

اشاره

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَ لاٰ تَنْقُصُوا اَلْمِكْيٰالَ وَ اَلْمِيزٰانَ إِنِّي أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا اَلْمِكْيٰالَ وَ اَلْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اَللّٰهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ أَ صَلاٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوٰالِنٰا مٰا نَشٰؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ اَلْحَلِيمُ اَلرَّشِيدُ (۸۷) قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ اَلْإِصْلاٰحَ مَا اِسْتَطَعْتُ وَ مٰا تَوْفِيقِي إِلاّٰ بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸) وَ يٰا قَوْمِ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقٰاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰) قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ مٰا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّٰا تَقُولُ وَ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْنٰا بِعَزِيزٍ (۹۱) قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ اِتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمٰا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يٰا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلىٰ مَكٰانَتِكُمْ إِنِّي عٰامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذٰابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ وَ اِرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳) وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْباً وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ أَخَذَتِ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا اَلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

(بيان)

تذكر الآيات قصه شعيب(ع)و قومه و هم أهل مدين،و كانوا يعبدون الأصنام،و كان قد شاع التطفيف في الكيل و الوزن عندهم و اشتد الفساد فيهم فأرسل الله سبحانه شعيبا(ع)إليهم فدعاهم إلى التوحيد و توفيه الميزان و المكيال بالقسط و ترك الفساد في الأرض،و بشرهم و أنذرهم و بالغ في عظتهم

و قد روى عن النبي ص أنه قال: كان شعيب خطيب الأنبياء.

فلم يجبه القوم إلا بالرد و العصيان،هددوه بالرجم و الطرد من بينهم و بالغوا في إيذائه و إيذاء شرذمه من الناس آمنوا به و صدهم عن سبيل الله و داموا على ذلك حتى سأل الله أن يقضي بينه و بينهم فأهلكهم الله تعالى.

قوله تعالى:« وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً »إلى آخر الآيه عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء و أممهم،و مدين اسم مدينه كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبه إرسال شعيب إلى مدين و كان مرسلا إلى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا:

جرى الميزاب،و في عد شعيب(ع)أخا لهم دلاله على أنه كان ينتسب إليهم.

و قوله:« قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ »تقدم تفسيره في نظائره.

و قوله:« وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ » المكيال و الميزان اسما آله بمعنى ما يكال به و ما يوزن به،و لا يوصفان بالنقص و إنما يوصف بالنقص كالزياده و المساواه المكيل و الموزون فنسبه النقص إلى المكيال و الميزان من المجاز العقلي.

و في تخصيص نقص المكيال و الميزان من بين معاصيهم بالذكر دلاله على شيوعه بينهم و إقبالهم عليه و إفراطهم فيه بحيث ظهر فساده و بان سيئ أثره فأوجب ذلك شده اهتمام به من داعي الحق فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي.

و قوله:« إِنِّي أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ »أي أشاهدكم في خير،و هو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجه لكم إلى نقص المكيال و الميزان،و اختلاس اليسير من أشياء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع و ظلما و عتوا،و على هذا فقوله:« إِنِّي أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ »تعليل لقوله:« وَ لاٰ تَنْقُصُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ ».

ص: ۳۶۱

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشـمولون لعنايه الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلـهه من دونه و تشركوا به غيره،و أن تفسـدوا فى الأرض بنقص المكيـال و الميزان،و على هـذا يكون تعليلاـ لمـا تقـدمه من الجملتين أعنى قوله:« اُعْبُدُوا اللّهَ »إلخ،و قوله:« وَ لاٰ تَنْقُصُوا »إلخ، كما أن قوله:« وَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ »كذلك.

فمحصل قوله:« إِنِّي أَرٰاكُمْ »إلى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه الله:أحدهما:أنكم فى خير و لا حاجه لكم إلى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها.و ثانيهما:أن وراء مخالفه أمر الله يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيـد أن يراد بقوله:« إِنِّي أَرٰاكُمْ بِخَيْرٍ »إنى أراكم برؤيه خير أى أنظر إليكم نظر الناصح المشفق الـذى لاـ يصاحب نظره إلا الخير و لا يريد بكم غير السعاده،و على هذا يكون قوله:« وَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ »كعطف التفسير بالنسبه إليه.

و قوله:« وَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ »يشـير به إلى يوم القيامه أو يوم نزول عذاب الاستئصال و معنى كون اليوم-و هو يوم القضاء بالعـذاب-محيطا أنه لا مخرج منه و لا مفر و لا ملاذ من دون الله فلا يـدفع فيه ناصـر و لا معين،و لا ينفع فيه توبه و لا شفـاعه،و يئول معنى الإحاطه إلى كون العـذاب قطعيا لا مناص منه و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عـذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعـالى:« وَ يٰا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيٰالَ وَ الْمِيزٰانَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْيٰاءَهُمْ » إلـخ، الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخس النقص كرر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام بأمر لا غنى لمجتمعهم عنه،و ذلك أنه دعـاهم أولاـ إلى الصـلاح بـالنهى عن نقص المكيـال و الميزان،و عـاد ثانيا فأمر بإيفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخس الناس أشياءهم إشاره إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال و الميزان لا يكفى فى إعطاء هـذا الأمر حقه-و إنما نهى عنه أولا لتكون معرفه إجماليه هى كالمقدمه لمعرفه التكليف تفصـيلا-بل يجب أن يوفى الكائل و الوازن مكياله و ميزانه و يعطياهما حقهما و لا يبخسـا و لاـ ينقصـا الأشـياء المنسوبه إلى الناس بالمعامله حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم و ردا إليهم مالهم على ما هو عليه.

و قوله:« وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »قال الراغب: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا و العثى فيما يدرك حكما يقال:عثى يعثى عثيا،و على هذا« وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » و عثا يعثو عثوا.انتهى.

و على هذا فقوله:« مُفْسِدِينَ »حال من ضمير« لاٰ تَعْثَوْا »لإفاده التأكيد نظير ما يفيده قولنا:لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله أعنى قوله:« وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »نهى مستأنف عن الفساد فى الأرض من قتل أو جرح أو أى ظلم مالى أو جاهى أو عرضى لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجمله عطفا تفسيريا للنهى السابق فيكون نهيا تأكيديا عن التطفيف و نقص المكيال و الميزان لأنه من الفساد فى الأرض.

بيان ذلك:أن الاجتماع المدنى الدائر بين أفراد النوع الإنسانى مبنى على المبادله حقيقه فما من مواصله و مرابطه بين فردين من أفراد النوع إلا و فيه إعطاء و أخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون فى شئون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه و يدفع إليه نفعا ليجذب منه إلى نفسه نفعا و هو المعامله و المبادله.

و من أظهر مصاديق هذه المبادله المعاملات الماليه و خاصه فى الأمتعه التى لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سنه المبادله فيه.

فالمعاملات الماليه و خاصه البيع و الشرى من أركان حياه الإنسان الاجتماعيه يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه فى حياته الضروريه بالكيل أو الوزن،و ما يجب عليه أن يبذله فى حذائه من الثمن ثم يسير فى حياته بانيا لها على هذا التقدير و التدبير.

فإذا خانه معامله و نقص المكيال و الميزان من حيث لا يشعر هو فقد أفسد تدبيره و أبطل تقديره،و اختل بذلك نظام معيشته من الجهتين معا من جهه ما يقتنيه من لوازم الحياه بالاشتراء و من جهه ما يبذله من الثمن الزائد الذى يتعب نفسه فى تحصيله بالاكتساب فيسلب إصابه النظر و حسن التدبير فى حياته و يتخبط فى مسيرها خبط العشواء و هو الفساد.

و إذا شاع ذلك فى مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم و لم يلبثوا دون أن يسلبوا

الوثوق و الاطمئنان و اعتماد بعضهم على بعض و يرتحل بذلك الأمن العام من بينهم و هو النكبه الشامله التى تحيط بالصالح و الطالح و المطفف و الذى يوفى المكيال و الميزان على حد سواء،و عاد بذلك اجتماعهم اجتماعا على المكر و إفساد الحياه لا اجتماعا على التعاون لسعادتها،قال تعالى :«وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً» إسراء:-٣٥.

قوله تعالى:« بَقِيَّتُ اللّٰهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » البقيه بمعنى الباقى و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذى يبقى له بعد تمام المعامله فيضعه فى سبيل حوائجه،و ذلك أن المبادله و إن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح،و إنما كان الواحد منهم يقتنى شيئا من متاع الحياه،فإذا كان يزيد على ما يحتاج إليه بدل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج إليه و لا يملكه ثم أخذت نفس التجاره و تبديل الأمتعه من الأثمان حرفه يكتسب بها المال و يقتنى بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد أو أنواع شتى و عرضه على أرباب الحاجه للمبادله،و أضاف إلى رأس ماله فيه شيئا من الربح بإزاء عمله فى الجمع و العرض و رضى بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل أمر المبادله عليهم فللتاجر فى تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوم معيشته و يحول إليه ثروه يقتنيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذى هو بقيه إلهيه هداكم الله إليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذى تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذى ساقه الله إليه من طريق حله،و أما غير ذلك مما لا يرتضيه الله و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له إليه.

و قيل:إن الاشتراط بالإيمان فى قوله:« إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »للدلاله على اشتراط الإيمان للعلم بذلك لا لأصله و المعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحه قولى:إن بقيه الله خير لكم.

و قيل معنى الآيه ثواب طاعه الله-بكون البقيه بمعنى ثواب الطاعه الباقى- خير لكم إن كنتم مؤمنين.و قيل غير ذلك.

و قوله:« وَ مٰا أَنَا عَلَيْكَمْ بِحَفِيظٍ »أى و ما يرجع إلى قدرتى شىء مما عندكم من نفس أو عمل أو طاعه أو رزق و نعمه فإنما أنا رسول ليس عليه إلا البلاغ،لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم أو تسقطوا فى مهبط الهلكه من غير أن أقدر على جلب خير إليكم أو دفع شر منكم فهو كقوله تعالى :«فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ:» الأنعام:-١٠۴.

قوله تعالى:« قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ أَ صَلاٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا »إلى آخر الآيه،رد منهم لحجه شعيب عليه،و هو من ألطف التركيب،و مغزى مرادهم أنا فى حريه فيما نختاره لأنفسنا من دين أو نتصرف به فى أموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت أو تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شىء مما تشاهد منا بما تصلى و تتقرب إلى ربك و أردت أن تأمر و تنهى فلا تتعد نفسك لأنك لا تملك إلا إياها.

و قد أدوا مرادهم هذا فى صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه فى قالب الاستفهام الإنكارى و هو أن الذى تريده منا من ترك عباده الأصنام،و ترك ما شئنا من التصرف فى أموالنا هو الذى بعثتك إليه صلاتك و شوهته فى عينك فأمرتك به لما أنها ملكتك لكنك أردت منا ما أرادته منك صلاتك و لست تملكنا أنت و لا صلاتك لأننا أحرار فى شعورنا و إرادتنا لنا أن نختار أى دين شئنا و نتصرف فى أموالنا أى تصرف أردنا من غير حجر و لا منع و لم ننتحل إلا ديننا الذى هو دين آبائنا و لم نتصرف إلا فى أموالنا و لا حجر على ذى مال فى ماله.

فما معنى أن تأمرك إياك صلاتك بشىء و نكون نحن الممتثلون لما أمرتك به؟ و بعباره أخرى ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك؟فهل هذا إلا سفها من الرأى؟و إنك لأنت الحليم الرشيد و الحليم لا يعجل فى زجر من يراه مسيئا و انتقام من يراه مجرما حتى ينجلى له وجه الصواب،و الرشيد لا يقدم على أمر فيه غى و ضلال فكيف أقدمت على مثل هذا الأمر السفهى الذى لا صوره له إلا الجهاله و الغى؟ و قد ظهر بهذا البيان أولا:أنهم إنما نسبوا الأمر إلى الصلاه لما فيها من البعث و الدعوه إلى معارضه القوم فى عبادتهم الأصنام و نقصهم المكيال و الميزان،

و هـذا هو السـر فى تعبيرهم عن ذلك بقولهم:« أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ »إلخ،دون أن يقولوا:أ صـلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟مع أن التعبير عن المنع بالنهى عن الفعل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك و لذلك عبر عنه شعيب بالنهى فى جوابه عن قولهم إذ قال:« وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »و لم يقل إلى ما آمركم بتركه.و المراد-على أى حال-منعه إياهم عن عباده الأصنام و التطفيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآيه التى ملئت لطافه و حسنا.

و ثانيا:أنهم إنما قالوا:« أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا »دون أن يقولوا:أن نترك آلهتنا أو أن نترك الأوثان ليشـيروا بـذلك إلى الحجه فى ذلك و هى أن هذه الأصـنام دام على عبادتها آباؤنا فهى سـنه قوميه لنا،و لا ضير فى الجرى على سنه قوميه ورثها الخلف من السلف،و نشأ عليها الجيل بعد الجيل فإنا نعبد آلهتنا و ندوم على ديننا و هو دين آبائنا و نحفظ رسما مليا عن الضيعه.

و ثالثا:أنهم إنما قالوا:« أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا »فذكروا الأموال مضافه إلى أنفسـهم ليكون فى ذلك إيماء إلى الحجه فإن الشىء إذا صار مالا لأحد لم يشك ذو ريب فى أن له أن يتصرف فيه و ليس لغيره ممن يعترف بماليته له أن يعارضه فى ذلك،و للمرء أن يسير فى مسير الحياه و يتدبر فى أمر المعيشه بما يستطيعه من الحذق و الاحتيال،و يهديه إليه الذكاء و الكياسه.

و رابعـا:أن قولهم:« أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ -إلى قوله- إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » مبنى على التهكم و الاسـتهزاء إلا أن التهكم فى تعليقهم أمر الصلاه شعيبا على تركهم ما يعبد آباؤهم،و كذا فى نسبه الأمر إلى الصلاه لا غير،و أما نسبه الحلم و الرشد إليه فليس فيها تهكم و استهزاء،و لذلك أكد قوله:« إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ »بإن و اللام و إتيان الخبر جمله اسميه ليكون أقوى فى إثبات الحلم و الرشـد له فيصـير أبلغ فى ملامته و الإنكار عليه،و أن الـذى لا شك فى حلمه و رشـده قبيـح عليه أن يقـدم على مثل هذا الأمر السفهى،و ينتهض على سلب حريه الناس و استقلالهم فى الشعور و الإراده.

و ظهر بـذلك أن مـا ذكره كثير منهم أنهم وصـفوه بـالحلم و الرشـد على سبيـل الاسـتهزاء يعنون به أنه موصوف بضـدهما و هو الجهاله و الغى.ليس بصواب.

قوله تعالی:« قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً »إلی آخر الآیه،المراد بکونه علی بینه من ربه کونه علی آیه بینه و هی آیه النبوه و المعجزه الداله علی صدق النبی فی دعوی النبوه،و المراد بکونه رزق من الله رزقا حسنا أن الله آتاه من لدنه وحی النبوه المشتمل علی أصول المعارف و الشرائع، و قد مر توضیح نظیر هاتین الکلمتین فیما تقدم.

و المعنی:أخبرونی إن کنت رسولا من الله إلیکم و خصنی بوحی المعارف و الشرائع و أیدنی بآیه بینه یدل علی صدق دعوای فهل أنا سفیه فی رأیی؟و هل ما أدعوکم إلیه دعوه سفهیه؟و هل فی ذلک تحکم منی علیکم أو سلب منی لحریتکم؟فإنما هو الله المالک لکل شیء و لستم بأحرار بالنسبه إلیه بل أنتم عباده یأمرکم بما شاء،و له الحکم و إلیه ترجعون.

و قوله:« وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ »تعدیه المخالفه بإلی لتضمینه معنی ما یتعدی بها کالمیل و نحوه؟و التقدیر:أخالفکم مائلا إلی ما أنهاکم عنه أو أمیل إلی ما أنهاکم عنه مخالفا لکم.

و الجمله جواب عن ما اتهموه به أنه یرید أن یسلب عنهم الحریه فی أعمالهم و یستعبدهم و یتحکم علیهم،و محصله أنه لو کان مریدا ذلک لخالفهم فیما ینهاهم عنه، و هو لا یرید مخالفتهم فلا یرید ما اتهموه به و إنما یرید الإصلاح ما استطاع.

توضیحه:أن الصنع الإلهی و إن أنشأ الإنسان مختارا فی فعله حرا فی عمله له أن یمیل فی مظان العمل إلی کل من جانبی الفعل و الترک فله بحسب هذه النشأه حریه تامه بالقیاس إلی بنی نوعه الذین هم أمثاله و أشباهه فی الخلقه لهم ما له و علیهم ما علیه فلیس لأحد أن یتحکم علی آخر عن هوی من نفسه.

إلا أنه أفطره علی الاجتماع فلا تتم له الحیاه إلا فی مجتمع من أفراد النوع یتعاون فیه الجمیع علی رفع حوائج الجمیع ثم یختص کل منهم بما له من نصیب بمقدار ما له من الزنه الاجتماعیه،و من البدیهی أن الاجتماع لا یقوم علی ساق إلا بسنن و قوانین تجری فیها،و حکومه یتولاها بعضهم تحفظ النظم و تجری القوانین کل ذلک علی حسب ما یدعو إلیه مصالح المجتمع.

فلا مناص من أن یفدی المجتمعون بعض حریتهم قبال القانون و السنه الجاریه

بالحرمان من الانطلاق و الاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشتهياتهم و إحياء البعض الباقی من حريتهم.

فالإنسان الاجتماعی لا حريه له قبال المسائل الحيويه التی تدعو إليه مصالح المجتمع و منافعه،و الذی يتحكمه الحكومه فی ذلك من الأمر و النهی ليس من الاستعباد و الاستكبار فی شیء إذ إنها إنما يتحكم فيما لا حريه للإنسان الاجتماعی فيه،و كذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع أو لا ينفع لإبطاله ركنا من أركان المصالح الأساسيه فيها فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتباع سبيل الرشد فأمرهم بما يجب عليهم العمل به و نهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكما عن هوى النفس مستعبدا للأحرار المجتمعين من بنی نوعه فإنه لا حريه لهم قبال المصالح العاليه و الأحكام اللازمه المراعاه فی مجتمعهم،و ليس ما يلقيه إليهم من الأمر و النهی فی هذا الباب أمرا أو نهيا له فی الحقيقه بل كان أمرا و نهيا ناشئين عن دعوه المصالح المذكوره قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعه،و إنما الواحد الذی يلقی إليهم الأمر و النهی بمنزله لسان ناطق لا يزيد على ذلك.

و أماره ذلك أن يأتمر هو نفسه بما يأمر به و ينتهی هو نفسه عما ينهی عنه من غير أن يخالف قوله فعله و نظره عمله،إذ الإنسان مطبوع على التحفظ على منافعه و رعايه مصالحه فلو كان فيما يدعو إليه غيره من العمل خير و هو مشترك بينهما لم يخالفه بشخصه،و لم يترك لنفسه ما يستحسنه لغيره،و لذلك قال(ع)فيما ألقاه إليهم من الجواب:« وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ إِلىٰ مٰا أَنْهٰاكُمْ عَنْهُ »و قال أيضا كما حكاه الله تتميما للفائده و دفعا لأی تهمه تتوجه إليه :«وَ مٰا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلىٰ رَبِّ الْعٰالَمِينَ:» الشعراء:-١٨٠.

فهو(ع)يشير بقوله:« وَ مٰا أُرِيدُ أَنْ أُخٰالِفَكُمْ »إلخ،إلى أن الذی ينهاهم عنه من الأمور التی فيها صلاح مجتمعهم الذی هو أحد أفراده،و يجب على الجميع مراعاتها و ملازمتها،و ليس اقتراحا استعباديا عن هوى من نفسه،و لذلك عقبه بقوله:« إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ ».

و ملخص المقام أنهم لما سمعوا من شعيب(ع)الدعوه إلى ترك عباده الأصنام

و التطفيف ردوه بأن ذلک اقتراح منه مخالف لما هم عليه من الحريه الإنسانيه التى تسوغ لهم أن يعبدوا من شاءوا و يفعلوا فى أموالهم ما شاءوا.

فرد عليهم شعيب(ع)بأن الذى يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه حتى ينافى مسألتهم ذلک حريتهم و يبطل به استقلالهم فى الشعور و الإراده بل هو رسول من ربهم إليهم و له على ذلک آيه بينه،و الذى أتاهم به من عند الله الذى يملكهم و يملک كل شىء و هم عباده لا حريه لهم قباله،و لا خيره لهم فيما يريده منهم.

على أن الذى ألقاه إليهم من الأمور التى فيها صلاح مجتمعهم و سعاده أنفسهم فى الدنيا و الآخره،و أماره ذلک أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه بل هو مثلهم فى العمل به،و إنما يريد الإصلاح ما استطاع،و لا يريد منهم على ذلک أجرا إن أجره إلا على رب العالمين.

و قوله:« وَ مَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ »فى مقام الاستثناء من الاستطاعه فإنه(ع)لما ذكر لهم أنه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح على مقدار ما له من الاستطاعه و فى ضوئها أثبت لنفسه استطاعه و قدره و ليست للعبد باستقلاله و حيال نفسه استطاعه دون الله سبحانه أتم ما فى كلامه من النقص و القصور بقوله:« وَ مَا تَوْفِيقِى إِلاّ بِاللّهِ »أى إن الذى يترشح من إرادتى باستطاعه منى من تدبير أمور مجتمعكم و توفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجه لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه و لا مخرج من إحاطته و لا استقلال فى أمر دونه فهو الذى أعطانى ما هو عندى من الاستطاعه،و هو الذى يوفق الأسباب من طريق استطاعتى فاستطاعتى منه و توفيقى به.

بين(ع)هذه الحقيقه،و اعترف بأن توفيقه بالله،و ذلک من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكل نفس و الحافظ عليها و القائم على كل نفس بما كسبت كما قال :

«الْحَمْدُ لِلّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ:» الفاطر:-١،و قال :«وَ رَبُّکَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ:» السبأ:-٢١،و قال :«أَ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ:» الرعد:- ٣٣،و قال :«إِنَّ اللّهَ يُمْسِکُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ:» الفاطر:-٤١ و محصله أنه تعالى هو الذى أبدع الأشياء و أعمالها و الروابط التى بينها و أظهرها بالوجود،

و هو الذی قبض علی کل شیء فأمسکه و أمسک آثاره و الروابط التی بینها أن تزول و تغیب وراء ستر البطلان.

و لازم ذلک أنه تعالی وکیل کل شیء فی تدبیر أموره فهی منسوبه إلیه تعالی فی تحققها و تحقق الروابط التی بینها لما أنه محیط بها قاهر علیها و لها مع ذلک نسبه إلی ذلک الشیء بإذنه تعالی.

و من الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقیقه أن یمثلها بإنشاء التوکل علی ربه و الإنابه و الرجوع إلیه،و لذلک لما ذکر شعیب(ع)أن توفیقه بالله عقبه بإنشاء التوکل و الإنابه فقال:« عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ ».

(کلام فی معنی حریه الإنسان فی عمله)

الإنسان بحسب الخلقه موجود ذو شعور و إراده له أن یختار لنفسه ما یشاء من الفعل و بعباره أخری له فی کل فعل یقف علیه أن یختار جانب الفعل و له أن یختار جانب الترک فکل فعل من الأفعال الممکنه الإتیان إذا عرض علیه کان هو بحسب الطبع واقفا بالنسبه إلیه علی نقطه یلتقی فیها طریقان:الفعل و الترک فهو مضطر فی التلبس و الاتصاف بأصل الاختیار لکنه مختار فی الأفعال المنتسبه إلیه الصادره عنه باختیاره أی إنه مطلق العنان بالنسبه إلی الفعل و الترک بحسب الفطره غیر مقید بشیء من الجانبین و لا مغلول،و هو المراد بحریه الإنسان تکوینا.

و لازم هذه الحریه التکوینیه حریه أخری تشریعیه یتقلد بها فی حیاته الاجتماعیه و هو أن له أن یختار لنفسه ما شاء من طرق الحیاه و یعمل بما شاء من العمل،و لیس لأحد من بنی نوعه أن یستعلی علیه فیستعبده و یتملک إرادته و عمله فیحمل بهوی نفسه علیه ما یکرهه علیه فإن أفراد النوع أمثال لکل منهم ما لغیره من الطبیعه الحره،قال تعالی :«وَ لاٰ یَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ:» آل عمران:- ۶۴ و قال :«مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ -Xإلی أن قالX- ثُمَّ یَقُولَ لِلنّٰاسِ کُونُوا عِبٰاداً لِی مِنْ دُونِ اللّٰهِ:» آل عمران:-۷۹.

هـذا مـا للإنسـان بالقياس إلى أمثاله من بنى نوعه،و إما بالقياس إلى العلل و الأسـباب الكونيه التى أوجـدت الطبيعه الإنسانيه فلا حريه له قبالهـا فإنهـا تملكه و تحيـط به من جميع الجهـات و تقلبه ظهرا لبطن،و هى التى بإنشائهـا و نفوذ أمرها فعلت بالإنسان ما فعلت فـأظهرته على مـا هو عليه من البنيـان و الخواص من غير أن يكون له الخيره من أمره فيقبل ما يحبه و يرد ما يكرهه بل كان كما أريـد لا كما أراد حتى إن أعمال الإنسان الاختياريه و هى ميدان الحريه الإنسانيه إنما تطيع الإنسان فيما أذنت فيه هذه العلل و الأسباب فليس كل ما أحبه الإنسان و أراده بواقع و لا هو فى كل ما اختاره لنفسه بموفق له،و هو ظاهر.

و هـذه العلـل و الأسـباب هى التى جهزت الإنسـان بجهازات تـذكره حوائجه و نواقص وجوده،و تبعثه إلى أعمال فيها سـعادته و ارتفاع نواقصه و حوائجه كالغاذيه مثلا التى تـذكره الجوع و العطش و تهـديه إلى الخبز و الماء لتحصـيل الشـبع و الرى و هكـذا سائر الجهازات التى فى وجوده.

ثم إن هذه العلل و الأسـباب أوجبت إيجابا تشريعيا على الإنسان الفرد أمورا ذات مصالح واقعيه لا يسعه إنكارها و لا الاستنكاف بالاستغناء عنها كالأكل و الشرب و الإيواء و الاتقاء من الحر و البرد و الدفاع تجاه كل ما يضاد منافع وجوده.

ثم أفطرته بالحيـاه الاجتماعيه فأذعن بوجوب تأسـيس المجتمع المنزلى و المـدنى و السـير فى مسـير التعاون و التعامل،و يضـطره ذلك إلى الحرمان عن موهبه الحريه من جهتين:

إحداهما أن الاجتماع لا يتم من الفرد إلا بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقا متقابله محترمه عنده ليعطوه بإزائها حقوقا يحترمونها و ذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له،و ينفعهم بمقـدار ما ينتفع بهم،و يحرم عن الانطلاق و الاسترسال فى العمل على حسـب مـا يحرمهم فليس له أن يفعـل مـا يشاء و يحكم ما يريـد بل هو حر فيما لا يزاحم حريه الآخرين،و هـذا حرمان عن بعض الحريه للحصول على بعضها.

و ثانيتهمـا:أن المجتمع لاـ يقوم له صـلب دون أن يجرى فيه سـنن و قوانين يتسـلمها الأـفراد المجتمعون أو أكثرهم تضـمن تلك السنن و القوانين منافعهم العامه بحسب

ما للاجتماع من الحياه الراقيه أو المنحطه الرديه،و يستحفظ بها مصالحهم العاليه الاجتماعيه.

و من المعلوم أن احترام السنن و القوانين يسلب الحريه عن المجتمعين فی مواردها فالذی يستن سنه أو يقنن قانونا سواء كان هو عامه المجتمعين أو المندوبين منهم أو السلطان أو كان هو الله و رسوله-علی حسب اختلاف السنن و القوانين-يحرم الناس بعض حريتهم ليحفظ به البعض الآخر منها، قال الله تعالی :«وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ يَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ:» القصص:-۶۸،و قال تعالی :«وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَی اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً:» الأحزاب:-۳۶.

فتلخص أن الإنسان إنما هو حر بالقياس إلی أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوی من أنفسهم،و أما بالنسبه إلی ما تقتضيه مصالحه الملزمه و خاصه المصالح الاجتماعيه العامه علی ما تهديه إليها و إلی مقتضياتها العلل و الأسباب فلا حريه له البته،و لا أن الدعوه إلی سنه أو أی عمل يوافق المصالح الإنسانيه من ناحيه القانون أو من بيده إجراؤه أو الناصح المتبرع الذی يأمر بمعروف أو ينهی عن منكر متمسكا بحجه بينه،من التحكم الباطل و سلب الحريه المشروعه فی شیء.

ثم إن العلل و الأسباب المذكوره و ما تهدی إليه من المصالح مصاديق لإراده الله سبحانه أو إذنه-علی ما يهدی إليه و يبينه تعليم التوحيد فی الإسلام-فهو سبحانه المالك علی الإطلاق،و ليس لغيره إلا المملوكيه من كل جهه،و لا للإنسان إلا العبوديه محضا فمالكيته المطلقه تسلب أی حريه متوهمه للإنسان بالنسبه إلی ربه كما أنها هی تعطيه الحريه بالقياس إلی سائر بنی نوعه كما قال تعالی :«أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ:» آل عمران:-۶۴.

فهو سبحانه الحاكم علی الإطلاق و المطاع من غير قيد و شرط كما قال:« إِنِ الْحُكْمُ إِلاّٰ لِلّٰهِ »و قد أعطی حق الأمر و النهی و الطاعه لرسله و لأولی الأمر و للمؤمنين من الأمه الإسلاميه فلا حريه لأحد قبال كلمه الحق التی يأتون به و يدعون إليه،قال تعالی :«أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْكُمْ:» النساء:-۵۹،و قال

تعالی :«وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ:» التوبه:-۷۱.

قوله تعالی:« وَ يٰا قَوْمِ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقٰاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ » الجرم بالفتح فالسکون-علی ما ذکره الراغب-قطع الثمره عن الشجر و قد أستعير لکل اکتساب مکروه،و الشقاق المخالفه و المعاداه.و المعنی:احذروا أن یکتسب لکم مخالفتی و معاداتی بسبب ما أدعوکم إلیه أصابه مصیبه مثل مصیبه قوم نوح و هی الغرق أو قوم هود و هی الریح العقیم أو قوم صالح و هی الصیحه و الرجفه.

و قوله:« وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ »أی لا فصل کثیرا بین زمانهم و زمانکم و قد کانت الفاصله الزمانیه بین القومین أقل من ثلاثه قرون،و قد کان لوط معاصرا لإبراهیم(ع)و شعیب معاصرا لموسی(ع).

و قیل:المراد به نفی البعد المکانی،و الإشاره إلی أن بلادهم الخربه قریبه منکم لقرب مدین من سدوم و هو بالأرض المقدسه، فالمعنی:و ما مکان قوم لوط منکم ببعید تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقیه الظاهره.و السیاق لا یساعد علیه و التقدیر خلاف الأصل لا یصار إلیه إلا بدلیل.

قوله تعالی:« وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ »قد تقدم الکلام فی معنی قوله:« وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ »أی استغفروا الله من ذنوبکم و ارجعوا إلیه بالإیمان به و برسوله إن الله ذو رحمه و موده یرحم المستغفرین التائبین و یحبهم.

و قد قال أولا:« اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ فأضاف الرب إلیهم ثم قال فی مقام تعلیله:« إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ »و لعل الوجه فیه أنه ذکر فی مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من الله سبحانه صفه ربوبیته لأنها الصفه التی ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه،و أضاف ربوبیته إلیهم بقوله:« رَبَّكُمْ »لتأکید الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما یتخذونها من الأرباب من دون الله.

و کان من حق الکلام أن یقول فی تعلیله:إن ربکم رحیم ودود لکنه لما کان مع کونه تعلیلا ثناء علی الله سبحانه،و قد أثبت سابقا أنه رب القوم إضافه ثانیا

إلى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى أن ربكم و ربى رحيم ودود.

على أن فى هذه الإضافه معنى المعرفه و الخبره فتفيد تأييدا لصحه القول فإنه فى معنى أنه تعالى رحيم ودود و كيف لا؟و هو ربى أعرفه بهذين الوصفين.

و الودود من أسماء الله تعالى،و هو فعول من الود بمعنى الحب إلا أن المستفاد من موارد استعماله أنه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذى له آثار و تبعات ظاهره كالألفه و المراوده و الإحسان،قال تعالى :«وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً:» الروم:-٢١.

و الله سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا:» إبراهيم:-٣۴ فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى:« قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ مٰا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّٰا تَقُولُ وَ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً » إلى آخر الآيه، الفقه أبلغ من الفهم و أقوى،و رهط الرجل عشيرته و قومه،و قيل:

إنه من الثلاثه إلى السبعه أو العشره و على هذا ففى قولهم:رهطك،إشاره إلى قلتهم و هوان أمرهم،و الرجم هو الرمى بالحجاره.

لما حاجهم شعيب(ع)و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجه فذكروا له:

أولا:أن كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له،و هذا كنايه عن أنه يتكلم بما لا فائده فيه.

ثم عقبوه بقولهم:« وَ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِينٰا ضَعِيفاً » أى لا نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه،و السمع و القبول له فإنا لا نراك فينا إلا ضعيفا لا يعبأ بأمره و لا يلتفت إلى قوله.

ثم هددوه بقولهم:« وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ »أى و لو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعى جانبهم فيك،و فى تقليل العشيره إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته،و إنما كفهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم:« وَ مٰا أَنْتَ عَلَيْنٰا بِعَزِيزٍ »تأكيدا لقولهم:« لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ »أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتل،

و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك.فمحصل قولهم إهانه شعيب و أنهم لا يعبئون به و لا بما قال،و إنما يراعون فى ترك التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى:« قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرٰاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » الظهرى نسبه إلى الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غير بالنسب و هو الشىء الذى وراء الظهر فيترك نسيا منسيا يقال:اتخذه وراءه ظهريا أى نسيه و لم يذكره و لم يعتن به.

و هذا نقض من شعيب لقولهم:« وَ لَوْ لاٰ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰاكَ »أى كيف تعززون رهطى و تحترمون جانبهم،و لا تعززون الله سبحانه و لا تحترمون جانبه و إنى أنا الذى أدعوكم إليه من جانبه؟فهل رهطى أعز عليكم من الله؟و قد جعلتموه نسيا منسيا و ليس لكم ذلك و ما كان لكم أن تفعلوه إن ربى بما تعملون محيط بما له من الإحاطه بكل شىء وجودا و علما و قدره.و فى الآيه طعن فى رأيهم بالسفه كما طعنوا فى الآيه السابقه فى رأيه بالهوان.

قوله تعالى:« وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ »إلى آخر الآيه.قال فى المجمع:، المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل.انتهى و هو فى الأصل.كما قيل-من مكن مكانه كضخم ضخامه إذا قوى على العمل كل القوه و يقال-تمكن من كذا أى أحاط به قوه.

و هذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بأنه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق و لا اضطراب من كفرهم به و تمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوه و التمكن فلهم عملهم و له عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذى يأخذه العذاب.هم أو هو؟و يعلمون من هو كاذب؟فليرتقبوا و هو معهم رقيب لا يفارقهم.

قوله تعالى:« وَ لَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّيْنٰا شُعَيْباً -إلى قوله- جٰاثِمِينَ »تقدم ما يتضح به معنى الآيه.

قوله تعالى:« كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ » غنى فى المكان إذا أقام فيه.و قوله:« أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ »إلخ.فيه لعنهم كما لعنت ثمود، و قد تقدم بعض الكلام فيه فى القصص السابقه.

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،قال":قال: بعث الله شعیبا إلی مدین-و هی قریه علی طریق الشام فلم یؤمنوا به.

و فی تفسیر العیاشی،عن أحمد بن محمد بن عیسی عن بعض أصحابه عن أبی عبد الله(ع): فی قول الله:« إِنِّی أَرٰاکُمْ بِخَیْرٍ »قال:کان سعرهم رخیصا.

و فیه،عن محمد بن الفضیل عن الرضا(ع)قال: سألته عن انتظار الفرج فقال:

أ و لیس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج؟ثم قال:إن الله تبارک و تعالی یقول:

« وَ ارْتَقِبُوا إِنِّی مَعَکُمْ رَقِیبٌ ».

أقول:قوله:لیس تعلم بمعنی لا تعلم و هی لغه مولده.

و فی المعانی،بإسناده عن عبد الله بن الفضل الهاشمی عن أبی عبد الله(ع) قال: قلت:فقوله عز و جل:« وَ مٰا تَوْفِیقِی إِلاّٰ بِاللّٰهِ »و قوله عز و جل:« إِنْ یَنْصُرْکُمُ اللّٰهُ فَلاٰ غٰالِبَ لَکُمْ -وَ إِنْ یَخْذُلْکُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِی یَنْصُرُکُمْ مِنْ بَعْدِهِ »؟فقال:إذا فعل العبد ما أمر الله عز و جل به من الطاعه-کان فعله وفقا لأمر الله عز و جل و سمی العبد موفقا،و إذا أراد العبد أن یدخل فی شیء من معاصی الله-فحال الله تبارک و تعالی بینه و بین تلک المعصیه فترکها-کان ترکه لها بتوفیق الله تعالی،و متی خلی بینه و بین المعصیه فلم یحل بینه و بینها-حتی یترکها فقد خذله و لم ینصره و لم یوفقه.

أقول:محصل بیانه(ع)أن توفیقه تعالی و خذلانه من صفاته الفعلیه فالتوفیق هو نظمه الأسباب بحیث تؤدی العبد إلی العمل الصالح أو عدم إیجاده بعض الأسباب التی یستعان بها علی المعصیه.و الخذلان خلاف ذلک.و علی ذلک فمتعلق التوفیق الأسباب لأنه إیجاد التوافق بینها و هی المتصفه بها،و أما توصیف العبد به فمن قبیل الوصف بحال المتعلق.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی الحلیه عن علی قال: قلت:یا رسول الله أوصنی.قال:قل:ربی الله ثم استقم.قلت:ربی الله و ما توفیقی إلا بالله-علیه توکلت و إلیه أنیب.قال:لیهنئک العلم أبا الحسن-لقد شربت العلم شربا و نهلته نهلا.

أقول:و قد تقدمت الإشاره إلی نبذه من معنی الجمله.

و فیه،أخرج الواحدی و ابن عساکر عن شداد بن أوس قال:قال رسول الله

ص: بکی شعیب(ع)من حب الله حتی عمی-فرد الله علیه بصره،و أوحی الله إلیه:یا شعیب ما هذا البکاء؟أ شوقا إلی الجنه أم خوفا من النار؟فقال:لا و لکن اعتقدت حبک بقلبی،فإذا نظرت إلیک فما أبالی ما الذی تصنع بی؟فأوحی الله إلیه:یا شعیب إن یکن ذلک حقا-فهنیئا لک لقائی،یا شعیب لذلک أخدمتک موسی بن عمران کلیمی.

أقول:المراد بالنظر إلیه تعالی هو النظر القلبی دون النظر الحسی المستلزم للجسمیه،تعالی عن ذلک،و قد تقدم توضیحه فی تفسیر قوله تعالی :«وَ لَمّا جاءَ مُوسی لِمِیقاتِنا:» الأعراف:-۱۴۳ فی الجزء الثامن من الکتاب.

و فیه،أخرج أبو الشیخ عن علی بن أبی طالب رضی الله عنه، أنه خطب فتلا هذه الآیه فی شعیب:« وَ إِنّا لَنَراکَ فِینا ضَعِیفاً »قال:کان مکفوفا فنسبوه إلی الضعف.« وَ لَوْ لا رَهْطُکَ لَرَجَمْناکَ »قال علی:فوالله الذی لا إله غیره ما هابوا جلال ربهم-ما هابوا إلا العشیره.

(کلام فی قصه شعیب و قومه فی القرآن فی فصول)

۱- [قصته علیه السلام]

هو(ع)ثالث الرسل من العرب الذین ذکرت أسماؤهم فی القرآن و هم هود و صالح و شعیب و محمد(ع)ذکر الله تعالی طرفا من قصصه فی سور الأعراف و هود و الشعراء و القصص و العنکبوت.

کان(ع)من أهل مدین-مدینه فی طریق الشام من الجزیره-و کان معاصرا لموسی(ع)،و قد زوجه إحدی ابنتیه علی أن یأجره ثمانی حجج و إن أتم عشرا فمن عنده(القصص:۲۷)فخدمه موسی عشر سنین ثم ودعه و سار بأهله إلی مصر.

و کان قومه من أهل مدین یعبدون الأصنام و کانوا قوما منعمین بالأمن و الرفاهیه و الخصب و رخص الأسعار فشاع الفساد بینهم و التطفیف بنقص المکیال و المیزان (هود:۸۴ و غیرها)فأرسل الله إلیهم شعیبا و أمره أن ینهاهم عن عباده الأصنام و عن الفساد فی الأرض و نقص المکیال و المیزان فدعاهم إلی ما أمر به و وعظهم بالإنذار و التبشیر و ذکرهم ما أصاب قوم نوح و قوم هود و قوم صالح و قوم لوط.

و بالغ(ع)فی الاحتجاج علیهم و عظتهم فلم یزدهم إلا طغیانا و کفرا و فسوقا (الأعراف و هود و غیرهما من السور)و لم یؤمنوا به إلا عده قلیله منهم فأخذوا فی إیذائهم و السخریه بهم و تهدیدهم عن اتباع شعیب(ع)،و کانوا یقعدون بکل صراط یوعدون و یصدون عن سبیل الله من آمن به و یبغونها عوجا(الأعراف:۸۶).

و أخذوا یرمونه(ع)بأنه مسحور و أنه کاذب(الشعراء:۱۸۶،۱۸۵) و أخافوه بالرجم، و هددوه و الذین آمنوا به بالإخراج من قریتهم أو لیعودن فی ملتهم(الأعراف:۸۸)و لم یزالوا به حتی أیأسوه من إیمانهم فترکهم و أنفسهم (هود:۹۳)و دعا الله بالفتح قال:ربنا افتح بیننا و بین قومنا بالحق و أنت خیر الفاتحین.

فأرسل الله إلیهم عذاب یوم الظله(الشعراء:۱۸۹)و قد کانوا یستهزءون به أن أسقط علینا کسفا من السماء إن کنت من الصادقین و أخذتهم الصیحه(هود:

۹۴)و الرجفه(الأعراف:۹۱-العنکبوت:۳۷)فأصبحوا فی دیارهم جاثمین و نجی شعیبا و من معه من المؤمنین(هود:۹۴) فَتَوَلّٰی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَکُمْ فَکَیْفَ آسیٰ عَلیٰ قَوْمٍ کٰافِرِینَ :الأعراف:-۹۳.

۲-شخصیته المعنویه

،کان(ع)من زمره الرسل المکرمین و قد أشرکه الله تعالی فیما أثناهم به من الثناء الجمیل فی کتابه،و قد حکی عنه فیما کلم به قومه و خاصه فی سور الأعراف و هود و الشعراء شیئا کثیرا من حقائق المعارف و العلوم الإلهیه و الأدب البارع مع ربه و مع الناس.

و قد سمی نفسه الرسول الأمین(الشعراء:۱۷۸)و مصلحا(هود:۸۸) و أنه من الصالحین(الشعراء:۲۷) فحکی الله ذلک عنه حکایه إمضاء،و قد خدمه الکلیم موسی بن عمران(ع)زهاء عشر سنین سلام الله علیه.

۳-ذکره فی التوراه

،لم تقص التوراه قصته مع قومه و إنما أشارت إلیه فی ضمن ما ذکرت قصه قتل موسی القبطی و فراره من مصر إلی مدیان(القصه) فسمته«رعوئیل کاهن مدیان». (۱)

۱- ۱) الإصحاح الثانی من سفر الخروج من التوراه.

[سوره هود (۱۱): الآيات ۹۶ الى ۹۹]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ اَلنّارَ وَ بِئْسَ اَلْوِرْدُ اَلْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَهً وَ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ بِئْسَ اَلرِّفْدُ اَلْمَرْفُودُ (۹۹)

(بيان)

إشاره إلى قصه موسى-الكليم-(ع)،و هو أكثر الأنبياء ذكرا فى القرآن ذكر باسمه فى مائه و نيف و ثلاثين موضعا منه فى بضع و ثلاثين سوره و قد اعتنى بتفصيل قصته أكثر من غيره غير أنه تعالى أجمل القول فيها فى هذه السوره فاكتفى بالإشاره الإجماليه إليها.

قوله تعالى:« وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ »الباء فى قوله بِآياتِنا للمصاحبه أى و لقد أرسلنا موسى مصحوبا لآياتنا و ذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء و الرسل و أيدهم بالآيات المعجزه طائفتان منهم من أوتى الآيه المعجزه على حسب ما اقترحه قومه كصالح(ع)المؤيد بآيه الناقه،و طائفه أيدوا بآيه من الآيات فى بدء بعثتهم كموسى و عيسى و محمد(ع)،كما قال تعالى خطابا لموسى(ع) :

«اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي:» طه:-۴۲،و قال فى عيسى(ع) :«وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ» Xالخ X:،آل عمران:-۴۹،و قال فى محمد ص «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ:» الصف:-۹،و الهدى القرآن بدليل قوله :

«ذٰلِكَ الْكِتابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ:» البقره:-۲،و قال تعالى :«وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ:» الأعراف:-۱۵۷.

ص: ۳۷۹

فموسی(ع)مرسل مع آیات و سلطان مبین،و ظاهر أن المراد بهذه الآیات الأمور الخارقه التی کانت تجری علی یده،و یدل علی ذلک سیاق قصصه(ع)فی القرآن الکریم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحجه القاطعه التی یتسلط علی العقول و الأفهام فیعم الآیه المعجزه و الحجه العقلیه،و علی تقدیر کونه بهذا المعنی یکون عطفه علی الآیات من قبیل عطف العام علی الخاص.

و لیس من البعید أن یکون المراد بإرساله بسلطان مبین أن الله سبحانه سلطه علی الأوضاع الجاریه بینه و بین آل فرعون ذاک الجبار الطاغی الذی ما ابتلی بمثله أحد من الرسل غیر موسی(ع)لکن الله تعالی أظهر موسی علیه حتی أغرقه و جنوده و نجی بنی إسرائیل بیده،و یشعر بهذا المعنی قوله :«قٰالاٰ رَبَّنٰا إِنَّنٰا نَخٰافُ أَنْ یَفْرُطَ عَلَیْنٰا أَوْ أَنْ یَطْغیٰ قٰالَ لاٰ تَخٰافٰا إِنَّنِی مَعَکُمٰا أَسْمَعُ وَ أَریٰ:» طه:-۴۶، و قوله لموسی(ع) :«لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلیٰ:» طه:-۶۸.

و فی هذه الآیه و نظائرها دلاله واضحه علی أن رساله موسی(ع)ما کانت تختص بقومه من بنی إسرائیل بل کانت تعمهم و غیرهم.

قوله تعالی:« إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِیدٍ » نسبه رسالته إلی فرعون و ملئه-و الملأ هم أشراف القوم و عظماؤهم الذین یملئون القلوب هیبه-دون جمیع قومه لعلها للإشاره إلی أن عامتهم لم یکونوا إلا أتباعا لا رأی لهم إلا ما رآه لهم عظماؤهم.

و قوله:« فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ »إلخ،الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعم من القول و الفعل کما حکی الله عن فرعون فی قوله :«قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِیکُمْ إِلاّٰ مٰا أَریٰ وَ مٰا أَهْدِیکُمْ إِلاّٰ سَبِیلَ الرَّشٰادِ:» المؤمن:-۲۹،فینطبق علی السنه و الطریقه التی کان یتخذها و یأمر بها.و کان الآیه محاذاه لقول فرعون هذا فکذبه الله تعالی بقوله:« وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِیدٍ ».

و الرشید فعیل من الرشد خلاف الغی أی و ما أمر فرعون بذی رشد حتی یهدی إلی الحق بل کان ذا غی و جهاله،و قیل:الرشید بمعنی المرشد.

و فی الجمله أعنی قوله:« وَ مٰا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ »وضع الظاهر موضع المضمر و الأصل«أمره»و لعل الفائده فيه ما يفيده اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلک من الضمير البته.

قوله تعالى:« يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » أی يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمه الضلال،قال تعالى :

«وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً يَدْعُونَ إِلَى النّٰارِ:» القصص:-۴۱.

و قوله:« فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ »تفريع على سابقه أی يقدمهم فيوردهم النار، و التعبير بلفظ الماضی لتحقق الوقوع،و ربما قيل:تفريع على قوله:« فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ »أی اتبعوه فأوردهم الاتباع النار، و قد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله :

«وَ حٰاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذٰابِ النّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذٰابِ:» المؤمن:-۴۶ حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامه هذا،و لا يخفى أن الآيات ظاهره فی خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها فی العذاب قبل يوم القيامه بالعرض غدوا و عشيا،و فی يوم القيامه بالدخول فی أشد العذاب الذی سجل فيها أنه النار.

و قوله:« وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » الورد هو الماء الذی يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشرب،قال الراغب فی المفردات،: الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فی غيره يقال:وردت الماء أرد ورودا فأنا وارد و الماء مورود.و قد أوردت الإبل الماء قال:« وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْيَنَ »و الورد الماء المرشح للورود.انتهى.

و على هذا ففی الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التی يقصدها الإنسان فی الحياه لمساعيه المبذوله بالماء الذی يقصده العطشان فعذب السعاده التی يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده،و سعاده الإنسان الأخيره هی رضوان الله و الجنه لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقيه تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هو الورد الذی يردونه،و بئس الورد المورود لأن الورد،هو الذی يخمد لهيب الصدر و يروی الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل إلى عذاب النار فبئس الورد المورود.

قوله تعالى:« وَ أَتْبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ »أى هم اتبعوا أمر فرعون فأتبعتهم لعنه من الله فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه،و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق،أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخره.

و قوله:« وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ » الرفد هو العطيه و الأصل فى معناه العون،و سميت العطيه رفدا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه و المعنى و بئس الرفد رفدهم يوم القيامه و هو النار التى يسجرون فيها،و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر :وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ:» القصص:-۴۲.

و ربما أخذ:« يَوْمَ الْقِيامَةِ »ظرفا فالآيه متعلقا بقوله:« أُتْبِعُوا »أو بقوله:

« لَعْنَةً »نظير قوله:« فِي هٰذِهِ »،و المعنى:و أتبعهم الله فى الدنيا و الآخره لعنه أو فأتبعهم الله لعنه الدنيا و الآخره ثم استؤنف فقيل:بئس الرفد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الإتباع باللعن.

تم و الحمد الله.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلی التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلی أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب علی تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزى
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥
هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١
قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.



مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹